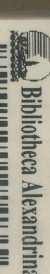
الخطابة وإعداد الخطيب

تأليف
عبد الجليل شلبي
جامعة قطر





الخطابة وإعداد الخطيب

الخطابة وإعداد الخطيب

الأستاذ الدكتور

عبد الجليل عبده شلبي

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية "سابقًا"



الطبعة الثانية
١٩٨٢ م — ١٤٠٢ هـ

شارع السور — عمارة السور — بجوار وزارة الخارجية
ص. ب ٢٠١٤٦ هاتف ٤٢٥١٦٠

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

من أدب القــرآن الكريم

- الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان .
- اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .
- أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين .
- ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .
- آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد .
- قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .
- تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .
- وأخى هرون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون .

من أدب النبوّة

* أوتيت جوامع الكلم .
* أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش .
* إن من البيان لسحرا .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه .

وبعد ... فهذه بحوث فى قواعد الخطابة وأصولها ، ونماذج مختلفة فيها ، وأطراف من تاريخها وتطورها ، كتبتها لطلاب الدعوة الإسلامية ودعاة المسلمين ، وقدمت فيها ما يمكن أن يكون مدداً لهم فى مواقفهم الخطابية المختلفة ، وما يمكن أن يوجههم إلى المزيد من قراءة التاريخ الإسلامى ، ويفتح أذهانهم على التفكير فى أحداثه ، ويدفعهم إلى الاستكثار من معلوماتهم الأدبية عن حياة المسلمين الأوائل ، وخصوصاً عن حياة الزهاد والعباد ، وما كان لهم من مواقف مشكورة صلبة أمام الحكام ملوكاً كانوا أم ولاة أم تابعين .

وقد كان من حسنات الجامعة الأزهرية أن أنشأت كليات للدعوة الإسلامية يتخصص أبناؤها لدرس التاريخ الإسلامى ، ودرس أصول الدين الإسلامى وجوانب من تشريعه ونظمه ، ثم يدربون على تبليغ هذه الرسالة بطرق التبليغ المختلفة ، وكان فى كليات أصول الدين فرع أيضاً للدعوة الإسلامية يدرس مثل هذه الدراسة بطريقة موجزة نظراً لمشاركة المواد الأخرى مواد الدعوة فى الزمن المقرر لها ، وقد اقتضى تطور الدراسة والعناية بهذه الأقسام ، أن يخصص المنهج زمناً معيناً لدرس الخطابة والتدرب عليها ،

لأنها المادة التى يعتمد عليها الداعية فى بلاغ دعوته . وأسندت إلى كلية أصول الدين بالمنصورة أن أقوم بتدريس هذه المادة ، فوضعت هذه المذكرات عسى أن يجد الطلاب فيها ما يساعدهم على القيام بهذه المهمة الشاقة .

مكانة الداعية ومقدرته

رأيت فى كثير من المواقف وكثير من البلدان — وخصوصاً فى صعيد مصر وفى السودان — أن الواعظ مرجع للناس فى مختلف شئونهم . ففى مجالس الصلح بين القبائل المتعادية المتقاتلة ، وفى حفلات الإملاك الكبيرة ، وفى المناسبات العامة ، وفى المجتمعات الكبرى ، يدعى الواعظ ليسمع الناس منه حديثاً مناسباً ، وبعض الوعاظ بسبب إجادته الخطابة ، وحسن ملاءمته بين خطبته والموقف الذى تلق فيه ، يكبر فى أنظار الناس وينال مكانة يقدمونه بها على حكامهم ، بل ويضطر الحاكم للحصول على رضا الناس عنه وطاعتهم إياه فى رضى وإنابة ، أن يستعين بالواعظ ، وإذا قدم على جمع أو دخل سرادقاً كبيراً قدم الواعظ أمامه ومشى هو خلفه ، وبهذا يكبر الحاكم أيضاً فى نفوس محكوميه . ورأيت وعاظا وأئمة مساجد ودعاة للإسلام يتبوأون من قلوب الناس مكانة عظيمة لا يزاحمهم فيها الحكام ذووالقوة ولا الأقارب الأدنون ذوو الوشائج القوية والصلات العاطفية ، ومرجع ذلك كله إلى إجادة هؤلاء الدعاة خطبهم ومقدرتهم على التأثير فى نفوس سامعيهم .

وأذكر مع الأسف أنى شاهدت آخرين عاشوا وماتوا ولم يكونوا شيئاً مذكوراً ، لا فى خطابتهم ولا فى مكانتهم ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه سبحانه له فى خلقه شئون .

ما ينجح به الخطيب

كنت ألاحظ دائماً — وذلك أمر لا يحتاج إلى ملاحظة عميقة — أن نجاح الخطيب وفشله يرجع إلى أمرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها ، وحسن إلقائه أو ضعفه ، فالخطيب المطلع الذى يمد الجمهور بمعلومات جديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفها السامعون . والذى يلق

خطبته بطريقة فنية ، معبرة موحية ، غير الذى يسرد المعلومات سرداً .
لهذا عنيت فى هذا الحديث أن أمد الواعظ أو الخطيب بقدر من المعلومات الأساسية العامة ، وأرشده إلى ما ينبغى أن يعمله لتظل معلوماته حية متجددة ، كما عنيت بشرح طريقة إلقاء الخطبة ، وكيف تكون ذات وقع فى نفوس سامعيها ، رأكثر من هذا أنى أرشدت إلى طريق تأليف الخطبة وما ينبغى أن يتجنبه الخطيب من عبارات واتجاهات ، وما ينبغى أن يسلكه فى تفكيره وتعبيره مما يخلصه من المآزق التى تواجهه وينجيه من نقد الناقدين ، وفى كل ذلك ذكرت الأمثلة العديدة من خطب منشأة أو منقولة ، ثم عرضت جانباً من تاريخ الخطابة فى الأدب اليونانى والرومانى والعربى ، ووقفت وقفة أطول لدى العصر الأموى ، ولكنى لم أغفل العصور الأخرى ، ذلك أن خطب العصر الأموى أغزر وأقوى ، وليس الغرض من الكتاب هو تاريخ الأدب الخطابى ، وإنما الغرض الأساسى هو إمداد الخطيب بما يتدرب به ويزيد معلوماته .

وفى الحديث عن الأحزاب السياسية فى صدر الإسلام قدمت عن كل حزب نبذة تاريخية يتضح بها منهج خطبائه وخطبه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع بعملى هذا ، وأن يتقبله بقبول حسن منه وأن يمنحنى من فضله ورحمته بعض ثواب منه ورضاً ومغفرة ، وهو سبحانه ولي وحسبي ، عليه توكلت وإليه أنيب .

ما هى الخطابة

تعريف الخطبة

عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض كثيراً ، ولكن منها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطابة وجزئياتها ، ومنها ما ليس مانعاً من دخول أشياء أخرى معها مثل الوصايا والدروس والإعلانات وهكذا . وأوضح وأدق ما عرفت به الخطابة أنها هى : « فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة » .

هذا التعريف — كما ترى — يقوم على عناصر معينة هى :

قيود هامة

١ — أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس ، فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين ، فإنه عادة لا يحتاج إلى لهجة خطابية ، ويكفيه أن يشرح المعنى أو الفكرة التى يريدها فى صوت هادئ وطريقة مألوفة فى كل الأحاديث ، فهذا ليس خطبة .

٢ — أن يكون بطريقة إلقائية . وهذا يعنى جهارة الصوت وتكييفه باختلاف نبراته وتجسيم المعانى التى تتضمنها الخطبة ، وإبداء التأثر بها . ومن مكملات هذه الطريقة أن تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد ، كما يبدى الخطيب انفعالاته بما يقول . فكل ذلك يثير السامعين ويوجه عواطفهم نحوه ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه .

٣ — أن يكون الحديث مقنعاً بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التى يدعو إليها الحديث ، فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأى ، وهى تكون فاشلة لأنها لا تؤدى إلى الغرض الذى قيلت من أجله . والخطيب الناجح يشرح الأدلة التى يسوقها

شرحاً وافياً يكثر فيه المترادفات ويعيد بعض الجمل ويلح على تركيز معان خاصة وجزئيات وأمثلة توضح الفكرة وتثبتها فى أذهان سامعيه .

٤ – أن يتوافر فى الخطبة عنصر الاستمالة– وهذا يعنى توجيه عواطف السامعين واستجابتهم للرأى الذى تدعو إليه الخطبة ، لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما ، ولكن لا يعنيه أن ينفذها أو أن تتحقق من غيره فلا يسعى لتحقيقها ، هذا العنصر من أهم عناصر الخطبة لأنه هو الذى يحقق الغرض المطلوب منها ، فاللصوص والوشاة والنمامون وفاقدو الأمانة فى أعمالهم وغيرهم من منحرفى السلوك يدركون فساد أعمالهم وسوءها ولكنهم مع ذلك يمارسونها ، بل أكثر من ذلك – وهذا يرجع لأسباب نفسية – أن الشخص الكذاب قد يشرح أضرار الكذب وسوء نتيجته بأكثر مما يتحدث الواعظ والمربى ، وكذلك يتحدث اللصوص عن أضرار السرقات ، والمهملون عن أضرار الإهمال . . . وهكذا . وكل ذلك يوضح أن الإقناع وحده لا يكفى لنجاح الخطبة ، بل لابد من جذب السامعين لإشباع الفكرة ، واستمالة عواطفهم نحوها ، حتى يتبع اقتناعهم عمل بما اقتنعوا به . والإلقاء ذو أثر كبير فى استمالة السامعين .

فمن الخطباء من يكون فاتر الإلقاء ضعيف التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء ، ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شىء منها بقدر طاقته .

أثر الاستمالة

قد يدعو خطيب ما أبناء قريته إلى إنشاء مدرسة لتعليم ناشئيهم ، فيبين لهم مزايا هذه المدرسة وما يعود على أبنائهم من فوائدها فيسمعونه ويشكرونه ثم لا يعملون أى شىء لإنشائها ، لا يطالبون أولى الأمر بها ، ولا يتبرعون لها فتموت الفكرة مع اقتناعهم جميعاً بفوائدها ، وربما تحدث آخر فى الموضوع نفسه فإذا الناس مندفعون لتحقيق دعوته ، هذا يكتب طلباً لبناء

المدرسة ، وهذا يبحث عن أرض صالحة لها ، وهذا يبدأ قائمة التبرع لها وهكذا ، وإذن فقد نجحت الخطبة وآتت ثمرتها . ولا يرجع نجاحها إلى الإقناع بل إلى الاستمالة .

قد يكون هناك موضوع لا يدخله عنصر الاستمالة أصلا . فإذا وقف متحدث فى جمهور يشرح نظرية علمية ، مثل تكوين الطيف من ألوان سبعة ، أو كيفية حدوث التمثيل الكلوروفيللى فى النبات ، أو كيف يصرع التيار الكهربى ، أو ما أشبه ذلك من النظريات . . فليس فى حديثه ما يحتاج إلى استمالة وإن كان مشتملا على إقناع واضح وحسن استدلال ، فهذا غير داخل فى تعريف الخطبة ، وعمل المدرسين من هذا النوع ، يأتون بحقائق مجهولة لتلاميذهم فيلفتون أذهانهم نحوها ويقيمون الأدلة على صحتها ولكن عملهم ليس داخلا فى إطار الخطابة ولا يشمله تعريفها .

وبالعكس من ذلك أعمال القصاص ، يروى الواحد منهم أحاديث نادرة لأشخاص حقيقيين أو وهميين ، فيصور بها حسن العاقبة لأعمال الخير ، وسوء المصير لأعمال الشر . وينفعل السامعون بهذا النوع من الوعظ ويتأثر به سلوكهم ، ولكن هذا العمل لا يسمى خطبة أيضاً من ناحية لأنه ينقصه عامل الإقناع الكلامى . وإن كان مقنعاً بما فيه من أحداث ، ومن ناحية أخرى أنه ليس إلقاء خطابياً ، بل هو حديث وعظات .

ومن ذلك أيضاً الوصايا الطويلة والحكم القصيرة التى يقدمها الحكماء والمجربون لأبنائهم ، وأصحابهم ، وكتب الأدب العربى تحفل بهذا النوع من الكلام . هذه لا تسمى خطبة لأنها تفقد كل أو معظم أركان الخطبة ، ولكن دارسى الخطابة يذكرون الوصايا والمحاورات والأجوبة . . تبعاً للخطابة ، لأنها شىء مكمل لها وإن لم تستوف أركان الخطبة ولا ينطبق عليها تعريفها .

الخطابة بين فنون الأدب

ليست نثراً فنياً

الخطابة نوع من النثر ، وبهذا التعريف الذى سبق تختلف عن الكتابة وعن النثر الفنى . إذ لا شرط هناك لوجود الإقناع أو الاستمالة ، وقد تكون الكتابة وصفاً لمنظر ما ، أو صفة لحالة نفسية للكاتب ، أو حديثاً عن شيء رآه فلا يشملها تعريف الخطبة . ولكن الخطابة قد تحتوى عبارات كثيرة من النثر الفنى فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق ، وقد يرفع هذا قيمة الخطبة ويجعلها أشد تأثيراً ، لكن الخطبة فى جملتها ليست نثراً فنياً يقوم على تجويد العبارات والتأنق فى الأساليب ، وغالباً لا يتفق هذا مع الإقناع والاستمالة .

الفرق بينها وبين الشعر

والخطبة تختلف عن الشعر ، لا يرجع هذا الاختلاف إلى أن الشعر موزون مقفى والخطبة ليست كذلك فقط ، بل يرجع فوق هذا وأهم منه ، إلى أن الخطبة تتناول المسائل الجادة الواقعية ، وتقوم على الحقائق الملموسة . بينما يقوم الشعر أساساً على الخيال والعاطفة ، فإذا تناول أمراً واقعياً تناوله من جانب العاطفة أيضاً ، ولهذا قد يحلى الخطيب خطبته بشيء من الشعر لإثارة سامعيه وإيقاظ عواطفهم ، كما قد يستعمل أسلوباً شعرياً يقوم أيضاً على الخيال والعاطفة ، ولكن قوام الخطبة وكيانها يقوم على الإقناع والاستمالة .

هب أن خطيباً وشاعراً قاما يرثيان عظيماً من الناس ماذا يقول كل منهما ؟ .

مثال لهما

— أما الشاعر فإنه يعمد إلى استجاشة عواطف الناس بأسلوب تشيع فيه الرقة الموسيقية ، ويعرض صوراً من حياته ومواقفه المشرقة ، وما له من ميزات وفضائل ،ولكن كلامه فى هذا أدنى إلى الإشارة والتلميح ، كأنه مجرد تذكرة للناس ، وربما انتقده فى رأى أو أبدى معارضته فيه ، وذلك أيضاً يكون على سبيل العرض السريع الموجز ولابد فى كل ذلك من الجوانب

الخيالية التى تثير عاطفة السامعين ، وتشعرهم بقدر الميت ومكانته على الرغم مما يذكر من نقده ومخالفته فى بعض الآراء والمواقف .

وأما الخطيب فهو بين حالتين . قد يذكر شيئاً من تاريخ الفقيد وتكوينه العلمى أو السياسى ، وميوله وطباعه ، ثم ينتهى إلى آثاره ومزاياه ، وما خسر الناس بموته من انقطاع أعماله وآثاره ، وفى هذه الحالة يسمى كلامه تأبيناً وليس خطبة ، لأنه مجرد سرد أخبار وتاريخ ، وليس ثمت إقناع ولا استمالة لمبدأ ما . فهو خارج عن نطاق الخطابة وتسميته خطبة عمل مجازى ، وقد يضيف إلى ما سبق أن المبادئ التى كان يعمل لها ذات أهمية فى حياة قومه وأنهم لابد أن يتابعوها ويعملوا على بقائها فيكون حديثه خطبة لأنها حينئذ اشتملت على الإقناع بإحياء مبادئه والاستمالة لمتابعتها .

وسنوضح هذا أكثر عند ذكر الأسلوب الخطابى ولكنا نقدم من الأمثلة ما يزيد الأمر وضوحاً .

تمثيل للفرق بين منهج الخطيب ومنهج الشاعر

لما مات الإمام الشيخ محمد عبده كان الذين يريدون تأبينه ورثاءه كثيرين جداً ، ولكن اللجنة المختصة اختارت أربعة من أصدقائه يتحدث كل واحد منهم عن جانب من جوانب حياته ، واختارت حفنى ناصف وحافظ إبراهيم تلميذه وصديقه ليلقى كل منهما مرثية شعرية .

كان قاسم أمين أحد الأربعة المتحدثين وقد اختار أو اختير له أن يتحدث عن أخلاق الشيخ وفضائله وإمامته . وجاء فى كلمته :

« ... إن كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح ، والكمال المطلق لا يوجد فى هذا العالم ، ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها . فتنمو زهرة الجمال فيها نمواً عجيباً ، وتتكاثر

فروعها وتمتد طولا وعرضاً ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها ...

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس إمامنا العزيز ، نفس خلقت على أحسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صار مثلا فى الجمال يجب أن نضعه دائماً أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد فى العمل عند رجل اقترب من سن الستين ... ونتعلم منها أيضاً مبلغ ارتقاء الخلق فى إنسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها إلى أقصى ما تصل إليه نفس بشرية من الجمال والكمال .

كان للإمام الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون ، وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه فيقتصروا على التمسك بما وجدوا عليه آباءهم من قبل ، وعلى جانب هذا الجيش يحرض على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون إذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم إلا إذا أنزلوه من مكانه ووضعوه فى مستوى واحد معهم ، وفى مقدمة هذا الجيش – كقواد له – أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتى الرياح .

إنه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الإصلاح الذى وضع الإمام أساسه ونحافظ عليه وندافع عنه إن أمكننا حتى نتركه إلى ذريتنا كميراث تنتفع منه وتزيد عليه ثم تتركه إلى من يأتى بعدها ، وهكذا ينمو الإصلاح فينا كلما مرت الأيام والأجيال كما هو الحال عند الأمم الحية » .

* * *

هذه الخطبة طويلة تزيد على خمس صفحات ، وهى تعتبر خطبة لأنها اتخذت من سيرة الإمام وأعماله وسيلة لمبادئ دعت إليها وبرهنت على ضرورتها . أى أنها اشتملت على عنصرى الإقناع والاستمالة .

واشترك حافظ إبراهيم مع قاسم أمين فى بعض العناصر التى تكونت منها خطبته ، ومن قصيدة حافظ :

تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك فى الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغمزات
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه ... وبنت ولما نجتن الثمرات(١)
فواهاً له ألا يصيب موفقا ... يشارفه والأرض غير موات(٢)
مددنا إلى « الأعلام » بعدك راحنا ... فردت إلى أعطافنا صفرات(٣)
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك فى ذات الإله وأنكروا ... جهادك حتى سودوا الصفحات
رأيت الأذى فى جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة
لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب ... ومعرفة فى أنفس نكرات

وجاء فى مرثية حفنى ناصف :

للمسلمين إليك أكبر حاجة ... فإذا قضيت فما قضوا أوطارا
من ذا يناضل عن شريعة أحمد ... ويذود عن أكنافها الأخطارا
ويصون دين الله من شبه العدا ... ويرد غارة من به يمارى
ويذكر العلماء ألا يغمضوا ... عما اقتضاه زمانهم أبصارا(٤)
ويظل بالإصلاح مغرى كلما ... وجد السبيل إلى صلاح سارا
حتى كأن عليه عهداً للعلا ... أو يصلح الأخلاق والأفكارا
إن كان فينا مصلح يقوى على ... ذا العبء أوسعنا لك الأعذارا
لا خير بعد محمد فى العيش إن ... كانت نفوس الخالفين صغارا(٥)

(١) أخرج الزرع شطأه : ظهرت له فراخ من حوله . وهذا يعنى نموه وازدهاره .
(٢) يشارفه : يراقبه ويحميه .
(٣) يريد بالأعلام رجال الأزهر .
(٤) يريد ألا يغضوا أبصارهم عن تطورات الزمن .
(٥) يريد بالخالفين الخلفاء بعده .

والعناصر البارزة فى كلام هؤلاء الثلاثة هى أن الإمام كان شغوفاً بالإصلاح وأنه لاقى فى سبيل دعوته إيذاء وعداوات وأنه لا يوجد بعده من يسد فراغه ويتابع منهجه الإصلاحى .

وتعبير الشاعرين يختلف عن تعبير قاسم أمين ، فقد اتسع له المجال النثرى فملأ حديثه بالتحليل والتعليل ، لماذا كان له أعداء ، ولماذا كان هو مصراً على الاستمرار فى الإصلاح . ولكن انظر الفرق بين قوله :

« كان للإمام الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم ... إلخ » .
وقول حافظ :

وآذوك فى ذات الإلــه وأنكروا جهادك حتّى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب ومعـــرفة فى أنفس نكرات

نجده ألم بما قاله قاسم ولكن فى إشارة فقط ودون تحليل وتعليل . وكلام ناصف لا يختلف عن هذا فهو يتساءل عمن سيقوم بعد الإمام بالإصلاحات الكثيرة التى كان يقوم بها . ويعدد جوانب هذا الإصلاح ، ثم يختم حديثه بعبارة يائسة : كما قال حافظ أنهم إذا ملوا أيديهم للأعلام عادت إليهم خاوية ، ولم يشأ قاسم أمين أن يجرح مشاعر الآخرين بمثل هذا لأنه ينشد استمرار حركة الإصلاح ويدعوهم لمتابعتها .

ومن هذا نرى أن لدى الخطيب فرصة التوضيح والشرح لأنه يخاطب العقول ويحاول إقناعها ، أما الشاعر فإنه يثير مشاعر الناس نحو أمر قد يكونون عرفوه من قبل :

وموقف آخـــــر :

نعرض هنا موقفا آخر شبيهاً بما تقدم نريد منه فقط أن نوضح الفرق بين التعبير الشعرى والتعبير النثرى خطابة أو كتابة :

كان المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى من كبار الكتاب ومشهوريهم فى الجيل الماضى ، وكان من ميزاته الكتابية أنه تخلص من قيود السجع والحلية اللفظية ، فكان يسجع فى غير تكلف ويوازن بين جمله ويجعل لها فواصل بقدر ما يتاح له ذلك ، فكانت كتابته عذبة جميلة ، وكان الناشئون والمعلمون جميعاً يكلفون بها .

وكانت نظرته إلى المجتمع المصرى نظرة حزينة باكية ، وكتب كثيراً فى نقده ، وجمع مقالاته فى كتاب كبير سماه « النظرات » . كما أخرج بضع قصص فى كتاب آخر سماه « العبرات » وترجمت له بعض قصص غربية كانت كلها مآسى أيضاً .

وتحدث الكثيرون عنه غداة وفاته كتابة وخطباً كما رثاه شعراء زمنه وأشاروا إلى هذا المسلك فى كتابته ، وجاء فى كتابة المرحوم العقاد عنه هذه العبارات :

« لقد كان المنفلوطى أحد أولئك الأدباء القلائل الذين أدخلوا « المعنى والقصد » فى الإنشاء العربى بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضل به الكاتبون عن كل قصد » .

« مزية المنفلوطى فى هذا الدور التافه الهزيل أنه برئ من تلك التفاهة ، ومشى بقدميه على النهج الجديد الذى أدخل فيه المعنى والقصد » .

« قرأت فى بعض ما رثى به المنفلوطى أنه « كاتب النفس الإنسانية » .

« ولست أرى فى كل ما وصف به ... صفة هى أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة » .

أرى أن غزارة الدموع شىء والإحساس بمصائب النفس الإنسانية شىء آخر .

« انظر إلى أبطال المنفلوطى فى قصصه ومقالاته ، فكيف تراه يعطف عليهم ويرثى لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم ؟ » .

ما ظنك بقلب لا يستدر العطف على المصاب حتى يجمع عليه بين ضنك الفاقة وتبريح السقم ، ويأس الحب ، ووحشة العزلة ، وذلة اليتم ، وسائر ما يحيط بأشتات المعذبين فى الأرض من صنوف الشقاء وضروب الهوان والحرمان ؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدمع على السكير أو المقامر أو المنكوب حتى يخرجه من الدنيا شريداً مسلوباً ، أبا لأيتام يتضورون من من الجوع ، وزوجاً لأيم تتبلغ بثمن العفاف ؟(١) .

والعقاد يشير بهذا إلى قصص المنفلوطى فى كتاب « العبرات » وهو نقد صادق ، لأن المنفلوطى لم يكن ذا ثقافة فلسفية ولا نظرة فاحصة دقيقة فكانت قصصه ساذجة ، تجمع على البائس أنواعاً شتى من البؤس ، ثم يرد معظم البؤس وأشده إلى الفقر وقلما التفت إلى حالته النفسية(٢) .

وفى رثاء شوقى للمنفلوطى تعرض لهذه الأفكار فقال عن أسلوبه :

تتخيل المنظوم فى منثوره فتراه تحت روائع الأسجاع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على أسلوبها أو يزر بالأوضاع
لكن جرى والعصر فى مضمارها طلقاً فأحرز غاية الإبداع

وهو يشير بهذا إلى أن أسلوب المنفلوطى يحوى سجعاً رائعاً كالشعر وأنه إذ تخلى عن طريقة الأقدمين حافظ على العربية الفصيحة ، وجارى العصر بتفوق ، ولا يحتمل هذا الأسلوب الشعرى إطالة الشرح وعمق التحليل على نحو ما جاء عند العقاد .

---

(١) انظر هذا المقال كاملا فى كتاب : مراجعات . ص ١٥٥ .

(٢) العقاد يشير إلى قصة اليتيم ، أول قصة فى كتاب العبرات وبعض القصص الأخرى فيه .

وفى نقد طريقته فى تصوير الناس بائسين حزانى يعانون الفقر ، يقول شـوقى :

يا مرسل « النظرات » فى الدنيا على ... ما كان من ضجر وضيق ذراع
ومسلسل « العبرات » تجرى رقـة ... للعـالم الشاكى من الأوجاع
من شوه الدنيـا إليك فلم تجـد ... بالملك غير معذبين جيـاع
أبكل عين فيه أو وجه تـرى ... لمحات دمع أو رسوم دماع
ما هكذا الدنيـا ولكن نقله ... دمع القـرير وعبرة الملتاع

فهو — كما ترى — يصف ضيق نظرته وقصورها ، فلم ير الجانب السعيد البهيج ، ولكن رأى فقط الجانب المعذب الباكى ، والسعادة والشقاء أمور تتعاور الناس فيشقون يوماً ويسعدون آخر ، وليسوا كما وصفهم أشقياء على طول ما يعيشون . وقد ربط سعادة الناس وشقاءهم بالغنى والفقر ، وليس المال مقياساً للسعادة ، بل كثيراً ما يسعد الفقير ويشقى الغنى .

يقـول شوقى :

لا البؤس بالفقراء خص ولا الغنى ... غير الحيـاة لهن قـدر مشاع
مازال بالكوخ الوضيع بواعث ... منها(١) وبالقصر الرفيع رواع
بالقفر حيات يسيبهـا بـه ... حاوى القضاء ، وبالقصور أفاع
ولرب بؤس فى الحيـاة مقنع ... أربى على بؤس بغـير قنـاع

فهذه الأبيات تشير إلى ما شرحه العقاد من جهل المنفلوطى بالنفس الإنسانية ، وإذا رجعت إلى مقال العقاد تجده تحليلا نفسياً دقيقاً لا يمكن أن يصاغ شعراً .

---

(١) من غـير الحيـاة .

وأيضاً هذا الأسلوب البديع الرفيع من شعر شوقى لا يمكن أن يكون خطبة - لكل من الفنين إذن مقام ولكل منهما تعبير .

وإذا استعار الخطيب أسلوب الشاعر وطريقة تعبيره باءت خطبته بالفشل خصوصاً إذا ملأها بجوانب الخيال ، فأسلوب الشعر بما فيه من وزن وقافية يثير المشاعر ويبعث فى نفوس السامعين شيئاً من الحماس ولكنه حماس ليس ناتجاً عن اقتناع . بعبارة أخرى الشعر للوجدان والخطبة للعقل ولكل تعبير خاص .

وقد يستعين الخطيب على استمالة سامعيه باصطناع الأسلوب الشعرى فى جملة أو جملتين ، كما يستشهد ببيت أو بيتين ، ولكنه لا يستطيع أن يعتمد عليه طويلا . فإذا كان مقام الخطبة مقام تكريم أو رثاء فيجب أن تكون بعيدة عن جوانب الخيال الشعرى معتمدة على ما للشخص المتحدث عنه من مآثر وأعمال ، وسرد ما له من مواقف ذات أثر فى حياة أمته كما رأينا فى حديث قاسم أمين السابق . وليحذر الخطباء فى هذه المواقف من تهويل الشعراء الخيالى البحت ، فإنه لا يقبل فى الخطبة ولا يتبعه إلا صغار الخطباء . وانظر هذه الأمثلة :

قال بشارة الخورى فى رثاء سعد زغلول :

نعى النعاة لنـــا سعداً فروعنـــا ... أن المتطم قد مادت رواسيه
ومر بالهرمين النيـــل مضطرماً ... كأنه الجمر فى أحشاء واديه

وقال محمود غنيم فى رثاء سعد أيضاً :

ناع نعى سعداً فطاش صوابى ... وحسبت هذا اليوم يوم حسابى
وسألت هل وقفت بنا الأفلاك أم ... دارت منكسة على الأعقـــاب
وعجبت كيف أطل قرص الشمس من ... أفق السماء ونجم سعد خابى

قال شـــوق :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها	وانثنى الشرق عليهـــا فبكاها
ليتنى فى الركب لمـــا أفلت	يوشع ، همت فنادى فثنـــاها
انظــروا تلقوا عليهـــا شفقاً	من جراحات الضحايا ودماها
وتروا بين يديهــــا عـــبرة	من شهيد يقطر الورد شذاها

وقال حافظ إبراهيم :

إيه يا ليــل هل شهدت المصـــابا	كيف ينصب فى النفوس انصبابا ؟
قد يا ليــل من سوادك ثوباً	للدرارى وللضحـــى جلبـــابا
وانع للنيرات ســعداً فســعد	كان أمضى فى الأرض منها شهابا

وهذه كلها مقدمات لقصائد واضحة المعانى وكلها خيال لا يصلح منه شىء للخطـــابة .

الأسلوب الخطابى

الخطابة والكتابة

كما تختلف أسلوب الخطبة وتعبيراتها عن أسلوب الشعر وطريقته تختلف أيضاً عن أسلوب الكتابة الفنية وكتابة المقالات . فالكتابة الفنية تجنح إلى جمال العبارات . وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية ويدخلها أيضاً شىء من خيال الشعر . وكتابة المقالات تعتمد على توضيح المعنى ولكنها غالباً تميل إلى الإيجاز . ولا يجمل بالكاتب أن يكثر من تكرار العبارات والمترادفات . وفى وسع القارىء أن يقرأ الجملة مرتين أو أكثر حتى يتعمق المعنى الذى يراد منها . وهذه فرصة لا تتاح لسامع الخطبة . لهذا تعتمد الخطبة على التوضيح والإبانة ، وقد يكرر الخطيب بعض الجمل . أو يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، أو يذكر فى الجملة الواحدة كلمتين مترادفتين . كل ذلك مع مراعاة الأناة وقواعد الإلقاء ، لهذا كان للأسلوب الخطابى مميزات خاصة تجملها فيما يلى :

الوضوح

١ — وضوح العبارات وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذى يهدف إليه مفهوماً للسامعين . ولهذا لا يستعمل الخطيب كلمات لغوية غامضة . ولا تعبيرات مجازية بعيدة المعنى . ويختلف موقف الخطيب باختلاف سامعيه. فهو حين يخطب فى طلاب جامعة أو أوساط مثقفة يستطيع أن يستعمل العبارات البليغة والمجازات البلاغية . وليس الأمر كذلك حين يقف بين مجموعة من عامة الناس ، وخطيب المسجد يستمع إليه أخلاط من الناس منهم المثقف العميق ومنهم الساذج قليل الثقافة أو عديمها . ومنهم من هو بين بين . وهؤلاء تختلف درجاتهم العقلية والثقافية . وهذا فى الواقع يلقى على خطيب المسجد مشقة كبيرة ، إذ هو مسئول أن يفهم كل سامعيه بمختلف درجاتهم العقلية والثقافية، ولكن يجب أن تلاحظ أن العامة وناشئة المتعلمين يفهمون المعانى الإجمالية رغم أن بعض الجمل والعبارات تخفى عليهم . ومن هنا كان التكرار والإلحاح على المعنى الواحد بعبارات مختلفة له أهميته ، فمن خفيت عليه جملة بينتها الأخرى ، ولا بأس أن يستعمل الخطيب بعض الجمل العامية لتوضيح غرضه على ألا يكثر من إيرادها .

حتى تستعمل العامية

وبعض الخطباء يجعل خطبته كلها باللغة العامية . وهذا خطأ كبير . فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة، واستعمال العامية الخالصة أو الإكثار منها يفقد الخطبة هذا التأثير، ثم إن بين المستمعين مثقفين ،لا يستريحون لهذا الأسلوب ، بل يؤذى شعورهم . وكما أن الخطيب يعلم سامعيه ديناً وعلماً هو أيضاً يعلمهم اللغة والتعبير . ويستفيد ناشئو الطلبة كثيراً من خطباء المساجد . والخطبة الجيدة تجذبهم إلى سماعها . واللغة العامية كثيراً ما تنفرهم .

قصر الجمل

٢ — تعتمد الخطبة على الجمل القصيرة ، وعدم الفصل البعيد بين أجزائها . فإذا ذكر المتكلم مبتدأ ، ثم أردفه بجملة أو عدة جمل معترضة ، ثم جاء بعد ذلك بخبر المبتدأ فإن هذا قد يخفى على السامع، وأولى أن يجعل كل جملة مستقلة بنفسها . كذلك الجمل الطويلة التى تكثر فيها المتعلقات من

مفعول به ومفعول له ومفعول مطلق وظروف ومجرورات . مما يشق فهمه عادة ويشتت الأذهان، وهذا مما يضعف تركيب الجملة، ولكنها فى حال الكتابة يمكن أن تستعاد وتفحص على مهل أما فى حال الخطابة فقد تمر بدون فهم وتذهب فائدتها نهائياً .

الاستفهام والتعجب

٣ — فى مقامات التهويل والإثارة يحسن استعمال صيغ الاستفهام وصيغ التعجب لأنها تؤدى فى هذه المقامات مالا تؤديه الجمل الخبرية ، والاستفهام الإنكارى يكاد يكون حجة مسلماً بها . فضلا عما فيه من جبه وإثارة . ولكن لا ينبغى أن يكثر الخطيب من كل هذه الصيغ إكثاراً مسئماً ، وإنما تستعمل فى الوقت المناسب . وبحيث لا تفقد تأثيرها .

القصة فى الخطبة

٤ — قد يستعين الخطيب بعرض قصة أو حدث تاريخى للاستشهاد به على ما يقول، وهذا مفيد وناجح فى أكثر أحيانه. ولكن يفسده طول القصة أو الإكثار من ذكرها . فهذا يجعل الخطبة درساً . والدرس عادة للتفهيم وليس للاستمالة، والقصة التى تورد فى الخطبة يرادمنها الاستمالة ويكفى فيها قص حدث أو واقعة قصيرة تأييداً لما جاء فى الخطبة .

ومن الخطباء من يخصص خطبته لشرح غزوة من غزوات الرسول ﷺ أو الحـــديث عن صحابى من الصحابة — بلال أو صهيب أو سلمان الفارسى أو غيرهم — وهذا يجعل الخطبة درساً . قد تكون ذات فائدة ولكنها ليست خطبة على أى حال .

لهذا يجمل بالخطيب أن يقتصر من أحداث التاريخ أو السيرة على ما يستخلص منه العبرة والعظة وأن يجعل له درساً قبل الخطبة أو بعدها ، يشرح فيه ما يريد من أحكام الشريعة أو أحداث التاريخ .

وقد يعرض للخطيب أن يرى شيئاً لا يرضاه . شخصاً يتخطى رقاب المصلين، أو آخر يقف لتنفل أثناء الخطبة ، أو ثالثاً يكلم صاحبه، وفى هذه

الحالة يقطع الخطيب خطبته لينبه على هذا الحكم الشرعى بإيجاز ، ثم يعود لخطبته . وهذا التنبيه ليس خطبة لكنه إذا صحبه انفعال واستدلال ودعوة كان خطبة لاستيفائه شرطى الإقناع والاستمالة .

أمثلة لاختلاف الأسلوب

٥ — تختلف ألفاظ الخطبة وعباراتها بحسب المقام الذى تقال فيه ، فخطب التهديد والوعيد ، وخطب الحرب وإخضاع المتمردين تمتاز بقوة العبارة وفخامة التعبير واستعمال الكلمات الشديدة الغليظة ، كما تجد ذلك فى معظم خطب الحجاج بين أهل العراق . وقد جاء فى خطبته الأولى :

. . « إنى والله ما يقعقع لى بالشنان، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فررت عن بصيرة وفتشت عن تجربة ، إن أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم أعوادها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ورقدتم فى مراقد الضلال ، أما والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . . . . الـــخ » .

ومع هذه الجمل القوية استعمل أيضاً رجزاً وشعراً من هذا القبيل منه :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عــــرد مثل ذراع البكر أو أشــد
لا بد مما ليس منه بد (١)

أما فى حال السلم والهدوء التى لا تعدو الخطبة فيها أن تكون نصيحة فلا داعى لهذه الشدة ويكفى استعمال الألفاظ المألوفة والرقيقة ، وأنت تجد هذا فى أسلوب القرآن حيث كانت السور التى نزلت بمكة تخاطب قوماً معاندين أشداء وكانت التى نزلت بالمدينة تخاطب قوماً طائعين مستعدين لتنفيذ ما يلقى عليهم فاختلف أسلوب كل منهما بحسب مقاماته .

---

(١) ستأتى الخطبة كاملة فى ترجمة الحجاج .

أمثلة من القرآن

فانظر إلى قوله تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً. لقدجئتم شيئاً إدًّا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً» وقوله تعالى: « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . فنجد فى الأولى تهويلا عظيماً وشدة استنكار ، ونجد فى الثانية مجرد أمر. وانظر أيضاً قوله تعالى:« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » وقوله تعالى فى السورة نفسها . . . « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون »

فنجد فى الآية الأولى عدداً من التشديدات ، أمر بالجلد مائة مرة وعدم الرأفة وربط ذلك بالإيمان بالله ، والأمر بشهود العذاب أمام طائفة من المؤمنين ، أما الآية الثانية فهى مجرد نصيحة تبين أن بها خيراً للمؤمنين . . .

متى تطول أو تقصر

٦ — تختلف الخطب أيضاً طولا وقصراً بحسب مقاماتها ، فالخطبة التى تقال لإطفاء شغب على الوالى لعمله أمراً لم يرضه قومه ، تكون قصيرة مقتصرة على أهم أغراضها، وتستعمل مع ذلك الأسلوب القوى وتجمع بين التحذير والتبشير ، تهدد المتمردين ، وتبشر الطائعين على نحو ما يفعل القرآن . وتجد مثلا جيداً لهذا فى خطبة أبى جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم الخراسانى وكان أبو مسلم قائداً ورئيس فرقة كبيرة وهو من مقوضى العرش الأموى وخافه أبو جعفر فقتله ، ولكى يهدىء أنصاره الغاضبين لقتله خطبهم خطبة جاء فيها :

خطبة أبى جعفر

« أيها الناس . . . لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تبطنوا غش الأئمة فإنه ما أضمر أحد لإمامه سوءاً إلا أظهره الله عليه ،

لإظهار دينه وإعلاء كلمته : إنه من نازعنا عروة هذا القميص جعلناه جزراً لحبيّ هذا الغمد :

وإن أبا مسلم قد بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من غدر بنا فقد أهدر دمه ، ثم غدر بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على الناس لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

الخطبة موجزة حتى لا تفتح مجالا للمناقشة ، وقائمة على منطق ، فقد جعل نفسه القائم على الدين ، وإن من خرج عليه استحق أن يقتل لخيانته خليفة يقوم على دين الله ، وأن الله أطلعه على ما دبر له لأنه موال لربه : وأردف ذلك بتهديد سامعيه ، أن من يخرج عليه فسيقتل بلا هوادة . . . من نازعنا عروة هذا القميص ، أي من بادرنا بأدنى شغب . جعلناه جزراً لحبي هذا الغمد ، يعني تمزيقه بالسيف وذبحه ، — ثم ألبس عمله ثوب العدالة التي لا تحابي أحداً مهما كانت قرابته . فهناك عهد أخذه أبو مسلم على الرعية كلها وهو واحد منها ، وقد أخل بهذا العهد — مع أنه من أولياء الخليفة : لكن رعاية حقه إنما هي للصداقة الشخصية ، أما إقامة الحد عليه بقتله فهي رعاية لحق الله وحق الله مقدم على حق الصداقة .

فأخذ على القوم أقطارهم بهذا المنطق ، ثم رمى بينهم رأس أبي مسلم مع بدر الذهب فتهافتوا على جمع الذهب ثم انصرفوا يقولون بعنا قائدنا وغدنا بثمنه .

أما الخطب التي تتعرض لشرح منهج إصلاحي أو لشرح مبادىء قانونية فإنها تطول وتمتد حسبما يقتضي الأمر ، وهذا كثيراً ما تجده في الخطب البرلمانية ، وكذلك الأمر في خطب المحامين لأنها قد تتعرض لدفع تهم متعددة وإقامة براهين عديدة أيضاً ، فيدعو ذلك لإطالتها ، وقد تكون القضية هينة سهلة فلا تحتاج إلى الاستدلال القانوني .

رأى ابن المقفع

وللعرب السابقين من ذوى العلم والدراية بوقع الكلام ومواقعه مالا يستغنى عنه الخطيب المحدث . وإذا استعرضنا أقوالهم وآراءهم بوجه عام نجد أنهم أكثر ميلا إلى الإيجاز مالم يكن ثم سبب خاص يستدعى طولا ، وقد قال عبد الله بن المقفع . . . « الإيجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل (١) والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك . . . » وسئل عما يكون إذا مل السامع الإطالة التى قال هو إنها حق ذلك الموقف ؟ فقال « إذا أعطيت كل مقام حقه . . . وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شىء لا تناله» (٢) .

وقيل «لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » .

رأى عمرو ابن عبيد

وسئل عمرو بن عبيد (٣) أيضاً عن البلاغة فقال : « إنك إن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤنة على السامعين ، وتزيين المعانى فى قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ؛ كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت من الله كثير الثواب »

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد . ويقال خطل يخطل – كعلم – وأخطل فى كلامه إذا أفحش .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٦ . وانظر فى هذا ص ١١٢ وما بعدها وعيون الأخبار ٢ / ١٧١

(٣) من كبار المعتزلة ، ومن الزهاد ، توفى سنة ١٤٤ ، رثاه الخليفة المنصور ، ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . انظر تاريخ بغداد ٢ ٦٦٥ .

وقال شبيب بن شيبة (١) : . . فإن ابتليت بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدم أحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى أحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً فإن قليلا كافياً خير من كثير غير شاف .

وهذه الآراء والنصائح كلها قريب بعضها من بعض وهى فى جملتها لا تخرج عن نطاق القواعد التى ذكرنا .

عوامل نجاح الخطبــة

يختلف الخطباء اختلافاً واسعاً فى مقدرتهم الخطابية وهذا أمر طبيعى فى الخطابة وغيرها ، إن لكل مقدرته وكفايته الخاصة ، ولكن كثيراً ما تجد شخصاً قليل الميزات الكلامية يؤثر فى سامعيه ويفيدهم أكثر ممن هو أكثر مقدرة وأفصح لساناً، ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة نجمل أهمها فيما يلى :

١ ــ اختيــار الموضوع :

أثر اختيار الموضوع

فهناك موضوعات تمس حياة الناس وحاضرهم وهم لذلك يهتمون بها ويتشوقون إلى سماعها وشرح جزئياتها بينما هناك موضوعات أخرى أصبحت بعيدة عن خواطرهم ولا يعنيهم أن يسمعوا عنها شرحاً ولا تفصيلا : وقد يثور الخطيب وينفعل فى شرح موضوع ما ، ومستمعوه يودون أن يفرغ من كلامه ، وهم أثناء خطابته لا يتابعونه ولا يعنيهم أن يفهمــوا عنه أو لا يفهموا .

---

(١) شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم . تميمى قريع لخالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم ، وكلاهما من أعلام الخطابة ، وكان بينهما منافسة ومحاسدة، وكان يقال: لولا أنهما أحكم بنى تميم لتباينا تباين الأسد والنمر . وقال عنه خالد : ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية .

إذا تحدث خطيب مسجد عن موقف الإسلام من الرق وحكمه وآثاره وتحدث خطيب آخر عن ضرورة تنفيذ الحدود الإسلامية وما يترتب عليه من آثار فى مجتمعنا تجد الناس يستمعون إلى الأول كمن يعرض شيئاً من التاريخ البعيد ، بينما يصغون إلى الثانى كمن يطب لأمراضهم . ويرتفع بمستوى حياتهم ، وهو لهذا لديه ما يثيرهم به ويستميلهم إليه . واختيار موضوع الخطبة من الأمور الهامة والشاقة إذ ليس كل موضوع يهم الناس يمكن أن يتعرض له الخطيب . ولكن الخطيب الماهر اللبق يمكن أن يواجه الموضوع الخطر أو المحظور من جوانب خلفية تثير الناس وتجعلهم من تلقاء أنفسهم يصلون الحديث بالأمر الذى يعانونه .

أمثلة تحتذى

عندما كانت مصر تحت الحكم الإنجليزى كان هناك موضوعات من حياتنا السياسية لا يجوز التعرض إليها لا فى الصحافة ولا فى الخطب حتى المعلمين كانوا يخشون الخوض فيها ، ولكن الرمزية والإشارات التاريخية كانت تعمل عملها فى هذا المجال . فكان الحديث عن المعذبين فى العهد السرى للدعوة الإسلامية . وما كان يحتال به معاونوهم — يكاد يكون شرحاً لموقف الأمة من الإنجليز . كذلك عن الحكومات الإسلامية ومعارضيها، الأمويون مثلا فى صف والخوارج والعلويون والزبيريون وأتباع الأشعث والأعاجم كل أولئك فى صف آخر ، وكان استعراض موقفهم جميعاً والمحاولات التى تبذل من كلا الجانبين مما يكاد يكون حديثاً صريحاً عن حياة المصريين يثير مشاعرعم ويمدهم بالمعلومات .

وخطيب المسجد على أى حال يجب أن يكون له تركيز على أمرين :

ما يهتم به الخطيب

أن يتناول حديثه سلوك الأفراد وما يجب أن يتخلق به كل شخص فى عمله الخاص وعلاقاته بالناس طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية فهو مرشد ومعلم ، وهو يدرك أثر الأعمال الفردية فى حياة المجتمعات فإذا استطاع أن يترك أثراً لدعوته فى بعض الأفراد فإن كل واحد منهم سيترك بدوره أثراً

فيمن يخالفونه ويسلم هذا إلى الأمر الثانى وهو أن يمد سامعيه بمعلومات بحيث يخرج المستمع وقد زادت معلوماته شيئاً جديداً وهذه المعلومات ليست فى الواقع إلا حججاً للمبدأ الذى دعا إليه ، وهذه المعلومات أو هذه الحجج هى التى تجعل معانى الخطبة ومبادئها أبقى فى ذهن السامعين ، أما الخطبة التى تقوم على الإثارة وحدها فقد تنجح فى استجابة وقتية ولكنها تنسى سريعاً ولا يبقى لها أثر فعال فى نفوس السامعين .

مهمة الخطيب الأولى هى أن يبث حماساً فى نفوس مستمعيه وأن يجعل كل واحد منهم أداة فعالة تعمل على تحقيق المبدأ الذى دعا إليه ، وإشاعته بين الناس .

ولا يقتصر هذا على خطيب المسجد ، بل هو أمر عام يشمل خطباء السياسة والدين وكل مصلح اجتماعى ، وهذا الأمر ملموس فى الجمعيات والأحزاب ، شباب كل حزب وكل جمعية يدعون لمبدئهم ويودون لو استوعب الناس جميعاً ، وهذا يرجع إلى مبدأ الإقناع والاستمالة معاً وعليه ظلت بعض الجمعيات والأحزاب حية بعد حلها وتشتيت أتباعها .

٢ ـ وحـــدة الموضوع :

يجب أن يكون لكل خطبة موضوع معين ، ويجب على كل خطيب من خطباء المساجد خصوصاً أن يسأل نفسه قبل الذهاب لخطبته ما الذى يريد أن يدعو الناس إليه ، وأن يسألها بعد فراغه منها ما الذى استفاده السامعون من خطبته .

ووحدة الموضوع تعنى أن يدور حديث الخطيب حول فكرة معينة أو مبدأ خاص يمهد له أولا ثم يشرحه ثم يظل يقيم الأدلة عليه ويستكثر من البراهين العقلية والتاريخية ، وأدلة القرآن والسنة ، حتى يكون واضحاً جلياً فى عقول المستمعين ثم يظل باقياً فى قلوبهم وأذهانهم . إنه بهذا يعمق الفكرة

ويجعل كل سامع قادراً على أن يزيد أدلتها وحججها وأن يدافع عنها إذا دعاه الأمر إلى ذلك .

أما الخطبة التى تتناول عدداً من الموضوعات فإنها تكون ضحلة غير عميقة ، والحديث عن المبدأ الثانى ينسى ما قيل عن الأول كما ينسى الثالث ما قيل عن الثانى ، وهكذا تنتهى الخطبة بأفكار باهتة تكون قليلة ثم تنسى سريعاً. ونجد تنبيهاً على ذلك فى وصاة لأبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فإنه قال : « وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً » وهذا ينطبق على تناول الأغراض الكثيرة ولكنه لا ينطبق على إيراد الأدلة الكثيرة ، فالأدلة الكثيرة إذا نسى بعض منها بقى بعض آخر ولكن الفكرة الأساسية لا تذهب .

٣ — أن تكون الخطبة مرتبة الأجزاء ترتيبا منطقيا :

مقدمة ثم عرض ثم استدلال ثم نتيجة — وكل جزء من هذه الأجزاء مبنى على الذى قبله : المقدمة تلفت الذهن وتوجهه مبدئياً إلى الفكرة ، وشرح الفكرة أو موضوع الخطبة يوحى بأهمية ما يدعو إليه الخطيب ، والأدلة التى تساق تحفز الناس إلى هذا المبدأ أو تحرضهم على العمل ، ثم النتيجة دعوة صريحة وإلزام بالعمل .

قد يعتسف الخطيب موضوعه فيهجم عليه بدون أية مقدمة ولكن هذا يضيع جزءاً مما دعا إليه ، لأنه لم يسترع انتباه سامعيه ولم يهيئهم إلى سماع ما يريد أن يلقى عليهم .

والبداية بالنتيجة وطلب ما يعمل كبداية المدرس بالقاعدة قبل أن يذكر الأمثلة تظل أمراً معلقاً تعوزه الأدلة والإقناع .

وعناصر الخطبة ليست كلها سواء فى الأهمية ، فمنها ما هو حتمى ضرورى ومنها ما هو تكميلى ، وعلى الخطيب أن يختار العناصر ذات الأهمية لتكون موضع تركيز واهتمام، فهو يلح عليها بالشرح والأمثلة بينما لا يفعل ذلك بالأجزاء الأخرى وكل ذلك يتوقف على تقسيم الخطبة وترتيب أقسامها .

٤ – يعين الخطيب ويجعله أقدر وأنجح ، ما يعتمد عليه من حسن الإلقاء ونبرات الصوت وقد أفردنا للإلقاء حديثاً خاصاً . كذلك تحدثنا عن أسلوب الخطبة وأثره ، فى نجاحها . . .

وجمع الجاحظ أهم عوامل نجاح الخطبة فيما نقله عن بعض علماء الهند فقال (١) : « جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر »- وقال مرة :

« جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق (٢) بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر . وزين الكلام كله وبهاؤه أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية . فإن جاء مع ذلك الحسن والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال .

الإلقـــــاء

أهمية الإلقاء

يراد بإلقاء الخطبة طريقة التحدث بها إلى الناس ، وإنهاء المعلومات بها إلى أذهانهم وقلوبهم ، والإلقاء من أهم العوامل فى نجاح الخطبة أو فشلها ، فقد تكون الخطبة جيدة المعانى والأفكار ، حسنة العبارات والأسلوب ، ثم لا تظفر بإلقاء جيد فتضيع فائدتها إذ لا يفهمها السامعون ولا تجتذب انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك فى إعدادها وتكوينها ولكن جودة إلقائها تنهى إلى السامعين كل جزئية منها ، فتكون فائدتهم منها أكبر وأكثر . والخطيب

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ ، ٨٩ .

(٢) الحيرة والتخبط .

الموفق هو الذى يستطيع أن يشد انتباه السامعين ويربطهم به ، فيتابعون أفكاره ويشاركونه انفعالاته وعواطفه ، وأكثر من هذا أن تكون خطبته موحية تولد فيهم أفكاراً ومعانى جديدة وتوقظ عواطفهم وتوجه مشاعرهم إلى مايدعو إليه . ولا يكون شيء من هذا إلا مع الإلقاء الجيد المثير .

وللإلقاء الجيد قواعد من أهمها ما يلى :

١ — جهارة الصوت وقوته ، وكان العرب يفضلون فى الرجل أن يكون واسع الأشداق، ويصفون الخطيب الجيد بأنه أشدق ، وكل متفوه ذو بيان فهو أشدق، واشتهر بهذا اللقب عمرو بن سعيد الأموى(١) لأنه كان من الخطباء المشهورين ، ويتوقف الصوت القوى أيضاً على قوة الحنجرة ، وقوة الصدر والرئتين ، وهذه صفات خلقية ، ومردها كلها إلى إجادة الصوت وجهارته وحسن بيان الحروف ومخارجها . وفى الوقت الحاضر سدت مكبرات الصوت مسد هذه الصفات إلى درجة كبيرة وإن كانت لا تغنى عنها نهائياً .

٢ — حسن مخارج الحروف وتمييز أجزاء الكلمة ، وكان العرب يكرهون من الخطيب أن يكون ألثغ — ينطق بالشين سيناً مثلا ، أو بالراء غيناً ، أو بالكاف تاء ، فذلك يضيع بهاء الخطبة وقد يوقع السامعين فى لبس ، أو على الأقل يكلفهم شيئاً من المشقة فى فهمه — فإذا تحدث خطيب عن أثر الكبر وأخلاق المتكبرين فيقول : إن الشخص قد يزهو وينتفس فلا يطيق الناس نفسه — وهو يريد أن الشخص ينتفش فلا يطاق نفشه — وينتفش بمعنى يزهو كالديك ، أو يقول : إن الشخص السيء كالجغح المتبغ قد يفضى

---

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص الأموى . كان مروان بن الحكم وعده أن يجعله ولى عهده ثم ولى ابنه عبد الملك . فكان بينه وبين عمرو هذا عداء حتى قتله عبد الملك أخيراً .

انتباغه إلى ضغغ عظيم ، وهو يريد أنه كالجرح المنتبر أى المتورم المرتفع . فيلتبس كلامه بالعبقرية والنبوغ وهو معنى بعيد جداً عن مراده ، ويعنى « بالضغغ » الضرر وهذا سيء .

مخارج الحروف

وقد أفرد الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» فصلا للحروف التى تدخلها اللثغة وما حضره منها (١) فذكر أنها أربعة : القاف ، والسين ، واللام ، والراء، وأورد صوراً كثيرة من النطق بها ، وذكر بعضاً من مشهورى الخطباء الذين كان بهم شيء من هذا اللثغ وكيف كانوا يتجنبونه وينجحون فى تحاشيه .

ومنهم محمد بن شبيب وهو من رجال الكلام . وكان ينطق الراء غيناً ولكنه كان يستطيع النطق بالراء إذا ضغط لسانه (٢) وكان لحسن تصرفه فى الكلام وسعة المفردات لديه يستبدل الكلمة بأخرى خالية من الراء ، وهذا عجيب وشاق ولكنه تأتى له بطول المران حتى وصفه بعض الشعراء بقوله.

عليم بإبدال الحروف وقامــــع لكل خطيب، يغلب الحق باطله(٣)

لباقة واصل ابن عطاء

ومن أشهر هؤلاء واصل بن عطاء (٤) رأس المعتزلة ، فإنه كان ألثغ فاحش اللثغ وكان مخرج الراء منه فاحشاً شنيعاً ، وكانت مكانته وموقفه من خصومه الكثيرين ، وحاجته لشرح مذهبه والدفاع عنه تحوجه إلى الخطب الطوال، وأنها لابد أن تكون فصيحة بينة الألفاظ واضحة الحروف، فعمل

(١) ص ٣٤ وما بعدها ، حـ ١ .
(٢) ص : ٣٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥ ، ومعنى قامع متربص ، وهو يصفه بقوة الحجة وأنه لفصاحته يكسو الباطل ثوب الحق .
(٤) ولد واصل سنة ٨٠ هـ ، وتوفى سنة ١٨١ ، وكان يكنى أبا حذيفة ويسمى الغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين لدى صديق له ، وكان بشار قبل أن يجهر بمذهبه فى الرجعة يحبه ويجله ويقدمه على أقرانه من الخطباء ، فلما جهر بمذهبه عاداه واصل واتصل الهجاء بينهما .

على إسقاط الراء من كلامه فلم يزل يكابد ذلك حتى استقام له أن يلقى الخطب الطوال خالية من هذا الحرف ، وكان يعادى بشار بن برد ، وكان بشار يلبس القرط فى أذنه على طريقة العجم فكان واصل يقول عنه : هذا الأعمى المشنف، يريد ذا القرط . ومن كلامه فيه : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى منزله وفى يوم حفله . . . فتحاشى اسم بشار وكلمة الكافر ، ويبقر بطنه ، وعلى فراشه ، وفى داره . . . وكان الناس يعجبون منه ومن حسن تصرفه فى الكلام لتحاشى هذا الحرف.
ويتوقف مثل هذا العمل على سعة العلم بالمفردات اللغوية والتراكيب ، وعلى التدريب والتمرين .

تكييف الصوت

٣ ــ تلوين الصوت وتكييفه ، فيجهر الخطيب مرة ويعلو صوته ، ويلين أخرى حتى يكون كلامه همساً ، كما يسرع فى جملة ويمد صوته فى أخرى ولابد أن يميز لهجه الاستفهام من لهجة الخبر . . . وهكذا ، ويزرى بالخطبة ويذهب بتأثيرها أن يكون صاحبها رتيب الصوت مطرد النغم تجرى كل تعبيراته على وتيرة واحدة . وبعض الخطباء يثير الناس بحسن إلقائه ، فإذا قرئت الخطبة بعد ذلك كانت قليلة التأثير لأن تأثيرها فى الواقع كان راجعاً إلى حسن إلقائها لا إلى حسن تأليفها، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك، وخير الخطب ما جمع بين حسن التأليف وحسن التأثير، وتلوين الصوت يأتى من الدربة ومن انفعال الخطيب نفسه بخطبته ، فيكون تكييف صوته نتيجة انفعاله وتأثره ، فإذا عدم هذا الشعور كان قارئاً لا خطيباً ، ولا يستحسن لهذا ــ أن تكون الخطبة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على الخطيب أن يعد عناصر خطبته والأفكار التى يريد نقلها إلى الناس ثم يعبر عنها بطريقته، وهذا يتوقف على مقدرة الخطيب الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كما يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه .

الإشارات

٤ — لابد لجودة الإلقاء من الإشارات باليد أو بغير اليد أيضاً فإن هذه الإشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره فى سامعه ، وفى هذا يقول الجاحظ : « والإشارة واللفظ شريكان . ونعم العون له ونعم الترجمان هى عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ » .

« وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة . . . . ».

« هذا ، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ، فهذا أيضاً باب تتقدم الإشارة فيه الصوت . . . »

وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذى يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتفتل والتثنى ، واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور . . . (١) » .

والإشارة أيضاً وليدة الانفعال والتأثر . والخطيب الذى لا يكون متأثرا بكلام نفسه ، يفقد أهم صفات الخطيب المؤثرة .

ونذكر مع هذا أن من الخطباء من يسرف فى تلوين صوته وكثرة إشاراته حتى يخرج ذلك بالخطبة عما يراد منها ، بل ويفقدها نهائياً قيمتها ، والخطيب الموفق من يستعمل ذلك فى موضعه المناسب بغير إهمال ودون إسراف .

الطريقة الناجحة

والطريقة الجيدة فى الإلقاء . . . أن يضع الخطيب نصب عينيه ، أن عليه أن يفهم سامعيه ما يقول ، وأن يستميلهم إلى أفكاره ويقنعهم بها ، وهو لهذا يبدأ كلامه بلهجة هادئة عادية ، لهجة من يتحدث إلى شخص فى موضوع ما ليفهم أبعاده وعناصره وليقتنع به ، ثم ليحبه ويعتنقه ، وفى هذا الإلقاء الذى يبدأ بلهجة متكلم غير متصنع ، نجد الخطيب صوته قد ارتفع ،

---

(١) البيان والتبيين ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

ونبراته قد تكيفت . ويجد سمات الأخبار والاستفهام والتعجب والدهشة والسخرية ، وما إليها ، قد ظهرت تلقائياً فى هذا الحديث .

هذا . وليس من المناسب أن يبدأ خطبته ثائراً منفعلا ، كما أنه ليس من المناسب أن يظل على نبرات رتيبة ، وهذا غالباً أو قطعاً يرجع إلى انفعال الخطيب بما يقول ، ولهذا تفتر الخطبة إلقاء وتأثيراً إذا كانت مكررة لا أثر لها فى نفس الخطيب .

وبهذا ترى أن الإلقاء مرتبط بموضوع الخطبة ومعانيها .

مكونات الخطيب

الخطابة – كالشعر والتمثيل والرسم – من المواهب الفطرية ، فبعض الناس يخلق خطيباً أو شاعراً بفطرته ، وهذه الطبيعة توفر عليه جهداً كبيراً فى حصوله على كمال هذه الصفة ، ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبر عنه من المعانى ولكنه لا يحسن إلقاءه ولا مواجهة الناس به ، ومنهم من يحصر ويعيي أو يرتج عليه إذا وقف للخطابة ، وإذا تحدث فى مجلس أجاد الحديث ، ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك . وهذا النوع يتحنب الخطابة أصلا ، أما الآخرون فيحتاجون إلى تدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة ، والشخص الموهوب أقوى وأقدر على أى حال ، ولا يعنى هذا أن الخطيب الموهوب يستغنى عن مؤهلات الخطابة ومعرفة قواعدها وطرق إلقائها فهناك أمور خاصة لا يكون الخطيب خطيباً بغيرها وليس الإلقاء الجيد كافياً فى جعل الخطبة ناجحة مقبولة حتى تقترن به الصفات الأخرى ، ومن أهم هذه المكونات هذه الأمور التى لا يستغنى عنها خطيب .

١ – درس اللغة درساً يحول بينه وبين الخطأ واللحن ، وهذا يرجع إلى درس قواعد اللغة ومتنها ، وكان بين العرب جماعة لحانون وكانوا

درس

مضرب المثل والتندر ، وكان الخلفاء يحتقرون المتحدث إذا أخطأ أو لحن ، وكان خالد بن عبد الله القسرى من الخطباء المعروفين فقال مرة وهو فوق المنبر أطعمونى ماء فاتخذها الناس سخرية حتى قال فيه الشاعر :

بل المنابر من خوف ومن هلع　　　واستطعم الماء لما جد فى الهرب

أما الخطأ النحوى فإنه أفحش وأسوأ . وأشنع من هذا أن يستعمل الخطيب اللغة العامية فى خطبته أو فى جمل كثيرة منها ، وإنما يسوغ كلمة أو جملة ليفسر بها شيئاً غمض على سامعيه .

سعة الاطلاع والحفظ

٢ — سعة المحفوظات الأدبية من الشعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا ، هذا فضلا عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية فهذا المحفوظ يمده بالعبارات التى يستغلها بسرعة ويمنحه قدرة على التصرف فى تعبيراته وألفاظه كما أنه يسعفه بما يستشهد به على ما يقول ، ولئن كانت المحفوظات الدينية ضرورية وحتمية للخطيب الدينى إنها أيضاً من مكونات الخطيب أيًا كان ، ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمانات يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى ، وليس الغرض من هذه المحفوظات هو الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير ، وكما سبق يحتاج الخطيب فى كثير من المواقف أن يكرر المعنى الواحد وأن يعبر عنه بعدة عبارات مختلفة ، فإذا لم يكن لديه هذه القدرة الكلامية صعب عليه هذا التعبير .

ولا ينبغى أن يكثر الخطيب من هذه الاقتباسات فإن ذلك يفقد الخطبة أثرها ، وذكرها يكون دائماً فى الوقت المناسب ، وفى المكان الذى يحسن وضعها فيه فإنها حينئذ تكون حجة ثانية مؤكدة لحجته الأولى .

الدراسة النفسية

٣ — لا غنى للخطيب عن دراسة الجوانب السلوكية فى علم النفس التعليمى ، وبصفة خاصة دراسة الغرائز وتربيتها ومراحل نمو الطفولة وما

يناسب كل مرحلة من معاملة، وبدون دراسة لهذا العلم لا يستطيع الخطيب أن يفهم نفسية سامعيه وهذا يعود عليه بضرر كبير فهو من ناحية لا يعرف ما يجب أن يقدمه لهم من نصائح وعظات إذ لكل جماعة حاجة إلى نصائح خاصة، ومن ناحية أخرى لا يعرف أسباب الانحراف التي تطرأ على سلوكهم ولا كيف يكون علاجها والطب لها . وعلم النفس التربوى والسلوكى يمده بينبوع فياض من المعانى ويمنحه القدرة على لمس قلوب السامعين وتحريك عواطفهم وإثارة مشاعرهم . ولكن لا يجوز أن يتخذ الخطيب ما درسه من علم النفس مادة لخطبته ، وقد سمعت مرة خطيباً يتحدث من فوق منبر المسجد عن بعض العقد النفسية وكيف تتكون وكيف يكون أثرها فى حياة الناس ، وهذا خطأ لأنه يجعل الخطبة شرحاً لموضوع نفسى .

يكفى على سبيل المثال أن يطلب من الوالدين ألا يختلفا فى أمر ويتنازعا أمام طفلهما ، يكفى أن يطلب ألا يحرم الطفل مما تهفو إليه نفسه من المطعم والملبس والملعب فإن لم يكن ذلك ممكناً فلا يترك بين أطفال يتمتعون وهو بينهم محروم ، وبالمثل إذا كان لأولاده ما يتمتعون به دون جيرانهم فلا يترك أطفاله يظهرون بما لديهم حتى يغيظوا به أولاد جيرانهم ، وهو واجد فى الآثار الإسلامية ما يكفى لهذا، أما أن يستطرد من هذا ليشرح عقداً نفسية .. أوديبيـــة أو نرجسية أو ما إلى ذلك فهذا غـــير سائغ كما أنه قليل الفائدة للسامعين .

٤ — من مكونات الخطيب الجرأة والشجاعة والثقة بما يقول وهذه صفات لكل منها مفهومه وليست مجرد مترادفات .

فالجرأة تعنى عدم التهيب والتردد فيما يتحدث عنه الخطيب، وهناك مواقف يتعرض لها الخطيب قد توهن قوته وتجعله يغير مجرى خطبته أو يوجزها أو يحذف بعض عناصرها ، ولكن الخطيب الجرىء لا يتأثر بها .

العوامل السلبية

قد يشرع الخطيب فى خطبته وبعد إلقاء بعض فقراتها يقوم من المجلس وربما من الصفوف الأمامية بعض الأشخاص ويخرجون ، وقد يعرض عنه بعض السامعين فينظر فى صحيفة أو كتاب . أو يتحدث إلى من بجانبه فهذا يوهن قوة الخطيب ويترك أثراً كبيرا من الفتور فى صوته وإلقائه ولكن ينفعه فى هذه الحالة أن يولى وجهه إلى الآخرين وألا يبدى أى اكتراث بماحدث. ومن نصائح الأقدمين : « إنك لا تتعلم الخطابة حتى تتعلم القحة » والمراد بالقحة عدم المبالاة بأى شىء يكون معارضاً له ويرجع ذلك إلى الجراءة وقوة الجنان .

ويراد بالشجاعة قوة الخطيب على فرض رأيه على سامعيه وخصوصاً حين يكونون على غير رأيه، وربما قاطعه بعض السامعين بماهو ضد مايقول ، وفى المساجد قد يصفق بعض الحاضرين . وفى هذه الحالات لا يستطيع الخطيب أن يتخلص بمجرد الانصراف بوجهه إلى الآخرين وبتجاهل من يقاطعه ولكن عليه أن يكون ثابتاً هادئاً مبدياً للناس بمظهره وثباته أن هذا ليس بشىء يهتم به ، ثم يستمر فى سرد الأدلة على رأيه مضمناً كلامه رداً على المعترض فى بساطة وهدوء فهذا موقف يعتمد على الشجاعة .

ويفيد الخطيب فى هذه إشارة عابرة باليد أو الرأس لإظهار عدم اكتراثه وبيان أن ما عورض به ليس بشىء ذى بال ، ويجدى فى هذا مجرد ابتسامة ، أو مد شفتيه مع استمراره فى حديثه . ويفشل الخطيب كل الفشل إذا انفعل أو غضب أو بدت عليه سمات الضعف فهو بهذا يخسر الموقف كله .

ولقد رأيت بنفسى خطيباً عارضه أحد سامعيه وشرح فساد رأيه فصفق الحاضرون جميعاً لهذا المعارض ، فلما انتهى تصفيقهم وضحكهم ومظهر سخريتهم بدأ الخطيب فى هدوء تام يصيح بالحاضرين : أيها السادة . . . إلى هنا صفقتم وضحكتم لأن هذا الرجل خدعكم بكلام معسول ولكن انظروا ههنا

ما يستحق أن تتأملوه . . ثم بدأ يشرح رأيه من جديد فى ثبات وهدوء كأن لم يعترضه أحد أو يسخر منه أحد (١)

إنه خطيب حقاً ، وإنه مصر على أن يكسب من السامعين عدداً قليلا أو كثيراً ولو أنه انهار فضعف أو انصرف لضاعت خطبته هباء .

الإيمان بموضوع الخطبة

وأما ثقة الخطيب بكلامه فتعنى إيمانه بالمبادىء التى يدعو إليها ، هذه الثقة تدفعه تلقائياً إلى تكييف صوته وانفعاله وتلهمه الحجج والبراهين، وتجعل الآخرين يتأثرون به ، وقديماً قالوا : ما خرج من القلب وصل إلى القلب وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان (أى لا يجاوز إذن السامع إلى قلبه) ، كما قالوا : ليست النائحة المأجورة كالنائحة الثكلى . وقد يبكى الخطيب سامعيه ويحرق قلوبهم بمواعظه ولا يفعل ذلك غيره ممن هم أبلغ منه ويرجع ذلك إلى إخلاصه وإيمانه بما يقول .

حال الخطيب الدينى

٥ — ويجر هذا إلى عنصر آخر يتوقف عليه نجاح الخطيب الدينى أكثر من غيره، ذلك هو صلاح الخطيب حقاً وإخلاصه لله تعالى، وحرصه على الاستقامة التامة على تعاليم الدين، والخطيب الذى تتوافر فيه هذه الصفة تكون خطبته عبادة لأنها دعوة إلى سبيل الله ، أما من لا يكون له هذه الصفة ، فهو منافق وهو أيضاً عرضة للزلل والفتيا بما يرضى الناس لا ما يرضى الدين وكما قال الإمام على : من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه .

وقراءة تاريخ الذين صمدوا بفكرهم الدينى أمام خصومهم مثل الإمام مالك وأحمد بن حنبل وسعيد بن المسيب والحسن البصرى . . . وغيرهم تفيد الخطيب كثيراً للاقتداء بهم فى مواقفهم وبيان روعتها للسامعين .

---

(١) كان هذا خطيباً إنجليزياً يدعو لمبادئ اشتراكية فى حديقة هايد بارك . وقد لفتنا مدرس الخطابة غير مرة فى درسه إلى حسن تصرف هذا الخطيب ، وكان هذا المدرس يذهب معنا إلى ركن الخطباء هناك لملاحظتهم وكتابة ملاحظات عنهم .

التدرب

٦ — لابد للخطيب مع كل هذه الصفات من التدريب العملى وإعداد نفسه لمواجهة الجماهير ، ولابد له أيضاً أن يتوقع الفشل مرات كثيرة فشأنه فى هذا شأن كل متعلم ، يسقط مرة وينهض أخرى حتى يتم تكوينه ودربته ، وإنك واجد فى تاريخ الخطابة أشخاصاً كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين وقد أجدى عليهم ذلك وخرجهم خطباء متفوقين ممتازين .

هيئة الخطيب

٧ — يتأثر الخطيب بمظهره وهيئته ولهذا يجب أن يكون مقبول المظهر حسن الملبس كما يحسن أن يكون بعيداً عن الصغائر التى تحط من هيبته وأن يكون قليل المزاح بعيداً عن مجالسة العامة ، وأن يغضى عن بعض الكلمات التى لا تناسبه ، وهذا يدخل فى أدب الخطيب .

أدب الخطيب

لهجة الخطيب

تحدث الأولون عن هيئة الخطيب وموقفه ، فذكروا له صفات ترفع قيمته وتعلى شأنه ، وأخرى تحط من قدره وتوهن من تأثيره فى سامعيه ، كما ذكروا له حالات تمل سامعيه وتدل على نضوب ذهنه وفقره الكلامى .

وقد كره العرب أن يكون الرجل ذا لثغة فى أى حرف من الحروف على ما ذكرنا قبل ، وذكروا منها أنواعاً كثيرة كالتأتأة وهى تردد التاء واحتباس اللسان بها كما يفعل التيس فى ترديد صوته ، شبه هذا بحركة الطفل الذى يتعثر فى مشيته أول ما يتعلم المشى وربما أطلق هذا على كل لجلجة وتعثر فى الكلام ، ويسمى تتعتع اللسان فى التاء تمتمة ويسمى صاحبها تمتاماً ، ومنه قول المتنبى يصف الخيل التى تتعثر بجثث القتلى :

يتعثرن بالرءوس كما مـــــر بتاءات نطقه التمتام

يريد أنها لا تكاد تنطلق فى جريها لكثرة الجثث التى تطؤها .

ومدح شاعر فصاحة رجل فقال(١) :

ليس بفأفاء ولا تمتـــام ولا كثير الهجر فى الكلام

ويعنى بالهجر الحشو والكلام الكثير الذى لا كبير معنى له ، وأصله الفحش والكلام القبيح . ومن الأسباب التى تنشأ عنها اللجلجة والحبسة قلة ممارسة الشخص للخطابة والانقطاع عنها مدة ، وجاء فى رجزهم :

أثر ترك الممارسة

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق

قالوا : وكان يزيد بن جابر قاضى جماعة الأزارقة الخوارج(٢) بعد إحدى المواقع الحربية آثر السكوت والصمت حتى ثقل عليه الكلام ، فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يبين .

ومن أسبابه أيضاً ضعف النفس وقلة الجراءة ، وهى أيضاً من أسباب الحصر لأن الهيبة تذهب بقدرة الشخص على التفكير وتذهب من رأسه الألفاظ ، وعابوا على الخطيب كثرة النحنحة ومس اللحية والعبث بأصابعه لأن هذه كلها مما يستعان به على استجلاب الكلام وهى دليل الفقر الكلامى والعى عن متابعة الخطبة ، والشأن فى الخطيب أن يكون متدفقاً ينتقل من فكرة إلى أخرى فى ترتيب واتصال بين أفكاره ، ولا يعنى تدفقه سرعة إلقائه ، فهذا عيب آخر ، لأن الإسراع فى الكلام يحول بين سامعيه وبين فهمه . وقد تنشأ عنه لجلجة أيضاً .

صفات ممقوتة

كذلك كرهوا للخطيب أن يطيل النظر فى وجوه مستمعيه، وقالوا إنه من العى وهو فى الواقع من أسبابه ، لأن الخطيب أو المتكلم أيًّا كان حين

---

(١) الشاعر هو أبو الزحف بن عطاء ، ابن عم جرير . ذكره ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشـعراء .

(٢) كان يزيد قاضياً لجماعة نافع بن الأزرق ، وهى فرقة معروفة . ولنافع مواقف مع ابن عباس . وانظر الفرق بين الفرق ، ص ٨٢ .

تلتوى عينه بعين من يحدثه تضعف ذاكرته وقدرته ويعزب عنه الكلام ، ومن أقوالهم فى هذا : « تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالقريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عى ، ومس اللحية هلك، والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب » وقالوا فى هذا أيضاً:

« رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه » .

والأفضل للخطيب إذا لم يكن هادىء النفس محسًّا من قريحته استجابة ومن نفسه قابلية للكلام ألا يتكلم أصلا ، فعدم قيامه بالخطبة وتركها أولى من تعريضه نفسه للنقد وكشف ضعفه أمام الناس .

صحيفة بشر بن المعتمـــــر

بصدد الحديث عن الخطيب وتكوينه وأدبه ، أوثر أن أنقل هنا وصية بشر بن المعتمر التى تحوى رأيه فى تكوين الخطيب وإعداده . وبشر هذا من أعلام المعتزلة وأعلام الخطباء ، تنسب إليه طائفة البشرية ، كان يخالف المعتزلة فى مسألة القدر ، ويرى أن الأعراض من فعل الناس وليست من خلق الله ، وأن الصفات العامة — من اللون والطعم والسمع والإدراك — صفات مكتسبة ، وأن الإنسان يستطيع أن يمنحها غيره ، وينشئها فيه بتهيئة أسباب الوراثة والمؤثرات فيه ، ولكن ذلك يتوقف على معرفته إياها ، وكان هذا مما أنكره عليه معاصروه لأنه نفى تأثير الله فيه ، وكان له صفات غير شريفة إذ كان نخاساً يبيع الرقيق ، وكان يقع فى أبى الهذيل العلاف بما لا يليق .

وقد كان بشر مناظراً قوى الحجة ذا قدرة على قهر خصمه . لهذا

---

(١) انظر أمالى المرتضى ١٣١/١ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٦٦٠/٣ .

كان له تلاميذ يتدربون عليه فى الجدل وعلم الكلام ، وترك مصنفات فى الاعتزال .

ونذكر هنا وصيته كاملة ، وقد ذكرها كل من الجاحظ فى البيان والتبيين ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وصاحب الوفيات . . وكان بشر قد مر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم فتيانهم الخطابة، وإبراهيم خطيب كبير استمع إليه بشر أولا ثم قال للفتيان : اضربوا عما قال صفحا، ثم دفع إليهم بصحيفة من تنميقة كان فيها :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين من لفظ شريف ومعنى بديع(١) .

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكر والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطأك(٢) لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً وخفيفاً على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك . ويشين ألفاظك، ومن أراغ(٣) معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله إلى أن يكون أسوأ حالا من قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما فكن فى ثلاثة منازل :

---

(١) العين من الناس والأشياء الشريف الرفيع .

(٢) مهما يغب عنك من المعانى والتعبيرات فإنك لن تخطىء هذه الأشياء .

(٣) أراغ وارتاغ ، طلب وأراد .

فأول ذلك أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، أو فخماً سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً . إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت .

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مدخلك وقدرتك فى نفسك . . أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف عن الدهماء . . ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام .

فقال له إبراهيم : أنا أحوج إلى تعلمى هذا الكلام من هؤلاء الغلمة .

واستمر بشر فقال :

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول فى غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، فإن أنت تكلفتهما ، ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً لشانك ، بصيراً بما عليك وما لك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك .

فإن ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك

الطباع(١) فى أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق(٢) ، فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول إهمال(٣) ، فالمنزلة الثالثة (٤) أن تتحول هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهه ، ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشىء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاركة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة ، فهـــذا هذا .

وقال كلاماً آخر بعد ذلك غاية فى الدقة ، وعمق تفهم الخطابة وموقف الخطيب ، فليرجع إليه فى البيان والتبين من يريد استقصاء هذه النصائح(٥) .

صحيفة الهنـــد فى البلاغة (٦)

كان العرب يسألون الهند والفرس أحياناً عما هى البلاغة لديهم فيجيب كل بما لديه . ولما اجتلب يحيى بن خالد البرمكى عدداً من أطباء الهند

---

(١) الطباع ككتاب مفرد ، بمعنى الطبيعة والفطرة ، وقد يكون جمع طبع ، كرجل سمح وقوم سماح .

(٢) بأن كان لك ميل نفسى وسجية للخطابة .

(٣) طول إهمال الخطبة يسبب صدأ النفس وفتور القريحة ، ولكن يمكن علاج هذا الموقف بمعاودة التدرب .

(٤) وهى فقدان الفطرة والطبيعة الخطابية .

(٥) انظر ص ١٣٨ جـ ١ ، وما بعدها .

(٦) وردت هذه الصحيفة فى عيون الأخبر مختصرة ، المجلد الثانى ، ص ١٧٣ . وفى كتاب الصناعتين ص ١٩ . ونقلناها هنا عن البيان والتبيين ٢ /٩٢ .

وكان بينهم بهلة الهندى سأله معمر أبو الأشعث(١) عن البلاغة عند الهند فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، فلما ترجمت وجد فيها :

« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قوله فضل التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً ، ومن(٢) قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ . وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف » ثم قال :«واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال وفقاً، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه موفقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم،والحمل على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلاته وتتصرف معه أداته، ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى جميع الظن مقتصداً ، فإنه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين . وإن تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الآمنين ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل » .

---

(١) هو معمر بن عباد السلمى ، صاحب مدرسة ورئيس فرقة من المعتزلة تسمى المعمرية توفى سنة ٢١٥ . انظر لسان الميزان ٧١/٦ ، وابن النديم ١٤٧ .

(٢) وحتى يصادف من تعود ذلك .

وصية الجـاحظ

تحدث الجاحظ فى كتابه « البيان والتبين » عن الصمت وعمن زينوه ومدحوه ، ثم قدم هو نصيحته لمن يستطيع الخطابة ألا يدعها فقال :

« قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم ، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين (١) أن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك فيستولى الإهمال على قوة قريحتك(٢) ويستبد بها سوء العادة ،وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ(٣) فى الخطابة والبلاغة ، وبقوة المنة يوم الحفل فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة(٤) ، وأرفعها فى البيان منزلة ، ولا يقطعنك تهيب الجهلاء وتخويف الجبناء ، ولا تصرفنك الرايات المعدولة عن وجوهها المتأولة على أقبح مخارجها .

وكيف تطيعهم بهذه الرايات المعدولة والأخبار المدخولة(٥) ، وبهذا الرأى الذى ابتدعوه من قبل أنفسهم ، وقد سمعت الله تبارك وتعالى ذكر داود النبى صلوات الله عليه فقال : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . فجمع له بالحكمة(٦) البراعة فى العقل والرجاحة فى الحلم ، والاتساع فى العلم ،والصواب

---

(١) توضيح ما يستحق أن يوضح للناس .
(٢) يروى القريحة ، وهو يريد أن من ترك التدرب على الخطابة فقد ملكتها .
(٣) القـوة والتفـوق .
(٤) السورة بالضم اسم جنس جمعى لسور – على غير الأكثر يكون المفرد بغير التاء والجمع بالتاء نحوكم وكمأة ، يريد « ما دامت لك قدرة وتسام فاطلب القمة العليا » .
(٥) المصنوعة .
(٦) بوصف الحكمة .

فى الحكم ، وجمع له بفصل الخطاب تفصيل المجمل ، وتلخيص الملتبس والبصر بالحز فى موضع الحز والحسم فى موضع الحسم (١) .

وذكر رسول الله ﷺ شعيباً النبى عليه السلام فقال : كان شعيب خطيب الأنبياء،وذلك عند بعض ما حكاه الله فى كتابه(٢) وجلاه لأسماع عبـــاده .

فكيف تهاب منزلة الخطباء وداود عليه السلام سلفك ، وشعيب إمامك مع ما تلوناه عليك ... من القرآن الحكيم والآى الكريم ؟ ، وهذه خطب رسول الله ﷺ ملونة محفوظة ومخلدة مشهورة ، وهذه خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم(٣) .

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينافحون عنه وعن أصحابه بأمره ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد(٤) .

---

(١) الحز : المحاولة ، والحسم : القطع .

(٢) عند شرح بعض الآيات القرآنية المتعلقة به .

(٣) هؤلاء لم يحجموا عن الخطابة فلا تحجم عنهـــا .

(٤) مع من حوله من الشعراء المنافحين كان المدافع عنه بلا منازعة هو هذا الخطيب . وقيس محارب شجاع ومن المبشرين بالجنة . واستشهد فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ورآه أبو بكر فى منامه ، فأخبره بمكان فرسه وأسلحته وأوصاه بوفاء دين عليه وإعتاق رقيق له ، فنفذ الخليفة وصيته ، ووجد ما أخبره به على ما هو عليه . انظره فى الإصابة ، ص ٩٠٠ .

أركان الخطبة

تتكون الخطبة الكاملة من أجزاء يتبع بعضها بعضاً ويرتكز كل واحد منها على سابقه ، ونحن نسميها أركاناً للخطبة جرياً على الغالب ، ولكنها في الواقع ليست أركاناً حتمية فى كل خطبة بحيث تكون الخطبة التى تخلو من جزء أو ركن منها مختلة ناقصة أو لا تستحق أن تسمى خطبة ، وإنما هو عمل فنى يراد به جعل الخطبة أدنى إلى الدقة والكمال ، كما يراد منه مساعدة الخطيب وإرشاده إلى ما يكمل به خطبته ويرفعها ويجعل السامعين أكثر استفادة منها ، وهذه الأركان قد تكون ضرورية فى الخطب الطويلة التى تتعرض لموضوعات هامة خطيرة كما هو الحال فى الخطب السياسية والبرلمانية وخطب الدفاع فى القضايا الكبرى .

وقد جاء تقسيم الخطبة فى محاضرات أرسطو(١) ، فقسمها إلى أربعة أقسام ، هى : مقدمة الخطبة أو التمهيد لموضوعها ، ويليها عرض الموضوع ثم التدليل عليه ودفع ما قد يرد عليه من اعتراضات ، ثم ختام الخطبة بتقرير النتيجة التى يريد الخطيب إقرارها فى أذهان الناس،ومواقفهم عليها أو استمالتهم إليها . وجرى الذين جاءوا بعد أرسطو على تقسيمه غير أن آخرين قسموها تقسيما أكثر دقة وإن كان لا يخرج عما رسمه المعلم الأول ، جعلها هؤلاء خمسة أقسام ، هى : المقدمة والعرض والتدليل والتفنيد والنتيجة ، وهو تقسيم لم يزد على الأول شيئاً سوى أن حلل الموضوع وقسمه . وأكثر الباحثين يجعل أجزاء الخطبة ثلاثة فقط ، هى : المقدمة والعرض والنتيجة ، والعرض يشمل عرض الفكرة وتبريرها والدفاع عنها ودحض معارضاتها ، وهذه التقاسيم ، تكاد تكون متحدة وخلافاتها لا تزيد جديداً ولا تحذف شيئاً .

ولنشرح كل جزء شرحاً وجيزاً .

---

(١) المراد بالتقسيم هنا بيان أجزاء الخطبة .

المقـــدمة :

الغرض منها

مقدمة الخطبة أو بدايتها حديث يبدأ به الخطيب خطبته لشد انتباه السامعين نحوه ، ولتهيئتهم للإقبال عليه والسماع لما سيقوله لهم ، وتمهيدا للفكرة التى يريدها ، وهى كما قلنا ليست حتمية فى كل خطبة . الخطبة القصيرة تستغنى عنها نهائياً ومع ذلك هى ذات أهمية ، وكما قال أرسطو هى أول ما يطرق سمع الناس ، فإذا كانت جذابة مشوقة أنجحت الخطيب وجعلت الناس يقبلون عليه وإقبالهم عليه يشد عزمه ويثير فيه النشاط والحمية ، وهى فى جملتها عامل تهيؤ للسامعين ، والزعيم أو القائد يهتم الناس بخطابه لأنه يقرر مصائر شعبه أو توجيه جنوده فيصغى له أتباعه وأعداؤه على السواء ، وهو لذلك ليس بحاجة إلى مقدمة يهيىء بها أذهان سامعيه ، ولكنه مع هذا قد يكون محتاجاً لها لتبرير اتجاهه نحو موضوعه أو تفكيره فيه .

جذب الانتباه

تمهيد للموضوع

فإذا رأى رئيس الوزراء فى دولة دمقراطية أن تدخل بلاده فى معركة مع دولة أخرى فجمع نواب بلاده لهذا الغرض فإن أتباعه وأعداءه مهتمون بحديثه متجهون لكل ما يقول . ولكن هذا لا يغنيه عن تقديم للموضوع الذى يريده . فلابد أن يبدأ بذكر الأحداث التى وجهته لهذا التفكير قبل أن يعرض أمر الحرب أو المسالمة .

وحين اجتمع أعضاء الدول المصدرة للبترول للنظر فى تثبيت أسعاره أو رفعها استمع العالم العربى والشرق لحديثهم بكل لهفة ، فإذا حدث لوزير البترول أن يلقى فى هذا الجمع خطبة فإن هذا الإصغاء لا يغنيه عن مقدمة لحديثه ، هذا لأن الأمر الذى سيدعو إليه له خطر وأهمية ولا يمكن الهجوم عليه بدون مقدمة . ومن الممكن أن تكون هذه بداية حديثه :

مثال لها

« إن البترول هو المصدر الرئيسى لحياتنا ، لسنا أمة صناعية ولا زراعية ولا حتى أمة تجارية تقوم حياتها على البيع والشراء ، إننا نشترى كل شىء

نحتاج إليه ، طعامنا وملابسنا ومشروباتنا وأيضاً وسائل انتقالنا وآلات البناء التى نبنى بها مساكننا ، كل هذا فضلا عن استيرادنا كماليات حياتنا من الدول الأخرى ، هذه الدول الصناعية تدور آلاتها وتعمل مصانعها بما تأخذ من البترول الذى تخرجه أراضينا ، من المصدر الوحيد الذى نعيش عليه ، وهم فى السنين الأخيرة رفعوا أثمان كل شىء يرد إلينا منهم ، رفعوا أسعار الآلات التى نخرج بها البترول ، وأسعار الأقمشة والأطعمة والسيارات وكل أنواع الكماليات من الثلاجات والغسالات والآلات وأنواع المذياع وغيرها ، أصبح ما نأخذه من ثمن البترول لا يكاد يكفى لربع ما كنا نشتريه من بضع سنوات ...... » .

ليست هذه مقدمة لاسترعاء سمع الحاضرين وإنما هى تمهيد لما سيقدم عليه من طلب الموافقة على زيادة أسعار البترول ، وهى ليست بعيدة عن الموضوع .

إسكات المعارض

ومن المواقف الداعية للمقدمة أن يكون السامعون معارضين لفكرة الخطيب وهم فى هذه الحالة ليسوا على استعداد لسماعه ، وربما قاطعوه أو تعمدوا عمل ما يصرف الناس عنه وقد تكون مقدمته هكذا .

..... إننى أعلم أن هذا الأمر ليس مقبولا لديكم ولكن ما الذى يمنع أن تسمعوا وجهة نظر خصومكم على الأقل لتدحضوها أو لتعرفوا ما سيقال لغيركم فتفندوه ، إنى أقبل بكل ارتياح معارضتكم ، ولكن لا أرضى لكم أن تقوموا بمعارضة عمياء جامحة لا تدرون لماذا عارضتم بها . أكره أن تكونوا مقلدين تندفعون فى أمر بدون أن تفحصوه وتعرفوا كل جزئياته . . أؤكد لكم أننى على أتم استعداد لأن أتخلى عن هذا الموضوع إذا لم تكن أدلتى مقبولة أو كان لديكم ما يدحضها ، إننا لا نريد إلا أن نصل إلى الحق والصواب ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، فلتستمعوا قليلا إلى وجهة النظر التى لدى ، فإن كان بها شىء من الخطأ فإنى أول من سيتخلى

عنها ويحاربها لأنني لا أريد إلا الوصول إلى الحق وأن أكون على خير ما يجب أن نكون عليه .

ثم يبدأ بالتسلل إلى موضوعه تدريجياً .

ومثل هذا الأسلوب حدث كثيراً فى برلماننا المصرى فى عهد الأحزاب وقيام المعارضات القوية واستعداد معظم الأعضاء لرفض الرأى المعارض لحزبهم ، ولكن الخطباء كثيراً ما كسبوا موقفهم بما لهم من لباقة وقدرة على التظاهر بأنهم غير متحزبين وإنما ينشدون صالح البلاد .

مقدمات القضايا

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة إلى شد انتباه القضاة لأنهم تلقائياً متجهون نحوه مصغون لكل ما يقول ، وهو مع هذا فى القضايا الكبيرة مضطر إلى مقدمة قد تطول والغرض منها هو التهيئة للموضوع ولبيان أنه يدافع للحق لا لأنه منوب من طرف معين .

وقف أحد المحامين فى قضية كبيرة فقال : ياحضرات المستشارين :

« نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية ، إنهم يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج ، فإذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعاً بصحتها كانت النتيجة المرتبة عليها صحيحة مقطوعاً بصحتها » .

بهذه العبارات أشعر القضاة أن لديه أدلة مقطوعاً بها لا تقبل أى طعن أو توهين وعقبها مباشرة أخذ فى شرح المقدمات التى كان يريدها .

فقـــال :

فى سنة . . . . ظهرت جمعية . . . . وأعلنت مبادئ طاهرة نقية استهوت قلوب الشباب ، فأسرعوا للانضمام إليها ، بل وتهافتوا عليها . . وبسرعة مذهلة عجيبة وجدنا لها فروعاً ومكاتب فى أنحاء البلاد حتى فى القرى النائية الصغيرة ، وبينما فرح الناس بمنهج هذه الجمعية الإصلاحى حزن لها حزب . . . لأنه وجد فيها منافساً يوشك أن يظفر دونه بأغلبية

الشباب . أخذ هذا الحزب منذ ذلك الحين على عاتقه محاربة هذه الجمعية فى كل مكان ، ونشبت المعارك بين الطائفتين فى كل مكان وجد فيه . . . من هنا يا حضرات المستشارين تنبهت الفتنة فى أنحاء قطرنا العزيز ، وقد كانت نائمة لعن الله من أيقظها ... » .

وكانت المرافعة دفاعاً عن شاب من الجمعية متهم فى قتل شخص ينتمى إلى ذلك الحزب ، وهذا المحامى قد تأتى لغرضه بهذه المقدمة قبل أن يعرض القضية ويبين أدلته لبراءة المتهم ودحض الأدلة التى سبقه بها وكيل النيابة .

وخطيب المسجد يتعرض لمثل هذا الموقف كثيراً ، ففى المعارك التى تقوم بين أسرة وأخرى كما يحدث كثيراً فى الصعيد ، وفى الخلافات التى تنشب بين جمعية وأخرى ، وفى عرض اقتراحات ليست مقبولة كثيراً لدى السامعين . فى هذا كله لا غنى له عن استخدام مقدمة لخطبته .

وقد تكون المقدمة ذكر حادث تاريخى موجز أو قصة عابرة بها ما يمس الموضوع الذى يدعو إليه ، ينتقل منها إلى موضوعه .

من هذا نرى أهمية المقدمة وأنها فى بعض الأحيان تكون ضرورية للخطبة . أما مميزات أسلوبها وصوغها البلاغى فأهمها :

١ — أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين على نحو ما سبق ، وقد يستطيع الخطيب بجاذبية كلامه أن يعيد إلى سماعه أشخاصاً هموا بالانصراف عنه ، وفى المقدمة والخطبة جميعاً يجب أن يتجنب الخطيب المبالغات وأعمال الانتباه القسرى أو الإتيان بحركات بهلوانية . . فكل ذلك يعود عليه بعكس ما يريد ، يصرف الناس عنه ويجعلهم لا يهتمون به ، قد يتجهون إليه فى أول الأمر ولكنهم لا يعبأون به بعد ذلك . الخطبة الجيدة والخطيب الناجح والإلقاء الجيد تجذب السامع دون حركة بهلوانية ،

انجذاب السامعين نحو الفكرة والرأى والموضوع ،والانجذاب فى هذه الحالة يكون دائماً وليس وقتياً كالذى ينتج عن انتباه قسرى بهلوانى .

حسن البداية

٢ — لكى يصل الخطيب إلى هذه الدرجة يبدأ بألفاظ واضحة مفهومة ، وأفكار قريبة لا تعوز إلى تفكير ، وبعد أن يطمئن إليه الناس ويتجهوا بأذهانهم نحوه يستطيع أن يتحدث عن الفكرة التى يريد ولكن مهارته تظهر فى مدى ما له من قدرة على تقريب المعانى البعيدة وتبسيط الآراء المعقدة .

تعدد طرق المقدمة

وفى أكثر الأحيان يستوحى الخطيب مقدمته من المجتمع الذى يحيط به فيأتى بكلام أو معان تناسب هذا المجتمع . وكما سبق يتوقف هذا على مقدرته الكلامية ومحصوله الأدبى واللغوى ، فبغير هذه المقدرة يعجز عن التعبير عما يطرأ أمامه كما يعجز عن توليد المعانى المناسبة .

وقد تكون المقدمة قص حادث موجز غريب أو مثير ثم ينتقل منه إلى غرضه .

وقف خطيب يتحدث عن حتمية العمل بالقانون الإسلامى وإقامة الحدود الإسلامية ، وكان قد اطلع فى صحيفة يومية عن حادث يتضمن جريمة قتل وسرقة فكان أول ما بدأ خطبته قال :

نشرت جريدة . . . . فى هذا اليوم تفاصيل جريمة قتل وسرقة . . شاب كان يصعد السلم إلى بيته فقابله اثنان أخبره أحدهما أن صاحب البيت يريد مقابلته وقاده إلى الشقة الخاصة بالمالك ، فما كاد يخطو إلى داخلها حتى طعن بسكين طعنة قاتلة . . وكان اللذان قابلاه قد اقتحما من قبل شقة المالك فقتلاه وسرقا حصيلته وخشيا أن يتعرف عليهما هذا الشاب فقتلاه أيضاً ليتخلصا منه ، ونقل الشاب إلى المستشفى وبه رمق واستطاع أن يصف الشابين . فماذا تظنون أن يكون جزاؤهما ؟ . هل كان يحدث هذا لو أن

هناك قانوناً إسلامياً ؟ . إن القانون الإسلامى ينص على أنه لو اشترك مائة شخص فى قتل شخص واحد لقتلوا به جميعاً .

ومن ثم استطرد الخطيب يذكر آثار القصاص وما فيه من استتباب الأمن وهدوء الحياة واطمئنان الناس ، فكانت مقدمته دليلا على ما يريد والمقدمة كما ترى واضحة قريبة .

٣ — لابد أن تكون شديدة الصلة بموضوع الخطبة ، فلا يكون بينها وبين الخطبة حين ينتقل إليها فجوة ، بل تكون الخطبة امتداداً للمقدمة ، وهو فى هذه الحالة إذا أطال المقدمة كان طولها توضيحاً للخطبة ، فإذا كان مضمون المقدمة بعيداً عن موضوع الخطبة كانت عديمة الفائدة لأن الحديث يكون عن موضوعين كل مستقل عن الآخر ولا يجوز أن تكون المقدمة ذات موضوع أصلا ، بل هى تمهيد وتوطئة للموضوع ، يراد منها تهيئة الأذهان إليـــه .

٤ — من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها إذا كانت موجزة جداً لم يكن ثم مقدمة ، وإذا كانت طويلة جداً ذهبت فائدتها أيضاً لأنها تستنفد قوة الخطيب ، فإذا انتقل إلى الموضوع كان قد أجهد وقلت حميته وفتر حماسه ، كما أن المستمع أيضاً يكون قد اكتفى وذهب تشوقه نحو السماع ، ولهذا يختار الخطيب مقدمة مناسبة فى طولها وفكرتها ويبدؤها بصوت متئد غير صارخ ، فإذا انتقل إلى الموضوع كانت الأفكار التى يعرضها هى الجانب الأهم فى حديثه ولها الجانب الأكبر من نشاطه وطاقته والمعانى التى يتعرض لها هى التى تكيف صوته وإلقاءه على نحو ما ذكرنا من قبل .

هذه الإرشادات والتعاليم الخطابية نجدها فى كتب النقد الأدبى كثيراً ، ونجد الخلفاء والولاة ومشهورى القواد والأثرياء العرب كانوا يؤاخذون

الشعراء بمقتضاها فينفرون من ألفاظهم النابية فى أول قصائدهم ويحاسبونهم على طول مقدماتهم وعلى غموض تراكيبهم ، وهذا كثير جداً فى أدبنا العـــربى .

مدح شاعر نصر بن سيار فأطال فى غزله أول القصيدة ، فلما انتقل إلى مدحه انتقده نصر بأنه استنفد طاقته فى شىء يخصه هو . وغضب هشام ابن عبد الملك على أبى النجم لأنه قال :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها فى الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول فساءه هذا التشبيه ، ونقد آخر كلمة « بوزع » فى قول مادح له بدأ شعره بغزل جاء فيه :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزأت بغـــيرنا يا بوزع

فاختار لحبيبته اسم بوزع وهو اسم ناب منفر .

وهكذا نجد أن ما ذكرناه من قواعد خطابية مرده إلى الذوق .

الموضـــوع :

نعنى بالموضوع جرياً على مذهب الأغلبية ما يشمل الفكرة التى يدعو إليها الخطيب والتدليل عليها ودفع ما عسى أن تقابل به من نقد واعتراضات . وهذا الجزء — كما هو واضح — أهم أجزاء الخطبة أو هو عمودها الفقرى وكيانها ، فالأجزاء الأخرى يمكن الاستغناء عنها ، أما هذا الجزء فهو الأساس وبقية الأجزاء جىء بها من أجله ، ومهمتها هى إنجاحه وتثبيت آثاره .

حين يصل الخطيب إلى هذا الجزء وذلك بعد فراغه من المقدمة إن كان ثم مقدمة ، يلخص موضوعه بإعطاء فكرة موجزة عنه أو شرحه إن كان يحتاج إلى شرح ثم يأخذ فى عرض الأدلة التى يراها مؤيدة له .

وقد يسبق الخطيب خطباء يوضحون الموضوع ويعرفون السامعين به ، وفى هذه الحالة يكفيه أن يذكر عنوان الموضوع فقط ، كما يوجز مقدمته ثم ينتقل إلى أدلته .

وتتوقف جودة هذا العرض على أمور أهمها :

١ ــ وحدة الموضوع : بحيث تتركز الخطبة فى أمر واحد يدور الكلام كله حوله وتتجمع الأدلة لتأييده وتقويته ، وقد تكون الأدلة قياساً منطقياً أو احتجاجاً بحادث تاريخى ، أو عمل لشخص ذى شهرة ولكنها كلها ــ على أى حال ــ تنتهى إلى غرض واحد ، وتصب كلها فى بؤرة واحدة ، وعمل الخطيب حينئذ هو تعميق الفكرة وتثبيتها لأن هذا يثير انفعال السامعين ويدفعهم إلى العمل بما يدعو إليه الخطيب .

ويخطىء الخطيب ويفشل إذا حشا خطبته بعدة موضوعات فإنها كلها تكون سطحية باهتة فى أذهان السامعين ، ومن السهل أن تزول كلها بعد زمن قليل أو بعد فراغ الخطيب من خطبته .

قد يدعو خطيب المسجد فى خطبته إلى قيام الليل وقراءة القرآن وصلاة النوافل وبذل الصدقة . . ويستريح السامعون لأنهم يسمعون دائماً جديداً ولكنهم قطعاً لا ينفعلون بما سمعوا انفعالا كافياً ، وكان الأولى أن يقصر خطبته على أمر واحد يكثر سوق الأدلة عليه والاستشهاد له ، ويتلو فى صلاة الجمعة آية من الآيات التى استشهد بها فى خطبته ، فكل ذلك يثبت الفكرة فى نفوس السامعين (١) .

٢ ــ ترتيب الكلام وترتيب الأفكار يبدأ أولا بالفكرة البسيطة ، ثم يتدرج حتى يصل إلى قمة ما يريده ، وفى القمة يبدو انفعاله وقوة صوته وقوة عباراته جميعاً . وعلى سبيل المثال : أراد خطيب مسجد أن يدعو

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا وشرحناه .

المصلين إلى التبرع لمساعدة ملجأ خيرى به أيتام وفقراء ، فكيف يوجه خطبته ويعرض موضوعه ؟ :

(أ) قد يأتى بمقدمة وجيزة تبين أن الإسلام دين التعاون وأن المسلمين أمة واحدة يجمعهم شعور الإخاء ويؤذيهم أن يكون بينهم جائع أو عار أو محتاج ، وأن الدين يأمرهم بتحاشي وجـــود شيء من ذلك بينهم .

(ب) ينتقل بعد هذا إلى التعريف بحال الملجأ الذى يدعو لمساعدته ويصف ما يقدمه للأيتام والفقراء الذين به (وهذا هو العرض) .

(ج) ينتقل من هذا إلى دعوتهم للتبرع (وهذا هو النتيجة) :

(د) يعينه فى هذا أمور كثيرة تتوقف على مهارته وثقافته وعمق تفكيره ، إن هؤلاء المساكين قد ينشىء الملجأ منهم نفوساً صالحة وأشخاصاً نافعين لمجتمعهم ، وإذا لم يعنهم الملجأ كانوا جرائم فساد وضرراً على الناس . من هؤلاء من أخنى عليهم الدهر وكانوا قبل ذلك أبناء تجار أثرياء أو زراع موسرين أو عباد صالحين . إن أى واحد من السامعين مهما كان ثرياً أو صحيحاً لا يأمن أن يصير أولاده إلى هذا المصير ، وقد يلح على ذويه المرض والفقر أو يطرأ عليهم سوء السلوك المدمر ، فكما يود أن يجد من يعين أولاده عليه أن يساعد هؤلاء .

هذه النقطة الأخيرة هى قمة الخطبة والتى ينبغى أن يتخير لها العبارات المثيرة ، وفيها يعلو صوته ويبدو انفعاله وأسفه وتحزنه ، وهو بهذا قد سار فى خطبته سيراً مرتباً انتقل فيه من عنصر إلى آخر انتقالا طبيعياً .

٣ ــ إذا انتقل الخطيب من الفكرة الأساسية إلى الأدلة التى يريد الاستناد إليها يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه فى موضوعه ، وليس من المحتم أن تكون أدلته منطقية من أنواع أقيسة المنطق ،

فالدليل المنطقى أقوى وألزم للخصم بالتسليم ولكن من الجائز للخطيب — وهذا هو الأكثر — أن يستعمل أدلة ظنية بمعنى أن مقدماتها أمور ظنية ، وهذه الأدلة كافية فى المواقف الخطابية وتسمى أيضاً أدلة خطابية ، بمعنى أنها غير مقطوع بها ولكنها تثير الحمية وتبعث حماس السامعين .

وليعلم الخطيب أن الحديث إلى الجماهير يعتمد على المشاركة الوجدانية وإثارة العاطفة ، كما يعتمد على براهين المنطق وأقيسته ، وهو لهذا قد يثير حماس سامعيه ويهيجهم نحو عمل ما من غير أن تكون الفكرة قد درست فى نفوسهم درساً منطقياً سليماً ، وفى هذا المقام قد يورد حادثاً مشابهاً للحادث الذى يتحدث عنه أو موقفاً لرجل من الحكماء والمشهورين فتنفعل نفس الناس به ، وأنت تشاهد الصحافة تلجأ لمثل هذا التأثير الوجدانى . فتكتب العناوين الكبيرة لبعض الأحداث لتجتذب الأنظار إليها ، وتستعمل الألفاظ الضخمة الطنانة مثل مأثرة عظيمة ، جموع حاشدة ، ثورة على الجهل ، قضاء حاسم نهائى على الفقر والجهل ، وأمثال ذلك ، كما تستعمل الرسوم والكاريكاتيرات للإيحاء .

ولابد أن يلتفت الخطيب إلى الأفكار المعارضة لفكرته ليردها ويدحضها فإذا كان هناك خطيب قد تقدمه معارض لرأيه ، استعرض أدلته فنقضها ، والمزايا التى قالها لرأيه فهون منها وذكر بجانبها مزايا الفكرة التى يدعو هو إليها . وفى هذا المقام تفيد السخرية العابرة والنكته المضحكة على ألا يسرف فى ذلك ، ويخطىء الخطيب ويسقط نفسه إذا تناول خصمه بالشتم أو طعن فى شخصيته ، وسلوكه ، أو رماه بالغباء .

شواهد أدبية

وفى أدبنا العربى شواهد كثيرة لهذا ، كان جرير وهو يناقض الفرزدق لا يجد من مفاخر آبائه وأجداده ما يجد خصمه ، فالفرزدق ذو نسب ، لآبائه مآثر كثيرة . وكان جرير يعدل عن هذا الجانب ليضحك الناس منه

ويلفتهم عن مناقشة مناظرتهما بالمنطق وهو يستعمل فى ذلك الشعر السهل الرقيق فيكون أسهل على الناس وأشيع على لسانهم. وكذلك كان شأنه مع كل خصومه وما كان أكثرهم ولكنه غلبهم بهذا الأسلوب كقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً　　　أبشر بطول سلامة يا مربع

ومربع هو راوية جرير ، وكقوله فى هجاء تيم :

تهيأت تيم لى جهـــلا لتقتلنى　　　كما تهيأ لاست الخارىء الحجر

وفى هجـاء النميرى :

فغض الطـرف إنك من نمير　　　فلا كعباً بلغت ولا كـلاباً

وكانت هذه الأبيات تشيع على ألسن الناس وينكسر بها خصوم جرير وهى مجرد سخرية لا منطق فيها ولا برهان عقلياً .

وإذا رجعت إلى النقد الذى كان يوجهه عباس العقاد إلى شوقى تجده يلجأ أيضاً إلى مثل هذا ، كان يستعرض أروع أبياته الشعرية وأجملها فيعرضها معرض السخرية ويقول : وأى شىء فى هذا البيت سوى حلية اللفظ . وكذلك فعل بأبيات رائعة مثل قول شوقى :

وإنما الأمم الأخـلاق ما بقيت　　　فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وليس بعامر بنيان قـوم　　　إذا أخلاقهـم كانت خراباً

على الأخلاق شدوا الملك وابنوا　　　فليس وراءها للملك ركـن

وكقوله فى «كارنارفون» واستكشافه مقبرة توت عنخ آمون :

أفضى إلى ختم الزمان ففضـه　　　وحبا إلى التاريخ فى محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى　　　فرعون بين طعامـه وشرابه

وهى أبيات غاية فى الروعة والجمال ولم يكن نقدها بأكثر من عرضها معرض السخرية والتهاون فيوهم قراءه أنها ليست بشىء سوى ألفاظ جميلة .

وتفنيد الرأى المعارض لرأى الخطيب أمر هام فى الخطبة فإذا كان الخصم سيتكلم بعده ذكر ما يتوقع أن سيستدل به وإذا وقع فعلا على الأدلة التى كان خصمه أعدها نال تفنيدها من الخصم وفتر عزيمته أثناء سردها ثم يكون أثرها فى نفس السامعين قليلا . ولهذا يقابل المتكلم الثانى كلام صاحبه بالمثل فلا يكتفى بعرض الدليل الذى نقض؛ بل يهون ما سبق من اعتراض عليه وربما تظاهر الخطيب الثانى بأن هذا الدليل لم يكن لديه ولا هو أعده ولكن صاحبه ذكره به ثم يعجب من تهوينه منه وعدم إدراكه مغزاه . ولهجة الكلام وتكييف الصوت والابتسامة الخفيفة تفيد فى هـذا كثيرا أمام الجماهير .

وربما لا يكون هناك خصم ولا معارض ولكن الخطيب يعرض رأياً ، وفى هذه الحالة يستعرض الأضرار التى تنشأ عن إهمال هذا الرأى والمتاعب والمشقات التى قد تواجه من ينفذ فكرته ، ولكنه يهونها ويبين أنها لا شىء بجانب الثمرة المرجوة من مشروعه . أو يتوقع رأياً معارضاً فى أذهان السامعين فيرده ـ كأن يقول : قد يظن بعض الناس أن هذا العمل شاق أو يقول قائل . . . الخ ، وأنت تجد كثيراً فى كتب الأزهريين مثل فإن قيل كذا أو فإذا قال قائل كذا وكذا . . . قلنا كذا وكذا .

على أى حال عرض الموضوع لابد له من نوعين من الأدلة ـ أدلة تؤيده وأدلة تدفع ما يعارضه أو ما عسى أن يرد عليه من اعتراض .

والذى يطلب من الخطيب هو الوضوح والاتجاه دائماً نحو الموضوع .

الخاتمـــة والنتيجة :

بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه وسوق أدلته عليه . ينتهى إلى الغرض الذى أعد الخطبة من أجله ـ مثل طلب براءة المتهم ، أو الحكم

عليه بأقصى عقوبة أو طلب انتخاب مرشح معين . أو الاستعداد للمشروع الذى يدعو إليه . . . إلخ. وقبل أن ينتهى إلى هذا الطلب عليه أن يثير انتباه الناس أكثر ، وأن يركز اهتمامهم على مطلبه . حتى لا يورد طلبه على فكر مشتت وذهن خال أو شبيه بالخالى من الأسباب ، وهذا ما يسمى خاتمة الخطبة . فما طريق نجاحها ؟

أكثر الخطباء يعودون بتلخيص لعناصر الخطبة وأهم أفكارها ، وفى هذه الحالة لا يسرف الخطيب فى التلخيص لأنه حينئذ يمل ويأتى بعكس ما أراد . وأيضاً لا يستعمل العبارات التى سبقت بعينها ، وإنما يأتى بتعبير آخر جامع واضح ذى تأثير ،وقد يجنح إلى التركيز والتشديد على الاستجابة لرأيه ، ولكنه لا يستعمل الأمر المجرد الجاف وإنما يبين أهمية رأيه ويشير إلى التحذير من إهماله . كأن يقول :

هأنتم أولاء ترون مدى ما فى هذا الرأى من صلاح وفائدة وأعيذكم بالله أن تند عنكم مزاياه أو يغيب عن أذهانكم قدره ومرجو فوائده .

فإذا كان خطيباً دينياً حذر من مخالفة الله أو البعد عن سنة نبيه ، وقد يختم كلامه بآية قرآنية أو حديث نبوى قصير ، فإذا كان يدعو إلى التبرع بمال لعمل ما كان من المناسب أن تكون خاتمته هكذا :

« هأنذا قد بينت لكم ما فى هذا العمل من فائدة ودعوتكم للتبرع له ، ولكل أن يتبرع بما شاء ، ومن سخا سخا الله له ، وما لكم إنما هو مال الله ، فأنفقوا من مال الله الذى آتاكم ، اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً ، ووفقنا جميعاً لما فيه رضاك وثوابك »

وقد يجدى أن يقول :

أيها القوم . . . تبين لكم الآن أنكم مسئولون عن هذا العمل ومحاسبون على تركه أمام الله، ومهما أنفقتم فى سبيله فهو قليل بجانب فائدته، وقد برئت

إلى الله وبلغت عنه وعن نبيه : « ها أنتم تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »

وقد يلجأ الخطيب إلى تلخيص أفكاره أولا ثم يرتب عليها طلبه فيجمع بين الأمرين، وبأى طريق يختم خطبته عليه أن يختار العبارات الواضحة القوية بقدر ما يستطيع .

وأهم شروط الخاتمة ما يلى :

١ — ألا تكون بعيدة عن الموضوع ولا مجددة لأدلة أو آراء جديدة لأنها حينئذ لا تكون خاتمة وإنما تكون جزءاً من الخطبة وامتداداً . ومهمة الخاتمة هى تركيز معانى الخطبة واستمالة الناس أكثر نحوها .

٢ — أن تكون قوية فى تعبيرها وأيضاً فى إلقائها — لأنها آخر ما يطرق سمع الناس ويبقى فى أذهانهم ، وربما كانت الخاتمة ضعيفة فى تركيبها أو فاترة فى إلقائها فتذهب فائدة الخطبة كلها ، والخطيب الناجح يلقى خاتمة خطبته فى حماس واقتناع وثقـــة ، مشعراً جمهوره بأنه انتهى إلى رأى لا يحتمل جدلا ولا يحسن أن يغضى عنه :

أول خطبة للسفاح

وفى أول خطبة خطبها أبو عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس ذكر أولا قرابتهم من رسول الله وحقهم فى الخلافة بعده ، وذكر رأى أهل الشام أنصار بنى أمية وسفهه . وبين أن الله أملى للأمويين حتى آسفوه (١) فانتقم منهم ونصر بنى العباس ، ونصرهم خير سيق إلى أهل الكوفة ،

---

(١) أغضبوه .

ورجا ألا يأتيهم الجور من حيث جاءهم الخير ، وهو تحذير عن مخالفتهم له ، ثم ختم خطبته بهذه العبارات :

يا أهل الكوفة . . . أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا . . أنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدت فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح (١) .

فهذا ختام لم يخرج عن جو الخطبة وقد ختم بالوعد المغرى والوعيد المخيف وهو آخر ما يبقى فى ذهن سامعيه : زدت فى أعطياتكم فاستعدوا فإنى سفاح للدماء منيح لمن أسطو عليه ، وهذا ما يحتاجه خطيب يؤسس دولة ويخشى الثورة عليه والتفرق عنه .

وقد كان السفاح يومئذ موعوكاً ، وكان عمه داود بن على على درجة من المنبر أدنى منه فوقف وألقى خطبة أخرى .

خطبة داود ابن على

حمد الله أن أهلك عدوهم ورد إليهم ميراثهم من رسول الله، ثم ذكر أنهم لم يثوروا لغرض لهم . . ولكن كانت أموركم ترمضنا (٢) ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم، ووعد أن يلزموا كتاب الله وسنة نبيه ثم أنحى على بنى أمية باللائمة وبين سوء فعلهم ، ثم تحدث عن السفاح وأثنى عليه واعتذر عن مرضه وبين أن بنى العباس لما يستردوا حقهم بعد. ثم كان ختام خطبته هكذا :

. . . فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعن أنفسكم فإن الأمر أمركم . . . ألا وإنه ما صعد منبركم هذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار إلى أبى العباس بيده) — فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا

---

(١) تروى الثائر المبير ، أى المهلك . وظاهر العبارة التهديد ، وتأولها بعض المحدثين بأن السفاح المنيح الجواد كثير العطاء ، وبهذا تكون خاتمة الخطبة وعدا وأمانى ولا وعيد بها .

(٢) تحرقنا وتوجعنا ، أى كنا فى ألم لما تعانونه .

حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم . . . والحمد لله على ما أبلانا وأولانا .

هذه خطبة جيدة وختام جيد .

أهل الكوفة شيعة على، لكن العباسين لا يريدون إثارة عداوتهم ، فقال داود فإن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا، وفى الختام ذكر عليا ثم أكد لهم بقاء الخلافة فى أيديهم .

الخاتمة متصلة بالخطبة اتصالا قوياً لأن الخطبة كلها دارت على أن الخلافة حق لهم والخاتمة أكدت بقاءها فيهم حتى تقوم الساعة .

وهكذا تجد خطباً إسلامية كثيرة مرتبة ترتيباً فنياً .

٣ — وآخر ما نذكر من صفات الخاتمة أن تكون قصيرة على نحو ما رأينا وحاسمة ومشوقة . هذه هى أجزاء الخطبة الفنية الكاملة والخطب الطويلة تقوم عليها جميعاً ولا يغنى هـذا الشرح عن الرجوع إلى مطولات الخطب وتحليلها وتبين مدى تكامل هذه الأجزاء بها .

أما من ناحية التدرب على الإلقاء فلا بد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها فى وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدماً .

هذا وقدمنا لك أنه لا بد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الأدبية خطباً وشعراً وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن الخطيب راكداً .

وهذا يفيد الخطيب فى الحالات التى يتعرض فيها للارتجال .

إعداد الخطبـــة وارتجالها

الخطبة قد تكون معدة وقد تكون مرتجلة .

إعداد الخطبة

والخطبة المعدة موضوع إنشائى يستدعى من الخطيب أن يفكر فيه تفكيراً مناسباً للحادث الذى تلقى فيه الخطبة . يفكر فى عناصره واحداً بعد واحد ثم يعمل على ترتيبها أيها يبدأ به وأيها ينهى به كلامه ، ولا يكفى التفكير فى المعانى بل عليه أن يفكر أيضاً فى العبارات التى يعبر بها وفى طريقة مواجهة الجماهير بها وكيفية بداية الخطبة وفى موضوعها وأدلتها لا يكفى مجرد التفكير الشخصى بل لا بد من الرجوع إلى المصادر التى تفيد فى صنع الخطبة ، وحقاً أنما يفيده الخطيب من اطلاعه الخاص وقراءته السابقة يمده بمعان وأدلة ولكن لابد خصوصاً للمبتدئين من مراجعة المصادر التى تمد بقوى أكثر وكلما كثرت مواجهة الخطيب للجماهير وطالت ممارسة الخطابة كان الإعداد أسهل عليه ، والذى يقع فيه الكثيرون من الأخطاء هو أن يغتر الخطيب بثناء الناس عليه فى موقف ما يكون قد تعوده فيكتفى بذلك ويقطع مداومة قراءته واطلاعه، حينئذ يكون مضطراً أن يكرر نفسه وأن يعيد فى مسجد أو مجتمع ما قاله من قبل فى آخر وهذا يسقطه فى نظر سامعيه من جهة ، ثم يقضى على حماسه ونشاطه من ناحية أخرى ، فيصير إلقاؤه فاتراً لأن تأثيره أيضاً أصبح فاتراً ، وربما اغتر خطيب مشهور بإقبال الناس عليه فاكتفى بما عنده ولكنه لا يلبث أن يفقد شهرته . وكبار الخطباء ومشهوروهم فى الشرق والغرب كانوا يقضون وقتاً فى إعداد خطبهم قبل أن يخرجوا بها إلى الناس، هذا مع قدرتهم البالغة على الكلام . سعد زغلول ، وتشرشل ، ومصطفى كامل ، وتوفيق دياب ، وأحمد حسين ، وغيرهم كانوا يعدون خطبهم إعداداً جيداً، وتنال خطبهم لهذا إقبالا كبيراً من الناس ، وما زال

الناشئون يحفظون من كلام سعد زغلول نماذج أدبية لا يمكن أن تكون عفو الخاطر . ذلك أنه تعلم فى الأزهر وكان يجيد التعبير الأدبى ويحرص على قواعد النحو ، فكانت خطبه خليقة أن تحفظ وتدرس . وكان كل من توفيق دياب وعلى الجارم ومنصور فهمى يتكلف انفعالا أثناء خطابته فيثير سامعيه أكثر مما يثير قارئيه .

أما الخطبة المرتجلة فهى صدى للخطبة المعدة .

قد يفاجأ الخطيب بأنه مطلوب منه أن يتحدث فى مناسبة ما لساعته ولم يكن لديه علم أنه سيواجه هذا الموقف فماذا عسى أن يكون موقفه ؟

بعض الناس يضطرب ويتلعثم ، فإما ألا يجد ما يقوله أو يقول كلمات عابرة يعرفها جميع الناس ، وهذا فى الواقع ليس خطيباً وإن كان قد حل الموقف بطريقة ما . وبعض الناس يقف بثبات ثم يجتر من ذاكرته ويستوحى من الموقف بضع جمل وعبارات تعجب السامعين وهو فى هذه الحالة قد ألقى حقاً خطبة وإن كانت قصيرة .

الخطبة المرتجلة على أى حال تكون قصيرة والسامعون لا يتوقعون من قائلها أن يطيل ولكن يعجبهم أن يقول شيئاً ثميناً .

والخطيب المطلع ذو الدربة والممارسة يجد من خطبه الماضية مدداً لخطبته المرتجلة — ولهذا قلنا إن هذه صدى لتلك ، وسعة الاطلاع على أى حال هى ذخيرة الخطيب ، وربما طلب من خطيب أن يرتجل خطبة طويلة ذات موضوع . وهذا كثيراً ما يحدث فلا يسعفه إلا ما له من سعة الاطلاع .

هبك ذهبت إلى حفل أو مسجد أو مجتمع كبير لتستمع إلى متكلم سيخطب الناس أو يحاضرهم ثم علم الحاضرون أن المتكلم قد عاقه حادث عن الحضور وأنه لن يحضر أصلا ، ثم كيلا ينصرف الجمع الكبير خائباً — طلب إليك أن تقوم بالخطبة وأصبحت أمام أمر واقع فكيف يكون موقفك ؟

ليس من الجائز هنا أن تلقى بضع جمل أو كلمات عادية ، ولكن لا

ينقذ الخطيب فى هذا الموقف إلا ما لديه من مكونات ثقافية ومعلومات واسعة، وربما تحدث الخطيب المرتجل فأجاد وأحسن أكثر مما كان يتوقع من الخطيب الأصلى. هذا لأنه مكون فكرياً وأدبياً.

ولا يجمل بالخطيب المرتجل أن يتعرض لآراء جديدة أو نظريات غير مدروسة لديه لأن هذه لا تكون إلا نتيجة تفكير طويل وفحص واستعراض للموضوع من كل جوانبه وهذا ما لا يستطيع له وقت المرتجل فأولى به أن يتحاشاه.

قوة البديهة

والخطباء .. وخصوصاً المحامين — يحتاجون إلى حضور البديهة، وسرعة الخاطر، وربماسنحت للمحامى كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدها بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهة الحادة عن ذخيرة الثقافة والمحصول الأدبى.

مواجهة حفل زفاف

ذهب شخص إلى حفل زفاف به جمع من الناس وعدد من الكبراء فطلب إليه أن يتحدث وأن يهنىء العروسين فارتبك واحمر وجهه ولكنه لم يستطع التخلص من الموقف فقال ... إننى مسرور جداً بهذا الزفاف لأنه ربط بين أسرتين كريمتين، ولأنى أعلم أن العروسين من ذوى المميزات الإنسانية، وأسأل الله أن يأتى منهما نسل كريم ينفع الأمة كلها، وإنى أقدم لهما ولأسرتيهما خالص التهنئة وأطيب الأمانى بمستقبل زاهر وحياة سعيدة رافهة فبالرفاء والبنين وبارك الله زواجكما ومستقبلكما ...

هذا كلام ليس بالضعيف ولكنه غير كاف ولا جديد فيه.

وواجه آخر مثل هذا الموقف فقال:

مثال آخر

إننى مع ابتهاجى وسرورى لاقتران عروسينا وأسرتيهما أود أن نقدر هذا الموقف قدره وأن ندرك معنى الزواج وسموه.

ليس الزواج مجرد متعة جسدية ولا عملية نتاج بشرى، وإنما هو موقف قداسة وطهارة يشهده الناس على الأرض وتشهده الملائكة فى السماء، إنه

نوع من عبادة الله والانقياد لتعاليم دينه ، تعاون قبل كل شيء على السعادة وإخلاص روحين إخلاصاً يؤدى إلى الامتزاج فى كل شيء: فى الأرواح والعواطف والميول والأمزجة ، ومن هنا لا ينشأ مجرد نسل وإنما بداية أسرة لها مميزاتها وخصائصها . وهل وجودنا فى هذا الكون إلا نتيجة قران بين آدم وحواء ؟

انظر الكون وقل فى وصــفه   كل هذا أصــله من أبوين

إنه سر الخلود وامتداد الجنس وبقاء النوع ، إنه الفطرة المنبعثة فى هذا الكون، الطيور والأشجار وكل الحيوانات والنباتات لها مثل هذه الرابطة، فليست مجرد عاطفة ولا لقاء جنسى عابر، ولكنها سر البقاء والخلود، وهذا سر قداسة الزواج وسموه وجلاله .

إن الواحد منا يغار على ابنته أو قريبته وتثور غيرته وغضبه حين يلمسها شخص أجنبى أو حتى يخاطبها بكلمة نابية ، وكثيراً ما قامت الخصومات والعداوات لأمر بسيط كهذا ، ولكنه حين يعقد قرانها تذهب غيرته ويسلمها لقرينها بل يصير زوجها أقرب إليها من جميع ذويها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زوج فاطمة : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

إننا الآن نحتفى بآدم وحواء جديدين، وإنه توفيق من الله أن جمعهما فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات . . . باركوا جميعاً هذا الزفاف وادعوا للزوجين بأطيب وأثمن ما تتمنون من الله تعالى .

وهذا الخطيب استطاع أن يكسو حديثه ثوباً فلسفياً رفع به قيمة خطبته ومرجع ذلك إلى ثقافته ومحفوظاته الأدبية جميعاً .

وقد كان الخطباء فى عصور الخطابة القوية المزدهرة وهم ذوو القدرة

على الكلام والدراية به يستعدون لخطبهم ويتخوفون اللحن فيها ونقد السامعين لهم ، وربما اعترت الواحد منهم هيبة يعزب بها الكلام عن ذهنه ويرتج عليه، وكان عبد الملك بن مروان يقول: شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن، وقيل له يوماً: قد عجل الشيب عليك، فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين (١) .

ويجدر بنا بعد هذا الذى شرحناه أن نستعرض أمثلة لبعض الخطب الشهيرة المتكاملة .

* * *

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣ .

أمثلة للخطب المتكاملة

١ – خطبة للإمـــام على

. . . أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته(١) الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء وديث بالصغار والقماءة (٢) وضرب على قلبه بالإسداد (٣) وأديل الحق منه بتضييع الجهاد (٤) وسيم الخسف ومنع النصف (٥) .

ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم فى عقر دارهم (٦) إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم (٧) حتى شنت الغارات عليكم (٨) وملكت عليكم الأوطان ، وهذا أخو غامد (٩) قد وردت خيله الأنبار (١٠) وقد قتل حسان بن حسان البكرى وأزال خيلكم عن مسالحها (١١) .

---

(١) الجنة : الوقاية . (٢) ديث : وصم وأهين ، والقماء الحقارة والمهانة

(٣) السدود والأغطية والمراد قسوة القلب وجموده . وإدالة الحق منه صارت الدولة والقوة للحق عليه .

(٤) سيم الخسف : حمل المشقة والذلة يقال سيم العذاب وسيم الخسف

(٥) النصف العدل أى يصب عليه الظلم .

(٦) وسط دارهم والمراد هجم عليهم فى بلادهم .

(٧) التواكل التهاون والتراخى . والتخاذل التقاعد وعدم الاتحاد فى الرأى .

(٨) شن الغارة شمولها وتغطيتها القوم . (٩) سفيان بن عوف الغامدى قائد جيش معاوية .

(١٠) بلد على نهر الفرات .

(١١) جمع مسلحة المكان الذى يعد به السلاح والجند المسلح .

إثارة

ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها(١) وقلائدها ورعاثها (٢) ، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام(٣) ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم(٤) ولا أريق لهم دم ، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً ، بل كان به عندى جديراً ، فيا عجباً ، عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وترحاً(٥) ، لقد صرتم غرضاً يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون(٦) . فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : هذه حمارة(٧) القيظ ، أمهلنا ينسلخ(٨) عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء قلتم : هذه صبارة القر(٩) أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فراراً من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفر .

توبيخ

يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال(١٠) وعقول ربات الحجال(١١) لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ! ! معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً(١٢) قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً(١٣) وشحنتم صدرى غيظاً ، وجرعتمونى

(١) سوارها والقلائد جمع قلادة ما يلبس فى العنق .
(٢) القرط الواحد رعثة .
(٣) يريد بالتذلل وطلب الرحمة . ووافرين أى لم يخسروا شيئاً ولا أصيبوا .
(٤) جرح
(٥) الهم والفاقة .
(٦) تسكتون على عمل ما يغضب الله .
(٧) شدة الحر .
(٨) ينتهى ويذهب .
(٩) شدة البرد .
(١٠) عقول الأطفال جمع حلم .
(١١) جمع حجلة قبة المرأة والعروس .
(١٢) السدم الهم والأسف والغيظ .
(١٣) جروحاً : يعنى أنهم آسفوه .

نغب التهمام(١) أنفاساً ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، لله أبوهم(٢) ، وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني ؟ . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وهأنذا قد ذرفت(٣) على الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع ، لا رأي لمن لا يطاع ، لا رأي لمن لا يطاع (٤) .

ختـــام

تحليل هـــذه الخطبة :

الجو الذي قيلت فيـــه :

بايع المسلمون علياً بالخلافة بعد عثمان عدا معاوية الذي كان والي الشام ، ولما نشبت الحرب بينهما ، كان جيش معاوية ذا طاعة عمياء لا يسأل لماذا قام ولا لماذا قعد ، وكان جيش علي يناقشه في كل عمل وتبدو منه اقتراحات كثيرة ، وكان علي يقترح الرأي الصائب فيعارضه أصحابه ، فإذا أذعن لجماعة غضبت الأخرى ، ولم يكن ذا حزم وشدة ، ولا ذا دهاء ومكر ، واستطاع معاوية أن يضم إليه ولايات أخرى فكان ملكه يتسع وملك علي يضيق حتى لم يبق له إلا العراق ،وأخيراً غزا معاوية العراق وقتل جيشه والي الأنبار من قبل علي ، وهو حسان البكري ، وفي هذه المناسبة قال علي هذه الخطبة .

هـــدف الخطبة :

هدف الخطبة الأساسي هو تحريض أهل الكوفة على الغزو والانتصار من عدوهم .

---

(١) جمع نغبة كجرعة والتهمام الهم .

(٢) كلمة تعجب .

(٣) زدت على الستين .

(٤) يريد أن الرأي الصائب إذا لم ينفذ صار عديم الفائدة وهو ذو رأي ولكن رأيه يخالف .

أجـــزاء الخطبة :

تشتمل الخطبة على مقدمة وهى بيان فضل الجهاد ، وما له من أثر فى عزة المجاهدين ، وما لتركه من آثار تجر الذلة والهوان ، وهى مقدمة وثيقة الصلة بموضوع الخطبة .

انتقل من المقدمة إلى توبيخ قومه على تقاعدهم عن الجهاد ، وعدم استجابتهم لدعوته أن يحاربوا ، ثم أخبرهم بنتيجة ذلك وهى قتل حسان ودخول الأنبار ، وتلا ذلك توبيخ آخر واستحثاث على القيام للغزو .

وختم الخطبة بتأكيد أنه ذو رأى وعلم بالحروب ولكنهم يفسدون رأيه بعدم طاعته .

وهذه هى أجزاء الخطبة وأهمها هو الموضوع ، فكيف واجهه وما هى المعانى التى استثار بها الإمام أصحابه ؟ ! .

حمل قبل كل شىء أصحابه مسئولية هذا الحادث لأنه دعاهم لطرد عدوهم بكل ما يمكن أن يدعو به قائد فتباطئوا ، ثم استثار حميتهم بما أهين به النساء مسلمات وذميات وكيف كانت المرأة تمتهن كرامتها وتسلب حليها فلا تجد رجالا يحمونها ، وإنما تلجأ إلى طلب الرحمة من ممتهنيها ، وقد غنموا ولم يخسروا شيئاً ، وبين أن هذا يبعث الحزن القاتل ، وهو يريد بها أن يثير حماسهم ويشعرهم بأنهم يحتملون لوماً لا يطيق مثله غيرهم ، ثم أذكى هذه الروح بذكره أن القوم انتصروا على باطلهم وأن قومه خذلوا الحق فتحملوا مسئولية مضاعفة. وبلغت الخطبة قمتها فى موضعين : فى ذكره أنهم يتقاعدون عن الحرب متعللين بالحر تارة والبرد أخرى ، وبوصفهم أن لهم سمات الرجال وعقول النساء والأطفال ثم بتمنيه أنه لم يكن عرفهم .

الخطبة تدرجت تدرجاً منطقياً ، كل مرحلة أسلمت للتى تليها وكل فكرة كانت مقدمة لما بعدها .

الجهاد طاعة وعزة وهم بتقاعدهم سدوا على أنفسهم أبواب الجنة

وجلبوا على أنفسهم الذلة ، قتل واليهم وأهين نساؤهم ، إن الرجل الكريم لا يحتمل هذا الهوان ، فهؤلاء إذن ليسوا رجالا . والإمام محارب له تاريخه الحربى ، وما كان يحتمل هذه الهزيمة لو كان له جيش مطيع ، ولهذا ندم على تعرفه بهم لأنهم جروا عليه التهم الكاذبة حتى اتهامه أنه ليس محارباً .

ثم جاءت خاتمة الخطبة وثيقة الصلة بأولها ، لأنه وبخهم على عدم طاعته، وفى أولها قال إنه دعاهم مراراً للحرب فلم يطيعوا .

الخطبة كلها مصبوبة فى قالب متماسك وألفاظها قوية وجملها قصيرة ذات إيحاء مؤدية غرضها من إثارة الشجاعة والحماس .

٢ ـ خطبة زياد البتراء

مقدمة

أما بعد،فإن الجهالة الجهلاء(١) ، والضلالة العمياء(٢) ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم(٣) من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ،كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى(٤) الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات(٥) ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير المنصوبة(٦) ؟ والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة

(١) الجهالة الشديدة مثل ليلة ليلاء .

(٢) التى تتخبط على غير هدى .

(٣) السفيه السيء الخلق وضعيف العقل ، واشتمال الحلماء عليه يعنى أن الكبار العقلاء لم يتركوه.

(٤) الزمن الدائم .

(٥) يريد شغلت الدنيا بحبها حواسهم فلا ينظرون لغيرها ولا يحسون بشيء سوى ما يشتهون .

(٦) جمع ماخور وهو بيت الفحش ويطلق على الخمارة .

عن دلج الليل(١) وغارة النهار، قربتم القرابة وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس(٢) كل امرىء منكم يذب عن سيفه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم(٣) حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب(٤) حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً، إنى رأيت هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف.

الموضوع

وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى(٥)، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصى، والصحيح بالسقيم(٦) حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد(٧) أو تستقيم قناتكم(٨). إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها(٩) واعلموا أن عندى أمثالها.

من نقب منكم عليه(١٠) فأنا ضامن لما ذهب من ماله، فإياى ودلج الليل(١١) فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه(١٢)، وقد أجلتكم فى ذلك

---

(١) دلج الليل السير فى ظلمته للتلصص والفتك، وهو يعنى: كان يجب أن يكون بينكم نهاة عنه
(٢) المختلس السارق وغض عليه وعنه أغضى وتركه.
(٣) دفاعكم عنهم.
(٤) أطرقوا وراءكم: استتروا بكم وكنوس جمع كانس وهو الظبى يستتر فى كناسه وهو مأواه ومنه الجوارى الكنس ومكانس الريب أماكنها.
(٥) أخذ السيد بذنب عبده.
(٦) يريد أنه يعاقب لأدنى سبب.
(٧) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين بهذين الاسمين خرجا للصيد فعاد سعد وفقد سعيد.
(٨) حتى تستقيموا كالرمح.
(٩) علوها على غميزة وموطن عيب.
(١٠) من سرق ماله بنقب بيته.
(١١) يريد إياكم والتلصص ليلا ولا يستعمل التحذير للمتكلم إلا قليلا.
(١٢) أرقته.

بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم(١) ، إياى ودعوى الجاهلية(٢) فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إحن(٣) فجعلت ذلك دبر أذنى(٤) وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته ، إنى لو علمت لو أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته(٥)، فإذا فعل ذلك لم أناظره(٦)، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور سيبتئس .

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة(٧) نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء(٨) الله الذى خولنا(٩) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا(١٠) ، واعلموا أنى مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث :

---

(١) لا يمضى على المدلج زمن إلا بقدر ما أعلم به وأحضره .
(٢) التناصر عصبية وجهالة وسفها .
(٣) ضغائن وأحقاد .
(٤) أهملته ولم أحفل به .
(٥) حتى يكشف هو عن عدائه لى .
(٦) لا أجادله بل أقتله بلا مناقشة .
(٧) مدافعون .
(٨) الفيء الخراج ومال الغنيمة — يريد الذى أفاءه الله علينا وحبانابه .
(٩) أعطانا ومنحنا ، يريد: يدافع عنكم من هذا المال الذى جعلنا الله قيمين عليه .
(١٠) بصراحتكم ومكاشفتكم ، أى لا تبطنوا لنا غشاً .

لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ورزقاً عن إبانه(١) ولا مجمراً(٢) لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم(٣) وكهفكم(٤) الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا(٥) حاجتكم ، مع إنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل .

وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله(٦) ، وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة(٧) ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

الجو الذى قيلت فيه الخطبة

زياد بن أبيه – وستأتى ترجمته – كان أحد دهاة العرب ، وكان ذكياً هماماً يجيد الخطابة ، وامتاز بسداد الرأى والكياسة ولكنه كان صارماً عنيفاً ، وكان من أنصار على بن أبى طالب ضد معاوية ، ولما تم الأمر لمعاوية بعد مقتل على استلحق زياداً وقال إنه أخوه ابن أبى سفيان ، وأن أباه كان قد وقع على سمية فى الجاهلية ، وقبل زياد هذا الاستلحاق فانضم للحزب الأموى ، وكان من رجال الدولة المعدودين حتى مات سنة ٥٣هـ . وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له البحرين والسند

---

(١) وقته المحدد له .

(٢) تجمير الجيش إبقاؤه فى أرض العدو ، والبعث ما يبعث مدداً للجيش .

(٣) الساسة جمع سائس يريد نقوم بسياستكم والحفاظ عليكم .

(٤) إنكم تحتمون بهم كما يحتمى الشخص فى بيته أى أنهم يدافعون عنهم ويحمونهم .

(٥) يريد بهذا أن يؤكد لهم ثبات الدولة وأن أعمالهم العدائية وأحقادهم تعود عليهم مضراتها ، وأردف أنهم خير لهم من غيرهم .

(٦) على طرقته ووجوهه .

(٧) يهدد بأنه سينقم ممن يخرج عليه .

وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة فصار والياً للعراقين وهو أول من جمع له بينهما .

كان العراق من حزب علي ، وأهله يكرهون الشام وبنى أمية ، وكان موقف زياد بينهم والياً لمعاوية شاذاً غريباً ، لأنه كان قبل ذلك يقف ضده بجانب علي ، ولكن زياداً سد باب النقد والاعتراض عليه باستعمال شدته المألوفة وحزمه الصارم ، وخطبته هذه تسمى البتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة ولا بحمد الله (وقيل لغير ذلك) . وكان أهل العراق قد أدركوا بعد تهاونهم فى نصر علي أنهم ارتكبوا إثماً كبيراً فأظهروا تمرداً على معاوية وارتكبوا أموراً كثيرة منكرة ذكر زياد بعضاً منها فى خطبته وحذر منها وبين لهم أن بنى أمية خير لهم من غيرهم . وبكل هذا التهديد استطاع زياد أن يثبت نفسه ويثبت موقفه الحرج .

تحليل الخطبـــة :

غرض الخطبة الأساسى هو القضاء على ما كان بالعراق من شغب وتهدئة الجو للدولة ، وقد رأى أن يصل إلى مأربه بهذا التهديد الرهيب ونجح فيما أراد ، ولم يستقم العراق بعد عمر بن الخطاب إلا لزياد والحجاج ، ولكن زياداً كان ذا كياسة وحذق فلم يجعل خطبته كلها تهديداً ووعيداً ، بل وعد المستقيمين خيراً وجعل لهم الحق فى محاسبته ، وأعلن أنه لن يحتجب عن ذوى الحاجات ، ولن يحبس العطاء أو يحجز البعث ، وبهذا كانت له أمنيات بجانب تهديده .

أجـــزاء الخطبة :

فاجأ زياد سامعيه بأنهم ينغمسون فى أمور لا يقرها الإسلام وهو عمل لا يقدم عليه مسلم يؤمن بحساب الآخرة ، وإنما يعمله من أخلد إلى الدنيا ، وأيد حديثه بأنه يحرص على تعاليم الإسلام وهم قد خرجوا عنها وعادوا إلى

عادات الجاهلية ومهدوا للمفسدين طرق الفساد . . وهذه هى مقدمة الخطبة لأنه للآن لم يصل لغرضه وموضوعه .

انتقل من هذه المقدمة إلى التهديد الذى يخضعهم ، ولكنه جعله عملا إسلامياً فقال إن هذا الأمر – وهو الوقت الذى كان فيه لا يصلح إلا بما صلح به أوله – وهو وقت قيام الإسلام . وبهذا جعل كل ما هدد به من عمل الإسلام ولخدمة الإسلام . وانتقل من هذا إلى ذكر برنامجه ، وهو الأخذ بالظنة ومحاسبة الجانى والمتسبب حتى يتمنى الناس السلامة ، ثم أخذ يعدد لهم ما فشا فيهم من سيئات ، وذكر أنه سيعاقب عليها بعنف ، وهذه العقوبات ليست خارجة عن الإسلام فجزاء السيئة سيئة بمثلها ، وفى هذه المساوىء التى ذكرها والعقوبات التى أعدها بلغت الخطبة قمتها ، ونحن نتمثل الناس وقد ملئت قلوبهم بالرعب من تهديده ، وفى خلال هذا كله يلوح بين فقرة وأخرى أنه لن يتجنى ولن يظلم حتى أعداءه وخصومه ، وانتهى من هذا إلى أنه حاكم شرعى له عليهم السمع والطاعة .

وختم الخطبة بطلب دعائهم للحكومة بالصلاح وبإخلاصهم لها ولزوم طاعتها لا لأنها فى حاجة إليهم بل لأنهم سيكونون عرضة للهلاك .

الخطبة بكل أجزائها محكمة الربط وتجرى على وتيرة واحدة من الوعد والوعيد ، وتظهر قدرة الخطيب فى أنه أظهرهم مدينين مرتكبين يستحقون العقوبة لخروجهم على تعاليم الإسلام .

أما عبارات الخطبة فجاءت صلبة مناسبة للمقام الذى قيلت فيه ، وصورت ما قد يحل بهم من عقابه تصويراً قوياً مفزعاً . وبطبيعة الحال ليست الخطبة مرتجلة ولكنها أعدت إعداداً فنياً محكماً . وهذا الإعداد واضح فى معانيها وعباراتها :

٣ – خطبة أبى حمزة الخارجى (الشارى)

المقدمة

يا أهل المدينة قد بلغتنى مقالتكم فى أصحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم . ويحكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشرع له فيه الشرائع(١) وبين له فيه ما يأتى ويذر(٢) فلم يكن يتقدم إلا بأمر ولا يحجم إلا عن أمر الله حتى قبضه الله إليه (صلى الله عليه وسلم) . وقد أدى الذى عليه ، لم يدعكم من أمركم فى شبه . ثم قام من بعده أبو بكر فأخذ بسنته وقاتل أهل الردة وشمر فى أمر الله حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون(٣) رحمة الله عليه ومغفرته . ثم ولى بعده عمر فأخذ بسنة صاحبيه وجند الأجناد ومصر الأمصار وجبى الفىء فقسمه بين أهله(٤) وشمر عن ساقه وحسر عن ذراعه(٥) وضرب فى الخمر ثمانين وقام فى شهر رمضان(٦) وغزا العدو فى بلادهم وفتح المدائن والحصون حتى قبضه الله والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته . ثم ولى بعده عثمان بن عفان فعمل فى ست سنين بسنة صاحبيه ، ثم أحدث أحداثاً أبطل آخر منها أولا ، واضطرب حبل الدين

---

(١) أحكام الدين الإسلامى ، لا يعنى الديانات .

(٢) ما يفعل وما يترك .

(٣) كلمة الأمة مفردة اللفظ ومعناها الجماعة الكبيرة من الناس وقد أعاد عليها ضمير جماعة الذكور مراعاة لمعناها .

(٤) بين مستحقيه .

(٥) يقال شمر عن ساقه إذا اشتد لأمر وجاهد فى سبيله بقوة وتستعمل الكلمة للأمور الشديدة كما فى قوله تعالى يوم يكشف عن ساق – أى يشتد الأمر ، وحسر بمعنى كشف أيضاً .

(٦) عمر هو الذى حدد عقوبة الخمر وجعل القيام فى رمضان عشرين ركعة وهو الذى وسع حدود الدولة فى بلاد الروم وفارس .

بعدها فطلبها كل امرئٌ لنفسه ، وأسر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه(١) حتى مضوا على ذلك(٢) . ثم ولى على بن أبى طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ومضى . . ثم ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله وابن لعينه(٣) وجلف من الأعراب وبعثة من الأحزاب (٤) مؤلف طليق(٥) فسفك الدم الحرام(٦)، واتخذ عباد الله خولا(٧) ، ومال الله دولا(٨)، وبغى دينه عوجاً ودغلا(٩)، وأحل الفرج الحرام(١٠) وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله. فعل الله به وفعل، ثم ولى بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد القرود(١١) . فخالف القرآن واتبع الكهان ونادم القرد وعمل بما يشتهيه حتى مضى على ذلك ، لعنه الله وفعل به وفعل . ثم ولى مروان بن الحكم طريد ولعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه(١٢) فاسق فى بطنه وفرجه(١٣) فالعنوه والعنوا آباءه . ثم تداولها بنو مروان بعدبيت اللعنة طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله . وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلا ولعبوا بدين الله لعباً واتخذوا

---

(١) كشفها الله .
(٢) استمروا عليه وألفوه .
(٣) كانا من أعداء النبى حتى فتح مكة .
(٤) الذين حاربوا رسول الله (ص) يوم الخندق .
(٥) من المؤلفة قلوبهم الطلقاء يوم الفتح .
(٦) قتل الصحابة فى صفين ومنهم عمار بن ياسر .
(٧) خدماً أتباعاً
(٨) تصرف فيه على هواه .
(٩) حقداً .
(١٠) جمع فرجة أى المنافذ المحرمة .
(١١) يتهم يزيد بالشراب واللعب بهذه الحيوانات للصيد وغيره .
(١٢) كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد نفى الحكم إلى الطائف، فشفع له عثمان ، فقال له فيما يروى إذا انتهى الأمر إليك فأعده فلما ولى الخلافة أعاده إلى المدينة ومروان هو كاتب عثمان الذى زور عليه كتاباً إلى ابن أبى سرح ، أمره فيه بقتل محمد بن أبى بكر وإيذاء عدد من الصحابة وهو أهم أسباب الثورة عليه .
(١٣) يريد أن أكله حرام وهو غير عفيف .

عباد الله عبيداً، ويورث ذلك الأكبر منهم الأصغر . فيالها أمة ما أضيعها وأضيعها ! والحمد لله رب العالمين . ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى وقد نبذوه وراء ظهورهم لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون وقد ولى عمر بن عبد العزيز فبلغ ولم يكد وعجز عن الذى أظهره حتى مضى لسبيله [ولم يذكره بخير ولا شر] .

ثم ولى يزيد بن عبد الملك، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده ولم يؤنس رشده ، وقد قال الله عز وجل : « فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم »(١) فأمر أمة محمد فى أحكامها ودمائها أعظم من ذلك كله ، وإن كان ذلك عند الله عظيما ، مأبون فى بطنه وفرجه، يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام ، يلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلهما بألف دينار وأكثر وأقل وقد أخذت من غير حلها وصرفت فى غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار(٢) وحلقت فيها الأشعار(٣) ، واستحل فيها ما لم يحل الله لعبد صالح ولا لنبى مرسل ، ثم يجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامر الشيطان ويشرب .

واعلموا يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا أشرا ولا بطرا(٤) ولا عبثاً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل(٥) بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله(٦) ... « ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى

---

(١) كان يزيد ماجناً متلافاً محباً للغناء والشراب ، وله مع حبابة وسلامة أحاديث سيئة والاستشهاد بالآية يعنى أن مال اليتيم الخاص به لا يدفع إليه إلا إذا أنس منه الرشد ، وهذا لم يؤنس منه رشد ودفعت إليه الأمة كلها .

(٢) جمع بشرة أى الجلود ، يريد جلد الناس حتى دفعوها .

(٣) من عقوبة الشخص أن يحلق شعره .

(٤) تكبراً وإعجاباً .

(٥) أوذى .

(٦) يريد إمام الخوارج .

الأرض » . فأقبلنا من قبائل شتى(١) ، ونحن قليل مستضعفون ، فى الأرض فآوانا (الله) وأيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخواناً ، ثم لقينا رجالكم (بقديد)(٢) فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فدعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بنى مروان، فشتان لعمر الله ما بين الغى والرشد، ثم أقبلوا يهرعون وقد ضرب الشيطان فيهم بجرانه ، وغلت بدمائهم مراجله(٣) ، وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب به المبطلون ، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين(٤) .

يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر(٥). يا أهل المدينة .. أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع له فيها سهم فأخذها لنفسه مكابراً محارباً ربه(٦) .

يشرب الخمر الصراح المحرمة نصاً بعينها(٧) حتى إذا أخذت مأخذها فيه وخالطت روحه ولحمه ودمه ، وغلبت سورتها على عقله مزق حليته ثم التفت إليهما فقال : أتأذنان لى أن أطير ؟ . نعم فطر إلى النار(٨) إلى لعنة الله حيث لا يردك الله . . .

---

(١) كان الخوارج يتألفون من قبائل متباينة من البدو لا يربطهم إلا مبدؤهم .

(٢) مكان قريب من المدينة قتل فيه جيش أبى حمزة عدداً كبيراً جداً من قريش ، وللشعراء فى رثاء قتلى قريش مراثى كثيرة لكثرتهم فى هذا اليوم .

(٣) الجران : الكلكل تحت صدر الجمل . والمرجل الإناء الضخم. يريد أن الشيطان استهواهم وغلبهم غيه .

(٤) يريد بهذا تهديدهم وحملهم على الطاعة والسكون. ويسحتكم : يهلككم .

(٥) أولهم إيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية الإسلام وآخرهم طاعة بنى مروان .

(٦) هذه الأسهم هى مصارف الزكاة ويريد بالتاسع الحاكم الأموى الذى شارك هؤلاء وهو ليس منهم ومع هذا أخذ معظم المال لنفسه .

(٧) يريد الخمر الحقيقية وليس مجرد النبيذ ، والخمر محرمة بنص القرآن .

(٨) دعاء عليه .

أصابو إمرة ضائعة(١) وقوماً طغاة جهالا لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب(٢) ويأخذون بالظن ويعطلون الحدود بالشفاعات(٣) ويؤمنون الخونة ويقصفون ذوى الأمانة ، ويأخذون الصدقة على غير فرضها ، ويضعونها فى غير موضعها ، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله فالعنوهم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة فليسو إخواننا فى الدين ولكن سمعت الله عز وجل قال فى كتابه : « ... إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ». شيعة تظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ولا عقل بالغ فى الفقه ولا تفتيش عن حقيقة الصواب . قد قلدوا أمرهم أهواءهم وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم غياً كان أو رشداً أو ضلالة أو هدى، ينتظرون الدولة فى رجعة الموتى(٤) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة(٥) ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما فى داخل بيته، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه(٦) . ينقمون المعاصى على أهلها ، ويعملون إذا ظهروا بها، ولا يعرفون المخرج منها جفاة فى الدين قليلة عقولهم قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم(٧) وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم من الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة . قاتلهم الله أنى يؤفكون .

---

(١) إمارة وملكاً ليس له من يحفظه ويحميه .

(٢) لغضبهم لا للحق .

(٣) لا يسوون بين الجناة . بل يعفون عمن يريدون أى يعطلون حدود الله بشفاعة الشافعين .

(٤) يشير إلى مذهب الشيعة فى رجعة الإمام المنتظر . وأن هناك أئمة مستترين .

(٥) أى بعث الإمام فى هذه الدنيا والموتى لا بعث لهم قبل يوم القيامة .

(٦) ما يصف به الشيعة أئمتهم من علمهم الغيب — وهم لا يعلمون ظواهر حياتهم .

(٧) تركوا شئون دينهم لآل البيت العلوى .

فأى هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تتبعون ؟ . أو بأى مذاهبهم تقتدون ؟ .
يا أهل المدينة . . قد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ، قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة . . ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا أحداثاً شباباً ؟ هم شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية بها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية بها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين عينيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام ، موفون بعهد الله منجزون لوعده ، قد شروا(١) أنفسهم ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله(٢) حتى إذا التقت الكتيبتان ورأوا السهام قد فوقت(٣) والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت . . استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه وعفر بالثرى جبينه فأسرعت إليه سباع الأرض(٤) وانحطت عليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله . وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد

---

(١) باعوها .

(٢) هذا الوصف ليس مجرد مبالغة فقد كان الخوارج عباداً حقاً شجعاناً حقاً وقد قابلهم ابن عباس فى النهروان فرأى لهم جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثفنات الإبل . عليهم قمص مرحضة . وهم يبرأون من الكذابين ومرتكبى المعاصى وهذا وصف عبادتهم تلاه وصف جهادهم .

(٣) فوق السهم : وضع فيه الفوق وهو الكعب الذى يوضع به فى وتر القوس .

(٤) يروى أيضاً تمزقته سباع الأرض وهو يريد بهذا إثارة العواطف نحوهم .

الحديد . . آه على فراق الإخوان(١) . رحمة الله على تلك الأبدان ، أدخل الله أرواحهم الجنان .

لمحـــة تاريخيـــة :

لكى نلم بالجو العام الذى أحاط بهذه الخطبة ولكى نتعرف على أبى حمزة الشارى نذكر لمحة تاريخية عابرة توضح — على وجازتها وإجمالها — موقفه وبدايته وخاتمة مطافه .

الخـوارج

والخوارج كما هو معروف فرقة إسلامية لها أثر كبير فى الفكر الإسلامى وفى سياسته وعقائده . . ولهم بجانب ذلك أثر كبير أيضاً فى الأدب الإسلامى والبلاغة العربية .

ظهرت هذه الفرقة عندما قبل على بن أبى طالب مبدأ التحكيم عقب هزيمته معاوية فى صفين ولكنها مع طول الزمن انقسمت فرقاً بلغت العشرين .

سبب تسميتهم

وسموا الخوارج لخروجهم على على وصحبه لأنهم كونوا جماعة اختارت لها أميراً ، ويقال أيضاً إن اسمهم مأخوذ من الآية الكريمة : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . وسموا أيضاً الشراة ، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى وفضلوا الموت جهاداً فى سبيله على الحياة مع شريعة منقوصة وهو اسم مشتق من شرى بمعنى باع كما فى الآية « وشروه بثمن بخس »(٢) وهم ألصق بالآية : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله »(٣) أى يبيعها . وكان أكثر الذين انضموا إليهم عرباً بدوا . والبدو أعرف باللغة وأوسع حفظاً لمفرداتها(٤) ، يمتاز

(١) عند هذه الكلمات بكى أبو حمزة على فراق أصحابه .

(٢) سورة يوسف .

(٣) سورة البقرة .

(٤) أفرد ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » فصولا لكلام الأعراب ومواعظهم فارجع إليه إن شئت تجد نماذج من البلاغة العربية القوية .

كلامهم بالقوة والدقة ، واشتهر الخوارج بأمرين : قوة حجتهم وفصاحة خطبهم، ثم تشددهم فى العبادة وقوتهم على أنفسهم فى سهر الليل تهجداً وصيام النهار نافلة ، وخطبة أبى حمزة توضح ذلك ، وقد استنفدوا جزءاً كبيراً من طاقة على فى حربهم ثم قتلوه وظلوا بعده شوكة دامية فى جانب الدولة الأموية ، واستهلكوا أيضاً جوانب من طاقتها فى حروبهم ، وفى أواخر أيامها حين بدا فيها الضعف بدأ للخوارج نشاط جديد .

أثرهم السياسى

بيعة أبى حمزة وحربه

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، قام عبد الله بن يحيى الحضرمى الذى عرف باسم طالب الحق فأعلن خلع مروان . وولى أبا حمزة واسمه « بلج بن عقبة » من الأزد فطلع على الناس فى موقفهم بعرفة سنة ١٢٩هـ بأعلام وعمائم سود على أسنة الرماح ، ولكنه لم يشن حربه إلا بعد انتهاء الحج ضناً بعبادته وعبادة الناس أن تفسد . وعقب الحج استولى على مكة بدون قتال . وفى سنة ١٣٠هـ دخل المدينة واستولى عليها ولكن إقامته بها لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر ، ثم خرج لقتال مروان وقال لأهل المدينة : إنا خارجون لقتال مروان فإن نظفر نعدل فى إخوانكم ونحملكم على سنة نبيكم ، وإن يكن ما تتمنون — فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون — وقد انهزم أبو حمزة فرجع إلى المدينة ببقية جيشه فكان من القتلى بها وكانت هذه نهايته ولكن لم ينته الخوارج ولا مذهبهم .

مقتله

جــو الخطبــة :

موقف أهل المدينة منهم ومذهبهم

لم يكن أهل المدينة راضين عن أبى حمزة ولا عن الخوارج ، بل أذعنوا له كرها وخوفاً . ولأبى حمزة فى أهل المدينة أكثر من خطبة تهدف إلى تهدئتهم وتثبيت قدم الخوارج بينهم . وكلها تدور حول أفكار خاصة أهمها بيان المساوىء التى اتسم بها العهد الأموى . وبيان ما يتسم به الخوارج من صلاح وتقوى وحرص على قوانين الله . والخوارج بوجه عام يقرون خلافة أبى بكر وعمر ويقرون خلافة عثمان فى ست السنوات الأولى . منها

فقط : ويقرون خلافة على حتى قبوله التحكيم ، بينما كان أهل المدينة يقبلون خلافة هؤلاء جميعاً بل قبلوا أيضاً خلافة الأمويين ، هذا لأن جمهور أهل المدينة كانوا يرون أنه إذا ولى الخليفة وجبت طاعته ، ولهذا يتهم أبو حمزة بقلة الفهم وضعف العقل ولو كانوا من أهل الرأى الناضج والعقل القوى ما قبلوا خلافة هؤلاء . وكان مما نفر أهل المدينة منه أن أصحابه كانوا من الشبان الناشئين . ومهمة الخطبة قبل كل شىء هى الدفاع عن هؤلاء الشبان بوجه خاص، ثم تأييدمذهب الخوارج وتثبيته بوجه عام . وقد جاء هذا أيضاً فى خطبة أخرى . وهذه الخطبة أطول مما ذكرنا ورواياتها ليست متفقة ولكن ما وصف به أصحابه فيها أوضح مما وصفهم به فى غيرها وهى مثل جيد فى البلاغة وحسن التصوير .

مهمة الخطبة

أجــزاء الخطبــة :

مهد أبو حمزة لحديثه بمقدمة بينت فضل الإسلام وفضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه أخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد وتركهم على المحجة البيضاء ،وهذه مقدمة لا يجادل فيها أحد من سامعيه، ثم انتقل إلى الثناء على الخليفتين الأولين ولهما بلا ريب مكانتهما فى نفوس الناس، ثم أيد عثمان للسنوات الأولى من خلافته وهى سنوات لم تكن ظهرت له فيها عيوب ولا ترك لبنى أمية العنان أن يخرجوا عن حدود السنة، وذكر خلافة على الصحيحة قبل التحكيم . ثم أنحى على بنى أمية باللوم والتجريح فأفاض فى هذا إفاضة كبيرة لم نذكرها جميعها ، وهذا من غرض موضوعه لا من مقدماته لأن أبا حمزة جاء فى آخر هذه الدولة والنيل منها إنما هو تثبيت لدعوة الخوارج التى تقوم على السنة المحكمة والعدل الإسلامى الصحيح. وقد جاء فى حديثه أن هشام بن عبد الملك لما أصابت ثمارهم جائحة وضع الخراج عنهم نهائيا وهذا خطأ لأنه زاد الغنى غنى بتوفير الخراج ! وعطف كذلك على الشيعة فسفه مذهبهم وبهذا قضى على أعدائه . ثم دخل فى موضوعه

الأساسى فذكر أن الخوارج لم يثوروا طلباً للملك ولا رغبة فى الانتقام وإنما خرجوا لإقامة العدل وإعلاء حكم الله :

« لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت . وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت » . ثم برر معركته مع جندهم .

إلى هنا برر أبو حمزة كل أعمال الخوارج وزكاها فانتقل إلى النقطة الأخيرة وهى أهم شىء فى الخطبة لأنها الغرض الذى من أجله قيلت : ذلك هو دفاعه عن أصحابه من الشباب . احتج أولا بأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قامت على أيديهم الدعوة الإسلامية كانوا شباباً .

وإذن فدعوته صدى لدعوة نبى الإسلام،وأصحابه صورة من أصحاب الرسول . ثم أخذ فى وصفهم فأبدع أيما إبداع . وصفهم بالنسك والعبادة وطول التهجد ، وصيام النهار . والكف عن جميع ا رمات . ثم وصف ما أصابهم من بنى أمية . هذه الأيدى التى تلمس الأرض فى سجودها والتى لم ترتكب محرماً قط ، تقطع ظلماً،وهذه الأعين التى تبيت باكية من خشية الله ، والتى تغض عن كل محرم تصبح قطعاً فى مناقير الطير ، وهذه الأجسام الطاهرة العابدة تصبح طعام الوحوش ، كل هذا والمجرمون منعمون رافهون . هذه كلمات خليقة أن تنفذ إلى قلوب سامعيها، وتحرك عواطفهم، وقد جاءت ختاماً للخطبة كلها وهى إشعار بما هم عليه من التمسك بالسنة النبوية وعمل رسول الله،ثم جعل غرضه الأساسى آخر شىء يسمع فذلك يجعله أبقى فى الأذهان وأعلق بقلوب السامعين .

فهذا مثال للخطبة الجيدة الناجحة ولكن لا يرجع نجاحها إلى هذا الترتيب بقدر ما يرجع إلى قوة تعبيرها وصدق تصويرها وحسن اختيار ألفاظها . وأنت تراه يجنح إلى صيغ التعجب، ويختار آيات قرآنية مناسبة

وهو لا يتملق أهل المدينة ويسترضيهم ، بل يهجم عليهم ويوبخهم : ذلك أن أدب الخوارج يمتاز بالقوة والعنف والشجاعة المتهورة ، وليس إلى السياسة والمداهنة شأن بنى أمية .

وفى الحديث عن تاريخ الخطابة وأدب الخوارج نشرح ذلك إنشاء الله ونذكر ترجمة لبعض خطباء الخوارج الآخرين .

* * *

أنواع الخطابة

أنواع الخطابة

يعتمد الباحثون فى فن الخطابة وتاريخها على تقسيم أرسطاطاليس . باعتباره اقدم باحث فى قواعد العلوم وتقنينها ، وهو قد نظر فى تقسيمه إلى الزمن ، فجعل من الخطب ما يختص بالماضى ، كالخطب القضائية ، إذ يطلب فيها من الحاكمين قضاء فى حدث قد وجد بالفعل وانتهى زمنه ويراد منهم الحكم ببراءة المتهم أو عقوبته ، فموضوع الخطبة يدور حول حدث قد انتهى ، ومن الخطب ما يختص بالحاضر كخطب التكريم والدعوة إلى مشروع قائم. فالخطيب يعنيه فى المقام الأول أن يثبت فى أذهان سامعيه حقيقة واقعة وحادثة فى الوقت الذى يتكلم فيه ، وهناك خطب تختص بالأمور المستقبلة كالخطب التى يطلب بها تقرير قانون أو إنشاء شىء جديد ، فالخطيب حينئذ يستحث الناس على عمل لم يحدث بعد ، فالخطب إذن ثلاثة أقسام فى نظر أرسطو ، تبعاً لأجزاء الزمن ، لكن هناك تقسيما آخر للخطبة باعتبار موضوعاتها العامة ، وهذا التقسيم ليس دقيقاً كل الدقة بل يتداخل بعض أقسامه فى بعض والنظر والتسمية من جهة الجوانب الغالبة .

وهذه الأقسام هى : الخطبة السياسية ، والخطبة القضائية ، وخطب التكريم ، والخطب الدينية والخطب الاجتماعية . فهى إذن خمسة أقسام ، ووجه تداخلها أن الخطبة الاجتماعية تشمل السياسية والقانونية والخطبة الدينية تشمل كل تلك الأنواع بما فيها الخطبة القضائية لأن القانون من الدين وهكذا لا تجد هذا التقسيم دقيقاً دقة تقسيم أرسطو ولكنه يتناول حقيقة الخطبة لا زمنها ، والتقسيم الزمنى ليس بذى فائدة فنية ، ونحن نعنى هنا بالخطبة الدينية لأنها هى النوع الذى نريد التدريب عليه وإجادته ، ولكننا نتحدث عن كل قسم من الأقسام الأخرى بما يوضحه ويجلوه فى أذهاننا ، وإجادة الخطبة الدينية وجودة التدريب عليها تبعث على الإجادة فى الأنواع الأخرى .

الخطبة السياسية

أنواعها

يعنى بالخطبة السياسية الخطبة التى توجه من حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء فى علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية ، وقد كان هذا هو موضوع هذه الخطبة عند اليونان يستعرضون فى خطبهم أحوال الدولة وما يجب أن تعمله للنهوض بأبنائها ورفاهيتهم، وكذا ما يجب أن تتجه إزاء إعلان حرب على دولة أخرى أو تحاشى الاشتباك معها أو عقد صلح بين الدولتين أو زيادة عدد جيشها أو إنقاصه وهكذا .. والخطب البرلمانية من أهم الخطب السياسية لأن الخطيب البرلمانى من حقه بل ومن وظيفته أن يقترح على حكومته وأن يشرع لها وأن ينقدها فيما تخطىء فيه، وهو لهذا يتمتع بحصانة برلمانية تبيح له الحرية الكافية فى أن يقول ما يشاء ، ومن الخطب السياسية خطب الدعايات الانتخابية إذ فيها يوضح العضو المرشح جوانب السياسة التى يريد أن ينهجها ويبين عيوب السياسة التى يعارضها ، ومنها خطب المؤتمرات السياسية فهى بطبيعة الحال خطب رسمية خاصة بسياسة الدولة .

نشاطها وأثره

هذا النوع من الخطب نال نشاطاً وازدهاراً فى عهد الأحزاب السياسية فى مصر وانتقل من الخطابة إلى الكتابة الصحفية وكتابة المنشورات . فكان تيار الخطابة والكتابة يجريان معاً فى طلق واحد ، ولكن مع الصحف اليومية وغير اليومية كانت تعقد المجتمعات الكبيرة لحزب ما أو رئيس حزب أو لعضو بارز فيه ليتحدث عن سياسته وربما استغرقت خطبته ساعة أو أكثر نجد المستمعين خلالها صامتين مصغين كل الإصغاء قد تعلقت أعينهم بالخطيب وتموجت أجسامهم بتموج حركاته . وكانت هذه فى الواقع نهضة خطابية عظيمة فضلا عن أنها أمدت الشباب بروح خطابى وأمدت الشعب أيضاً بثقافة سياسية، وفتحت أذهان الناس لأفكار حية ومبادئ هامة تستحق الدرس والتفكير .

أمثلة لها

وفى كل أمة دستورية يتمتع نوابها بحرية كافية ويمنح أبناؤها حرية

الإدلاء بآرائهم، ينضج هذا النوع من الخطابة وحسبك أن تطلع على كتاب من الكتب التى تترجم لكبار السياسيين لترى خطبهم المختلفة وما تحتوى من آراء توجيهية أو نقد للحزب المعارض . ولعل أوضح الأمثلة فى هذا خطب الزعيم الإنجليزى ونستون تشرشل ، فهى بجانب بلاغتها وقوتها تتسم بالديمقراطية والنزاهة الرائعة، وقد هجم تشرشل على تشمبرلين رئيس الوزراء أول قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ هذا مع أنهما من حزب واحد ، وأروع من هذا أنه عندما تنحى تشمبرلين عن رئاسة الوزارة وتولاها تشرشل كان تشمبرلين من أكبر معاونيه ومشجعيه ، مما دل على أن عملهما كان خالصاً للوطن ، ولا أثر فيه أصلا للجانب الشخصى . ولم تكن الأحزاب المصرية حين قيامها وتعددها على حظ من المثالية بل كانت تعمل لصالح ذويها والهجوم على خصومها بكثير من التحامل ، ولكنها خلقت نهضة خطابية على أى حال .

وإذا رجعنا إلى نشأة هذا النوع من الخطابة نجد بدايته عند اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد، فاليونان مهد الديمقراطية، وهى أيضاً منشأ كثير من جوانب الفكر البشرى والثقافات العامة وفى كل هذه الفروع نرجع للبحث عن بدايتها إلى اليونان ، وهى أول بلاد عرفت الديمقراطية السياسية ومنحت شعبها حرية الرأى وإعلانه ؟

ولما جاءت الدولة الرومانية لم يخفت هذا النوع من الخطابة ، بل نما وازدهر . حتى عندما كانت الدولة تحكم بقواد عسكريين ، ولعل ما يحفظه التاريخ من محاورات حول موقف يوليوس قيصر ، واتصاله بالملكة المصرية كليوباترة ، وتأييد بعض الخطباء مسلكه وهجوم آخرين عليه مما يوضح مدى قوة الخطابة السياسية وشدة تأثيرها لدى هؤلاء القوم . وسنعرض لشىء من هذا عند الحديث عن تاريخ الخطابة .

واستنامت الخطابة فى العصر الوسيط فى البلاد الأوربية بينما كانت ناهضة قوية جداً فى الأمة العربية، ويرجع ذلك إلى الفرق الواسع بين نظام

الحكم هنا وهناك ، وفى العصر الحديث عصر البرلمانات والحياة النيابية نضجت الخطابة السياسية كثيراً وتهذبت أيضاً . وكانت فرنسا إبان الثورة الفرنسية أسبق الدول فى هذا الميدان ، وما أثر عن خطبائها ، أمثال ميرابو ولامرتين ، وروبسبير ، وكونستانت ، يوضح مدى نجاح الدولة فى هذا النوع . ثم نمت الخطابة السياسية فى البلاد الأوربية جميعاً .

ولم تقف دائرة الخطب السياسية عند الأحزاب والبرلمانات ، بل تعدت ذلك إلى المحيط الدولى، ذلك أن السياسات الخارجية وعلاقات الدول بعضها ببعض ، أصبحت أكثر اشتباكاً وأشد تعقيداً ، وقد أنشئت عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى فضمت أنماطاً من الأمم والشعوب فى صعيد واحد. وحلت محلها هيئة الأمم بعد الحرب الثانية ، وفى كلتا الدارين تبودلت خطب سياسية هى بلا ريب أوسع وأهم من خطب الأحزاب والبرلمانات . وفى محيطنا العربى أنشئت أيضاً « الوحدة العربية » التى حولت إلى جامعة الدول العربية ، وكانت بدورها ميدانا للخطب السياسية .

ويرجع فجر هذه الخطب السياسية فى مصر إلى الخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل ضد الإنجليز وخصوصاً فى فرنسا عقب حادث دنشواى . ثم كانت خطب سعد زغلول التى تمتاز ببلاغتها وقوة أسلوبها العربى . وجمع مكرم عبيد خطبه فى كتاب سماه « المكرميات » به كثير من التعابير البليغة القوية ، ولكن خطبه وخطب النحاس كانت أقل كثيراً من خطب سعد لضعف تكوينها الأدبى وقلة درسهما اللغة العربية ، ثم لحرصهما على السجع حرصاً هبط بخطبهما فى كثير من الأحيان إلى الركاكة والتهافت ، ثم كان مكرم بالذات غير مهذب الألفاظ ويكثر من العبارات النابية السوقية بجانب العبارات البليغة الرصينة .

وبعد ذلك هبطت الخطابة البرلمانية والسياسية،فمن ناحية ذهبت الأحزاب ومن ناحية أخرى عمر البرلمان بغير المثقفين من العمال والفلاحين الذين لا يجيدون الخطابة بل ولا يعرفونها ، ثم جنح السياسيون إلى استعمال اللغة العامية فضاعت الخطابة السياسية نهائياً .

مكونات الخطبة السياسية :

ليس كل خطبة سياسية مما ينال نجاحاً وقبولا لدى السامعين، وكثيرا ما ينصت السامعون احتراماً للخطيب، ولكنهم غير مقتنعين برأيه، ونجاح الخطبة يقوم على الإقناع والاستمالة. وهى بوجه عام تعتمد على عملين : تأييد رأى الخطيب وهدم الآراء المعارضة، ذلك لأن الخطيب إذ يزين رأيه لا يدع مجالا للرأى الآخر أن يبرز فى ذهن سامعيه بل ينفرهم منه ويطرده عنهم وأهم قواعد الجانبين ما يلى :

أساسها

درس الموضوع

١ — على الخطيب أن يدرس الموضوع الذى يريد أن يتخذه موضوع خطابته. ويتعمق معانيه تمكن أن يقدم لمستمعيه شيئاً جديداً مقنعاً. ثم إن هذه الدراسة تمكنه من الرد على معارضيه وتفجؤهم بمبادىء ومعان لم تخطر ببالهم فلا يجدون قدرة على ردها والاعتراض عليها. ويجب أن يعد الخطيب بجانب هذه الدراسة عبارات خطبته التى يوضح بها الأفكار التى درسها.

إخلاص الخطيب

٢ — يجب أن يكون مقتنعاً بالمبدأ الذى يدعو إليه فهذا الاقتناع يمنحه حرارة وقوة فى خطابه ويمده أيضاً بمعان جديدة، ثم عليه أن يقدم للناس نفس الأسباب التى اقتنع هو بها، وأن يجمع فى خطابه شأن الخطابة عامة بين الأسباب المقنعة والأخرى المثيرة للعاطفة، لأنه بها يستميل مشاعرهم، ولكن مخاطبة الجماهير التى تحتاج إلى هذه الإثارة لا تستغنى عن المنطق الذى تعتمد عليه. وبغير ذلك يتحمس الناس للخطيب أثناء خطابته، فإذا انصرفوا من موقفه لا يجدون فى أذهانهم ما يغذى عاطفتهم فتكون الخطبة ضعيفة الأثر.

٣ — عليه أيضاً أن يدرس آراء معارضيه ليفندها ويضعف تأثيرها، وهو فى هذا يوازن بين مذهبه ومذهب الآخرين المعارضين، ويبين ما لمذهبه من مزايا ومنافع عامة للناس وما للمذهب الآخر من أضرار وقلة جدوى.

ما يجوز وما لا يجوز

ويغتفر للخطيب فى هذا أن يستعمل سخرية قليلة عارضة أو يرسل نكتة عابرة للنيل من خصومه ، فهذا يكسبه شجاعة فى موقفه وإيهام الناس أن المذهب المعارض مفروغ من دحضه وقلة نفعه، ولكن لا يجوز له أن يتناول خصومه من الجوانب الشخصية أو أن يبحث عن مغامز فى سلوكهم أو تاريخهم فهذا إسفاف يزرى بالخطيب نفسه وقد ينتج عكس ما يريد .

استعداد الخطيب السياسى

٤ — الخطيب السياسى فى أكثر مواقفه كالمناظر قلما يسلم من معارضين وقد يفاجأ بمن يقاطعه فى حديثه أو يبدى عليه اعتراضاً ، ولهذا يجب أن يكون رابط الجأش ثابت القلب حاضر الذهن فلا يتزعزع لهذه المقاطعة بل يجد إجابة حاضرة عليها ، وقد يستعمل فى هذا الموقف شيئاً من السخرية والاستهانة وهى فى الغالب تمنحه فرصة من الوقت ليفكر تفكيراً جديداً أو ليستخرج رداً ما على خصمه. والخطيب الشجاع الجرىء لايتزعزع لهذه المقاطعة وربما عدل إلى جانب آخر من الحديث وترك اعتراض صاحبه أو رد عليه رداً غير كاف ليشغل الناس بحديثه الجديد، وبعبارة أخرى يقابل الهجوم عليه بهجوم آخر ، وهذا النوع قد يكفى فى الخطابة السياسية ولكنه لا ينجح فى الخطب القضائية .

وتختلف الخطبة السياسية عن الكتابة السياسية فى أن الخطبة تبادل آراء والكتابة إلقاء آراء، فالكاتب يوضح ما يريد وهو منفرد مستقل يستطيع تفادى بعض الوجهات المعارضة ثم لديه فسحة فى إعداد خطبته بدقة ، واختيار الألفاظ الجيدة . وكل ذلك لا يتأتى للخطيب .

مثال لها

ومن الخطب السياسية الجيدة خطبة لسعد زغلول قالها فى موضوع التفاوض مع الإنجليز ، وكان للأحزاب الأخرى مواقف متضاربة، والنزاع بينهم شديد، وهو يؤكد لمستمعيه أنه لن يفرط فى شىء من حقوق البلاد . ومنها :

« . . . إن الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم — كما قلت لوفدكم بالأمس — إلا فى واحدة من حالتين : إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية . وإنى أعيذها من هذا الخبال ،

والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها (١) فبدلا من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصلح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالإعدام ، ويكون حكمها من أعدل الأحكام . وإنى أبيح دمى إذا رأيتم منى انحرافاً عن قصدكم ، أو تسامحاً فى حقوقكم ، أو خروجاً عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها ، وما عدلت ولن أعدل عنها — وما دام فى عرق ينبض ، أو نفس يتردد . وإنى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها ، مهما كانت رابطته معنا ، وحاله من الصداقة لنا ، ولقد قاطعت كثيرا من أصدقائى لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصاً على التمسك بحقوق الأمة ، فكل من رأيت فيه تهاوناً فى السعى ، وتواكلا فى العمل . أو تسامحاً فى الحق ، وأعيتنى الحيلة فى إصلاح شأنه قطعت بينى وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها . . . أفعل ذلك غير آسف لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب » .

الخطبة تدور حول تأكيد حرصه على مصالح بلاده ،وقد قدم الأدلة الكافية من غير أن يجرح أحداً من خصومه . ولكنه وضح أنه يضحى بحياته فى سبيل وطنه كما يضحى بكل صديق عزيز عليه لأن حقوق الأمة لا تقبل المجاملة ، ووظيفته هى العمل لها لا للأصدقاء .

وخطب سعد بوجه عام كانت قوية الأسلوب قوية التعبير قوية الحجة ، وترجع قوة أسلوبه وسلامة لغته إلى نشأته الأزهرية ، وإلى تكوينه الأدبى فى الأزهر ، وقد كانت خطب مصطفى كامل أكثر من خطب سعد حرارة وأملأ بالعاطفة ، ولكنها كانت لينة الأسلوب سهلة العبارة لا تكاد تفترق عن الكلام المألوف .

ومن خطبة له رحمه الله يشجع فيها المصريين ويشد عزائمهم كيلا ييأسوا من نيل استقلالهم أو تفتر عزائمهم عن المطالبة به :

---

(١) يعنى بموضع ثقة الأمة هو نفسه . يريد أن الأمة وضعت كل ثقتها فيه فهذا هجوم آخر .

خطبة لمصطفى كامل

... «إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ، ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة، فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وبعد الغروب غروب فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب إليه فى مستقبلها فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا (١) . ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

عبد الله النديم

ولا يفوتنا أن نذكر خطيب الثورة العرابية عبد الله النديم، وهو لم يكن واسع الثقافة ولكنه كان حاد الذكاء تواتيه الألفاظ والمعانى بغزارة فتمكنه من إقناع سامعيه و استمالتهم إلى ما يدعو إليه ، وكان السيد عبد الله النديم إلى جانب خطابته الفصيحة زجالا لا يبالى أن يبارى أحد « الأدباتية » لمدة طويلة ، ولا ترجع شهرته إلى بلاغة عباراته وإنما ترجع إلى حضور ذهنه وما أوتيه من بديهة تستجيب لكل موقف ، كان يواجهه الموقف الطارىء فيرتجل الخطبة التى تناسبه ولا يحمله ارتجاله على الإيجاز ، بل يمتد به الحديث ويمتد، وكلما تحدث انفسح له مجال القول وتدفق لسانه به ، حتى يكون فى آخره أسهل عليه من أوله، لهذا لقبوه خطيب الثورة، وبالغوا فقالوا خطيب الشرق . وترجع هذه الصفة إلى ما كان له من ثبات الجنان وقلة التهيب

طريقته فى الخطب

ومواتاة العبارات ، فهو يبدأ الخطبة بقول ما يطرأ على كل ذهن، ولكنه يعمل فكره فى المعانى الأخرى ، فيكون لديه ينبوع من الحديث غير منقطع وبه تطول الخطبة ولا يحتاج إلى تكرار ، ولعل التمهل فى الإلقاء مما كان يتيح له فرصة التفكير كما أنه يحول دون الإجهاد الذى يكل الذهن ، ويؤثر عن النديم أنه خطب فى حفل لجمعية المقاصد الخيرية خمس مرات فى يوم واحد وهو يطيل فى كل خطبة ولكنه لا يعيد شيئاً مما قاله من قبل .

---

(١) الفعل وقف الثلاثى متعد بنفسه .

وبذكر ثبات النفس فى المواقف المتأزمة الحرجة نعود ثانياً إلى ذكر ونستون تشرشل ، ففى أول الحرب العالمية الثانية أحرزت ألمانيا سلسلة من الانتصارات – جعلت الناس يوقنون لها بالنصر المحتوم وكان تشرشل وزير بحرية فجاء فى خطبة له :

من كلام تشرشل

« إن بعض الدول الصغيرة يهولها ما فى قوة ألمانيا العسكرية من بطش ودقة فيبهرها هذا البريق اللماح ، وتأخذها الأحداث المؤقتة ، بينما تعمى عن قوة الشعوب العريقة القوية التى تتصدى لألمانيا ، وعن مقدرتها على مجالدة الز‍من وتحمل الأخطـاء وخيبة السعى وسوء التدبير ، ولكن فى وسعها أن تجدد قوتها وتمضى فى كفايتها إلى غايتها بعزيمة لا تفلها خسارة موقف ، بل هى لا غاية لها فى مواجهة الصعاب حتى يتحقق لها النصر فى أعظم قضية حاربت الإنسانية فى سبيلها .

ومن خطبة لمصطفى كامل بالاسكندرية ١٨٩٧ :

كل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها إخلاصهم لها هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ، ودواء لدائها . فاذكروها ما استطعتم ، فان فى ذكراها ذكرى آلامها ، وذكرى الآلام تجر حتماً إلى ذكر عوامل الشفاء،اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة ، وهى على سرير المرض والعناء ، اذكروها بآلامها ، وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها ، اذكروها فإنكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها فالأمل وطيد فى سلامتها . اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء ، ومن المستحيل أن يكون الوطن فى خطر ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبى لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا ، بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل لنا ولا حراك . .

القوا – أيها السادة – بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه .

بل هو يرضاهما ضحية للوطن ، ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لإعلاء شأن بلاده ، ويعد الموت من أجل الوطن حياة دونها حياة البشرية ، ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

تحليل وتقديم

والخطبة — وخطبه الوطنية كلها — على هذا النسق ، تبدو فيها العاطفة كما تبدو فيها قوة المعانى ، وفيها تأثير واضح على السامع والقارىء . ولكنها كما ذكرنا ليست قوية التركيب البلاغى ، ولا دقيقة التعبير ، وفى هذه القطعة التى اخترناها تجد فيها ذلك كله ، تمثيل قوى وإثارة للعواطف ، وترغيب فى التضحية من أجل الوطن ، فإذا بحثت ألفاظها وجدتها أسلوباً سهلا دارجاً ، بل يبدو التهاون فى بعض عباراتها ، فلو أنه قال : اذكروا مصر كما يذكر الولد البار أمه الحنون ، لكان أدق ، لأن الحنان صفة الأم والبر من واجبات الأولاد ، ولو أنه ذكر أن الأجنبى يعمل لاستعبادنا واسترقاقنا ، بل للقضاء علينا وسلب حياتنا لكان أدق ، لأنه ترق من الاستعباد إلى الإهلاك ، وسعد زغلول أقوى منه تعبيراً ولا ريب .

الخطبـة القضائية

ما هى؟

الخطبة القضائية هى التى تلقى فى ساحة المحاكم أمام القضاء طلباً للحكم فى أمر ما ، وهى تختلف باختلاف المحاكم التى تلقى بها ، فقد تكون فى أمر جناية أو أمر مدنى أو حالة من الأحوال الشخصية ، وموقف الخطيب — المحامى أو وكيل النيابة — يختلف باختلاف القضية التى يتكلم من حيث نوعها وأهميتها والأحداث التى بنيت عليها .

قدمها

هذا النوع من الخطابة قديم ترجع قواعده وأهم أصوله إلى اليونان ، ثم إلى الرومان ، وكان موجوداً عند العرب قبل الإسلام ، نجده فى مجتمعاتهم التى يقررون فيها شئون الديات والقصاص والمغارم ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية هذا النوع فى قوله لنفر من الأنصار اختصموا

إليه : « إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلى وقد يكون بعضكم ألحن(١) بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقتطع له قطعة من نار » . ويبين هذا الحديث أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثوب الحق . والحديث يلجأ إلى إيقاظ الضمائر وتحذير الناس من الحيد عن الحق ، وليس هذا متبعاً الآن ، لأن المحامى يعنيه أن يكسب موقفه وأن يتغلب على خصمه وهو على استعداد للتحدث عن أى من الخصمين يلجأ إليه ، والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثوا القضايا التى أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب القضائى رغم هذا لا يستغنى عن إثارة عواطف القضاة ، وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران :

واجب الخطيب القضائى

الأمر الأول والأهم هو البحث القانونى وتطبيق قضيته عليه . الأمر الثانى وهو أمر مساعد هو جذب عواطف القضاة نحو ما يدعو إليه . وهذا الأمر الأخير وإن كان محدود الأثر لا يخلو من أهميـــة ، لأن القانون ذو مرونة ومرونته متروكة للقضاة ، فمثلا نجد العقوبة فى جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيهاً وسجن شهر أو إحدى العقوبتين ، فالغرامة قد تؤخذ فى أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحدها وقد تزيد عن حدها الأدنى ويضم إليها السجن ، ومن هنا نجد أن عاطفة القاضى لها أثر .

وليس من إثارة العاطفة القضائية أن يقول المحامى أن الجانى رجل فقير ويعول أسرة كبيرة ولا كاسب لها غيره . فهذا بعيد عن العدالة التى تحتم أن يلقى جزاءه على عمله مهما كانت حالته ، ولكن الاستعطاف يأتى من ناحية توهين المستند ، والتحذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب إلى البراءة ،وأن القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يعاقب شخص برىء بأدنى عقوبة ، ومهمة الخطيب القضائى أن يضع صورة للجريمة التى ينظر القضاء فيها أولا ، ثم يعرض المواد القانونية التى وضعت لها ، وهنا يختلف الموقف،فوكيل النيابة يعمل على تثبيت الجريمة ويطالب

(١) أفصح وأبين .

بأقسى ما ينص عليه القانون من عقوبة ، أما المحامى المدافع فإنه يعمل على نفى تعمد الجريمة ، ثم يحاول تجريح الشهود ، وأخيراً يلجأ إلى الجوانب القانونية التى تخفف العقوبة،ولابد لكل من الخطيبين أن يفند آراء خصمه وأن يوهنها بأدلة منطقية وقانونية .

وأهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ ـ درس القضية درساً عميقاً شاملا لا يغيب عن الخطيب أدنى جزئية منها .

٢ ـ وضعها فى الصورة القانونية الملائمة بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع ،ويبحث اقتناع القاضى أنه يعتمد على القانون لا على التهريج والإثارة .

٣ ـ أن تصاغ الخطبة فى صورة منطقية متسلسلة تسلم كل نقطة إلى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع ، فهذا يوهن الخطبة وينبىء عن عجز صاحبها .

٤ ـ جودة الأسلوب وقوة التعبير مما له أثر كبير فى إنجاح الخطبة القضائية، وكبار المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد إلقاءها ويستفيد منها المحامون الآخرون والخطباء .

٥ ـ قد يجد القاضى أن القانون العام ليس مسعفاً ولا واضح التطبيق فى قضيته ، ولهذ يلجأ إلى القوانين الخاصة التى وضعها القانونيون شرحاً للقانون العام،وما لهم فيها من آراء فرعية كما يلجأ المحامى فى الأحوال الشخصية إلى أقوال فقهاء من المذاهب الفقهية الكثيرة التى ترد فى القانون .

والخطبة القضائية مصدر ثقافة قانونية،وفى قليل من الأحيان تجد المحامى باحثاً عن الحق داعياً إلى طرق العدالة متعاوناً مع القاضى فى إحقاق الحق ودفع الظلم،وربما لا يوجد هذا إلا مع محامى الحكومة ، فالحكومة كما يقولون خصم شريف ، أما المحامون المأجورون فإنهم لا يعنيهم إلا نجاحهم ولهذا يلجأ الواحد منهم أول ما يلجأ إلى تجريح الشاهد أو التماس فارق بسيط

بين أقوال الشهود ثم يطيل فى خطبته لإقناع موكله أنه بذل جهداً ، ولم تشرع المحاماة لهذا العمل .

ولا يعنينا أن نقف طويلا لدى الخطبة القضائية فلها مدارسها ورجالها وليست مما يمس أعمال الدعاة إلىدرجة كبيرة. وأهميتها أنها خطبة مستحدثة تمثل روح العصر أكثر مما تمثل التاريخ ، فهى لم توجد فى بلادنا بهذه الصورة المنظمة إلا منذ اتخذت المحاكم المصرية نظاماً أوروبياً،وهى لم تظهر فى الأدب الأوروبى إلا منذ عصر النهضة ، ولكننا نجد لهذه الخطبة أمثلة فى الأدب العربى القديم ، وقد كان المتخاصمون يقفون أمام القضاة فيدلى كل برأيه وحجته ثم يناقشهم القاضى قبل أن يصدر حكمه ، كما فعل بعض الأنصار أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا يبين مدى تأثير الخطيب القضائى ببلاغته على القضاة .

أبو الأسود وزوجه

ومن الأمثلة العربية فى هذا مخاصمة أبى الأسود الدؤلى وزوجته أمام زياد ابن أبيه فى ابن كان لهما وأراد أبو الأسود أن يضمه إليه . فقالت الزوجـــة :

« أصلح الله الأمير . . هذا ابنى كان بطنى وعاءه وحجرى فناءه وثديى سقاءه ، أكلؤه(١) إذا نام وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى إذا استوفى فصاله(٢) وكملت خصاله واستوعكت(٣) أوصاله وأملت نفعه ورجوت دفعه(٤) أراد أن يأخذه منى كرهاً فآدنى(٥) أيها الأمير ؟ فقد رام قهرى وأراد قسرى(٦) .

فقال أبو الأسود : أصلحك الله . . هذا ابنى حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه،وأنا أقوم عليه فى أدبه وأنظر فى أوده(٧) وأمنحه

---

(١) أحفظه وأرعاه .

(٢) بلغ حد الوفاء. والفصال الفطام والاستغناء عن الرضاعة .

(٣) اشتدت وصلبت . (٤) دفاعه عنى .

(٥) **قونى وأعنى من الأيد والآد.** أى القوة .

(٦) إجبارى وكرهي . (٧) اعوجاجه .

وألهمه حلمي حتى يكمل عقله ويستحكم(١) فتله .

فقالت الزوجة : صدق ــ أصلحك الله ــ حمله خفاً وحملته ثقلا ، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً .

فقال له زياد : اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك ودعني من سجعك(٢) .

وكان الورعون من المسلمين يكرهون منصب القضاء خوفاً أن يحيفوا .

ولعل مما يتصل بهذا من قرب وصية عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء ، وهي رسالة مشهورة مذكورة في أكثر كتب الأدب والتاريخ ، ويجب ألا يغفلها دارس للأدب القضائي سواء كان محامياً أو قاضياً أو خطيباً ، وتلحق بها رسالة الإمام علي للأشتر النخعي ، وليستا من الخطب ، ولكنا نذكرهما مددا للخطيب الإسلامي .

خطب الصلح

الغرض منها وتاريخها

يتصل بالخطب القضائية خطب الصلح بين المتخاصمين ، والغرض الأساسي منها هو إصلاح ذات بينهم وإزالة ما بينهم من إحن وضغائن ، وهي من الخطب القضائية ، لأن مجلس المصالحة العرفي أو الوسيط بين الخصوم قد يحكم على أحد الطرفين بدفع غرامة مالية أو عقوبة أدبية . والفرق بين هذا الموقف وموقف المنافرة أن المتنافرين ليس لأحدهما حق على الآخر ولكن كل يدعي أنه أرفع منه وأشرف ، وخطبة الصلح في الواقع عمل قضائي يحاول به الوسيط أو الوسطاء إحلال المودة مكان الخصام ، وهذا العمل والخطب التي تقال فيه ليس شيئاً مستحدثاً ولكنه معروف منذ العصر الجاهلي ، ففي أعقاب الحروب يتوسط بعض الكبراء أو يتحملون ديات القتلى كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف في حرب داحس والغبراء(٣)

---

(١) تبلغ قوته الجسدية تمامها . والفتل الإحكام .

(٢) ارجع إلى هذه المحاكمة في أمالي القالي ج ١٥/٢ .

(٣) هرم بن سنان بن أبي حارثة المري ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري أيضاً ، أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي كادت تذهب بالحيين ، وكانا من=

واستمرت هذه الخطب فى العصر الإسلامى والأموى ، لأن الإسلام يؤثر الصلح على القضاء لما فيه من إزالة الشحناء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متفائلا مبتهجاً بالحسن بن على ويقول: إن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين . ومع كل هذا ليس لدينا مأثورات واسعة من خطب الصلح ، والذى وصل إلينا ليس جارياً على شريطة شراح الخطب ومؤرخيها من حيث طوله ، فقد ذكر أبو هلال العسكرى أن الناس كانوا إذا خطبوا فى الصلح بين العشائر أطالوا(١) ولم ترد إلينا خطبة مطولة من هذا النوع . وكان الخطيب فى خطب الصلح يخطب واقفاً . بينما يكون جالساً فى خطب الأملاك .

ولا نزال فى وقتنا الحاضر نحتاج إلى هذا النوع من الخطب ونستعمله خصوصاً فى المنازعات التى تحدث فى الريف وبين القبائل فى صعيد مصر، وقد يجعل الواعظ خطبته للإصلاح موضوعاً عاماً لخطبة الجمعة حيث يسمعها الكثيرون ، وقد تعقد لها مجالس خاصة يحضرها بعض الكبراء وبعض رجال الحكومة فيتداول الرأى وتبحث الأحداث أولا ثم يأتى دور الواعظ ليلقى نصائحه مدعمة بالأدلة الدينية والعقلية .

والاتجاه العام فى خطبة الصلح أنها تدعو إلى التسامح والعفو وترغب فى الصفح وعدم الانتقام ، كما تنفر من المعارك ومن إراقة الدماء ، وقد يذكر الواعظ فى هذا المقام عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن أساءوا إليه من قومه حتى الذين حاربوه وهموا مراراً بقتله ، وهو يوم الفتح سأل عن عتبة ومعتب ابنى أبى لهب الذى كان شديد الإيذاء له. كما يذكر مسامحة ابن حنبل كلا من المعتصم العباسى والواثق بعد ما ناله من تعذيبهما وسجنهما له مدة طويلة ، وقد يذكر أن الشخص حين ينتقم من خصمه يشعر بغبطة وقتية ثم يؤنبه ضميره ويلومه على ما فعل ، ودراسة علم النفس كثيرة النفع فى هذه المواقف . كما يذكر أن توريث المحبة والوئام بين

=شجاعة الحرث أنه بعث إلى بنى عبس بمائة من الإبل ومعها ابنه، وقال لهم : أيما أحب إليكم الإبل ، أم قتل ابنى مكان قتيلكم . فأخذوا الإبل . انظر الأغانى ، حـ ١٠ / ٢٨٨ وما بعدها .

(١) انظر الصناعتين ١٩٢ .

الناشئين والذرية البريئة خير من توريث الشحناء والمطالبة بالثارات . وحياة الأمن والدعة خير من حياة الحروب وطول النضال ، ثم لابد مع هذا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة .

ونورد فى هذا المقام خطبة للأحنف بن قيس قالها بعد فتنة نشبت بين قبائل العرب فى البصرة واشتركت فيها تميم ضد الأزد ، والأحنف تميمى فقال فى هـذا :

خطبة **الأحنف** ابن قيس

« يا معشر الأزد وربيعة . . أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصهر ، وأشقاؤنا فى النسب. وجيراننا فى الدار ، ويدنا على العدو . والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام . فإن استشرى شنآنكم وأبى حسك(١) صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سعة لكم » .

هذا ما أورده كل من صاحب العقد وصاحب البيان والتبيين من هذه الخطبة ، فإذا كان هذا كل ما قال فقد أوجز جداً ، ولكن تأتيه لموقفه وتدرجه لما يريد من الصلح غاية فى الجودة والبلاغة .

خطبة مرثد **الخير**

وهذه خطبة أخرى لمرثد الخير نوردها أيضاً نموذجاً من دعوات الصلح ، ومرثد قيل من أقيال حمير(٢) ، وقد حدث فى عهده أن تنازع سبيع بن الحرث أخوذى جدن وميثم بن مثوب بن ذى رعين ، شرف قومهما كل يطلب لنفسه سيادة القبيلة فتشاحنا حتى خيف أن يقع الشر بين حيهما ويفنى فيه الجذمان جميعاً فدعاهما مرثد ليصلح بينهما وخطبهما خطبة جاء فيهـا :

إن التخبط(٣) وامتطاء الهجاج(٤) واستحقاب اللجاج(٥) سيقفكما(٦)

---

(١) الحسك الشوك . يريد الحقد .

(٢) القيل الرئيس والملك .

(٣) التخبط السير على غير هدى أو معرفة بالطريق .

(٤) الامتطاء الركوب والهجاج الاندفاع بدون تفكير .

(٥) استحقب الشيء اصطحبه واللجاج التمادى فى الخصومة .

(٦) سيجعلكما تقفان على حافة حفرة .

على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة(١) وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد(٢) وانحلال العقد وتشتت الألفة وتباين السهمة به وأنتما فى نسجة(٣) رافهة وقدم واطدة(٤) والمودة مثرية والبقيا معرضة(٥) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب من عصى النصيح وخالف الرشيد وأصغى إلى التقاطع. ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم وكيف كان صيور (٦) أمورهم. فتلافوا القرحة (٧) قبل تفاقم الثأى (٨) واستفحال الداء وإعواز الدواء. فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء وإذا استحكمت الشحناء تقبضت عرى الإبقاء وشمل البلاء » .

وهذه الخطبة على قصرها كافية فى ردع الرجلين عن الشر لأنه حذرهم من سوء العاقبة عليهما معاً ، وبين أنه إذا وقعت حرب وسفكت الدماء فإنه يعز بعد ذلك أن تصفو النفوس أو تنقطع الثارات فيعم البلاء الموجودين ومن سيوجدون . ويبدو أنها أخذت مكانتها من صاحبها إذ ليس فيها — غير اللغة — شىء ذو بال .

الخطب الاجتماعية

ما هى الخطبة الاجتماعية

نعنى بالخطبة الاجتماعية تلك الخطبة التى تلقى فى موضوع يهم المجتمع ويعود عليه ببعض الفوائد ، ومن أمثلة ذلك : أن يدعو خطيب القرية لإنشاء مدرسة أو ناد بها أو يقترح شق ترعة أو إقامة جسر ، أو يدعو شخص فى مجتمع ما لإنشاء دار أمومة تساعد المرأة الموظفة أو مدرسة لتربية الحاضنات وتدريبهن ، أو إنشاء دار لرعاية المسنين أو إنشاء ناد رياضى يشغل وقت الشباب ويربى أجسامهم وغرائزهم . أو تكوين شركة لإنتاج شىء يرى أن مجتمعه فى حاجة إليه ، أو لزراعة رقعة من الأرض . .

---

(١) فى وردها والسقوط فيها هلاك الأصل وانقطاع الصلات .

(٢) قبل أن تقطع العلاقات .

(٣) القرابة . (٤) ثابتة . (٥) الإبقاء على الصداقة ممكن.

(٦) مصير وعاقبة . (٧) الجرح . (٨) استشراء الفساد .

وهكذا . . وهكذا . وكل هذه إصلاحات اجتماعية وهذه الأعمال كثيرة ونشيطة جداً فى البلاد الراقية ، وقد كان لها أيضاً نشاط فى مصر ،ولكن قيدها النظام الاشتراكى الذى وضع كل شىء فى يد الحكومة .

صلتها بالدين

وخطيب المشروع الاجتماعى كأى خطيب آخر لابد له من درس موضوعه درساً عميقاً يجعله يدرك غايته وفوائده . ويدرك مايستدعيه نظامه وقيامه من مشاق ، وبهذا يستطيع أن يدفع آراء معارضيه وهذه الخطبة من حيث ما تجلبه من منافع تتصل بالخطبة الدينية .

ولكى ينجح الخطيب فى موقفه هذا يتبع هذه الخطوات :

١ ــ يقدم لمشروعه بمقدمة مناسبة .

٢ ــ يعرض مزايا مشروعه وفوائده ، وعليه أن يتوسع فى هذا الجانب ويستقصيه ليرى أن نفعه يعم الفقراء والأغنياء جميعاً ويرفع مستوى مجتمعه ويسد نقصاً فيه ، فهذا هو موضوع الخطبة الذى هو أهم أجــزائها .

٣ ــ عليه أن يذكر أمثلة لهذا المشروع ونظائر له من مشروعات أخرى كانت رغم ما كلفت من مشقة وجهد ذات نفع عظيم تنسى ثمرته كل ما بذل من مشقات .

٤ ــ إعداد العبارات وتنسيق الأسلوب والاستشهاد بالأحداث والأحاديث وآيات القرآن وأبيات الشعر ، مما يثير عواطف السامعين ويهيئهم للإقبال على ما يدعو له الخطيب ، ولكن فى جانب الاستشهاد بالشعر لا يجوز الإسراف والإكثار عكس الآيات القرآنية والأحاديث ، لأن إدخال الموضوع الاجتماعى فى الدين يجعل المشارك فيه متطلعاً إلى مثوبة الله وإلى درج نفسه فى سلسلة الصالحين ورجال الإصلاح .

٥ ــ من المفيد جدا أن يستأنس الخطيب بأعمال العظماء والمشهورين فى ميدان الإصلاح الاجتماعى وما أنشأوا من مشروعات كانت فى بدايتها صغيرة ثم نمت وصارت ذات نفع عظيم . وبقيت تحمل ذكراهم وتذكر الناس بأياديهم .

موضوع الخطبة الاجتماعية لصيق بالخطبة الدينية ، ومما يجب أن يهتم به الواعظ الإسلامى ، وهو فى جملته موضوع إنشائى يحتاج إلى البحث عن عناصر جيدة وترتيبها ترتيباً مناسباً يفضى إلى نتائجها ، ومن أمثلة ذلك :

مثال لها

إذا أراد خطيب اجتماعى أن يدعو مستمعيه للتبرع لملجأ أيتام ، فماذا يقول وكيف يواجه موضوعه ؟ .

طريقة التفكير

يبدأ أولا بالحديث عن الملجأ الذى يريد التحدث عنه ، فيصف مبناه ولون التعليم الذى يقدم فيه ، ويصف حال الأطفال الصحية ، والأدب الخلقى والسلوكى الذى هم عليه ، ثم يوازن بينهم وبين الآخرين الذين تجرفهم تيارات الفساد ، فتسوء صحتهم وأخلاقهم . . ثم ينتهى من هذا إلى طلب معاونة الملجأ ، وفى حال المعونة لابد أن يشعر الخطيب سامعيه بما يعود عليهم من الفوائد العامة والخاصة أيضاً كأن يذكرهم بأن هؤلاء الأيتام ربما كانوا أبناء قوم صالحين وربما كان آباؤهم من ميسورى الحال ولكن الزمن أخنى عليهم ،وكل واحد منا عرضة لهذه الحال ولا يضمن أحد مصير أولاده فليساعد هؤلاء ليحفظ الله أولاده ويرعاهم ، وهذه النقطة الأخيرة يمكن التوسع فيها فتكون أكثر مساساً بمشاعر السامعين .

فى مثل هذه المواقف بوجه عام يوجه الخطيب انتباه سامعيه إلى أثر الأعمال التى يقوم بها الأهلون ، ولا تعتمد على معونات الحكومة .

إن الغربيين يبنون حضارتهم وأعمالهم الهامة بأيدى الشعوب بينما يعيش الشرقيون عالة على حكوماتهم ، إن الشعب الحى الناضج يسبق حكومته ويقودها ، أما الشعب المتأخر فإنه يرهق حكومته بتواكله ، ويشغلها بما يطلب منها عن أعمالها الأخرى .

لقد تقدمت مصر فى بعض المواقف ، إذ اعتمدت على جهود الشعب فنجحت نجاحاً كبيراً ولكنها ما لبثت أن تركت عملها للحكومة ، كانت جامعة القاهرة أول جامعة أنشئت فى الشرق الأوسط ، وكانت تسمى الجامعة المصرية ، وقد نشأت جامعة أهلية ، لا علاقة للحكومة بها وأدت رسالة التعليم الجامعى على وجه مشكور ثم سلمت للحكومة ، وقام طلعت

حرب بإنشاء بنك مصر ، وبفروعه العديدة وشركاته القيمة النافعة ثم سلم كل ذلك للحكومة ، فدل ذلك وأمثاله على فقر فى عزائمنا وقلوبنا ، وهذا لا يحدث فى البلاد الأوروبية ، رلقد أثمرت هذه الجهود الشعبية على أى حال ، ولا يليق بنا أن نتراخى أو نتوانى فى أعمالنا النافعة أو نستهين بها ، فإن وراء العمل الصغير نفعاً كبيراً . كانت الجمعية الخيرية الإسلامية جمعية متواضعة ثم أنشأت من المدارس النافعة ذات المناهج الإسلامية ما كان مثالا يحتذى. ومنها اشتقت جمعية العروة الوثقى وأقامت عدداً من المدارس وقامت بأعمال ثقافية ودينية نفعها لا يخفى .

خطب المحافل

ما هى الخطبة الحفلية ؟

وهى ما يلقى فى حفلات التكريم لبعض الأشخاص ، وقد تكون بسبب انتقال موظف كبير من عمل إلى آخر أو من بلد لآخر ، أو بسبب تقاعده ، أو قيامه بعمل خطير أو استقباله قادماً من سفر أو وافداً كضيف ، وهكذا . . ويدخل فى خطب المحافل تكريم الموتى بتأبينهم عند موتهم أو بإحياء ذكراهم ، وفى أدبنا الحديث أمثلة كثيرة من هذا .

هذا النوع الخطابى يختلف عن المراثى الشعرية ، لأن قصائد الشعر وطبيعة الشعر تحتمل المبالغة والتجوز ، أما الخطبة فتسقط إذا جنحت إلى المبالغة ويسقط الشاعر أيضاً إذا أسرف فى مبالغته .

ما يعاب فيها

ومن الأساليب التى رثت وبليت أن يقف الخطيب فيقول : وددت لو أن لى بلاغة سحبان أو أنى أوتيت الحكمة وفصل الخطاب لأوفى فلاناً ما يستحق من التقدير والثناء ، ولو أننى نظمت الكواكب عقودا وجمعت الورد أكاليل ثناء ، ما أدت قليلا مما يجب .

مثل هذا الأسلوب أصبح ممقوتاً ، وهو مما يثير اشمئزاز السامعين ، ولا يعود عليهم بفائدة .

ما يحمد منها

ولكن من المفيد المقبول أن يمر الخطيب سريعاً بصور من حياة المحتفى به — حيًا أو ميتاً — لا ليعرض تاريخ حياته ولكن ليقف عند أعماله ومواقفه

التي تستحق الذكرى والتمجيد . وإذا كان الخطباء عديدين فإن الخطيب الأول هو الذي يمكن أن يفعل ذلك،أو يذكر تاريخ حياته بإيجاز ، ثم لا يكون هناك مساغ لإعادة هذا التاريخ .

والخطابة الناجحة في هذا الموقف تتبع طرقاً معينة أهمها ما يلي :

أشراطها

١ — أن يتخذ الخطيب من عمل خاص للمحتفى به محوراً لخطبته فيبين أثر هذا العمل ويدعو الناس إلى محاكاته أو إكماله أو ابتداع شيء مثله،فهو بهذا يكرم مبدأ أو عملا ويحفز السامعين لعمل مثله . وإذا كان للشخص المكرم عدد من الأعمال الجليلة مر بها الخطيب سريعاً أو سردها بإجمال ثم وقف لدى عمل واحد أو اثنين لتحليلهما وبيان آثارهما .

ارجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الشيخ محمد عبده وانظر الاتجاهات العديدة التي سلكها من رثوه واقرأ أيضاً قصيدة حافظ إبراهيم وقد حدثناك عن هذا من قبل .

أمثلة للرثاء

وقف جماعة من الخطباء يرثون المرحوم الشيخ محمود شلتوت فتحدث واحد منهم عن كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » ، وشرح منهجه فيه وطريقة عرضه وفهمه الأحكام الفقهية ، وتحدث آخر عن فتاواه وبين ما له فيها من آراء جديدة وكيف تهدى إلى أدلتها ، وعرض بعضاً منها فقال إنه لا يوافقه على ما استدل به ، ولا ما انتهى إليه فيها . وهذا لا يضر أبداً ، فلا يعني تكريم الشخص حياً أو ميتاً أننا نوافقه على كل رأى له ، والثناء على الشخص في هذه الحالة أو تكريمه يرجع إلى ما بذل من جهد وما كان له من ذكاء وصفات علمية ، وتحليل منهج الشخص الفكرى هو نفسه تكريم وإن لم نوافقه عليه .

وذكر ثالث تفسيره ، ورابع درسه الفقه المقارن وهكذا ، وكل ذلك حسن وجميل ، ومنه يخرج السامعون بفائدة وتبقى بسببه لمن يكرم ذكرى .

ووقف خطيب وعالم كبير يؤبن ملكاً عربياً فقال :

« إنني أخالف الذين سبقوني بالحديث عن . . . لقد أراقوا الدموع الغزيرة وتوهموا أن الموت يخطىء العظماء . لا . . إن الموت نتيجة محتومة

لكل حي ، وإنما يبكى على الذين يقطعون عمرهم ولا يتركون وراءهم آثاراً تخلد ذكراهم ، يبكى على الذين عاشوا لأنفسهم ولم يقدموا لغيرهم شيئاً ، يبكى على الذين استفادوا من أوطانهم كثيراً ولم يفيدوها كثيراً ولا قليلا .

أما (فلان) فقد ترك آثاراً وأفاد الناس وأعطى وطنه أكثر مما أخذ » ثم أخذ يعدد أعماله النافعة وسياسته الموفقة . . وانتهى إلى الدعوة للاقتداء به ونهب الأعمار قبل أن تفنى فلمثل هذا يعمل العاملون .

هذا المنهج بوجه عام أنجح الطرق وأكثرها ملاءمة وتوفيقاً .

٢ ــ أن يكون لدى الخطيب معلومات خاصة عن المحتفى به ، ودراية قيمة له فيكشفها أو يكشف ما يجوز التحدث عنه منها ، فهذا إذ يرفع قدر المحتفى به ، يوجه الناس إلى محاكاته أيضاً . وربما اشتمل الحديث على أحداث لم تكن .

خطبة تكريم

وقف خطيب يكرم مدرساً منقولا ، فقال :

« إن من الأعمال الهينة ما لا يلتفت إليه الناس ويغيب عن خاطرهم ، وهو إذا التفتوا إليه ذو قدر كبير . .

لقد عاش (فلان) بيننا ما عاش فى حياة سليمة رفيقة ، لم ينشب بينه وبين أى واحد منا مشادة أو خلاف ، ومرد ذلك أنه يعطى أكثر مما يأخذ ويتنازل عن كثير من حقوقه ولكنه لا يهمل ما عليه من واجبات . وهذا هو خلق المعلم الذى يرشد إلى الأخلاق الكريمة والذى يفيد بعمله كما يفيد بلسانه ، ويجعل من سلوكه قدوة ، حسنة للآخرين » .

كثيراً ما خرجت من درسى وأنا مرهق كليل أتهالك على مقعدى ملتمساً شيئاً من الراحة ، ثم أنظر إلى (فلان) بجانبى منهمكاً فى تحضير درسه أو تصحيح كراسات أمامه فيبعث فى نفسى نشاطاً وحفزاً على العمل ، وربما تراخيت عند بدء الدرس لكننى أجده حريصاً على أن يدخل فصله فى الوقت المعين فأستحى أن أكون دونه ... إلخ » .

ترى كانت هذه الصفات حقاً أم مبالغة واختلاقاً ؟ .

إن كانت الأولى فقد صادفت الخطبة نجاحاً لأنها دعت إلى مبادىء قويمة للمعلمين ، وإن كانت الثانية فقد أهان الخطيب نفسه أمام رفاقه وأمام المدرس المحتفى به ، لأنه قال شيئاً غير الواقع وأشعرهم أنه على استعداد أن يكذب .

طرق صوغها

٣ – قد يجنح الخطيب إلى الحديث عن الوظيفة التى شغلها المحتفى به وأنه حقق كثيراً منها أو قام بكذا وينتظر من خلفه أن يحقق ما بقى .

٤ – قد يبدأ الخطيب بإلقاء عدد من الأسئلة التمهيدية كأن يسأل : لماذا نحتفى بهذا الشخص ؟ وما هى الأعمال التى جعلته موضع تقدير وإجلال ؟ . ثم يبدأ فيعرض أعماله .

وفى تأبين الموتى الذين بعد زمن موتهم يلجأ الخطباء إلى تحليل أعمالهم وتعليل حدوثها والظروف التى لابستها ، وكثيراً ما ينقدون لهم أعمالا وآراء ويخالفونهم فى اتجاهاتهم . . ولكن هذا لا يناسب فى رثاء ميت يوم موته أو عقب موته بقليل ، فالناس فى هذا يذكرون المزايا ولكن لا يبالغون وسنتحدث بعد عن خطب الرثاء .

أسلوبها

بقى شىء آخر لابد منه وهو أسلوب هذه الخطابة إنها موقف ألصق بالأدب ، وفى كثير من الأحيان يقع الخطيب فى حرج فلا ينقذه إلا اطلاعه الأدبى وثقافته الخاصة . وهذا التكوين يفيد أيضاً عند المفاجأة وعندما يكون الخطيب خالى الذهن عن الشخص أو لا يجد له ما يستحق أن يكرم عليه حيًّا أو ميتاً .

دخل واعظ قرية أو مجتمعاً فوجد الناس يكرمون أحد النواب البرلمانيين لنجاحه فى الانتخاب وهو ليس لديه معلومات وافية عنه ولا كان فى ذهنه أن يخطب ولكنه وجد اسمه يعلن من البوق والمكان يفسح له فوق منصة الخطابة فماذا يفعل أو ماذا فعل ؟ .

مما يناسب هذا الموقف على سبيل المثال أن يقول :

إن المنصب النيابى ، وتبوأ أي شخص مقعداً فى البرلمان ليس أمراً

هيناً إنه أمر خطير حقاً ، لا ترجع خطورته إلى ما يبذل المرشحون من جهد وعرق ومال . لا ، ولا ترجع إلى أنه منصب خطير يعطى صاحبه حق استجواب الوزراء والكبراء ، إنه أمر فوق هذا كله . إنه منصب شرف وتكريم أكثر مما هو موقف مادة أيا كان نوع المادة ، يكفى من ينجح فى هذه الانتخابات أنه أحرز الثقة من أبناء دائرته ، يكفى أنهم رأوه وحده دون الآخرين موضع ثقتهم وائتمانهم وأنه الجدير أن يلقوا بين يديه أمانيهم ومستقبلهم ، لقد وثقوا فى عقله وتفكيره ، كما وثقوا فى أمانته وضميره . وفى جرأته ومثابرته وعطفه عليهم وحبه لهم . . هذه الثقة الغالية هى نفسها تكريم وتقدير .

وبقدر ما نولى نوابنا من ثقة نبنى عليهم الآمال ، ونتقدم لهم بكل مطالبنا ونحن واثقون مطمئنون ، ليس هذا المنصب تكريماً فقط ولكنه أيضاً مسئولية وجهاد وكفاح لصالح الوطن والأمة جميعاً .

سيدى النائب المحترم ، إننا من قبلنا نصبناك قائداً لنا وإماماً ، رفعناك وتواضعنا ، قدمناك وتراجعنا ، بقى أن نطلب منك ما أملنا ، وأعتقد أننا وفقنا فيما اخترنا واهتدينا إلى الحق فى اختيارنا ، ونسأل الله أن يوفقك فى النهوض بما يلقى عليك من أعباء .

بهذا تخلص الخطيب نفسه من مسئولية الثناء على ما لم يعلم وقد تحدث عن المنصب أكثر مما تحدث عن شاغله وكلامه مقبول وخطبته ناجحة .

ووفد واعظ آخر — أو خطيب ما — على بلد أول ما وفد فوجد سرادق عزاء كبير والناس يتناوبون الخطابة وهو لا يعرف عن المتوفى شيئاً . ولكن طلب منه أن يخطب ، فماذا يقول : . . . يمكن أن يقول :

مثال آخر

إن الموت لغز سيظل الناس فى حيرة منه . ما هذا الروح الذى ينسل من جسم الإنسان فإذا هو جثة هامدة لا تفكر ولا تتحرك ولا تعمل شيئاً ، يقف المفكر أو الفيلسوف أو المخترع فيكشف من خبايا الكون وأسرار النفس وغوامض القوى ما يحير العقول ويظل كل يوم يأتى بجديد ، فإذا دهمه الموت وفارقت روحه جسده ذهب كل هذا التفكير وانمحت كل

تلك القوى ، وما لم نسرع إلى مواراة هذا الجسد تحت التراب أسرع إليه البلى وهدده الفناء ، كل هذا بسبب فراقه الروح وهى أمر خفى لا نعرف عنه شيئاً : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ثم ماذا يحدث لو أن الناس لا يموتون ؟ ترى هل تتسع الأرض لكل هذه الأجيال من عهد آدم إلى اليوم ؟ إن الموت سنة طبيعية والموتى يفسحون لمن يأتى بعدهم من الأجيال الوافدة التى لا ينقطع سيلها .

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها　　　منعنا بها من جيئة وذهــــوب

ونحن ننظر إلى مقابر الموتى من حولنا فإذا تزاحم مساكن الأحياء . وهم موتانا الذين لم يمض عليهم إلا زمن محدود فأين ترى قبور آبائنا من آدم إلى اليوم ؟ ليخيل إلى أنه لا توجد ذرة من تراب الأرض إلا وهى من رفات أجدادنا وأجسام آبائنا السابقين :

صاح هذى قبورنا تمــــلأ الرحـ　　　ـب ، فأين القبور من عهد عاد؟

وقد نستحيى أن نطأ الأرض بأقدامنا ، ونحن نشعر أنها من أجسام الذين سبقونا ، ولكننا لا نستطيع أن نطير فى الجو فلا أقل من أن نرفق بهؤلاء الأجداد حين نمشى على رفاتهم :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ　　　أرض إلا من هــــذه الأجساد
طر إن اسطعت فى الهواء رويداً　　　لا اختيالا على رفات العباد

وقد نرثى للآنية الفخارية التى نستعملها نأكل فيها ونشرب ، وهى ليست إلا عجينة من أجسامنا ، وترى فى أى بلد عجن هذا التراب ومن كان صاحبه ؟

لعل إناء منك يصنع مــــــرة　　　فيأكل فيه من يشاء ويشـــرب
وينقل من أرض لأخرى وما درى　　　فواها له بعد البلى يتغــــرب

هذه حياتنا ، ما أرخصها ، ما أقصرها ، إنها لا تغلو ولا تطول إلا بالأعمال فأين هم الذين يدركون رخص الحياة وقسوتها وهوانها ؟

وتخلص هذا أيضاً من موقفه ، والفضل فى كلتا الحالتين للأدب سواء فى ذلك سعة القراءة أو سعة المحفوظات أو سعة التفكير .

وأخيراً إذا فوجئت بموقف خطابى من مواقف التكريم فحذار أن تتردى فى هوة المبالغة المقيتة ، وأن تضفى على الممدوح كل ما تعرف من صفات المدح والثناء، فهذا يسقطك خطيباً ويسأم الناس مما تقول . تذكر دائماً أن خطبة المدح والرثاء مصدر ثقافة وتعليم .

الالتفات إلى الماضى

ومن المفيد للخطيب فى هذا الموقف أن يلتفت إلى أحداث التاريخ الماضية ففى خطب التكريم اذكر ما حيا به رسول الله ﷺ أصحابه فى مواقفهم المختلفة وفى حفلات الرثاء تذكر وفاة إبراهيم وما اعترى والده من حزن وكآبة وما تحلى به من صبر جميل ، وفى موقف الزفاف اذكر زفاف فاطمة بعلى . ولا تقف الأحداث عند رسول الله ﷺ فقط ، اذكر ما فعل أبو جعفر حين فقد ابنه، وما فعل المأمون عندما فقد أخاه يعقوب اذكر زفاف بوران وقطر الندى ومقتل على وعمر وعثمان . وهكذا نجد فى أحداث التاريخ مدداً مشوقاً ومفيداً .

مدد من الشعر

وكان الأقدمون من الخطباء والشعراء يفعلون ذلك فارجع إلى القصيدة المشهورة التى قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء فقيه حنفى تجد أنه لم يخصص للميت منها إلا أبياتاً معدودة بينما صرفها كلها لرثاء الإنسانية كلها، وهذا سر خلود هذه القصيدة وولع الناس بها، وقد اقتطفنا منها ونؤثر أن نقدم منها أكثر لما فيها من المعانى العميقة المثيرة وفيها وفيما نذكره بعدها مدد أدبى للخطيب .

قال أبو العلاء المعرى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شاد (١)

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ   ـت على فرع غصنها المياد (٢)

---

(١) لا فائدة وراء بكاء المحزون ، أو بهجة الفرح السعيد .

(٢) المياد : المهتز .

وشبيه صوت النعي إذا قيـ سَ بصوت البشير في كل واد(١)
إن حزنا في ساعة المو ت أضعاف سرور في ساعة الميلاد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ب فأين القبور من عهد عاد(٢)
خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد (٣)
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد
طِر إن اسطعت في الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد (٤)
ودفين على بقايا دفين في قديم العصور والآباد
تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد

وللمعرى قصيدة أخرى مشهورة أيضاً في الرثاء أولها :

أحسن بالواجد من وجده صبر يعيد النار في زنده (٥)
ومن أبي في الرزء غير الأسى كان بكاه منتهى جهده (٦)

ومنها :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده (٧)
أي جديد لك لم تبله وأي أقرانك لم ترده ( )

---

(١) النعي : الناعي .

(٢) الرحب بضم الراء جمع الرحب بفتحها . وسكنت الحاء تخفيفاً وأصلها الضم .

(٣) أديم الأرض وجهها يريد التراب الذي نمشي عليه .

(٤) يجتمع في اللحد الواحد صالح وطالح وطفل وعجوز ، ورجل وأنثى، وكأن القبر يعجب لهذا الحشد العجيب .

(٥) الواجد المحزون والزند الذي يضرب به الحجر ليقدح النار يقول إنه الأفضل للواجد المحزون أن يتصبر فالصبر يعيد إليه قوته ونشاطه .

(٦) من أصر على الحزن فإنه لا يعمل شيئاً غير البكاء .

(٧) الإيعاد التهديد والوعيد، والوعد يكون في الخير يقول إن الزمن يمضي وعيده ويخلف وعده

(٨) كل جديد يبلى مع الزمن، والأقران جمع قرن وهو الند والخصم المحارب، وأرداه: أهلكه وقتله ، يريد أنه جبار قوي لا يغلب .

تستأسر العقبان فى جوها ... وتنزل الأعصم من فنده (١)
أرى ذوى الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سيلك فى مده (٢)
تجربة الدنيا وأثقالها ... حثت أخا الزهد على زهده
والقلب من أهوائه عابد ... ما يعبد الكافر من بده (٣)
لو عرف الإنسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
أمس الذى مر على قربه ... يعجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذى أجل فى سنه ... مثل الذى عوجل فى مهده (٤)
ولا يبالى الميت فى قبره ... بذمه شيع أم حمده
والواحد المفرد فى حتفه ... كالحاشد المكثر من حشده
وحالة الباكى لآبائه ... كحالة الباكى على ولده (٥)
ما رغبة الحى بأبنائه ... عما جنى الموت على جده (٦)
تدعو بطول العمر أفواهنا ... لمن تناهى القلب فى وده
يسر إن مد بقاء له ... وكل ما يكره فى مده (٧)
أفضل ما فى النفس يغتالها ... فنستعيذ الله من جنده (٨)
كم صائن عن قبلة خده ... سلطت الأرض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده
ورب ظمآن إلى مورد ... والموت لو يعلم فى ورده

وجرى المتنبي فى هذا المنطلق حين رثى فقد اضطرته مجا لته لسيف الدولة

(١) تستأسر : تتخذ أسيرا ، والعقبان جمع عقاب كغراب ، والأعصم : الوعل يسكن أعالى الجبال فنده : القطعة من الجبل .
(٢) الدهر لا يبقى على شريف أو خسيس . فهم يستوون أمام الموت .
(٣) البد الصنم .
(٤) صار المعمر كمن مات صغيراً .
(٥) أولاده .
(٦) لماذا يرغب بأبنائه عن الموت الذى أتى على أجداده .
(٧) يتمنى طول عمره ، وطول العمر يأتيه بما يكره .
(٨) أفضل ما فيها طول العمر وهو موت .

أن يرثى أخته ثم أخته ثم عمته ثم طفلا له ، ثم غلاما له . . . ولم يكن بالمتنبي حزن على أى من هؤلاء ولا هم من ذوى الشهرة . فكان مضطراً أن يلجأ إلى الموضوع لا إلى الميت، وكان موفقاً فيما فعل، فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة :

ولذيذ الحياة أنفس فى النفس — وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة — وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب — فإذا وليا عن المرء ولى
أبداً تسترد ما تهب الدنيا — فياليت جودها كان بخلا
وهى معشوقة على الغدر لا تحـ — ـفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدرى — لذا أنث اسمها الناس أم لا (١)

وفى موقف آخر يتجه هذا الاتجاه الفلسفى فيقول :

نحن بنو الموتى فما بالنا — نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا — على زمان هن من كسبه
فهذه الأنفاس من جوه — وهذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله — ميتة جالينوس فى طبه

وانظر قصائده الأخرى التى أشرنا إليها، وإنك واجد فى الأدب العربى قديمه وحديثه مثلا كثيرة من هذا وفيها ما يلهمك ويمدك بالمعانى الغزيرة إذا فوجئت بموقف يطلب منك أن تتحدث فيه وقد أطلنا فى هذه المقتبسات الشعرية لأن بها معانى يحسن بالخطيب أن يحاكيها وأن يولد منها .

ولا يقف هذا المدد عند مواقف الرثاء وحدها بل تجد فيه مدداً غزيراً للمواقف المختلفة تكريماً ورثاء وغيرهما . وقد قدمنا لك نماذج شعرية لسهولة حفظها وارجع إلى ما جمعه صاحب العقد الفريد من خطب الخلفاء وغير الخلفاء، وادرس ما تستطيع درسه منها لترى كيف اختار هؤلاء الخطباء معانيهم وألفاظهم وكيف واجهوا المواقف الحرجة واستطاعوا النفاذ من مضايقها .

---

(١) الدنيا تغدر كما تغدر النساء وربما أنث اسمها لهذا السبب .

وأنت على أى حال كخطيب دينى لا غنى لك عن قراءة ودرس التراث الخطابى الهائل، ولا غنى لك عن اقتناء كتب مثل . جمهرة خطب العرب ، العقد الفريد ، والبيان والتبيين . وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فضلا عن نهج البلاغة نفسه .

خطب الرثاء

مواقف مختلفة للرثاء

خطب الرثاء تدخل فى خطب المحافل . ولكنا نفردها بحديث موجز نبين فيه الفرق بين التأبين وخطب التعزية . والرثاء نوع من التأبين وقد قدمنا أمثلة له ، والفرق بين النوعين أن التأبين يتناول الحديث عن الميت ، والتعزية فيه توجه إلى آله وذويه .

والترتيب العام لخطبة التأبين أن يذكر المتكلم الميت فيصف صفاته الحميدة ومناقبه بين الناس وينتقل منها إلى ما خسرة مجتمعه أو العالم كله بفقده وطلب المغفرة له والرحمة .

ويفرق بين خطبة التأبين التى تلقى يوم وفاة الميت أو أثناء أيام العزاء فيه وبين الأخرى التى تلقى يوم الأربعين من وفاته كما هى العادة الجارية ، ثم الخطب التى تلقى فى مجتمعات العزاء، وعقب وفاة الشخص لا يجوز أن يوجه أى نقد له أو ذكر أى عيب من عيوبه . وتكون هذه الخطب عادة مختصرة لأن الحديث الذى يقتصر على ذكر المحاسن إذا طال كان مدعاة للمبالغة والتزيد، وذلك مما يزرى بالخطيب نفسه، وقد ذكرنا لك أن المخلص من هذا هو صرف الحديث إلى الموت نفسه وذكر أنه يأتى على كل شىء لا يفرق بين شخص وآخر أو أنه يختار كرام الناس فيعجل بهم .

وهذا النوع قديم فى الجاهلية وفى الإسلام، ولكنه فى الشعر أكثر وأغلب. وهناك قصائد خاصة اشتهرت فى هذا النوع فإذا رجع الخطيب إليها استفاد من معانيها واستعملها نثراً فترفع قيمة خطبته . وقد ذكروا أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى مات له ولد فعاد من دفنه حزينا فطلب من ذويه من يحفظ قصيدة أبى ذؤيب الهزلى فى رثاء أبنائه فلما لم يجد من يحفظها قال : لمصيبتى

فى آلى إذ ليس بينهم من يحفظ هذه القصيدة أشد علي من مصيبتى فى ولدى(١)

من أمثلتها

وكذلك مرثية لبيد بن ربيعة لأخيه أربد . وفى أمالى القالى أمثلة كثيرة من هذا ، ومن خطب العزاء الشهيرة ماعزى به وفود العرب سلامة ذا فائش وهو من أجود العرب وذوى المكانة بينهم ، وكان له ابن يرجو أن يكون خليفته فى سيادة قومه ، كان الولد بادى النجابة واللسن تدل مخايله على أنه أهل لما يرشحه له أبوه ولكنه صادف أن ركب جواداً أرناً (٢) فوقصه (٣) ونال الجزع عليه من أبيه حتى امتنع عن الطعام وعن مقابلة الناس وقدمت وفود العرب ليعزوه فلم يخرج حتى لامه بعض أصدقائه لإفراطه فى جزعه فخرج إليهم وأخذ خطيب كل وفد يلقى بما لديه مما يناسب هذا الموقف،وأورد صاحب الأمالى خطبتين أولاهما للملبب بن عوف الجعفى والثانية لجعادة ابن الأفلح بن الحارث وهو جد الجراح بن عبد الله الحكمى صاحب خراسان . وهاتان الخطبتان (٤) من خطب العزاء وهما :

١ ـ خطبة الملبب بن عـــوف

أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب وتعطى لتأخذ وتجمع لتشتت وتحلى لتمر (٥) وتزرع الأحزان فى القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب . وكل مصيبة تخطتك جلل (٦) ما لم تدن الأجل وتقطع الأمل،وإن حادثاً ألم بك فاستبد (٧) بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك وقد تناهت

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ديوان الهذليين أول قصيدة به وفى المفضليات وأولها :

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

(٢) جموحاً .

(٣) وقص عنقه : كسره .

(٤) انظر الأمالى جـ ٢ / ٩٩ وما بعدها .

(٥) تجعل الشىء حلوا ليصير مرا .

(٦) الجلل العظيم والحقير – والمراد بها هنا الهين الحقير .

(٧) استخلص لنفسه .

إليك أنباء من رزئ فصبر وأصيب فاغتفر (١) إذ كان شوى (٢) فيما يرتقب ويحذر ، فاستشعر اليأس مما فات إذا كان ارتجاعه ممتنعاً . ومرامه مستصعباً . فلشيء (٣) ما ضربت الأسى ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .

فى هذه الخطبة الموجزة أربعة عناصر بارزة :

١ ـ إن طبيعة الدنيا أن تسترد ما جادت به على الناس وبهذا تكون عاقبة الفرح حزناً .

٢ ـ إن حياته هو وسلامته كنز يغنى عن كل ما ذهب .

٣ ـ إنه يعلم بحال كثيرين أصيبوا فصبروا وما يتوقع من حدثان الدهر أكبر مما يحدث فعلا .

٤ ـ إشعار النفس بأن ما فات لن يرجع مما يسبب الصبر والسلوان .

وإذن إلى رجعت ما قدمناه من الأمثلة وإلى محفوظاتك الأدبية تجد أن الشعراء والخطباء يتداولون هذه المعانى. وفى شعر المتنبى وأبى العلاء الذى سبق معان وأفكار من هذه الخطبة وفى العنصر الثانى يقول أحد الشعراء :

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر ... يموت بموته خلق كثير

وهو عكس المعنى الذى جاء به المليب .

ويقول آخر :

لا تجزعى إن منفساً أهلكته ... فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى

ويشبهون الولد دائما برأس المال الذى ينتج عنه العوض عما فات .

---

(١) تناسى .
(٢) الشوى : القليل الهين .
(٣) لسبب من الأسباب .

٢ – خطبة جعادة بن أفلح

« . . . أيها الملك :

لا تشعر قلبك الجزع على ما فات فيغفل ذهنك عن الاستعداد لما يأتى . وناضل (١) عوارض (٢) الحزن بالأنفة عن مضاهاة (٣) أفعال أهل وهى (٤) العقول . فإن العزاء لحزماء (٥) الرجال والجزع لربات الحجال . ولو كان الجزع يرد فائتا ، أو يحيي تالفاً لكان فعلا دنيئاً . فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب ،فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت عليه الأرذلون . وعن قدرك عما يركبه المخسوسون . وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ضلة (٦) كأحلام النيام » .

دعا جعادة إلى مكافحة الحزن باتجاه أن يترفع المحزون عن الظهور بمظهر الواهن الضعيف ،لأن هذا المظهر يناسب النساء لما فيهن من ضعف وقله عزيمة ،ومظهر الجزع إذا فرض أنه يفيد لا يناسب كبار الرجال فكيف وهو لا فائدة وراءه ،لهذا لا يليق برجل عظيم مثل سلامة ذى فائش أن يبدو فى أخلاق النساء .

وواضح أن الخطبة مدروسة أعدت على تمهل وبصيرة وقد استطاع الخطيب أن ينفذ إلى قلب الرجل لأنه واجهه بما يناسب مكانته وأخلاقه فهو رجل شجاع كريم ذو شهامة وكبرياء وترىأ نفسه عن صفات الأرذلين الأخساء .

---

(١) دافع وحارب . (٢) طوارئ .

(٣) مشاكلة ومشابهة . (٤) ضعف .

(٥) ذوى الحزم – يقال حازم وحزيم ، وحزم وحزماء .

(٦) ضلال وبعد عن الحق .

٣ – تعزية أكثم بن صيفى

ومن التعزيات المشهورة أيضاً تعزية أكثم بن صيفى لعمرو بن هند عن أخيه وفيها : « . . . إن أهل هذه الدار سفر (١) لا يحلون عقد الرحال إلا فى غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع إليك وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك .

واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام . فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدرى من أهله وسيأتيك إن وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلق منها وخير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله .

وقد تكون هذه الخطبة مصنوعة نسبت لأكثم . ولكن الذى يعنينا هو الناحية الفنية ، وهى تجرى على نسق الخطب السابقة من التهوين من شأن الدنيا والتذكير بأن الناس عنها راحلون، وبعض عباراتها مذكور فى خطب أخرى .

وقد يجيب المعزى بخطبة أيضاً أو يكتفى بجملة أو بعض جمل لا تصل أن تكون خطبة .

٤ – خطبة هند بنت المهلب

ومن الخطب التى أجاب بها من عزوا فى أشخاص فقدوهم . هند بنت المهلب ابن أبى صفرة لما قتل أخوها المفضل بن المهلب . دخل عليها والناس حولها ثابت قطنة (٢) وكان من خلصاء أخيها يزيد فعزاها بقصيدة رصينة فقالت :

---

(١) مسافرون كركب .

(٢) ثابت قطنة شاعر فارس من شعراء الدولة الأموية وخطبائها كان فى صحبة يزيد بن —

« أجلس ياثابت ! فقد قضيت الحق وما من المنية من بد وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حى ، وليست المصيبة فى قتل من استشهد ذابا عن دينه مطيعاً لربه ، وإنما المصيبة فيمن قلت نصرته وخمل ذكره بعد موته وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا فما كان مقامه فى طاعته خاملا » .

فيقال إنه ما عزى يومئذ بأحسن من كلامها .

ولما مات شبيب بن شيبة جاء صالح المدى فى بعض من جاءوا للتعزية فقـال :

« رحمة الله على أديب الملوك وجليس الفقراء وأخى المساكين »(٢) فجمع له فى هذه الجمل الثلاث أجمل ما يوسم به من الصفات .

أما فى خطب التأبين التى تلقى عقب دفن الميت فقد قلنا إنه يقتصر فيها على ذكر مناقبه فإذا كانت حفلة ذكرى لكبير من الكبراء أو شاعر أو زعيم . كان ثم مجال التحليل للميت وبيان مآثره وما يؤخذ عليه ، وقد سبقت أمثلة لذلك ، وقد تكون هذه الخطبة من أحد أولاد الميت أوذويه . فتبدو فيها عاطفة الحزن عليه والإكبار له ، وفى صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية لم يكن الخطباء يبالغون أو يظهرون كثيراً من التفجع على الميت وتباريح الحزن به لكن ذلك ظهر فى العصر العباسى واشتد وكثر فى العصور الأولى وهذا هو الأمر السائغ الذى يجرى عليه المثقفون. والفارق بين الحالتين هو الأسلوب فهو هناك رصين قوى متساوى الجمل والعبارات بينما هو فى هذا العصر من الكلام الجارى الذى لا تكلف فيه .

وينسب للسيدة عائشة أم المؤمنين خطبة أبنت فيها والدها أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، ويقال إنها وقفت على قبره بعد دفنه وهو قد دفن فى بيتها ، ولكن لا نظن أن أم المؤمنين ألقتها بين جميع المسلمين الذين دفنوا أباها. وربما كان ذلك بين النساء وفى هذه الخطبة :

= المهلب وجليسه ، وكان يوليه بعض أعمال الثغور فيحمد كفايته وشجاعته وسمى ثابت قطنة لأن سهما أصاب عينه فى حرب الترك فذهب بها فكان يجعل عليها قطنة تسمى بها ، وله أشعار وخطب بليغة . انظر الأغانى ١٤ / ٢٦٣ ط دار الكتب .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٣ .

« ... نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها،وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعدنا بحسن الصبر عنك حسن العوض منك وأنا متنجزة من الله وعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار بك فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على قضاء الله فيك» .

وأبنه على بن أبى طالب إذ وقف ببابه يوم وفاته وقال :

« رحمك الله أبا بكر . . كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله،وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهدياً وسمتا .

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدقت رسول الله حين كذبه الناس،وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا وسماك الله فى كتابه صديقاً فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به » . كنت والله للإسلام حصناً وللكافرين ناكبا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك . . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضعيفاً فى بدنك قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الأرض كبيراً عند المؤمنين ... » .

ورثى الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ولده فقال :

« رحمك الله يا بنى ، فقد كنت براً بأبيك . والله ما زلت منذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت أشد سروراً باك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ! . فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عمله،وتجاوز عن سيئاتك ورحم الله كل شاهد يشهد لك بخير» .

ومات ابن الحجاج محمد وأخوه محمد باليمن فوافاه نعى ابنه صباح

اليوم ونعى أخيه مساءه ، وقد فرح أهل العراق وقالوا: هيض جناحه ، فخرج إلى الناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أيها الناس محمدان فى يوم واحد : أما والله ما كنت أحب أنهما معى ، فى الحياة الدنيا ، لما أرجو لهما من ثواب الآخرة ، وأيم الله ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ثم تكون كما قال الله تعالى : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » .

ومثل هذا رثا عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ورثا الحسين بن على وأخوه محمد أخاهما الحسن، وأمثال هذه كثيرة . . ونجد هذه الخطب كلها تدور فى فلك واحد . وتعمر بمعان مستمدة ومتقاربة . ويحسن بدارس الخطابة وممارسها أن يرجع إلى الأمثلة الأخرى فى مراجعها .

الخطبة الدينية

ما هي

الخطبة الدينية هي التي تعتمد على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطبة المنبرية التي تلقى في الجمع والأعياد ويوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء ... تلك الأمور التي بين الدين أن لها خطبة، كما تشمل المواعظ والخطب التي تلقى في المجتمعات الدينية أياً كانت ، في الجمعيات الدينية وسرادقات العزاء ومجالس الصلح ... وما إليها تلقى خطب تستند في معانيها وأغراضها إلى الدين، ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهذه كلها خطب دينية ، وأهمها جميعاً هي خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض لا تصح الصلاة إلا بها .

مشقتها

والخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعاً فإذا استهان بها الخطيب وجعلها أمراً تقليدياً هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائياً .

ولا تزدهر الخطبة الدينية وتثمر إلا في عصور الحرية شأنها في ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرى ، فمهمة الخطيب الديني تتوقف على جانبين بيان حكم الشرع في أمر من الأمور ، هل هو جائز أو ممنوع ، ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه ، وكلا الجانبين كثيراً ما يكون مضاداً لما يريد الحاكم فيحجم الخطيب عن شرحه أو طلب تطبيقه ، وهذا سبب تأخر الخطابة في عصور الاحتلال الأجنبي والاضطهاد .

مجالها

ومجال الخطبة الإسلامية أوسع من مجال الخطبة في الديانات الأخرى ، لأن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة ، وكل عمل صالح أياً كان نوعه مما يدعو له الإسلام ويحث عليه . وكل عمل ضار ينهى عنه الإسلام ويحذر من الوقوع فيه ، وهذا مما وسع موضوعات الخطبة الإسلامية . وفي البلاد الأوروبية يتمتع الخطيب الديني بحرية واسعة جداً ، ولكن الكنائس مع عدم كثرتها كثرة فاشية قلما تمتلىء مقاعدها أو تزدحم بروادها ،

وفى لندن يزدحم الناس حول الخطباء فى الركن المخصص لهم فى حديقة « هايد بارك » ولكن لا يظفر القسيس إلا بعدد قليل جداً من المستمعين ، ويرجع ذلك إلى أن خطابتهم لا تعدو أن تكون أحاديث عن حياة المسيح مأخوذة من الأناجيل ، أو عرض قراءات من أعمال الرسل أو العهد القديم ، وكل ذلك مما هو معروف وسمع مراراً ، فهو لذلك لا يهز مشاعر السامعين ، ورجل الدين — مع هذا — فى كل البلاد الأوروبية يظفر بإجلال واحترام لا يظفر به سواه ، والخطيب الإسلامى الموفق فى بلادنا الشرقية يظفر بمثل هذا التوقير وأكثر . كل ذلك لأنه لما فطرت عليه النفوس من حب الدين واللجوء إلى الله تعالى فى الشدائد ، ولا يخلو إنسان من شدائد ، والفطرة الإنسانية تتجه إلى الخير وتحبه وتجل الحق وتكبره(١) حتى مرتكبي الذنوب والآثام يجلون أهل الخير ويقدرونهم ، ويدركون أنهم أقل رتبة من الأطهار بسبب تلوثهم بالمعصية .

ولا يجولن بخاطرك أن قراءة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شرح آية قرآنية أو ذكر حادث تاريخى ذى مغزى يمر على سامعيه من غير أن يترك فى نفوسهم أثراً ما ، ولكن هذا الأثر يختلف بين شخص وآخر .

نبالة مقصدها

والخطابة الدينية دائماً ذات مغزى شريف وأغراض سامية نبيلة ، لأنها دائماً تلفت الذهن إلى الجزاء الأخروى وتحذر من الحساب على الأعمال ، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى ، فهى بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية وتتسامى به إلى المعنويات . والخطبة السياسية تدور حول أعمال مادية بحتة من إنشاء مشروعات مثمرة أو تنمية الزراعة وتنشيط التجارة وما إلى ذلك ، والخطبة القضائية تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته ، وقل مثل ذلك فى الخطب الأخرى ، فهى جميعاً تدور حول أمور دنيوية ، أما الخطبة الدينية فتشمل ذلك كله، ولكنها تربطه بجزاء أخروى من الله تعالى

(١) هناك خلافات وجدل واسع بين الفلاسفة وعلماء الأخلاق حول الفطرة الإنسانية — فارجع إليه إن شئت — ولكن الرأى السائد هو أن الفطرة الإنسانية خيرة طاهرة والشر والدنس يأتيان من البيئة وسوء التربية .

وهذا ما عبر عنه الشراح بقولهم : الخطبة الدينية تتجه بالإنسان إلى السماء حين تربطه الخطب الأخرى إلى الأرض ، وتسمو به إلى المعنويات حين تهبط به الخطب الأخرى إلى الماديات ، والغرض بين الاتجاهين بعيد وواسع جداً .

ضعفها

ومع نبل الخطبة الدينية وأهميتها نجد أكثر الخطباء الدينيين لا يدركون النجاح المنشود ، ولا تترك خطبهم فى نفوس السامعين أثراً عميقاً ، ومستمعو الخطيب الدينى يأتون إليه تلقائياً لأنهم مجبورون على أداء الصلاة طاعة لله تعالى . ولكن لضعف الخطبة وقلة الاستفادة منها تجد معظم المصلين لا يحضرون إلى المسجد إلا بعد بداية الخطبة ، والخطيب – وليس المصلون – هو المسئول عن هذا ، ولذلك تجد مساجد معينة يهرع إليها السامعون فى وقت مبكر ومن أماكن بعيدة ثم لا يسأمون سماع الخطبة حتى ولو طالت .

أسباب ضعف الخطبة الدينية

نجمل أسباب ضعف الخطبة المنبرية فى هذه الأسباب :

بعد الخطبة عن الحياة

١ – بعد الخطبة عن حياة الناس وواقعهم ، فخطيب المسجد يدور فى محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار ، وقد يحدث الناس عن أشياء بعيدة جداً عن حياتهم ولا يتوقع أن يواجهوها .

سمعت مرة خطيباً فى قرية ريفية يتحدث عن مضار الخمور وعما ينشأ عنها من أمراض وكيف تدرج الإسلام فى تحريمها ، هذا وسكان القرية لا خمور لديهم ولا يجدون أثمان طعامهم . وكان أولى لو نهى عن التدخين وشرح أضراره ، وخطيب آخر فى إحدى قرى الصعيد اختار لحديث الجمعة أخطار الرحلات إلى البلاد الأوروبية وما ينزلق فيه زوارها من فساد وأعمال لا يقرها الإسلام ، وليس بين مستمعيه من يرحل إلى « بندر » المحافظة ، ومن حضر منهم مرة إلى القاهرة يعتبر نفسه رحالة واسع التجول ، والخطبة بهذه الطريقة مضيعة للوقت بغير فائدة ، ولا يجبر الناس على سماعها إلا الواجب الدينى .

وسكان الريف تشيع بينهم عادات سيئة جداً ، ولقلة ثقافتهم تفشو بينهم الأحقاد ، وكثيراً ما يسعى الواحد منهم لإفساد زراعة جاره حتى لا يسبقه فى ميدانها ، وقد يقتل ماشيته أو يساعد على سرقتها ، وقد يظلمه فى نصيبه من ماء الرى ، وكل ذلك يصلح أن يكون مجالا لخطبة الجمعة هناك ، ومن الناحية الإيجابية يجد الخطيب أمامه الحث على الزراعة وإجادتها والإرشاد عن طرقها ، والدعوة إلى الإخلاص فى العمل وإجادة العمل الزراعى سواء كان الزارع أجيراً أو يزرع فى أرضه .

وفى المدن يستطيع الخطيب أن يتابع الأحداث العامة ويبين رأى الطين فيها فيربط مستمعيه بحاضرهم وواقعهم ، ولكن لا يجوز أن يسرف فى ذلك إسرافاً بجعل الخطبة سياسية ، فهذا فى الواقع هروب من الخطبة الدينية ، وإنما وظيفة الخطيب الدينى أن يكيف الأحداث تكييفاً دينياً ، وأن يوازن بينها وبين ما يشابهها من أحداث التاريخ الإسلامى وخصوصاً ما كان فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

تعدد أغراض الخطبة

٢ — تتعدد أغراض الخطبة ، وهذا شائع وفاش فى أكثر المساجد تجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم وبر الوالدين والرفق بالضعاف ومساعدة الفقراء وحسن تربية الأطفال ، وهكذا تكتظ الخطبة بعديد من الأغراض وقليل من البحث والتحليل ، ومثل هذه الخطبة تذهب من أذهان السامعين فور مغادرتهم المسجد ، وربما شغل السامعين تنقل الخطيب من فكرة إلى أخرى لكنهم لا يحصلون على فائدة ثقافية ، ولا تستقر فى ضمائرهم عظة تهدى إلى الخير وتحول دون اعوجاج السلوك ، بعبارة أخرى إن الفائدة المنشودة من الخطبة قد ضاعت هباء .

تكرار المعانى

٣ — تكرار المعانى والشواهد : فالخطيب يذكر معانى واحدة معادة يذكرها فى كل خطبة ، وأكثرها يدور حول موضوعات معروفة للكثيرين ، وهذا التكرار يذهب بأثر الآيات والأحاديث والنصائح ، فلا تمس قلوب السامعين ولا تحرك مشاعرهم ، ولو أن الخطيب يتبع ما ذكرنا من متابعة الأحداث الجارية لوجد جديداً يهز مشاعر السامعين . وأيضاً موالاة القراءة والبحث

فى تفسير القرآن والحديث والسيرة النبوية فى كتبها المختلفة،وفى كتب التاريخ الإسلامى ما يفتح ذهن الخطيب ويمده بموضوعات كثيرة جديدة فإن لم تمس حياة الناس من طريق مباشر مدتهم بلون جديد من الثقافة .

سوء الإلقاء

٤ – سوء إلقاء الخطبة ، وقد تحدثنا من قبل عن طرق الإلقاء السليمة ، وأنت لا تزال تجد بين خطباء المساجد من يلقون الخطبة بطريقة منغمة ، ومن يلقيها بأسلوب رتيب يستوى فيه صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار . . فهذا مما يصرف ذهن السامع عن متابعة الخطيب ويضعف تأثير العظة فى نفسه ، وبوجه عام لا تزال خطبة المسجد تنهج منهجاً تقليدياً ، ولا يزال خطيب المسجد بحاجة إلى استنارة واسعة ، والخطبة الدينية فى غير المسجد قد تكون أنجح وأفيد ، فبين الجماعات الدينية تحررت الخطبة من المنهج التقليدى وواجهت موضوعات أشد مساساً بحياة الناس . وتناولت معانى موحية ، وفتحت الأذهان على أفكار جديدة .

وسائل النهوض بخطبة المسجد :

تحاشى الأخطاء السابقة

خطيب المسجد الحديث مطالب بإحياء الخطبة الدينية ، ويوجد الآن فراغ واسع فى هذا الميدان،وتعطش كبير إلى سماع العظات والإرشادات الدينية ، ولكى يسد الخطيب الحديث هذا الفراغ ، عليه قبل كل شىء أن يتخلص من العيوب التى ذكرنا ، فيحصر خطبته فى موضوع واحد ، ولا يقصر حديثه على الدار الآخرة وما بها من ثواب وعقاب ، بل لابد أن يزاوج بين جزاءى الدنيا والآخرة ، فنفوس الناس تتعلق بالنفع العاجل وتخشى كوارث هذه الحياة ، وهناك آيات وأحاديث تتوعد العصاة بعقوبات دنيوية.وفى قصص الأنبياء والجزاء الذى نال مخالفيهم ما يرهب النفوس ويردها عن المعاصى . كما فى قوله تعالى حكاية عن هؤلاء : « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

المزاوجة بين جزاءى الدنيا

وكقوله سبحانه : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها

حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ، أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب » .

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كان يكسبون » .

ولا تكون الخطبة كلها دائرة على النفع والضرر الدنيوى ، فهى بهذا تكون أقرب إلى المادية وإنما تربط الأعمال دائماً بطاعة الله وحب القربى إليه حتى تأخذ صورة العبادة .

والثقافة الحديثة خصوصاً درس علم النفس مما يحتاج إليه الخطيب الحديث لتجديد خطبته وجعلها ذات مساس بقلوب سامعيه .

دَرْس السيرة النبوية

والذى نلاحظه فى خطباء المساجد بوجه عام هو فقرهم البين فى درس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، وعجزهم عن شرح النصوص القرآنية والأحاديث عجزاً يصمهم بالنقص الفاضح . وفى استطاعة الخطيب أن يتخذ من الآية الواحدة موضوعاً لخطبة طويلة شائقة مؤثرة ، لكنه لا يستطيع هذا إلا بثقافته ودرسه الواسع واطلاعه على كتب التفسير ومعرفته بأحداث التاريخ ... وهكذا .

والخطيب البادىء يحتاج إلى مجهود كبير فى هذا الإعداد ولكنه لا يتم تكوينه خطيباً إلا بهذا المسلك ، وبعض الخطباء يرون أنفسهم قد نجحوا غير مرة فى خطبهم فيعتمدون على شهرتهم ويقصرون فى إعداد خطبهم فيسقطون وينصرف عنهم السامعون .

وليلاحظ الخطيب أن مجهوده فى بناء نفسه أول أمره مهما شق أسهل من مجهوده فى إعادة بنائه إذا سقط ، ومعنى هذا أنه يجب أن يكون حذراً من السقوط مهما كانت شهرته .

ثقـ
نفسية السا

إن خطيب المسجد لابد أن يتعرف على نفسيات جمهوره حتى يقف منهم موقف المعلم الحاذق يعرف كيف يوجههم إلى عمل أو يردهم عن آخر بما له من كياسة ودراية بتربية الغرائز ومعالجة الميول الجامحة .

متابعة لقراءة

وهو لا بد أن يكون دائباً على القراءة وأن يقرأ تفسير القرآن مثلا فى أكثر من كتاب وأكثر من مذهب تفسيرى ، وأن يطلع على الكتب الدينية الحديثة والمقالات الصحفية التى تتعرض للشئون الدينية . . . وهكذا ، وبغير هذا الاطلاع يصير الخطيب كالماء الآجن يعيد نفسه ويمل الناس سماعه ، والخطباء الآخرون السياسيون والمحامون وخطباء المحافل . . . تتجدد موضوعاتهم تلقائياً ، أما خطيب المسجد فهو المسئول عن اختيار موضوعه كما هو مسئول عن طريقة إعداده ومعالجته ، وككل خطيب آخر لا ينهض خطيب المسجد بدون غذاء أدبى ومدد من المحفوظات يستعين به فى تفكيره وتعبيره جميعاً .

هذا ولا نزال نرى بيننا خطباء مساجد يؤمهم مستمعون كثيرون جدا ولكنهم لم ينجحوا فى بث ثقافة دينية فى نفوس مستمعيهم ، ذلك لأن خطبهم تقوم على الإثارة والنقد الهدام . دون أن تقدم غذاء علمياً وفكرياً ، ودون أن تقدم منهجاً بناء من السنة النبوية وقوانين الإسلام .

وبعد — فليعلم خطباء المساجد أن حياتنا العامة تواجه فراغاً روحياً واسعاً . وأن هناك تطلعاً وظمأ كبيراً نحو المعلومات الدينية ، وقد بدأ الناس يسأمون أكثر فأكثر تيارات الفكر المادى ، وعلى رجال الدين — وفى مقدمتهم خطباء المساجد — أن يقدموا من الغذاء الروحى ما يشبع هذا النهج ، ويسد هذا الفراغ ، وقد نشط فى هذا الميدان رجال الأديان الأخرى مع أن الإسلام أغنى وأقنع وأفيد .

خطب الاملاك

من أنواع الخطب ما يقال عند عقود القران وهو نوع لا يزال مستعملا فى أيامنا وأكثر ما نستعمله نحن الآن بعد أن يتم عقد القران ليكون تهنئة للزوجين ولأسرتيهما ، وكانوا قديماً يستعملونه قبل إجراء العقد يجعلونه إعلاناً من الزوج وآله ، ورغبة فى الإصهار إلى آل الزوجة ، وكان هذا الموقف متأثراً بعاداتهم من وصف الزوجة بالتمنع وعدم الرغبة فى الزواج على نحو ما نجد فى قصائدهم الغزلية ، ولهذا كانت العادة الجارية أن يطيل الخاطب

ويقصر المجيب من آل الزوجة ، والخاطب أو من ينوب عنه هو الذى يبدأ ثم يجيب آل الخطيبة أو لا يجيبون ، وخطبة النكاح فى أيامنا هذه لا مشقة فيها ولا تفترق عن أى خطبة من خطب المناسبات الأخرى ، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى(١) خطبة النكاح » . وسئل عبد الله بن المقفع عن هذا القول فقال : « ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الحداق من أجواف الحداق »(٢) . ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء فإذا علا المنبر صاروا كأنهم سوقة ورعية . قال الجاحظ : « وقد ذهب ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بداً من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغر القوم من صاحبه » . ولم يرض الجاحظ هذا التعليل لأن عمر وأمثاله لم يكونوا ليمتدحوا شخصاً إلا بما هو فيه ، ولم يكونوا ليتكلفوا ذلك . وبهذا يكون الجاحظ قد قبل قول ابن المقفع ، ولكن عمر وأمثاله أيضاً لم يكن يرهقهم نظر الحدق من أجواف الحداق ، ولا الخطبة من جلوس فيمن يساوونهم .

صعوبتها

ومن المعروف لدى العرب أنه يعرض للخطيب فى خطب الاملاك من الحصر ما لا يعرض لصاحب المنبر .

ومدح أحد الشعراء خطيباً برجز جاء فيه :

لله در عامر إذا نطـــق فى حفل املاك وفى تلك الحلق(٣)
ليس كقوم يعرفون بالسرق(٤) من خطب الناس ومما فى الورق
يلفقون القـــول تلفيق الخلق(٥) من كل نضاح الدفارى(٦) بالعرق
إذا رمته الخطباء بالحـــدق

(١) تشق على ، انظر البيان والتبيين ص ٢٢٧ — ٢٣٤ . ج ١
(٢) قرب أعين الخطيب من أعين الناظرين إليه . والحداق والحدق يراد بها الأعين .
(٣) حلقات الخطابة الحافلة بالناس .
(٤) السرقة . (٥) الثياب البالية .
(٦) الدفرى ما وراء أذن البعير ، ولكل بعير ذفريان وأراد بالدفارى هنا أجزاء بدن=

وكانت خطبة الأملاك تلقى من جلوس ، فتشبه المحادثة والكلام المعتاد ولعل ذلك مما يقلل نشاط المتحدث وانفعاله ولا يجعله يستعمل الإشارة والحركة فيقلل ذلك نشاطه ويفتر همته ، وربما كان ذلك من أسباب صعوبتها . أما فى الوقت الحاضر فإنها تلقى من وقوف ولا تفترق عن الخطب الأخرى .

طريقتها

وأنجح طريق للخطيب فى عقود القران أن يجنح كثيراً إلى الحديث عن الزواج وأثره فى الربط بين أسرة وأخرى ، وفى إنجاب النسل الصالح وتشابه الفروع بالأصول وما إلى ذلك . وقد خطب عبد الله بن الزبير مرة أمام عثمان بن عفان فى جمع فأعجبه فقال : « أيها الناس أنكحوا النساء على آبائهن وأخواتهن ، فإنى لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه بن من هذا(1) » . يريد أن عبد الله شبيه بجده أبى بكر ، وأن نسب الزبير لأبى بكر أنجب له عبد الله فى هذه الفصاحة .

أمثلة لها

ومن خطب الأملاك المشهورة خطبة أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وفيها يقول :

خطبة أبى طالب

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع(2) إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد ابن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا وكرماً وعقلا ومجداً ونبلا(3) ، وإن كان فى المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية(4) مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

ومن المعروف أن اتفاق الزوجين . . رسول الله وأول أم للمؤمنين

= الخطيب ، يعيب الخطباء الذين تأخذهم الرهبة فيسيل العرق من جسمهم ، والحدق جمع حدقة أى لا يتهيب إذا حدق الناس فيه بأعينهم .

(1) البيان والتبيين 1/406 .

(2) يريد من سلالته .

(3) ذكاء ونجابة .

(4) بتشديد الياء الشىء المعار .

كان قد سبق ، وكان معروفاً لذويهما . وقد قال فيه والد خديجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك الفحل لا يجدع أنفه»(١) يريد أنه خطيب لا يرفض . وقد زكاه أبو طالب وأثنى عليه بما لا ينكره عليه أحد .

شبيب وسوار

وأكثر ما انتهى إلينا من خطب الزواج كان موجزاً قصيراً وقليل منه كان مطولا . ومن طريف ما جاء فى هذا أن شبيب بن شيبة الخطيب الخارجى المعروف زوج ابنه بنت سوار القاضى — وهو خطيب معروف أيضاً — فقال القوم : اليوم يعب عباب الخطابة ، فلما اكتمل الجمع قام شبيب فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« ... أما بعد فإن المعرفة منا ومنكم ، بنا وبكم ، تمنعنا من الإكثار ، وإن فلاناً ذكر فلانة » .

ولم يزد على ذلك فانتحل سبباً وجيهاً لإيجازه .

وكان الحسن البصرى يجنح على نحو ما ذكرنا إلى الحديث عن الزواج وكان يقول بعد حمد الله والثناء عليه :

الحسن البصرى

« أما بعد .. فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المتفرقة وجعل ذلك فى سنة من دينه ومنهاج واضح من أمره ، وقد خطب إليكم فلان وعليه من الله نعمة وهو يبذل من الصداق كذا ، فاستخيروا الله وردوا خيراً يرحمكم الله » .

وحين يتكلم آل الخطيبة قد يذكرون أن الزوج كفء وأنهم لهذا زوجوه وقد يوصونه بالزوجة ويطلبون إليه أن يبرها .

أمثلة أخر

ومن أمثلة النوع الأول أن محمد بن الوليد بن عقبة بن أبى سفيان ، خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته فألقى خطبة أطالها ، فلما أجابه عمر قال :

« الحمد لله ذى الكبرياء وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء . . .

---

(١) إذا أراد الفحل أن ينزو على أنثاه وهم يريدون دفعه عنها ضربوه على أنفه فيسكن ويرجع . والمراد هنا أنه صلى الله عليه وسلم لا ترد خطبته بل يرحب به .

أما بعد : . فإن الرغبة منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ». وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »(١) .

ومن أمثلة النوع الثانى أن عثمان بن عقبة بن أبى سفيان خطب إلى عمه عتبة بن أبى سفيان ابنته وكان عثمان حدثاً فأجلسه عتبة على فخذه وقال :

« ... أقرب قريب خطب أحب حبيب ، لا أستطيع له رداً ولا أجد من إسعافه بداً ، وقد زوجتكها وأنت أعز على منها وهى ألصق بقلبى منك ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك ، وقد قربتك مع قربك فلا تبعد قلبى من قلبك » .

وهذه الخطبة أقوى وأجمل من سابقتها ، فهى تعبر عن حقيقة ما يشيع فيها من العاطفة وروح المودة ، أما خطبة عمر فقد شوهها بذكره التسريح ، فإن هذا لا يجمل فى مثل هذا الموقف .

فكاهات فى خطب الزواج :

تذكر كتب الأدب فكاهات حدثت فى خطب الأملاك قد يكون منشؤها العى والحصر ، وقد يكون منشؤها المبالغة أو الميل إلى الدعابة وإشاعة السرور ، ويختلف ذلك بين موقف وآخر ، فهذه الدعابات كثيراً ما تكون فى الحفلات التى يحضرها كبار الناس .

١ — من ذلك ما رووا أن خطيباً حضر عقد قران فاستفتح خطبته بحمد الله والصلاة على نبيه ، ثم ذكر بدء الخليقة وخلق السموات والأرض ، ومضى يسرد أخبار القرون الماضية والأمم البائدة حتى ضجر الناس وهو

---

(١) هذه رواية العقد الفريد جـ ٤ / ٢٣٤ وفى البيان والتبيين ١/٤٠٤ : أما بعد فقد أحسنا بك ظنا . . . وقد زوجناك على ما فى كتاب الله . . .

لا يشعر ، فلما فرغ من خطبته أراد أن يذكر اسم الخاطب فسأله عنه فأجاب : قد والله نسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى والله طالق إن تزوجتها بهذه الخطبة .

فضحك القوم وهيأوا مجلساً آخر ليعقدوا له فيه بغير هذه الخطبة(١) ؛

٢ ــ ومن ذلك ما ذكروا أن عبداً لخالد بن صفوان طلب أن يزوجه من أمة له فأجابه . فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت ! . قال خالد ادعهم أنت ، وكان خالد خطيباً . . فلما تكامل الجمع قال :

« إن الله أعظم وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين ، وأنا أشهدكم أنى زوجت هذه الزانية من هذا . . ابن الزانية »(٢) .

٣ ــ ومن الخطب المضحكة فى حفلات الزواج خطبة مصعب بن حبان ، فقد تهيأ لإلقاء خطبة فحصر ولم يجد شيئاً يقوله فقال : « لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله » فقالت له أم الفتاة : عجل الله موتك، ألهذا دعوناك ؟(٣) .

٤ ــ ومن ذلك أن شاباً طلب من أحد الشيوخ أن يخطب له بنت صديق له . . فقال له الرجل : إذا كنت فى مجلسهم غداً فأت إلينا . فلما رآه الشاب معهم اتجه إليهم فقال الشيخ : انظروا إلى هذا الشاب القادم ؛ ما أحسن والله ما مشى لا أسرع ولا أبطأ . فلما جاء وسلم عليهم قال : ما أحسن والله ما سلم لا أطال ولا اختصر . ثم جلس فقال الرجل : ما أحسن والله ما جلس لا دنا ولا أبعد . ثم تكلم فقال : ما أحسن والله ما نطق لا رفع صوته ولا خفضه . ثم ضرط فقال الرجل : ما أحسن والله ما ضرط لا أغنها ولا أرنها . فضحك القوم وقالوا: حسبك والله لو سلح لزوجناه .

---

(١) زهر الآداب ٢/١٤٤ .

(٢) العقد الفريد ٤/٢٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٥٠ .

٥ ــ وأهدت أعرابية ابنتها إلى زوجها فقالت لها (١) :

« اقلعي زج رمحه ، فإن أقر فاقلعي سنانه(٢) ، فإن أقر فاكسري العظام بسيفه ، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه ، فإن أقر فضعي الإكاف على ظهره فإنما هو حمار » .

* * *

(١) عيون الأخبار ٤-٧٧ ، وزج الرمح كعبه والحديدة أسفله ، وسنانه الحديدة المدببة أعلاه ، وهي العالية ، وبقية الوصية تعني أنها تستعمل أدوات حربه أدوات للمنزل .

(٢) تريد سنان رمحه - وسن الرمح عاليته ، وهي الطرف المحدد الذي يوضع في أعلى الرمح للطعن به ، وزج الرمح كعبه قطعة من الحديد توضع في أسفله ، وكسر العظام بالسيف أو قطع اللحم على الترس مما يهين الشخص لأن هذه آلات حرب ، فإذا قبل ذلك فهو جبان .

مواقف خطابية أخرى

الخطبة القصيرة – العي والحصر

الخطبة القصـــيرة

المنـــاظرات ـ الجدل البرلمانى

قلنا إن الخطبة لا تستكمل كل أجزائها فى جميع مواقفها ، لأن الموضوع المعلوم للسامعين لا يحتاج إلى مقدمة ، وفى المواقف الضيقة والمفاجآت الطارئة يعرض الخطيب لموضوعه مباشرة ، ويختصر خطبته اضطراراً لمجاراة الموقف .

والخطبة القصيرة تحتاج إلى درس للموضوع كى يركز الخطيب كلامه على الجوانب الهامة وحدها ، ويحتاج فى هذا لوضوح أكثر ولاختيار عبارات أشد تأثيراً وأكثر دقة .

وقد يكون المجلس للشورى ، يتبادل المجتمعون فيه الرأى لإقرار أمر من الأمور أو رفضه ، أو التهدى لطريق يسلكونه ، ويكون هذا فى المجتمعات العامة فى الجمعيات وفى مجالس الأحزاب والجامعات ونحوها ، وفى هذه الحالات قد يقاطع الخطيب فجأة ، وقد يحاول معارضوه التغلب عليه برفع الصوت ، أو عدم السماح له بالاستمرار فى حديثه ، وإكمال حججه .

وواجب الخطيب حينئذ أن ينقطع عن الكلام ، وألا يبدأ كلامه من جديد إلا بعد استيثاق من عدم المقاطعة ، وقد يحدث هذا فى المحاكم الصغيرة ، والمحامى الذى يقاطع يطلب الحماية من المحكمة ، أو يهدد بالانسحاب ، حتى يقهر خصمه على عدم مقاطعته . أما فى المحاكم الكبيرة ، فإن كل محام يأخذ دوره حتى يفرغ نهائياً من كلامه ، ثم يتكلم الطرف الآخر . فإذا

أراد المتكلم الأول أن يتكلم ثانياً استأذن المحكمة فى الرد على ما أثاره خصمه أو فى تدارك ما فاته أن يقوله ، وقد يطلب القاضى من كل منهما أن يكتب دفاعه فى مذكرة خاصة ويقدمه للمحكمة فى زمن معين .

وفى كل هذه الحالات يجب على الخطيب أن يستوفى موضوعه درساً حتى لا يدع لخصمه شيئاً يتداركه عليه .

والجدل البرلمانى لا يدخل فيه شىء من هذا ، لأن الخطيب يطلب الكلمة ولا يسمح له بالكلام حتى يأتى دوره ، ولهذا قد يرد على شخص تكلم قبله بمدة طويلة ، وتحدث بينهما عدد من الخطباء ، ولا يستطيع الخطيب الأول أن يرد عليه مباشرة ، بل يطلب هو الكلمة من جديد ، وقد لا يعطى حق الكلام مرة ثانية . وهذا يحتم على المتكلم استيفاء موضوعه من كل جوانبه .

أما المناظرات فمنها ما سبق ، ومنها ما يكون منظماً بحيث يتكلم كل مناظر مرة واحدة ، وهذه الأخيرة لا يراد منها إلا تدريب الناشئين على الكلام ، وتعويدهم على درس الموضوعات درساً مستوفى ، وحسن الدفاع عن الآراء التى يتبنونها .

وفى مجال الخطب القصيرة نذكر بخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب بعض أصحابه ، ونرجىء المحاورات من الأدب الإسلامى ونكتفى هنا ببعض الأمثلة .

١ ـ خطبة لمعاوية بن أبى سفيان

خطب معاوية خطبة الجمعة فى يوم صائف شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

قوموا إلى صلاتكم .

هذه خطبة قصيرة جداً ، وهى كافية من الوجهة الشرعية لتؤدى بها

صلاة الجمعة ، وبعض المذاهب الفقهية يرى أن الخطبة تكون مجزية إذا اشتملت على أمر ونهى ، نحو « اتقوا الله فيما أمر ، وانتهوا عما عنه نهى وزجر » . فإذا قالها وجلس ثم وقف فأعادها أجزأ ذلك فى خطبتى الجمعة . ولكن الأداء الشرعى المجرد ، أو العمل الرسمى أياً كان ، يتخذ صورة الشكلية ولا يؤدى الغرض المطلوب ، فالمفروض أن الخطبة تقال لغرض إفادة السامعين وتوجيههم ، ولإيقاظ مشاعرهم الدينية وعواطفهم النبيلة ، فإذا قصرت إلى هذا الحد ، أدت الجانب الشكلى ولم تؤد الجانب الروحى وهو الجانب الأهم ، ولكن الظروف قد تدعو إلى مثل هذا الإيجاز .

٢ — خطبة معـــاوية بن يزيد

جو هذه الخطبة

معاوية هذا حفيد معاوية بن أبى سفيان ، استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ بعد أبيه يزيد ، وكان حدثاً ، قيل كان فى الحادية والعشرين من عمره ، وقيل كان دون ذلك(١) . وكان تقياً ورعاً ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة جداً . قيل كانت ثلاثة أشهر ، وقيل كانت أربعين يوماً ، وهذه الخطبة أول خطبه وآخرها .

أمر فنودى فى أهل دمشق : الصلاة جامعة . فلما تكامل جمعهم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فإنى قد نظرت فيما صار إلى من أمركم ، وقلدته من ولايتكم فوجدت ذلك لا يسعنى فيما بينى وبين ربى أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير منى ، وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته ، فاختاررا منى إحدى خصلتين : إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضى ومقنعاً ، ولكم الله على لاآلوكم نصحاً فى الدين والدنيا ، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها » .

فأنف الناس من ذلك ، وخشى الأمويون إفلات الخلافة من أيديهم

---

(١) قال ابن قتيبة كان ابن ثلاث عشرة سنة وهو رأى غير وجيه . لأن خالدا أخاه كان أصغر منه وكان يتطلع إلى الخلافة . وقيل كان ابن ثمانى عشرة سنة . وانظر مروج الذهب جـ ٣٧/٣

فقالوا : أمهلنا، فلم يلبثوا إلا أياماً حتى طعن، فقالوا له : استخلف من تراه رضى . فقال : عند الموت تريدون ذلك ؟ لا والله لا أتزودها ، ما سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها .

موازنة بين رواياتها

وهذه الرواية التي ذكرناها هي رواية ابن قتيبة — وهي في نظرنا مرجوحة — وقد جاءت الخطبة في الطبري ومروج الذهب والفخري بما يخالف ذلك ، وهي ليست بالنص نفسه فيها جميعاً ، وفي بعض رواياتها كما يلي :

فإني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزودها ميتاً ، وما استمتعت بها حياً .

وفي بعض الروايات : ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها ؟ تتحلون أنتم حلاوتها وأتعجل أنا مرارتها ، اللهم إني بريء منها متخل عنها .

وندع اختلاف الروايات في هذه الخطبة وفي تحقيق نصها ، وقد ذكرناها مثالا للخطبة القصيرة ، وقد أدت معنى هاماً وغرضاً قيماً ، وهو انخلاعه من الخلافة . وفي أي من الروايات أعلن سبب تخليه ، وسبب عدم استخلافه ، فهو في بعض روايات الخطبة أضعف من أن يحمل عبئها ، وفي بعض آخر يرى من الإثم أن يتقلدها وهناك من هو أقدر منه عليها وأجدر بها ، ثم اعتذاره عن تقليدها غيره مخافة أن يضل هذا الخليفة فيحمل هو وزر استخلافه ، وهو بهذا عدل عن طريقة أبيه وجده في الاستخلاف ، ويقال إنه دس له السم ، ولعل ذلك أقرب من أنه طعن .

٣ — خطبة لعبد الملك بن مروان

لعبد الملك بن مروان عدد من الخطب القصيرة ، كان في معظمها يريد تهديد الناس ، فيجنح إلى إيجاز الكلام حتى لا يفتح باب المناقشة والجدل من ناحية ، وحتى يشعر الناس أنه جاد فيما هدد به فلا يظنوا أنه يكثر من

الوعيد كي يطيعوه ، وليس ثمة عقوبة وراء تهديده . وهذه سياسة يجنح إليها الحكام فى مواقف الصرامة وبث الهيبة فى نفوس الرعية ، على نحو ما مر بنا من خطبة أبى جعفر المنصور حين قتل أبا مسلم الخراسانى . وهذه خطبة له أخرى :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إن الله حد حدوداً ، وفرض فروضاً ، فمازلتم تزدادون فى الذنب ، وتزدادون فى العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » .

خطبة موجزة جداً وواضحة جداً . . إنهم خرجوا عن حدود الله وبالغوا فى الخروج فلم يكن بد من قتالهم ، فهم المسئولون عما عسى أن ينزل بهم من عقابه .

خطبــة له بمــكة :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه :

« أيها الناس : والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون ، فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا » .

كان عبد الملك يعرف جيداً أن أهل الحجاز لا يحبون بنى أمية ، ولا يرى أنه يمكن أن يتملقهم أو يستميلهم بالكلام ، فجنح إلى تهديدهم ، وأشار إلى ضعف عثمان ، ومداهنة معاوية وحمق يزيد ابنه ، ونفى كل ذلك عن نفسه ، وصرح بأنه معد سيفه لمن تبدو منه إشارة عابرة .

٤ ــ خطبــة أعــرابى

وردت هذه الخطبة عن بعض الأعراب :

حمد الله تعالى وصلى على نبيه وجميع الأنبياء ، ثم قال :

« ما أقبح بمثلى أن ينهى عن أمر ويرتكبه ، ويأمر بشىء ويجتنبه ، وقد قال الأول :

فدع ما لمت صاحبه عليه   فذم أن يلومك من تلوم

ألهمنا الله وإياكم تقواه ، والعمل برضاه » .

من أقصر هذه الخطب خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق ، وهى بعد حمد الله والثناء عليه :

« إن أبا ذبان قتل لطيم الشيطان » . « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » .

وأبو ذبان لقب عبد الملك لأنه كان أبخر يموت الذباب حين يدنو من فمه . وقيل : كان فى لثته فساد يجعلها تدمى فيقع عليها الذباب بكثرة :

وفيه يقول الشاعر إذ يتوعد الوليد ابنه :

لعلى إن مالت بى الريح ميلة   على ابن أبى ذبان أن يتندما

ولطيم الشيطان هو عمرو بن سعيد ، كان فى فمه ميل ، فسمى بذلك ، وقيل إنما سمى الأشدق لتشادقه فى الكلام . وكان معاوية قد دعا به فى غلمة من قريش فاستنطقه فأعجبه كلامه ، فقال : أن ابن سعيد لأشدق(1) .

---

(1) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ .

العى والحصر

تعـريف

العى : العجز والضعف عن الشيء ، ويقال لمن لا يحسن إبانة الكلام وشرح ما يريد عيي . والحصر : الحبس ، ويقال حصر الرجل – كفرح – فهو حصر ، إذ عى عن الكلام وضاق به ، ومنه الآية الكريمة : « أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » أى ضاقت صدورهم عن احتمال أى من العملين . فالعى والحصر متقاربا المعنى .

سبب الحصر

وقد يعرض للخطيب أو المتحدث أن يعجز عن الكلام إما لأنه لا يستطيع شرح ما فى صدره ، أو لا يجد فى ذهنه شيئاً يقوله . وقد يرجع ذلك إلى نقص مادة الكلام أو نقص المعلومات ، وقد يرجع إلى الهيبة والخوف من موقف الخطابة أو الكلام ، والشخص فقير المادة قد يستعين بشد لحيته وعقد أصابعه أو إظهار التأفف أو نحو ذلك . ومثل هذا يضجر السامعين ، وخير له أن يقطع كلامه ، وألا يواجه هذا الموقف حتى يتهيأ له ويعد ما يقدمه لسامعيه . ولكن من الخطباء الذين يجيدون الخطابة ولهم دربة ودراية بمواجهة الجماهير من ينقطع عن الخطبة ويرتج عليه فلا يجد ما يقول .

وأمثال هؤلاء كثيرون ، ويرجع انقطاعهم والإرتاج عليهم إلى حالات نفسية تعتريهم قد تكون هيبة طارئة ، وقد تكون كلالا جسمياً ، وقد تكون شغل الذهن بأشياء أخرى . والذى ينبغى أن يفعله الشخص فى هذه الحالة هو أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى ، كأن يقرأ أى آية قرآنية تمر بذهنه أو يذكر حديثاً فيقول إنه يعرضه على سبيل التبرك ، ثم يعد أنه سيتكلم فى موقف آخر إذا كان سيظل بين من يتحدث إليهم . أما إذا كان زائرا ، فإنه يبين أن الكلام لا داعى له ، أو يتواضع فيذكر أنه ليس أعلم منهم ، وليس ذلك إلا عملا يخفى ارتباكه ويستر موقفه .

وفى التاريخ خطباء كثيرون أرتج عليهم وتخلصوا بطرق مختلفة ، ومن أمثلة هذه المواقف ما يلى :

١ – عبد الله بن عامر(١)

ولاه عثمان – رضى الله عنه – البصرة ، فوقف يخطب يوم عيد الضحية ، فأرتج عليه ، فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال : لا أجمع عليكم عياً ولؤماً ، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها على .

٢ – خالد بن عبد الله القسرى

كان من الفصحاء ، وكان إذا تكلم ظن الناس أنه يعد كلامه ، ووقف مرة يخطب فسقطت جرادة على ثوبه فقال : « سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » فأعجب الناس ارتجاله . ولكنه وقف مرة أخرى على المنبر فأرتج عليه ووقف مدة فوق المنبر لا يتكلم ، ثم تهيأت له مندوحة فقال :

« ... إن الكلام يجيء أحياناً ، ويعزب أحياناً ، فيسح عند مجيئه سيبه(٢) ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى . فالتأتى لمجيه خير من التعاطى لأبيه ، وتركه عند تنكره(٣) أفضل من طلبه عند تعذره ،

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن كريز . جده الأعلى عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، لأن أم عثمان هى أروى بنت كريز ، أحضر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليدا ، فقال : هذا شبيهنا ، وعوذه فابتلع ريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . كان عبد الله شجاعاً ميموناً جواداً ، ولاه عثمان البصرة سنة ٢٩ هـ . ثم ضم إليه فارس فافتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان وغيرها ، وفى إمارته قتل يزدجرد آخر ملوك فارس ، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها العين ، قتل عثمان وهو بالبصرة ، فسار بما كان معه من الأموال إلى مكة وشهد موقعة الجمل مع طلحة والزبير ، ولم يحضر صفين ، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين بعد اجتماع الناس عليه ، ثم صرفه عنها فأقام بالمدينة ، ومات سنة ٥٩ هـ – (الإصابة ٦١٧٨) .

(٢) فيضه وكثرته .

(٣) غيابه وعدم طواعيته .

وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجرىء جنانه وسأعود فأقول إن شاء الله »(١) .

هذا الاعتذار الذى ذكره من أصدق وأبلغ ما يعتذر به ، ولهذا قالوا : ما رئى حصر أبلغ منه ، وحديثه ينم عن تجربة لأن الكلام يتبع حالات الشخص النفسية والجسدية ، شأنه شأن كثير من حالات الشخص كالضحك والمزاح وانقباض النفس وانبساطها .

٣ – معاوية بن أبى سفيان

لما ولى معاوية صعد المنبر ليخطب فحصر ، فقال :

« أيها الناس . . إنى كنت أعددت مقالا أقوم به فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال فى كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإنى آمركم بما أمر الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهى الله عنه ورسوله ، وأستغفر الله لى ولكم » .

والذى أنقذ معاوية فى موقفه هذا هو صراحته ، وإعلانه الناس بحقيقة أمره . كما أسعفه ذكر الآية القرآنية ، وإذا كان أهم ما يحصر به الخطيب هو الهيبة ، فإن ما أنقذ معاوية هو شجاعته الطبيعية ، فليس كل شخص ذا جرأة ليعلن حقيقة نفسه كما فعل ، وكان معاوية ذا جرأة كبيرة ، ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه دون الخلافة ، ولعل هذا ما حصر من أجله .

٤ – عثمان بن عفـــان

أرتج على هذا الخليفة فى أول خطبة خطبها عقب استخلافه ، فقال :

« أيها الناس إن أول كل مركب صعب ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً إن شاء الله » .

وهـذا أيضاً اعتذار صادق ، وقد كان عثمان رضى الله عنه حيياً

---

(١) هذه رواية العقد الفريد وفى أمالى القالى : يجىء أحياناً فيسيب سيبه ، ويعزب أحياناً فيعز مطلبه ، وربما طولب فأبى وكوبر فعصى ، والتأتى لمجيه أصوب من التعاطى لأبيه ، ثم نزل .

ذاضعف. لهذا تهيب أول خطبة. وخطبته بوصفه خليفة ذات معنى غير خطبته بوصف آخر ، ولهذا عزب عنه لبه وارتبك . وفى رواية أخرى للخطبة : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب . وستأتيكم الخطب على وجهها وتعلمون إن شاء الله »(١) .

٥ – يزيد بن أبى سفيان

ولى أبو بكر – رضى الله عنه – يزيد بن أبى سفيان الشام ، فلما وقف يخطب الناس أول خطبة له حمد الله تعالى ، فأرتج عليه . فسكت ثم عاد إلى الحمد فأرتج عليه ثم عاد إلى الحمد . . فلما طال الموقف قال :

يا أهل الشام ! عسى الله أن يجعل بعد عسر يسراً ، وبعد عى بياناً ، وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال(٢) . ثم نزل . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه وقال : هن مخرجاتى من الشام ، يريد خطب الأمويين البليغة .

٦ – ثابت قطنـــة

صعد ثابت قطنة منبر سجستان فقال: الحمد لله ، ثم أرتج عليه، فنزل وهو يقول :

فإن لا أكن فيهم خطيباً فإننى ... بسيفى إذا جد الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها وأنت فوق المنبر لكنت أخطب الناس (٣) .

---

(١) الرواية من العقد وانظر البيان والتبيين ١/٣٤٥ .

(٢) رواية العقد : إمام فاعل . خطيب قائل .

(٣) تقدمت ترجمة ثابت .

٧ – أشتات ممن أرتج عليهم

وقف رجل على المنبر يوم الجمعة فر فى خطبته إلى « أما بعد » فأخذ يعيدها ولا يجد ما يقوله ، ثم قال : أشهدكم أن امرأتى طالق ثلاثاً . لم أكن أريد أن أجمع اليوم فمنعتنى (١) .

وخطب آخر فلما بلغ « أما بعد » بهت وظل ساكناً . ونظر فإذا شخص ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ، ترى ما أنا فيه وتلمحنى ببصرك أيضاً .

وأرتج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله وقال : فتى حروب لا فتى منابر .

وكان عبد ربه اليشكرى عاملا لعيسى بن موسى على المدائن ، فأرتج عليه يوم جمعة فسكت طويلا ثم قال : والله إنى لأكون فى بيتى على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت مقامى هذا جاء الشيطان فمحاها من صدرى . لقد كان يوم الجمعة أحب الأيام إلى ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلى منه ، وما ذاك إلا لخطبتكم هذه .

مقاطعة الخطيب

كيف يواجه الخطيب المقاطعة

ذكرنا من صفات الخطيب أن يكون رابط الجأش ، فلذلك لا ينبهر ولا ينقطع إذا فاجأه بعض السامعين بما يقطع كلامه ، أو وجه إليه كلمة نابية ، أو عارضه فى رأيه الذى يذكره ، فإنه إذا انبهر وتلعثم خسر موقفه وضاعت خطبته ، والخطباء الذين مرنوا على هذه المواقف يسلكون طرقاً عديدة للتخلص من مثل هذه المحرجات ، فأحياناً يستمر الخطيب فى حديثه كأن لم يوجه إليه أحد كلاماً ، وأحياناً يوجه إليه إشارة استهانة وسخرية وأحياناً يزجره ، وأحياناً يجيبه إجابة صريحة مستفيضة ، وهذا يكون مفيداً جداً إذا كان فى هذه الإجابة ما يزيد الموضوع الذى يتناوله الخطيب شرحاً وإبانة .

وهذه المقاطعة قلما تحدث فى خطب الجمع والأعياد لمقام الدين فى

---

(١) لم يكن يريد صلاة الجمعة فمنعته زوجه مما أراد .

النفوس ، ولكنها تحدث فى خطب الجمعيات والأندية ، وتحدث أكثر فى الخطب الاجتماعية ، وربما تحولت الخطبة إلى مناقشة أو ما هو قريب من المناقشة ، وعلى الخطيب أن يكون دائماً مستعداً ، وموطنا نفسه على مثل هذه المقاطعات كيلا يدهش أو يحار إذا فوجىء بها .

وبعض هذه المقاطعات يدخل فى باب المحاورة ، وذلك حين لا يريد من يقاطع الخطيب أن يعترض عليه ، ولكن يريد مزيداً من التوضيح أو سؤالا عن شىء غامض ، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله كتب عليكم الحج فحجوا » . قام رجل فقال : أكل عام يا رسول الله ؟ . وقصة هذا الحوار معروفة . وقد أسرف السائل حتى أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ، واعترض رجل عمر وهو فوق المنبر لأنه يلبس قميصين وقد أعطى كلا من الآخرين قميصاً واحداً ، فلما تبين له أن ابنه عبد الله أعطاه قميصه ، قال لعمر :الآن قل نسمع ، وخطب على بن أبى طالب فقال : انظروا إلى هذه الحكومة ، فمن دعا إليها فاقتلوه وإن كان تحت عمامتى هذه ! فقال له عدى بن حاتم : قلت لنا أمس : من أبى عنها فاقتلوه ، وتقول لنا اليوم : من دعا إليها فاقتلوه ، والله ما ندرى ما نصنع بك . وقام إليه رجل من أهل العراق فقال : أمرت بها أمس وتنهى عنها اليوم فأنت كما قال الأول : آكلك وأنا أعلم ما أنت . فقال على : ألى يقال هذا؟ أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به،ونهيتكم عما نهيتكم عنه، حملتكم على المكروه الذى جعل الله عاقبته خيراً لكانت الوثقى(٢) التى لا تقلع ولكن بمن وإلى من ؟ . أريد أن أداوى وأنتم دائى !! .

وخاطر(٣) رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيسأله

---

(١) راجع تفسير الآية: « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فى تفسير الطبرى أو أى تفسير مطول .

(٢) القوية المتينة ، أى لكانت الحالة الحسنى .

(٣) راهن .

عن أمه . فقام إليه وقال : أيها الأمير من أمك ؟ ففطن عمرو إلى أنها مراهنة فقال له : هي النابغة بنت عبد الله ، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، اشتراها عبد الله بن جدعان فوهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه .

ومثل هذا ما حدث لآخر إذ قام عن مخاطرة (رهان) ، فوضع يده على عجيزة معاوية وهو ساجد . فقال : ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند ؟ ففطن معاوية إلى أنها مخاطرة أيضاً . فلما سلم من صلاته قال له : «يا ابن أخي إن أبا سفيان كان إلى ذلك أميل ، فخذ ما جعلوا لك » . وأغرى حلم معاوية هذا الرجل فخاطر ثانية على أن يسأل زياد ابن أبيه ، فقال له وهو فوق المنبر :

أيها الأمير من أبوك ؟ .

قال زياد — وأشار إلى صاحب الشرطة — : هذا يخبرك ، فقدمه فضرب عنقه . فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيري ، لو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية .

والذين كانوا يحلمون على مقاطعيهم ، كانوا بين اثنين : « رجل دين يعنيه أن يشرح موقفه ويعلم الناس ، ورجل سياسة يدرك غاية السائل ويرغب بحلمه عنه أن يكسب لنفسه سمعة حسنة ، والكثيرون كانوا يضيقون بمن يقاطعهم ، وكان الحكام يعاقبونهم ، أو يهددون من يفعل مثلها ، والذي يعنينا من هذا كله ألا يرتج على الخطيب أو يتلعثم ويرتبك » .

وقد خطب أبو جعفر المنصور مرة ، فقال بعد افتتاح خطبته : أيها الناس اتقوا الله ، فقاطعه أحد مستمعيه قائلا : أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين .

فأجابه أبو جعفر : سمعاً لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، وأما أنت فوالله ما أردت بها وجه الله ، ولكن ليقال : قال فعوقب فصبر ، وأهون بها

لو كانت(١) . وأنا أحذركم أيها الناس أختها . فإن الموعظة علينا نزلت ، ومنا أخذت(٢) ، ثم رجع إلى موضعه من خطبته .

وجلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة — وكان يخطب جالساً(٣) — فأطال حتى اصفرت الشمس ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن الوقت لا ينتظرك ، وإن الرب لا يعذرك ! . قال : صدقت. ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك ، من ههنا من الحرس يضرب عنقه(٤) .

وخطب الحجاج مرة فشكا سوء الطاعة من أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربي فقال : أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يباعدهم منك إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية فيمن دونك تعطها ممن فوقك ، وليكن إيقاعك(٥) بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك . فقال الحجاج : والله ما أرانى أرد بنى اللكيعة(٦) إلى طاعتى إلا بالسيف . فقال : أيها الأمير : إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار . قال الحجاج : الخيار يومئذ لله . قال : أجل . ولكنك لا تدرى لمن يجعله الله . فقال : ياهناه(٧) إنك من محارب . فقال جامع :

وللحـــرب سمينا وكنا محاربا ... إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرا

---

(١) لو عاقبتك وقيل هذا ماشق ذلك على ، لأنك تستحق العقوبة .

(٢) يريد أنه من آل البيت الذين يعظون ويعلمون .

(٣) هو أول من سن ذلك ، وكان آخرون من بنى أمية يخطبون جلوسا ، لأن معاوية أول من اتخذ منبرا عاليا ، فكان ارتفاع المنبر يغنى عن الوقوف .

(٤) ينسب هذا الحادث للحجاج أيضا وهو به أليق .

(٥) إنزال العقوبة .

(٦) اللكيعة الأمة اللئيمة . ويقال للرجل الذمىء والأحمق لكع ولكيع وألكع .

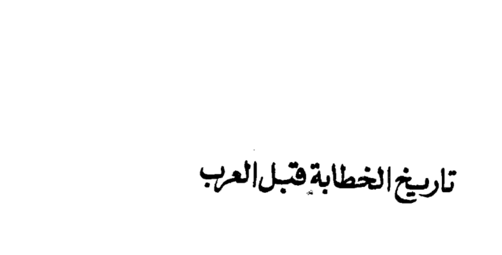
(٧) كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان — والأصل أن يقال ياهن لمن لا يعرف اسمه . فاذا زيد الألف والهاء — بنى على ضم الهاء . وقد تكسر لالتقاء الساكنين .

فقال الحجاج : والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك :
فقال له : يا حجاج : إن صدقناك أغضبناك ، وإن كذبناك أغضبنا الله ،
فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله(١) :

وخطب عبيد الله بن زياد بعد مقتل الحسين فلعن على بن أبى طالب ،
فقام إليه رجل يدعى عبد الله بن عفيف فقال : الملعون أنت ومن ولاك
وأبوك ومن لاه ، تقتلون أبناء النبيين وتقومون مقام الصديقين :

---

(١) عيون الأخبار ٥/٢١٢ – وهى فى العقد الفريد وكثير من كتب الأدب مع اختلاف يسير .



تاريخ الخطابة قبل العرب

الخطابة عبر العصور

الخطابة العربية هى التى تعنينا فى المقام الأول من هذا الحديث ، ولكن لا يكمل الحديث عنها إلا بالإلمام بفكرة عابرة عن الخطابة لدى الأمتين القديمتين ، أمة اليونان ، وأمة الرومان . ذلك أن الثقافة الأدبية لهاتين الأمتين كانت هى الأساس الذى قامت عليه النهضة الحديثة فى أوروبا ، وشاعت عناصرها فى ثقافات البلاد الأوروبية كلها ، وانبثت فى برامج جامعاتها : إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية وغيرها ، ثم قيض لها أن تترك آثاراً كبيرة فى الشرق .

أما الثقافة اليونانية فكانت ولا تزال أساس الفكر الإنسانى فى مختلف جوانبه ، وقد بلغت ذروتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وظلت الثقافات كلها تتفرع منها بالامتداد والتوليد والمعارضة ، حتى إن البحوث الذرية المستحدثة تجد لها جذوراً فى الفكر اليونانى . وأما العهد الرومانى فكان امتداداً وتقليدا للعهد اليونانى ، والتجديد فيه قليل جداً ، وكانت اللغة اليونانية تستعمل لغة رسمية فى كثير من البلاد فى العهد الرومانى ، ذلك أن الإسكندر المقدونى حين مد فتوحاته فى الشرق نشر معها فكر اليونان ولغتهم ، وكان يصحبه أستاذه أرسطو يلقى محاضراته ويمليها على طلابه ، وأنشأ الإسكندر عدداً من المدن تحمل اسمه رتنسب إليه ، بقيت منها اسكندرية مصر . فلما حلت روما محل اليونان لم يكن من الهين عليها ولا فى اتجاهها أن تمحو اللغة اليونانية أو تزيل ثقافتها ، بل إن الفكر الرومانى لم يكن إلا صورة من الفكر اليونانى . ولكن حكم الرومان شمل مساحات من الأرض أوسع بكثير مما شمل حكم اليونان ، وامتد أيضاً إلى زمن أطول ، وظهر فيه فلاسفة وكتاب وخطباء وساسة لا تزال أسماؤهم بارزة ولامعة فى التاريخ الإنسانى العام ، وكان فى ذلك كله مد للفكر اليونانى .

لهذا يعنى دارسو الأدب بدرس الفكر اليونانى والرومانى ، ونحن نعرض هنا معلومات عامة عارضة لاستكمال الحديث عن الخطابة :

الخطــابة عند اليونان

تــوطئة :

بداية اليونانيين

قضت البلاد اليونانية ردحاً طويلا من الزمن وهى قبائل مفككة تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد ، ولكنها أجناس شتى نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها إلا المجاورة واشتراك الأعمال . وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب وتتحد على نحو ما تصف إلياذة هوميروس . والإلياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية ، هى كتاب اليونان المقدس ، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الإسرائيليين ، تقوم الإلياذة بتسجيل تاريخ اليونان .

تنقل الزعامة بين البلاد

ومن أحداث تاريخهم البارزة قيام التنافس بين أثينا وإسبرطة ، وقد اشتد هذا التنافس حتى أدى إلى حروب لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق.م . وكانت نهايتها هى استسلام أثينا وزعامة إسبرطة على البلاد اليونانية كلها . ولكنها لم تعمر طويلا فقامت مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ ق.م ، وهذه أيضاً لم تعمر طويلا فانتهت سنة ٣٦٢ ق.م . وكان ذلك بظهور فيليب المقدونى والد الإسكندر الأكبر ، فقد شن حرباً على كل من طيبة وأثينا رهزمهما ، فانتقلت الزعامة إلى مقدونيا ، ولكنه مات سنة ٣٣٦ ق.م حين كان يستعد لغزو الفرس ، فقام ابنه الإسكندر بتحقيق كل ما كان لأبيه من آمال .

الاسكندر الأكبر

جال الإسكندر الأكبر فى أطراف الشرق الأوسط ما بين مصر وحدود الهند ، ثم مات فى بابل عام ٣٢٣ ق.م ، وكان عمره ٣٣ عاماً ، أى أنه حقق كل هذه الفتوحات فى نحو ثلاث عشرة سنة ، إذ هو تولى الحكم وعمره عشرون سنة .

من هذا نجد أمرين ظاهرين فى حياة اليونان ، أولهما : أن هذه البلاد

وهى مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبث الفكر الإنسانى فى أنحاء العالم كله ، فشلت فى جانب سياسى عظيم ، وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تاج واحد . وثانيهما : أنها تبعاً لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون فى حروب محلية بين قبائلها المتلفة ، ولم تحقق فى هذا المدى الطويل ما حققه الإسكندر فى زمن قصير .

دواعى الخطابة عندهم

والخطابة تنضج وتقوى عادة فى أيام الحروب والمشادات . وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها على الخطابة ، ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ . من هؤلاء « سولون » الأثينى ، وهو شريف وتاجر ثرى ، ظهرت مهارته الخطابية فى حرب قامت بين « أثينا » و « مجارا » بسبب تنازعهما على امتلاك « سلاميس » ، فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر ، فاستولى على قلوبهم وأثار حميتهم ، وقد أحبه الشعب وأسلس له القياد ، وكان يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها ، وهو إلى جانب خطابته الحربية مشرع وصاحب منهج إصلاح ، وقد توج أعماله بتنازله عن سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الإصلاحية ، ولا تزال صور من خطبه محفوظة فى الآثار اليونانية ، وهى تمتاز ببلاغتها وقوة تعبيرها وعمق معانيها .

ولما قام فيليب المقدونى بحركته السياسية ، كان يريد أن يتحالف مع الأثينيين وأن يربط له بهم صداقة ، ولكن الخطيب الشهير « ديموستثيس » كان ضد هذا الرأى ، وضد فيليب ، فشن بخطبه عليه حروباً لم تكن أقل من حرب الجيوش المسلحة ، وخطبه هذه فى نظر المؤرخين من أبلغ ما خلف الإغريق من خطب ، كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء .

وإذا نحن رجعنا إلى الإلياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية ، فهى ميزة من ميزات أبطالها ، وهى التى أبرزت مشاعرهم وصورت أحاسيسهم ، كما نجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها فى إقناع الجماهير ، مما يدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة فى حياة اليونانيين وأخلاقهم .

نشاط الخطابة والسوفسطائية

وعندما سادت الديمقراطية بلاد اليونان ، وشاعت الحرية السياسية ، وأبيح لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه ، وأن يقترح على الحكومة ما يشاء

نشطت الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها ، ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل ويدربون على حسن الحديث ومحاولة كسب الجولة فى تأييد رأيه ، وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة ، وكان لعملهم لونان مختلفان ، أولهما : إفساد المنطق والجنوح إلى إقناع الناس والحكام بأدلة كثيراً ما تكون مضللة ولكنها تستهوى السامعين . وثانى اللونين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فناً مستقلا له قواعده وأصوله ، وكان سقراط — والد الفلسفة — أول أمره واحداً من السوفسطائيين ولكنه أنف من طريقتهم وأبغضها فأخذ على عاتقه أن يعلم الشباب المنطق وأن يربط بين النتائج والمقدمات . واعتمد سقراط فى عمله على الحوار الهادىء وإلقاء الأسئلة الساذجة ، ثم اعتراضه على الإجابة ، حتى يهتدى الذى يحاوره إلى الإجابة السليمة ، وكان هذا الحوار نوعاً آخر من الخطابة ، أثارها بين أتباعه وأتباع السوفسطائيين .

عمل سقراط

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ إلى سنة ٣٢٠ ق.م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها رواجاً وسمواً وإتقاناً . وتميزت بوضوح الأقسام الثلاثة التى سبقت وهى خطب المحافل ، وأشهر أصحابها هو « جورجياس » الذى برع فى عدد من أنواعها ، والخطب القضائية ، وكان على محترفيها أن يجيدوا إعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان هذا تعليما وإتقاناً للخطابة ، وأشهر القائمين بهذا العمل هو « لوسياس » الذى سنذكر ترجمة لـــه .

ازدهارها

وازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً أوسع إبان الصراع بين أثينا ومقدونيا ، إذ انقسم الأثينيون على أنفسهم قسمين ، قسما يؤيد قيام فيليب واعتباره يونانياً ، وقسما يعارض استسلام أثينا لحكومته .

وهكذا سجلت الخطابة اليونانية صور الحياة فى اليونان واتجاهم الفكرى كما سجلت بلاغتهم وسمو أساليبهم .

أسباب رقى الخطابة اليونانية :

نجمل أسباب رقى الخطابة وتقدمها عند اليونان فى الأسباب الآتية :

الحروب

١ — ما ذكرناه من اتصال الحروب والمناوشات ، وهى حالات تدعو إلى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وتشجيع المحاربين وإثارة الجماهير ... وهكذا فهى مواقف تقوم على الخطابة وتعتمد عليها ، وكل ذلك يدعو إلى تجويد الخطابة وظهور الخطباء .

عمل اسبرطة

٢ — فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تعد نفسها إعداداً عسكرياً بحتاً ، كانت إسبرطة مركزاً فنياً عاماً ، نشطت فيه التمثيليات والفنون والخطابة والأدب . والتمثيليات والمسارح ليست إلا منابر للخطابة ، فكان فى كلتا المدينتين نهضة خطابية وتدريب على حسن الإلقاء .

الديمقراطية

٣ — كان نظام اليونان السياسى مشجعاً أيضاً على الخطابة . فكانوا إذا عرض أمامهم رأى من الآراء قام صاحبه أو مؤيدوه بتقديم حججهم ، وتوضيح الأسباب التى تدعو إلى تشريعه أو رفضه ، فإذا انتهى الخطباء المؤيدون والمعارضون من خطبهم طلب من الحاضرين أن يعلنوا رأيهم ، والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية ، فكان الخطباء يتبارون فى تنميق عباراتهم واختيار أساليبهم المجازية ، وألفاظهم المؤثرة الجذابة كى يجتذبوا مشاعر الجماهير ويستميلوهم إليهم .

٤ — كان النظام القضائى يؤدى مثل ذلك أيضاً ، فقد كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون على المائة ، وبلغ أيضاً عند الرومان نحو أربعمائة ، وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهوراً ، ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير فى عواطف القضاة ، ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية ، فكان ذلك مدعاة إلى نهضة الخطابة ، لأنها هى التى تحقق للمتقاضين ما يريدون .

يضاف إلى ذلك أن القضاة كانوا حكاماً ومشرعين ، وليسوا فقط مطبقين للقانون الموضوع ، فإذا استمالهم المحامى باسم العدالة العامة والشفقة إلى

شيء يخالف القانون عدلوا عن نص القانون ، ووضعوا تشريعاً جديداً ، أو سبباً عاماً للحكم الذي يريدون .

٥ — كان النظام اليوناني يقضي أن يدافع كل شخص عن نفسه ، ولم يكن لديهم نظام توكيل محام بمهمة المرافعة ، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها ، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير في عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم ، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعداداً لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء ، ونشأ عن هذا جماعة السوفسطائية الذين برعوا في تغيير حقائق الأشياء ، وتحويل أذهان الناس إلى ما يريدون لا إلى ما تتطلب الحقائق ، وهؤلاء هم الذين حاربهم سقراط ، وعمل على تعليم الشباب المنطق والبحث عن حقائق الأشياء من أجلهم .

هذا النظام كما هو واضح نظام سيء في جانبيه السياسي والقضائي ، ولكنه شجع على تعلم الخطابة ورواجها ، ومن خطباء اليونان الخالدين « سولون » الذي ذكرناه من قبل ، ثم « بريكليس » ، « ديموستنيس » ، ونذكر كلمة عن كل منهما .

بريكليس Pericles

ولد « بريكليس » في أثينا سنة ٤٩٠ ق.م ، أو نحوها ، من أب سياسي مشهور له مواقف وطنية مشرفة ، وتلقى ثقافته على مشهوري عصره ، علمه « زينون » البلاغة ودربه على قوة الجدل وإدارة الحوار والتغلب على مناظريه ، كما تلقى الفلسفة عن الفيلسوف الكبير « أناكسا جوراس » ، كما أخذ بحظ كبير من الموسيقى والفنون الجميلة . ونشأ « بريكليس » هادىء الطبع ميالا إلى التفكير العميق محباً للديمقراطية ، وذلك فيما يبدو من أثر درسه الفلسفة .

وقد شهد في صباه ذلك الصراع العنيف بين أثينا وإسبرطة ، كل تريد انتزاع زعامة البلاد لنفسها ، وبرز في أثينا اتجاهان متضاربان ، أحدهما

يدعو إلى مسالمة البلدين وتجنب الخصام ، وتزعم الدعوة لهذا الرأى خطيب سياسى يدعى « سيمون " Cimon » أو « كيمون » ، وفريق آخر اعتنق الاتجاه المضاد ، وهو احتفاظ أثينا بالزعامة ولو أدى ذلك إلى إعلان الحرب والانغماس فيها ، وكان على رأس هذا الحزب « تموستوكليس » . وفى عام ٤٧١ ق.م هزم هذا الزعيم ، واقتضت هزيمته أن يبعد عن أثينا ، وقام مقامه « بريكليس » ، وأخذ يدعو إلى مبادىء حزبه — الحزب الديمقراطى — فبهر الناس بخطابته،وشعر « سيمون » رئيس الحزب الأرستوقراطى أنه أمام خصم أقوى من سابقه ، وما زال « بريكليس » يترقى فى حزبه حتى آلت إليه زعامته ، والتف الجمهور الأثينى حوله ، فصمد لخصمه عشرة أعوام أبعد « كيمون » بعدها عن أثينا أيضاً .

امتدت زعامة بريكليس نحو ثلاثين عاماً من ٤٦٠ — ٤٣٠ ق.م ، وتعتبر هذه المدة من العصور الزاهية الجميلة فى أثينا ، لأن « بريكليس » متعها بنظم ديمقراطية مبتكرة كما أنهض الفنون الجميلة وبنى الأبنية الفخمة ، ومنها مبنى الأكروبوليس الذى لا يزال له آثار باقية إلى الآن ، وهو معبد البارثينون الذى زينه الفنان « فيدياس » برسومه الرائعة ، والمعبد على رأس جبل يؤمه آلاف السياح الآن ، وقد أقاموا خارجه تمثالاً للآلهة أثينا وضعوه على ارتفاع سبعين قدماً ، وعلى مقربة من الأكروبوليس بنى مسرح كبير يسع ثلاثين ألف مشاهد ، وفيه مثلت الروايات التى أبدعها مشهورو الشعراء اليونان مثل « أسخيلوس » ، « وسوفوكليس » ، « وأريستوفان » وغيرهم ممن لا يزال الأدب العالمى يحفل بأعمالهم . وهو مسرح « ديونيسيوس » أو الأرديون .

كان عصر « بريكليس » عصر فن وديمقراطية ، وكانت أسبرطة إذ ذاك تعد نفسها إعداداً عسكرياً ، فلما مات « بريكليس » انفرجت مسافة الخلف بين البلدين وجثت أثينا تحت أقدام خصومها . وكانت حياته بسبب قوته الشخصية والتفاف الناس حوله ستاراً يخفى حقيقة أثينا ، وكان له اهتمام

بالبحرية ، وكان أسطوله الكبير يتجول فى بحر إيجة فيبهر سكان الجزر ويزيدهم تعلقاً به ، ولكن يبدو أن أعماله البحرية كانت أيضاً من نوع الفن والجمال ، دربت الشباب على السباحة والأعمال البحرية ، ولكن لم تكتسب مجداً حربياً .

ومهما يكن الأمر فقد كانت بلاغة « بريكليس » وقوته الخطابية من أهم أسباب نجاحه ، وقد أدت ديمقراطيته إلى ظهور خصوم مناوئين له ، فكانوا يطعنون جهاراً فى سياسته ويتهمونه بتبديد أموال الأمة ، وكان هو بدوره يبادلهم الحجج ويناطحهم بالخطب الطنانة التى كان يلقيها ، فيسحر بها سامعيه ويستهوى قلوبهم .

وتوجد الآن باللغة الإنجليزية مجموعة من خطب « بريكليس » ، ولابد أن يكون فى اللغات الأخرى صور منها ، أو مجموعات غيرها ، وهى فى ترجمتها لا يمكن أن تنقل روح البلاغة الأصلية التى كتبت بها ، ولكنها تعكس جدلا منطقياً وروحاً فلسفية تعتمد على المنطق وإقامة الدليل .

ومات « بريكليس » سنة ٤٢٩ ق.م فى طاعون تفشى فى البلاد ، وذهب بعدد كبير من سكانها ، وذهب فيمن ذهب أخت لبريكليس وابناه ، ثم قضى عليه أيضاً . وأحدث موته فراغاً واسعاً فى سياسة أثينا ، وانحطت درجة الخطابة بعده ، وقام مقامه عدد من صغار الخطباء والسياسيين أثبتت الأحداث فشلهم وضعفهم الفكرى والخطابى والسياسى .

ديموستنيس Demosthenes

ولد هذا الزعيم العظيم فى أثينا سنة ٣٨٤ ق.م ، ومات سنة ٣٢٢ ق.م . وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا ، وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية ، وما امتاز به من لسن وبلاغة .

نشأته

نشأ « ديموستنيس » يتيما ، ولكن يظهر أن يتمه ومعاناته منذ صغره ،

ووقوعه تحت ظلم أقاربه مما أنضج عوده ، ودربه على الاعتماد على نفسه أولا ثم حبه للكفاح والمعارك ثانياً ، وقد ترك له أبوه ثروة كبيرة اغتال أوصياؤه جانباً منها ، فلما شب وأدرك قاضى هؤلاء الأوصياء ليسترد حقوقه المغصوبة ، وظهرت براعته فى ميدان المحاماة كما ظهرت فى الميادين الأخرى .

استعداده

مالت نفسه منذ صباه إلى الخطابة ، فأخذ يعد نفسه لها رغم ما كان به من عيب خلقى يحول دون نبوغه فيها ، فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ولكنه بذل جهداً كبيراً جداً فى تعويد لسانه على النطق والإبانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الأيام والساعات الطويلة ، وهو يقرأ بصوت جهير ولهجة خطابية تصحبها الإشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهوراً ، ونحا فى هذا منحى العرب ، فقد كان من يعتزم حفظ القرآن مثلا يقيد نفسه بالحديد ويعتزل الناس ، وكان « ديموستنيس » يحلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس فى هذه الحالة ، ومن محاولاته أيضاً أنه كان يذهب إلى البحر ويضع فى فمه حصاة ، ثم يقف ليخطب محاولا إبراز حروفه وتجويد كلماتها رغم وجود الحصاة فى فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقى ، وكان يتخيل الأمواج جموعاً حاشدة تستمع إليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا ، وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيباً كبيراً .

وهو فى فاتحة حياته درس القانون ودرس الخطابة ، واتخذ منهما معاً عوناً له فى مقاضاة خصومه ، والدعوة إلى مذهبه السياسى .

سياسته

وكان مذهبه السياسى يقوم على الدعوة أن تكون أثينا زعيمة البلاد اليونانية ، وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعاً ، ومرجع هذه النزعة لديه ولدى من سلكوا هذا المسلك قبله ترجع إلى التعصب للعنصر الأيونى الذى ينتمى إليه أهل أثينا ، بينما ينتمى أهل إسبرطة إلى الدوريين ،

وكانت أثينا بحق مهداً للديمقراطية بينما كانت إسبرطة تتسم بالأرستقراطية، أما سائر البلاد والجزر فكان سكانها من جنسيات أخرى ، وكانوا فى أغلب الأوقات مستقلين ، وأحياناً ينضمون إلى إحدى المدينتين الكبيرتين ، ولكن لم يستهوهم أحد ما استهواهم ديموستنيس .

معارضة فيليب

عاصر « ديموستنيس » قيام فيليب المقدونى والد الإسكندر ، وقد قدمنا أن فيليب كان يريد تحاشى الحروب ، لكن ديموستنيس كان يرى أنه حاكم مستبد وأنه يريد فرض سلطانه على اليونانيين ، كما يرى أن حكم المقدونيين حكم عنيف بعيد عن الديمقراطية والعدالة ، وأن حكم اليونان هو الحكم الإنسانى العادل ، وقد اعتمد كل من الرجلين فيما اعتمد على الخطابة ، وكانت خطبهما أشبه بالنقائض ، كل يدعو لفكرة ضد فكرة صاحبه ، وكل يدعم رأيه بالأدلة ويدحض رأى صاحبه ، وكان « ديموستنيس » يحرض على فيليب ويحذر من وقوع أثينا تحت يده ، وتنازعا معاً مدينة ثيبة كل يسعى لضمها إليه ، فلما ذهب إليها ديموستنيس وجد أعوان فيليب قد سبقوه إليها ولفتوا أذهان الناس إليهم بخطبهم ، ولكنه أظهر مهارة خطابية رائعة ردت سكان ثيبة إليه ، ونجح فى مسعاه إذ انضمت المدينة إلى أثينا ، وأيد نصره الخطابى نصر آخر حربى هزم فيه فيليب وجيشه .

وخطبه فى كل هذه المحاولات تعرف باسم الخطب الفيليبية .

موقف الاسكندر

ولما تولى الإسكندر الأكبر مركز أبيه لم يثبت اليونان أمامه ، فاختار ثمانية من الخطباء لقتلهم كان ديموستنيس أحدهم . وأظهر الإسكندر نبلا عظيما إذ عفا عنهم جميعاً ، لكن ديموستنيس ظل على رأيه فى عداء الحكم المقدونى ، فلما مات الإسكندر قام هذا يدعو من جديد إلى معاداة المقدونيين ولكن سياسته فشلت ، وفقد مكانته فحكم عليه بالإعدام ، ورأى هو أن يفلت من هذه العقوبة فتجرع السم ومات سنة ٣٢٢ ق.م.، ولكن خلدته آثاره الخطابية .

يعتبر « ديموستينيس » خطيب اليونان ، كما يعتبر « هوميروس » شاعرها وشخصية هوميروس غير مقطوع بوجودها ، ولكن ديموستنيس مقطوع بوجوده ، وأعماله حقائق تاريخية .

كان خطيباً سياسياً واجتماعياً ، وخطيباً قضائياً ومعلم خطابة ، وكان لخطبه ميزة خاصة هى فخامة الأسلوب واختيار الألفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة ، ولا تزال له آثار باقية ، وتعتبر خطبه نماذج يحتذيها من يريدون إجادة الخطابة .

نهايـة ديموستنيس :

كان ديموستنيس شديد الاعتداد بوطنه ، شديد التمسك بوطنيته ، وعقب موت الإسكندر ، قام يحث المدن الإغريقية على الاتحاد والتماسك ، ثم حرب الفيليبين للتخلص من حكمهم ، واستطاع أن يثير شعور مواطنيه وهو فى غربته ، ولما عاد إلى أثينا استقبل استقبالا رائعاً ، وحفه موكب كبير من الميناء إلى المدينة ، وقامت بذلك حـرب تعرف بالحرب اللاميـة ، فلاقت نجاحاً أول أمرها ولـكن القائد الفيليبي انتيباتن Antipaten أباد القـوات الإغريقية فى موقعـة كرانون Cranon وصدر أمر بقتل ديموستنيس . ولكنه هرب إلى معبد بوسيدون Posidon فى بعض الجزر ، وتابعه رسول من انتيباتن ليرده ، فأخذ الرسول وكان من الممثلين المسرحيين ، فأخذ يغريه ويمنيه ، لكن ديموستنيس قال له : « إن وعودك لا يوثق بها » فعاد يهدده ، فأصر ديموستنيس على موقفه لأنه يدرك عاقبة استسلامه أسيراً لأعدائه ، فطلب من الرسول أن يمهله حتى يكتب بضعة سطور ، ثم غافله وامتص سماً كان فى طرف قلمه ، وأراح رأسه على يديه كما لو كان يفكر ، ولما استحثه الرسول على النهوض معه قال له : لقد آن وقتك لتلعب دور كريون Creon لترمى بجسدى دون أن تدفنه ، ثم أخذ يخاطب بوسيدون :

« أيها المعبود بوسيديون . أترك معبدك وأنا على قيد الحياة ولكن انتيباتن واتباعه المقدونيين لم يتركوا حتى معبدك بدون تدنيس » ثم نهض ليقوم فسقط جثة هامدة على سلم المذبح ، وهكذا كانت الخطابة آخر ما فعل .

آثاره الخطابيـــة :

ذهبت معظم آثاره الخطابية . ولم يبق منها إلا أقل مما كان ينتظر ، وقد تضاربت الآراء فى مكانته الخطابية بين معاصريه ، وكان له معاصرون ينافسونه ويتفوقون عليه فى بعض الجوانب ، ويقاربون مكانته الخطابية العامة ، من أشهرهم فوكيون واسخينيس ، وكان لكل ميزته كما أن ديونوسيوس كانت له كتابات أشد نقاء وأبلغ تعبيراً من كتابات ديموستنيس ، وكان فوكيون أكثر تأثيراً ولكن تأثيره يرجع إلى شخصيته ومهابته . وله قدرة على الإيجاز والتعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة عديدة ، وكان ديماسيس يرتجل خطبه ويؤدى بها تأثيراً أكثر منه، وعلى أى حال حكم السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية ، وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون . وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح وأكثر مما وصلنا .

معارضوه

هذا من ناحية مكانته ، أما من ناحية أمثلتها فهاك مثالا لإحدى خطبه المحرضة على فيليب ، وقد قالها فى موقف حرج كان الأثينيون فيه قد يئسوا من الحرب وركنوا إلى مسالمة هذا المحارب العنيف ومنها (١) :

خطبة لـه

« سادتى ، يجب علينا بادىء ذى بدء ألا نيأس من حالة شئوننا الحالية ، ولو أنها فى خطر ، لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل .

ماذا أعنى ؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب ، لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم ، وإذا ظلت الأمور كما هى — رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق

---

(١) ملخص من كتاب خطباء اليونان ترجمة د . أمين سلامة .

فلا أمل فى التحسن ، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لإسبرطة منذ أمد بعيد ، والتى يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر ، ومع ذلك فقد قمتم فى وجه تلك القوة بشرف ونبل ، ولم تحطوا من قدر مجد وطنكم ، فواجهتم الحرب غير هيابين ولا مترددين . لعدالة غرضكم . . .

لو ظن أحدكم أن فيليب لا يقهر ، ناظراً إلى ضخامة القوات التى تحت تصرفه، وإلى أن مدينتنا قد فقدت كل الأماكن لكان محقاً فى ظنه ، وكان اعتقاده يستند إلى أساس ، ولكن لينظر ذلك الشخص إلى أننا فى وقت ما كنا نملك « بودنا وميثونى و . . . » وسائر تلك المقاطعة ، وأن كثيراً من القبائل الخاضعة له الآن كانت حرة مستقلة ، وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا لا إلى مقدونيا .

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون . . أن محاربة أثينا أمر جليل ، لأنها تملك كثيراً من الحصون التى تشرف على مملكته ، عندما لم يكن له حلفاء ، لما فاز بأى انتصار ، ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التى ترتجفون منها الآن ، ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هى إلا جوائز الحرب التى تمنح فى مسابقة حرة ، وأن أملاك من يتغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعياً لمن يتقدم إلى الحرب طالباً أن يحصل عليها ، وأن من يرغب فى العمل بجد وفى المجازفة قد يحل محل من يهمل الفرص .

لا تظنوا أن فيليب إله آمن فى ممتلكاته إلى الأبد ، إن هناك رجالا يبغضونه ويخافونه ويحسدونه ، حتى بين أقرب خاصته ، وإنهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجدون منفذا فى تباطئكم وإهمالكم ، فاخلعوا عنكم هذه العادة . إذا ما سألت : متى تهبون من سباتكم وتقومون بواجبكم ، تقولون : سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة ! ، وماذا تظنون فى الأزمة الحالية ؟ أعتقد أن أمة حرة لن تكون فى أعظم من الوقت الذى يكون سلوكها فيه مخجلا وعاراً عليها .

خبرونى ياسادة . . . أتريدون أن تمضوا وقتكم فى ذرع الطريق يسأل بعضكم بعضاً : هل هناك خبر جديد اليوم ؟ وأى خبر أخطر من أن أحد المقدونيين يسحق أثينا الآن ، ويملى سياسته على اليونانيين ، يقول أحدكم : فيليب ميت ، ويقول آخر : بل هو مريض ، وما الفرق بين الحالتين لكل ؟ إنه لو مات فيليب فإنكم سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر . . ليت قوته هى التى رفعته بقدر ما رفعه جمودكم .

تحليل الخطبة

هذا النموذج من خطب ديموستنيس يعكس مظهر حماسه وغيرته الوطنية ، ومن ناحية الصوغ الفنى للخطبة نجده قد بدأ يدعو قومه إلى عدم اليأس من إصلاح ما تعانيه البلاد من سوء . وهو بهذه البداية شجعهم واستمالهم إلى الاستماع إليه، ثم انتقل فذكر الحال السيئة التى يعانونها ، ولم يشأ أن يطيل فى تصويرها لأنهم يحسونها ، وغرضه الأساسى من الخطبة هو إثارتهم وتشجيعهم على حرب فيليب ، وقد استبد هذا العنصر بالخطبة وسلك له عدة مسالك .

ذكرهم بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان وقراها ، حملهم مسئولية ما حل ببلادهم ، وذكر أن تواكلهم وتوانيهم هو الذى هيأ لفيليب تقدمه ، ولبعث الأمل فى نفوسهم ذكرهم بانتصاراتهم على إسبرطة ، وهذا يعنى أنهم إذا هبوا فى وجه فيليب فإنهم سينالون هذا الانتصار ، ثم وازن بين إقدامه وتراخى اليونانيين ، وأنه لو كان على مثل شعورهم لتوانى وناله الكسل ، ولكن تكاسلهم شجعه فكانت هذه الممتلكات التى تحت يده جوائز شجاعته ، ثم نحا منحى آخر فأشعرهم أنه يعانى محاربة الأعداء وانقسام الأتباع ، مما يسهل مهمتهم ، ولكنهم لن يحققوا شيئاً وهم متخاذلون . إن تقاعدهم هو الذى أسلم بلادهم لفيليب ، ولو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر شخص آخر مكانه لأن الأرض التى لا حامى لها يطمع فيها كل مالك .

والخطبة مليئة بتوبيخ الأثينيين ولكنها أيضاً مليئة بصور التشجيع والإغراء .

لوســياس Lysias :

فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الخطابة اليونانية قد بلغت حد النضج ،ومهر خطباؤها – بفضل تعاليم السوفسطائية – إلى درجة بالغة فى التأثير ، ومقدرة رائعة على تصوير الحق فى صورة الباطل وإظهار الباطل فى صورة الحق ، وقصة كوراكس مع تلميذه تبسياس مما يعطى صورة واضحة عن هذه السفسطة .

أثر السوفسطائية

كان إيسوكرانيس قدكون لنفسه شهرة خطابية ، وأخذ التلاميذ يلجأون إليه يتعلمون منه ، والمتقاضون يطلبون منه إعداد خطب لهم ، بينما كان اندوكيس يؤلف أيضاً خطباً لمن يطلب ، ولتبقى لاستعمالها فى الوقت المناسب، وكان إيسيوس Lsaevs قد حبا إلى الشهرة ، وكان صغار الخطباء يتعلمون ممن فوقهم ويعلمون من دونهم،لهذا كانت سوق الخطابة أروج سوق وأنفقه .

فى هذا الجو نشأ لوسياس ، وتاريخ ميلاده بالضبط غير متفق عليه ، ولكن اشتهر أنه ولد سنة ٤٥٩ ق م ، وعمر أكثر من ثمانين عاما . ولد فى أثينا ولكنه من أصل سيراكوزى ، وانتقل أبوه بإغراء بريكليس إلى أثينا .

ونشأة لوسياس فى هذا العهد حببت إليه الديمقراطية ، وقد درس الخطابة والبلاغة على تسياس – أحد البلغاء البارزين – فتفوق فيما تعلمه ثم استعمل لسانه وخطبه فى نصر الديمقراطية ، وقد عانى فى سبيل مبادئه كثيراً . حتى حكم عليه بالإعدام لكنه هرب ، وفى منفاه عمل على تشجيع رفاقه دعاة الديمقراطية ، وعاش فترة طويلة يعد الخطب وأحياناً يلقيها ، فكان سياسياً وأديباً ، ولكن معظم خطبه بها فتور عظيم لأنها كانت تكتب ولم تكن ملقاة .

نشــأته

طريقته في الخطبة

كانت خطبه بسيطة الأسلوب والتركيب، وأكثرها تمثل في عناصر أربعة: المقدمة والعرض والبرهان والخاتمة، وكما رأينا من قبل كان العرض والبرهان لديه يندمجان حتى يعسر أحياناً أن نفصل بينهما. لأن عرضه القضية لم يكن مجرد سرد، بل كان يحوى تعليقات توضيحية قد تغنى عن الأدلة.

مقدمة

أما مقدمته فكانت عبارات موجزة تمت بصلة قوية إلى موضوعه، وكان الخطباء في عصره يستعملون جملا خاصة لافتتاح الخطب ربما كررت في العديد من خطبهم، لكن لوسياس لم يكن كذلك، فقد أثر عنه نحو مائتى خطبة ليس فيها مقدمة مكررة، وكذلك كان شأنه في ختام خطبه، يلخص موضوعه ولا يعيد شيئاً من ألفاظه مما يبرز مقدرته الكلامية، وينسب إليه أربعمائة وخمس وعشرون خطبة، ولكنها ليس مقطوعاً بأنها كلها من عمله. ولكنها تدل على أنه من أثرى خطباء اليونان خطباً.

أسلوبه

أما أسلوبه الخطابي فكان بسيطاً مرناً كثير التلون، أحياناً يستعمل عبارات مسجوعة وجملا متوازنة، وأحيانا يستعمل كلاماً مرسلا، وربما أكثر من ذكر الجمل المعترضة، كل ذلك حسب الموضوعات التى يتعرض لها والجزئيات التى تعالجها خطبته، ونظراً لأن مدار المرافعة في هذا الوقت كان يتوقف على استمالة القضاة والتأثير في مشاعرهم، كان الأسلوب ذا أثر كبير في نجاح الخطبة.

وقد ترك لوسياس خطباً منوعة توضح أسلوبه ومرونته، وطرق مواجهته المواقف المتباينة، ففي مرافعة أعدها للدفاع عن شاب أثيني عريق النسب حسن التربية، يعترف بطموحه وبأنه ذو عاطفة مهذبة، نجد لوسياس يجنح إلى جوانب فرعية ربما ليست وثيقة الصلة بموضوعه، وهى حديثه عن أسرة الشاب وما لها من مآثر على الوطن العزيز، ومنها:

نموذج من الخطبة

فمن مثل هذه البيانات يجب إنصاف الرجل الطموح في حد الاعتدال في حياته العامة، فلا ينبغي أن تمقتوا رجلا لأنه يصفف شعره على طراز

حديث ، هذه عادات شخصية بحتة لا تؤذى أى فرد ، ولا تسبب أى ضرر للمجتمع ، كما أنكم تستفيدون ممن يواجهون أعداءكم بمحض إرادتهم ، إنه ليس من العدل فى شىء أن تحبوا أو تكرهوا شخصاً ما بسبب مظاهره الخارجية ، وإنما يحكم عليه بأعماله ، فكم من أشخاص قليلى الكلام كانوا مصدر متاعب وأضرار ، بينما كانت هناك فئات أخرى على عكس تلك السجايا قامت بخدمات جليلة للمجتمع .

كذلك هناك من حنقوا على لأنى تجرأت على الحديث أمام الجمهور ، كنت فى نظرهم لا أزال غض الإهاب ، ولكننى أجبرت على الكلام عن أمور تخصنى ، وفوق ذلك فإنى بفطرتى طموح لدرجة كبيرة .

إن أجدادى لم يكفوا أبداً عن خدمة الدولة – وصراحة أرى مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع تقديركم ، وطالما كانت هذه عقيدتكم فمن الذى يجرؤ على الدفاع عن الدولة بالقول والعمل ؟ ولم تغضبون على من يعمل ذلك ، وليس لأحد سواكم أن يحكم عليهم ، فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق .

ومن خطب لوسياس الشهيرة خطبة أعدها للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة ثم اتهم بأنه كان يدعى ادعاءات كاذبة للحصول على هذه المعونة . وفى هذه الخطبة تبدو روح السخرية والتهكم . ومنها :

خطبة أخرى

« . . . شكراً للمدعى على تقديمى لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة أجد سبباً به أتحدث عن حياتى ، وقد أتاح المدعى لى هذا السبب ، وسأبين فى حديثى مدى خطئه وكذب تهمته ، وأوضح لكم بالأدلة القاطعة أن حياتى تستحق كل عطف وثناء وإعجاب بدلا من الغيرة والأحقاد ، لا أعتقد أن هناك سبباً دفعه إلى تقديمى للمحاكمة إلا هذا السبب . سبب الحقد والحسد ، فما ظنكم بالخيبة والحقارة التى يهوى إليها من يحسد شخصاً يشفق عليه ويرثى لحاله الناس جميعاً .

طبيعى أنه لم يقم بالتبليغ عنى ليجنى من وراء ذلك أموالا ، وهو أيضاً لا يقصد معاقبة عدو يريد أن ينتقم منه ، وإنما دفعه إلى ذلك سوء خلقه ، إذ لم يسبق لى أية معاملة معه .

واضح لكم من هذا أيها السادة أنه يغار منى ،فإننى على الرغم من عاهتى هذه ، مواطن شريف أحسن منه ، إن المرء المنكوب المصاب يعمل دائماً كى يعوض عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة ، ولو أبديت عقلية تتناسب رجسدى المنكوب الحظ . وصغت حياتى تبعاً لذلك لكنت شخصاً سيئاً مثله . . [وقد اتخذ من ركوبى ذريعة لاتهامى] .

وليس لدى كثير أقوله عن ركوبى الذى تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم ، فإنى أعلم أن الذين يعملون تحت أى ضغط أو يتحملون أعمالا فوق طاقتهم يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام . ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون ، إننى واحد من هؤلاء ، وقد وجدت فى الركوب لأى مسافة شيئاً من الراحة ، ولو كنت ميسور الحال لنشدت راحتى فى ركوب بغل بدلا من استعارة جواد . ولكن ما حيلتى وليس لدى ما أشترى به دابة ؟ فأنا مضطر دائماً إلى استعارة جواد .

إنى لأعجب من هذا الاتهام . يرانى أستعمل عصوين وغيرى من العرج والأصحاء يمشى وبيده عصاً واحدة . فلا يرثى لى ولكن يتهمنى بالترف والإسراف ، لأن الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين ! !

وهكذا تمضى الخطبة تستعرض التهم واحدة بعد أخرى لتفندها وتردها. وتطلعنا هذه الخطبة على جانب من أخلاق الشعب الأثينى ، ونوع القضايا التى كانت تقدم لهيئات التحكيم .

مثال ثالث

وهناك مثال آخر من خطبه يبدو فيه الأسلوب القصصى . وهو حديث عن مقتل شخص . وفيه يتحدث زوج عن تصرفات لزوجته :

وهكذا أيها السادة سارت الأمور حتى رجعت يوماً من الريف على غير انتظار ، وبعد تناولى غذائى كان الطفل يصرخ ويتململ ، وكان الخادم يعاكسه قصداً كى يصرخ ويصيح لأن ــ إيراتوسنيس Eratosthenes كان بالمنزل ، ولم أعرف كل ذلك إلا فيما بعد ــ وقد طلبت من زوجتى ــ إذ ذاك ــ أن تذهب إلى الطفل لتطعمه وتمنعه من البكاء ، ولكنها تباطأت متعللة باغتباطها بعودتى بعد غياب طويل ، ولما انتهرتها ثانياً محتما أن تقوم لمراعاة الطفل قالت : نعم . سأذهب ، وسأدعك أنت والخادم وحدكما . لأنى أذكر ما حدث منك ذات ليلة وأنت سكران ! فضحكت .

وقامت زوجتى وهى تتظاهر بالمزاح فى إغلاقها الباب ، ثم أوصدته من الخارج .

لم أفكر فى شيء . ولم تدر أى شكوك بخاطرى ، بل وذهبت إلى مضجعى ناشداً للراحة بعد العمل المضنى فى الريف طوال ذلك اليوم .

وفى الصباح الباكر عادت وفتحت الباب ، ولما سألتها عن سبب إيصادها الأبواب طوال الليل أجابت بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ . فخرجت تبحث عن مصباح عند جارتها .

لم أجادلها لأنى كنت أظن كلامها عين الحقيقة ، ولكنى أتذكر جيداً أن وجهها كان عليه مساحيق رغم موت أخيها منذ من أقل من شهر . لم أسألها عن ذلك أيضاً ، ثم غادرت المنزل واتجهت إلى عملى » .

وهذه الخطبة ترينا جوانب من حياة اليونان فى ذلك الوقت ، وعن شيء من زينة المرأة ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز .

الخطابة فى العهد الرومانى

لمحـــة تاريخية :

تطور الحكم الرومانى

ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم فى تلك البلاد . وقد نشأت الحكومة الرومانية فى روما ملكية مطلقة تستمد سلطانها من السماء ، ومنذ سنة ٥٠٠ ق م تحولت إلى جمهورية ، ولكن لم يكن لها إمبراطور واحد ، بل كان الشعب يختار حاكمين معاً ، يحمل كل واحد منهما اسم القنصل . ومدة حكمهما لا تتجاوز العام الواحد ، وكان يعاونهما مجلس من النبلاء والأشراف ذوى المناصب العالية فى الدولة ، ويبلغ عدد هؤلاء نحو السبعين ، ثم سمح بوجود ممثلين من الشعب أطلق على الواحد منهم اسم تربيون trileune ولكن هؤلاء لم يزيدوا على عشرة أشخاص . ولما بدأت روما تتوسع فى فتوحاتها وتغزو الممتلكات اليونانية برز قائد كبير هو بومبى . الذى قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط الذين كانوا يهددون تجارة روما ، فاختاره الشعب ليكون الرئيس على البحر المتوسط ، وحيث أثبت نجاحاً وكفاية اختير رئيساً على آسيا الصغرى ، فمد فتوحاته إلى الفرات شرقاً . واستولى على سوريا فأخضع القسيس الأكبر فى القدس إلى سلطان روما . وكان ذلك نصراً عظيماً جداً . فاختاره الشعب رئيساً على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم .

بومبى

يوليوس قيصر

وفى هذه الأيام ظهر ثرى موهوب هو يوليوس قيصر ، كان ماهراً فى قيادة الجيش والحروب محباً للعدالة . له مقدرة على الخطابة قلما تمتع بها شخص آخر . وسرعان ما أصبح الحاكم المطلق فى الجهة التى هو بها . وكسب لإيطاليا مجداً جديداً . ومع كثرة الأعمال التى قام بها ، وجد متسعاً من الوقت ليكتب قائمة بأعماله المشرفة ، وقدمها إلى مجلس النبلاء فى روما .

فدل بهذا العمل على أنه كاتب بقدر ما هو خطيب ، وسمى مذكراته « التفسيرات » وهى لا تزال إلى الآن من الكتب المشهورة فى أنحاء العالم . ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة ، ويقرؤها الآن البادئون فى اللغة اللاتينية لتعلم هذه اللغة . كما يقرؤها المثقفون للدرس والسياسة والتاريخ . وعندما انتهت مدته طلب بومبى وقواد آخرون منه أن يسرح جيشه ، ولكنه رفض ، واتجه إلى روما فخافه بومبى وفر إلى اليونان ثم إلى مصر حيث قتل غيلة بها . ولكن يوليوس قيصر فى هذه المطاردة قابل الملكة كليوباترا ملكة مصر — فوقع فى غرامها وتزوجها ، وذهبت معه إلى روما سنة ٤٥ ق م حيث أقيم لها استقبال رائع عظيم ، وأنجب منها ابنه قيصرون .

محاكمته

ومع هذا المجد الباذخ نمت أيضاً عداوات وأحقاد ضد القيصر ، واتهم اتهامات كثيرة وكان صديقاه بروتس Brutvus وكاسيوس Cussius هما اللذان قادا المكيدة ضده ، وعقدا له مجلس محاكمة رهيبا ظل الخطباء يذكرون أخطاءه ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه ، ودهش القيصر للطعنة القاتلة من يد بروتوس ، فالتفت وقال : حتى أنت يابروتس ؟

انطونيو واكتافيو

وكان من أصدقاء القيصر وقواده . أنطونيو Mark Antony وأوكتافيو octavian ، فغضبا لمصرعه ووقف أنطونيو عند تشييع جثمانه فألقى خطاباً مثيراً رهيباً استفز به السامعين وأثار غضبتهم على قتلة القيصر — ثم طارد هو وأوكتافيو بروتس وكاسيوس إلى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين .

الاستيلاء على مصر

أصبحت السلطة الآن فى يد أنطونيو وأوكتافيو ، ومع بقاء الدولة الواسعة الأطراف فى وحدتها كان أوكتافيو هو المختص بالأقاليم الغربية ، وكان أنطونيو هو المشرف على الشرق ، ولكنه أيضاً كقيصر وقع فى حب كليوباترا وكان زوجاً لأخت أوكتاف ، فقامت بينهما معارك انتهت بنصر أوكتاف ودخول مصر فى قبضة الدولة الرومانية .

ظهور المسيحية

وفى وقت هذا النزاع ظهرت المسيحية ، وتسللت ببطء إلى أعماق الدولة الرومانية الكبيرة . ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر ، لكنهم فيما بعد لمسوا فيها خطراً يهدد ملكهم ويزلزل عظمتهم ، فصبوا جام غضبهم على المسيحيين وأذاقوهم ألوان العذاب ، لكن الوثنية كانت قد فقدت سلطانها على نفوس الناس ، وسئموا ماديتها الفارغة . فأقبلوا على المسيحية رغم ألوان التعذيب التى انتابتهم ، ولما جاء الإمبراطور قسطنطين وجد المسيحية توشك أن تهز عرشه فقررها دين الدولة الرسمى ، ثم أخذ يكره الناس عليها ، وانعكست آيات التعذيب ، فعذب الوثنيون وأعفى المسيحيون ، لكن المسيحيون ما لبثوا أن انقسموا ، واختلفت آراؤهم فى المسيح فسببوا لأنفسهم عذاباً آخر جديداً ، وظلوا كذلك حتى ظهر الإسلام فى الشرق واستولى على أطراف الإمبراطورية الرومانية فخلص رعاياها من هذا العذاب ، إذ أباح لكل طائفة مسيحية أن تتبع المنهج الذى تريد ، ولكل فرد أن ينتمى إلى أى فرقة .

هذه لمحة عابرة تبرز بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه الدولة ، لم نر بدا من ذكرها قبل الحديث عن الخطابة فى هذا العهد .

الخطـابة الرومانية

بداية الخطابة الرومانية

قلنا من قبل إن الخطابة لا تنمو إلا تحت شمس الحرية ، ولم تكن حياة الرومان ممتعة بحرية كافية ، ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتى أشرنا إليها من مواقف بروتوس وأنطونيو ، ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو إلى الخطابة وتظهر الخطباء — واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتوس من يوليوس قيصر ثم من موقف أنطونيو من بروتوس مجالا لتمثيل سحر البيان وأثر الخطابة فى نفوس السامعين ، ولعل تمثيلية شكسبير الخالدة من أبرع ما يمثل هذا الموقف العجيب الذى تموجت فيه عواطف السامعين وحماساتهم، مرة يغضبون عليه وأخرى

يرضون عنه ويهجمون على قاتليه ، ولا تزال مرثية أنطونيو من الآثار الأدبية الرائعة ، وأشهر خطباء الرومان على الإطلاق هو شيشرون الذى نفرد له ترجمة وجيزة .

في العهد المسيحي

وفى العهد المسيحى ظهرت خطب دينية ، وكان الموقف خليقاً أن يخرج خطباء ممتازين كباراً ، ولكن المسيحية ظلت – كما ذكرنا – مكبوتة ، فلما صارت ديانة رسمية انشقت على نفسها ، واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكى ، ولما ظهر هرقل بمذهبه الذى قام على وحدة الإرادة ، والذى أراد به أن يوفق بين المذاهب المتضاربة كان قصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهباً آخر ، وكان بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكمم أفواه الخطباء .

شيشرون Ciceron :

من هو

هو ماركوس ثيولوس ، عاش قرب نهاية الإمبراطورية ، وشارك فى الحياة السياسية وظل نجماً لامعاً فى سماء الخطابة والسياسة والقضاء حتى قتل فى سنة ٤٣ ق م .

بدايته

ولد شيشرون سنة ١٠٦ ق م . من أسرة ذات مال وثقافة ومحبة للفنون ، ودرس فى روما القانون والبلاغة والفلسفة والأدب اليونانى ، وله فضل كبير على اللاتينية ، ذلك أنه استعملها –دون اليونانية– فى كتابته ومرافعاته القضائية فأكبره الناس وقدروه وقلدوه .

كان محاميا قديراً ، وكاتباً أديباً ، وسياسياً لبقاً ماهراً .

فقامت شهرته على عملين أدبيين ، هما رسائله ، ومرافعاته القضائية .

رسائله

كان له عدد من الأصدقاء خارج روما ، فكان يكتب لهم رسائل مطولة تصف جميع أخبار روما وما يحدث بها ، وكان يحشوها أحياناً بالنكت والسخريات ، كما تصف حياة الناس الأدبية والكتب التى تظهر ، وما يدور فى المجتمعات من أحاديث ، وهذه الرسائل وإن لم تكن محل درس لمن يؤرخون الخطابة ، تعكس مقدرة الكاتب البلاغية ، ومدى ما كان يتصف

به من ذكاء ودقة حس ، وهى جميعاً من مكوناته خطيباً ، وهذه الرسائل لا تزال محفوظة إلى الآن تعطى صورة حية عن حياة روما فى ذلك العهد .

خطبه

أما خطبه القضائية فهى سبب شهرته ، وهى التى هيأت له أن يكون قنصلا فتولى هذا المنصب سنة ٦٣ق م . وأول خطبة لفتت الأنظار إليه كانت خطبة قضائية ضد رجل من ذوى النفوذ ، سوغ له شرهه المادى أن يلصق تهمة بأحد الأثرياء ليحكم عليه بالسجن ، ومن ثم استولى على ممتلكاته بثمن زهيد يكاد يكون اسمياً فقط ، وتولى شيشرون الدفاع عنه ، وكان يومئذ شاباً لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره . فأبدى حماساً رائعاً وبلاغة قوية وحججاً واضحة ، مما أدهش السامعين والقضاة ، فبرئ المتهم وأعيدت إليه ثروته .

بعض مواقفه

وله موقف آخر شبيه بهذا حين كان فى الثلاثين من عمره ، ذلك أن والى صقلية من قبل روما وكان يدعى فيريس Verres أسرف فى ظلم السكان ونهب أموالهم ، فاختاروا شيشرون كى يدافع عنهم ، فأخذ يصور حال السكان وما يعانونه من ظلم الحكام الرومانيين واستهانتهم بهم مما رقق القلوب وهاج عواطف الرحمة لهؤلاء المحكومين المساكين ، كما أبرز حكام الرومان فى حالة من الخجل من سوء تصرفاتهم ، وقد أغضبت خطبه هذه معارضيه من الأحزاب الأخرى ، ولكنها رغم غضبهم ارتقت به ليكون قنصلا ، ولقب قنصل هو أرقى المناصب الرومانية ، وكان لقب الإمبراطور يطلق على قواد الجيش ، ولم يتخذ لقباً للحاكم الأعلى إلا منذ عهد أركتاف (أغسطس)

وبعد مصرع القيصر قام شيشرون بخطب كثيرة ضد انطونيو وأوكتافيو ، فأثار عداوتهما ضده . فلما آل إليهما الحكم قررا إعدامه فقتل سنة ٤٣ ق م .

درسه

كان شيشرون فيلسوفاً ، ومحباً للعلم والاستزادة منه . فكان أثناء خلو حزبه من الحكم يعكف على القراءة والكتابة ويستزيد من درس الفلسفة ، وقد غادر روما مرة لمدة عامين طاف خلالهما بآسيا الصغرى وأثينا وبعض

الجزر . وعمق دراسته الفلسفية فى أثينا . وله مقالات فلسفية كثيرة ، منها مقالات فى الشيخوخة ، والصداقة ، والواجب ، ورسالة فى طبيعة الآلهة ، وأخرى فى « النهاية الحقة للإنسان » .

وترجمت آثاره إلى كثير من اللغات ، أما خطبه القضائية ضد فيريس فلا تزال إلى الآن مثالا يحتذى من حيث جودة الأسلوب ، ورصانة التعبير وقوة الحجة وترتيب الأفكار .

أعظم من فرجيل

وإذا كان فرجيل أعظم شاعر أنجبته « روما » فى هذا العهد ، وشيشرون أعظم خطيب ، فإنا نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جداً ، وهو أن فرجيل كان صدى لهوميروس ، وملحمته الكبيرة « الإنياد » ليست إلا صورة من ملحمة هوميروس « الإلياذة » ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته . أما شيشرون فيبدو نسيجاً وحده كما يبدو اعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص .

وهو فى نظر المؤرخين خطيب وأديب وكاتب أكبر منه سياسياً ، وصفة الخطابة على أى حال سياسية أو قضائية هى أبرز صفاته .

الرومان واليونان

ومما يفرق به بين اليونان والرومان ، أن اليونان أمة فلسفة وأدب وفنون ، أما الرومان فكانوا دولة سياسة وقوانين ، وكانوا يعتمدون على التراث اليونانى فى الفلسفة والآداب ، ولهذا يقول المؤرخون : إن اليونانيين غزوا الرومان فكرياً حين غزاهم الرومان عسكرياً . وأجمل مواقف الخطابة الرومانية هو ذلك الموقف الذى نشأ بعد مقتل يوليوس قيصر ، وقد ألممنا بصورة منه .

خطبة هانيبال

أيها الجنود، إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى ، فقد شد بكم الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم، وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها ، ومن بين أيديكم نهر يو ، وهو أعرض وأسرع جرياناً من الرون ، ومن خلفكم جبال الألب ، تلك الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء والنصر على الأعداء يوم لقائكم لهم .

لا تيأسوا فإن تلك القدرة الإلهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيماً عظيماً ليكون لكم أجراً على انتصاركم ، وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقى .

إننا إن لم نستطع ببأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلباً كان ذلك جزاء وفاقاً لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما لكم من ثروة رومة الطائلة ، وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها من الأمم الأخرى ؟ كل هذه ستكون فى حوزتكم .

إنى أربأ بكم أيها القوم ، أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن إعلان حرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس ، فلتعلموا أنه كثيراً ما تغلب جيش مستصغر على عدو مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس ، وكم ثلت عروش فخمة وأفنيت أمم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

ولكنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق ، وصيتها الذائع ، فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم .

الخطابة عند العرب

الخطابة العربية أهم ما يعنينا فى هذا الحديث ، والخطابة الإسلامية أهم ما يعنينا من الخطابة العربية ، ذلك لأننا نريد بكل هذه الدراسة أن نتدرب حتى نكون خطباء إسلاميين ، وقد قدمنا فيما سبق أن الخطابة تقوى فى المواقف الجادة ، مثل مواقف الحروب ، وقضايا الجرائم الكبرى ، والمعارضات البرلمانية ، وهى فى كل مواقفها تحتاج إلى الحرية التى تسمح للخطيب أن يفضى بذات نفسه ويعلن كل ما فى صدره ، فإذا كبتت الحرية ضعفت الخطابة .

ونستعرض هنا مواقف الخطابة من أقدم عصورها لتبيين خصائصها فى كل عصر ، وليكون لنا من درسها عون على ما نريد من تكوين ملكة خطابية ، ومقدرة فنية لدى الدارسين .

الخطابة فى العصر الجاهلى

ضياع الخطب الجاهلية

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كانت لهم خطب قوية ، وأنهم اعتمدوا عليها فى مواقفهم الهامة ، واستعملوها فى مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم ، وقد ذهب الكثير جداً من هذه الخطب مع الزمن ، وحفظ لنا التاريخ قليلا جداً منها ، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين لم يبق من خطبهم شىء ، ذلك لفشو الأمية وبعد الزمن ، وقد كانت أسباب الخطابة متوافرة لعرب الجاهلية ، فهم ممتعون بحرية قلما توفرت لغيرهم ، ولهم مقدرة قوية على الحديث وتشقيق الكلام ، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ، ويبعث الخطيب على الاستمرار فى حديثه ، ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال ومواجهة الموضوع الذى يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً ، ومع ذلك تأتى على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة . قال الجاحظ : فما هو إلا أن يصرف (العربى) همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى يقصد فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »(١) . ولا يعنى هذا أن كل خطبهم كان مرتجلا .

توافر أسبابها

مواقفها

وللخطابة الجاهلية مواقف كثيرة ، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القوم للتشاور فى أمر من أمورهم كالقيام بحرب ، أو الإصلاح بين متنازعين ، ويأتى فى هذه المواقف خطب ومحاورات ، ويتبع ذلك الوصايا التى يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقومه ، أو لأولاده . وفى أسواقهم كانت تقوم بينهم المنافرات والمفاخرات ، ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر ، وكانت هذه تتناول كل شىء حتى إن الخنساء وهند بنت عتبة تنافرتا فى المصائب ، وكل ادعت أنها أصيبت أكثر من الأخرى . وهذه المواقف

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٨ . وأرسالا أى جماعات . وتنثال أى تسيل وتتوالى .

تظهر قوة البديهة العربية ، والقدرة البالغة على الارتجال . وأكثر ما نجد فى هذه الخطب أو الوصايا اتسامها بقصر الجمل ، وسرد الحكم ، حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى ، وهى فى جملتها خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشئون الناس ، وأحداث الحياة ، وليس فى حكمهم معان فلسفية عميقة ، لقلة ثقافتهم وعدم دراستهم ، ولكن لهم نظرات صائبة وآراء حكيمة لا نزال نحتاج إليها ونستعين بها فيما يطرأ لنا من أحداث ومواقف تشبه ما طرأ لهم . وكثيراً ما يأتى السجع فى عباراتهم عفوا ، فإن لم تكن العبارة مسجوعة ، كانت الجمل مقسمة متوازنة ، وخطب الأعراب وأدعيتهم من أبلغ وأجمل ما فى أساليب اللغة العربية .

خصائصها

وخطب الجاهليين وأدعيتهم ومحاوراتهم ووصاياهم ، كلها مما يستعين به الخطيب الحديث ، ويجد فيها مدداً واسعاً بالرأى والفكر ، وبالتعبير والبلاغة . ونورد بعضاً منها للدرس والاستشهاد ، وعلى الراغبين أن يرجعوا إلى المصادر الأخرى ليجدوا مدداً أوسع ، وغذاء أوفى وأدسم .

حاجتنا إليها

صفات الخطيب وعادة الخطباء العرب

كان للخطباء فى الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ولا يزال الكثير منها موجوداً إلى الآن . ذلك أن أغراض الخطابة ، والوسائل المؤدية إلى الإقناع لا تتغير إلا قليلا .

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شىء مرتفع أو نشز من الأرض ، ليشرف الخطيب على مستمعيه ، فيروا شخصه حين يسمعون كلامه ، وليستطيع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطاب إشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم ، فيكون ذلك أعون على التأثير والاستمالة ، وفى المواقف الحاشدة ، والمجامع الكبيرة يخطبون على ظهور رواحلهم ، وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بعرفة وهو راكب

الوقوف على شىء مرتفع

ناقته القصواء ، وكان تحت عنقها ربيعة بن أمية بن خلف يعيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصرخ به لكثرة المشاهدين وبعد الذين فى أطراف الجمع عنه صلى الله عليه وسلم . وفى الحالات العادية يكون الخطيب واقفاً ، إلا فى خطب الإملاك فإنه يتحدث وهو جالس ، ذلك لعدم كثرة السامعين ولأن المراد من الخطبة هو الإخبار بالزواج وتزكيته ، وليس ثم موضع للإقناع و الاستمالة ، كذلك كان يلوث(١) عمامته ، ولا تكون سوداء اللون إلا فى حالات المطالبة بالثأر ، وقد خرج امرؤ القيس إلى وفد أسد الذين قدموا عليه بعد مقتل أبيه ، وهو يعتم بعمامة سوداء ، وكان فيهم عبيد بن الأبرص ، وقبيصة بن نعيم ، كذلك كان الخطيب يعتمد على شيء فى يده ، عصاً أو مخصرة أو قناة(٢) . وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للإشارة والإيحاء وقوة التأثير فى السامعين ، واستعمال العصا ونحوها مستحب أيضاً فى الخطبة الإسلامية ، وهو كذلك مما يستأنس به الخطيب ويحول بينه وبين العبث بيده .

اعتجار العمامة

صفات الخطيب

ويستحسن فى الخطيب أيضاً أن يكون نظيف الثوب حسن البزة ، جهير الصوت ، هادئاً فى عباراته ، وقد مدحوا سعة الفم ، وذموا صغره ، وجعلوا من الجمال رحب الشدق ، وبعد الصوت ، وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل ، شريف النفس ؛ لأن ذلك يجعله أكثر تأثيراً ، ويجعل السامعين أكثر قبولا لكلامه ، كما آثروا أن يكون مقتنعاً بكلامه عاملا به ، ومعظم هذه الصفات مما أيده الإسلام ، وقد قال على بن أبى طالب : من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه . ووقف زياد ابن أبيه يخطب فأعجب الناس حتى قال عمرو بن العاص : « لله در هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق الناس بعصاه » فهو لم يحط منه إلا خسة نسبه ولو كان كريم الأصل لساق الناس .

---

(١) يلف ويكور .
(٢) المخصرة : السوط . والقناة الرمح .

وكانوا يمدحون فى الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادىء المظهر قليل التلفت قليل التنحنح أو العبث بلحيته ، أو مس جبينه ، فهم يعدون ذلك من أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة ، كما عابوا التلعثم والارتباك ، وقطع الجمل قبل تمامها ، وإسكان الكلمات فى غير مواضع الوقف .

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة ، وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل ، وكانوا لمقدرتهم الخطابية وطواعية اللغة لهم يأتيهم السجع عفوا .

أشهر خطباء الجاهليين

ومن أقدم الخطباء المشهورين كعب بن لؤى ، الجد السابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير ، وكان مهيباً مسموع الكلمة ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخاً حتى عام الفيل ، فأرخوا به حتى كانت الهجرة النبوية ، فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأ لتاريخ المسلمين .

ومن مشهوريهم بعد ذلك قيس بن خارجة بن سنان ، خطيب داحس والغبراء(١) ، وفى هذه الموقعة اشتهر خويلد بن عمرو الغطفانى بخطبه فى حرب الفجار(٢) ، وقس بن ساعدة الإيادى(٣) ، خطيب عكاظ ،

---

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس ، راهن بهما حذيفة بن بدر ليسابق فرسيه الخطار والحنفاء ، وقد سبقت الغبراء فردها كمين كانت فزارة قد أعدته ، فتخلفت ، وقامت بذلك حرب بين عبس وفزارة ، ثم امتدت إلى حرب بين عبس وذبيان ، وقصص هذا الحادث طويل يحسن أن ترجع إليه فى كتب الأدب .

(٢) حرب نشبت بين قريش وهوازن — سميت بذلك لأنهم تفاجروا فيها ، وكانت فى الأشهر الحرم ، وقد شهدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — وكان ينبل على أعمامه فيها ، أى يقدم لهم النبل .

قس بن ساعدة

(٣) أشهر خطباء العرب الجاهليين على الإطلاق ، كان يدين بالتوحيد ويؤمن بالبعث ، ويدعو إلى نبذ عبادة الأوثان ، يقال إنه أول من قال : « أما بعد » ، وأول من اتكأ على عصا أو نحوها ، وكان حسن الألفاظ واضح العبارة ، وكان الناس يتحاكمون إليه ويرضون حكومته ، وهو القائل : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » تلك العبارة التى رضيها الإسلام وأقرها.

وأكثم بن صيفي(١) ، والحارث بن عباد(٢) ، وقيس بن مسعود(٣) .

*خطبة المأمون الحارثي (٤)

قعد المأمون الحارثي في نادي قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم وفكر طويلا ثم قال :

« أرعوني أسماعكم ، واصغوا إلى بقلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد : طمح(٥) بالأهواء الأشر (٦) ، وران على القلوب الكدر (٧) . . إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وقمر تطلعه النحور(٨) ، وتمحقه أدبار الشهور(٩) ، وعاجز مثر ، وحول(١٠) مكد ، وشاب محتضر(١١)

أكثم — (١) من الخطباء البلغاء المولعين بسرد الحكم وضرب الأمثال ، أوفده النعمان بن المنذر رئيساً على وفد من الخطباء إلى كسرى ، فأعجب به ، وقال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكان ذلك كافياً . لهم ، وخطبته أمام كسرى مليئة بالحكم والأمثال .

الحرث بن عباد — (٢) من الخطباء البلغاء له مواقف محمودة في حرب داحس والغبراء ، وله فيها شعر جيد أيضاً وهو من قبيلة بكر .

قيس بن مسعود — (٣) قيس بن مسعود بكرى أيضاً ، من الخطباء ومن الأجواد الكرماء ، كانت العرب جميعاً تقر له بالفضل والسيادة ، كان له حظيرة بها مائة من الإبل مخصصة للأضياف تقيد واحدة منها للنحر ، فإذا نحرت قيدت أخرى — وهؤلاء جميعاً شرفاء كرماء تدل مواقفهم على أن العرب كانت تتأثر بمكانة الخطيب الاجتماعية .

(٤) يروى المأمور الحارثي بالراء أيضاً .

(٥) طمح ذهب ، والطماح ككتاب ، النشوز والجموح .

(٦) الكبر والبطر ، أي أن الكبرياء ضللت الناس .

(٧) ران : غطى ، والكدر الغيم والكدرة .

(٨) نحر النهار والشهر أوله ، يريد قمر تطلعه أوائل الشهور .

(٩) تمحوه أواخر الشهور ، فينحل ثم يختفي .

(١٠) الحول : الشديد الاحتيال أي الذي يحاول محاولات كثيرة ، يقال حول بالتشديد وبفتح الواوكصرد ، وحولة — كهمزة بسكون الواو وفتحها : فقير لا مال معه .

(١١) محتضر بالحاء حضرته الوفاة ، وبالخاء المعجمة : ميت في فتوته ، يقال اختضر الشخص . إذا مات في شبابه .

ويفن قد غبر(١) ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفترون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الأير(٢) ، فيصدع المدر عن أفنان الخضر ، فيحيي الأنام ، ويشبع السوام(٣) ، وينمي الأنعام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارئ المصور .

يا أيها العقول النافرة(٤) ، والقلوب النائرة(٥) ، أنى تؤفكون(٦) ، وعن أى سبيل تعمهون(٧) ، وفى أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية توفضون(٨) ، لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين(٩) ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضـــلالة » .

خطبة قس بن ساعدة (١٠)

لقس بن ساعدة خطبة مشهورة سمعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطبها فى سوق عكاظ ، وأعادها أمامه رجل من إياد ، فاكتسبت بذلك شهرة ، وهى أيضاً من الخطب المبشرة بظهور الإسلام .

---

(١) اليفن : الشيخ المسن . . وغبر عاش وبقى . يقال غبر بمعنى مات وعاش . والغابر الماضى والمقبل .

(٢) الصلب الشديد ، والمدر : الأرض التى تزرع .

(٣) الماشية التى تسام وترعى .

(٤) الجامحة التى لا تريد أن تأنس وتفكر .

(٥) أى ذات النائرة . والنائرة العداوة أو هو وصف بالمصدر مثل زيد عدل .

(٦) إلى أى اتجاه ينصرفون . من أفك يأفك .

(٧) من عمه بمعنى تحير . يعجب كيف يتحيرون فى البحث عن الطريق الحق وهو واضح أمامهم.

(٨) تسرعون من أوفض .

(٩) صرح عنه . تكشف عنه . أى لو فكرتم لانكشف الشك وتجلى اليقين .

(١٠) تقدمت ترجمة له .

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الوفود ، فسألهم عن قس فقالوا : مات . فقال كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ فى جمل له أورق(١) ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدنى أحفظه . فقال رجل من الوفود : أنا أحفظه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

« أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات(٢) ، وكل ما هو آت آت(٣) ، ليل داج(٤) ، ونهار ساج(٥) ، وسماء ذات أبراج(٦) ، ونجوم تزهر(٧) ، وبحار تزخر(٨) ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة(٩) ، وأنهار مجراة ، إن فى السماء لخبرا(١٠)، وإن فى الأرض لعبرا(١١) ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه، إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرا .

ثم أنشأ يقــول :

فى الذاهــبين الأوليــ ... ن من القرون لنا بصائر
لمـــا رأيت مـــواردا ... للموت ليس لها مصــادر

---

(١) أبيض فى سمرة – رمادى اللون .
(٢) ذهب ولا يعود . (٣) ما هو مقدر لا مفر منه .
(٤) مظــلم . (٥) ساكن منتشر .
(٦) البرج : صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان أو غيره . ويسميها الفلكيون بأسماء أشكالها . فيقولون برج الجدى والثور والحوت والدلو ... والأبراج اثنا عشر برجاً تقابلها الشمس على طول السنة . ويظهر أن قساً يتحدث عن النجوم بوجه عام .
(٧) تضىء .
(٨) مليئة بالماء تطمى به وترتفع .
(٩) مبسوطة والفعل ثلاثى واسم المفعول منه مدحو . وجاءت الكلمة مدحاة لمشاكلة أخواتها.
(١٠) دليلا على خالق عظيم .
(١١) عظات وخبرات .

ورأيت قـــومى نحوها تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجـــع المـــاضى إلى ولا من الباقين غابـــر(١)
أيقنت أنى لا محـــــالة حيث صار القوم صائر

وقد جاءت هذه الخطبة بروايات تزيد وتنقص ، والذى ذكرناه هو ما جاء فى صبح الأعشى . وفى رواية الأغانى (٢) – بعد « ونجوم تزهر » ! « وضوء وظلام، وبر وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب – مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ... وإله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه » .

ثم أورد الشعر الذى سبق .

ترى ما مدى هذه الخطبة من الصحة(٣) ؟ . لسنا بصدد التحقيق فيما أورده بعض الباحثين المحدثين من وضع كل هذه الخطب الجاهلية موضع الإنكار ، وليس فقط مجرد الشك ، فإن لم تكن هذه الخطبة صحيحة ، فإنا لا يغيب عنا أنه فى أواخر العصر الجاهلى كان الناس قد سئموا عبادة الأوثان، وكرهوا الاحتفاء بها ، وقد اجتمعت مرة تحتفى بالآلهة العزى بنخلة ، فانحاز منهم زيد بن عمرو ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وورقة ابن نوفل ، فقالوا : « تعلموا – والله – ما قومكم على شىء وإنهم لفى ضلال ، فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذى أنتم عليه » .

---

(١) مقيم يريد أن الناس يذهبون للموت ولا يرجعون .

(٢) أنظر صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٢١١ . واللآلىء المصنوعة ، جـ ١ ، ص ٩٥ . ومختار الأغانى ، جـ ٦ ، ص ٢٢٣ . وله أقاصيص أخرى طريفة ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سماعه هذه الخطبة : « يرحم الله قساً ، إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمـــة وحده » .

(٣) نكرها الكثيرون . وقد جاء أن الذين سئلوا عن قس هم وفد عبد القيس . فهذا يجعل السؤال غريباً . إذ هم ربعيون لا إياديون ، ويقال إنه كان فى نجران .

وتميل النفس إلى أن هذه الخطبة وخطبة المأمون الحارثى ، والخطبة التى تنسب لكعب بن لؤى . . كلها من الخطب التى وضعت فى العصر الإسلامى تأييداً للدعوة الإسلامية ، وعلى فرض انتحال كل هذه الخطب نجد فيها سمات الخطب الجاهلية ، لأن واضعها تحرى جهده أن يجعلها مشابهة لطريقتهم حتى تجوز على الناس ، واختلاف روايات الخطب دليل على أنها زيد فيها ، وليست الخطبة الواحدة من صنع شخص واحد .

وخطبة كعب بن لؤى تجرى على نسق الخطبتين السابقتين ، وهى :

خطبة كعب ابن لؤى

« اسمعوا وعوا ، وتعلموا تعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل ساج ، ونهار ضاج(١) ، الأرض مهاد ، والجبال أرتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ، فصلوا أرحامكم وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ؟ أو ميتاً نشر ؟ . الدار أمامكم ، والظن خلاف ما تقولون ، زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم » .

ثم قال أربعة أبيات من الشعر منها :

تهاويل ليل واختلاف حوادث سواء علينا حلوها ومريرها
على غفلة يأتى النبى محمـــد فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

وهى ظاهرة الوضع ، ولا تحتاج إلى تفنيد .

من خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة(٢) ، والشر لجاجة(٣) ، والحزم مركب

---

(١) ضاج بالجيم مخفف صاج — اسم فاعل من ضج . أى نهار ملىء بالعمل والحركة .
(٢) سبب للسقوط والفشل .
(٣) يريد أصل الشر هى اللجاجة . وهى تماحك الخصمين وتماديهما .

صعب(١) والعجز مركب وطيء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر(٢) ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى(٣) ، من فسدت بطانته(٤) كان كالغاص بالماء(٥) ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا المحالة(٦) ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك (٧) ، حسبك من شر سماعه (٨) ، الصمت حكم (٩) وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفر (١٠) ومن تراخى (١١) تألف » .

ومن خطبه المشهورة خطبة له يدعو بها قومه إلى الإسلام ، وينصحهم باتباع نبيه ، وذلك أنه لما ظهرت دعوة الإسلام بعث أكثم ابناً له يدعى حبيشاً فأتاه بخبره وموقف قومه منه وما يدعوهم إليه ، فدعا أكثم قومه فى جمع ثم دعاهم إلى اتباع دعوة الإسلام ، ولكن مع هذا لم يقطع الرواة بإسلامه . ومما قاله لقومه فى هذا الموقف :

---

(١) الأخذ بالحزم والحكمة أمر صعب لا يتأتى لكل شخص .

(٢) يريد بالعجز عـــدم الاحتيال .

(٣) الراعى الصالح لا يستطيع إصلاح الرعية الفاسدة . ولكن الرعية الصالحة تحمل الحاكم على الصلاح . وهذا رأى أكثم . ويؤخذ على إجماله . وربما يريد أنه أسهل .

(٤) حاشيته ومخالطوه .

(٥) كمن يشرق بالماء . والغصة : وقوف الطعام فى الحلق . ومن غص بشىء أزال غصته بالماء . ومن غص بالماء كان أمره عسيراً .

(٦) المحالة الحيلة والمحاولة .

(٧) ما يكفيك فى سفرك حتى تصل إلى موطنك – ينصح بالقناعة .

(٨) الإنصات إلى الشر شر . وهو قدر كاف ، فلا يجوز المشاركة بالعمل .

(٩) حكمة .

(١٠) من تشدد نفر الناس منه .

(١١) تهـــاون وتبسط .

« يا بنى تميم : لا تحضرونى سفيهاً(١) ، فإنه من يسمع يخل(٢) ، إن السفيه يوهن من فوقه ، ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة(٣) ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم غير ذلك فقومونى استقم . إن ابنى شافه هذا الرجل وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، إن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل ، وسمى ابنه محمداً ، فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخراً ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، إن الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً ، أطيعونى واتبعوا أمرى . أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً . فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى ، العزيمة حزم والاختلاف عجز » .

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم .

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، والهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى .

وموقف مالك معروف فى الإسلام .

وهذه الخطبة مما تطمئن النفس على صحتها .

---

(١) السفيه ضعيف العقل والتفكير .

(٢) من يسمع كلام السفيه يظنه حقاً . (٣) وهن وضعف .

ثانياً : الخطابة في صدر الإسلام

الحاجة للخطابة دون الشعر

قلنا من قبل إن الخطابة دون الشعر يعتمد عليها فى المواقف الجادة ، لأن الشعر ترف وإثارة عواطف. والانقلابات الكبيرة فى التاريخ كما رأينا فى الأمة اليونانية والأمة الرومانية ، تعتمد على الخطباء اللسن ذوى المقاول الصارمة والكلام القوى المؤثر . والخطباء دون الشعراء هم الذين يستطيعون أن يشرحوا المبادىء التى يدعون إليها ، ويقيمون عليها الأدلة حتى يقنعوا الناس بها ، وميدان الخطابة واسع يشارك فيه كل مستمع ، ويحاور الخطيب . أما الشعر فله أشخاص معينون رزقوا موهبة الشعر ، وقد يهيج الشعراء مستمعيهم لأمر ما من غير أن يكون لديهم أى تفكير أو بحث عميق فيما أثيروا من أجله .

ثورة الإسلام

وقد كان ظهور الإسلام والدعوة لمبادئه أمراً خطيراً فى حياة العرب لم يقف أثره عند ترك عبادة الأوثان ، وإخلاص العبادة لله وحده ، بل غير عاداتهم ونظام حياتهم ، بما فرض عليهم من سلوك معين ، وبما حرم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة . فهو قد محا الفوارق بين الناس ، وسوى بينهم جميعاً فى الحقوق العامة ، وكان هذا أمراً خطيراً لدى العرب ، كما حرم عليهم الخمر والزنى ، ولم يكن ذلك أمراً هيناً بينهم ، حتى أن الأعشى الشاعر لم يصده عن الإسلام إلا تحريمه الخمر(١) . وبنو هذيل حين أسلموا طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيح لهم الزنى ، وحرم الإسلام الهجاء ونهش الأعراض ، ولم يقبل المدح المسرف

---

(١) كان الأعشى قد اعتزم الإسلام وأعد مدحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء ليعلن إسلامه . فقابله القرشيون وأخذوا يصدونه عن الإسلام فلم يعبأ بهم ، حتى ذكروا له تحريمه الخمر ، وأعطوه مائة من الإبل فرجع ، فوقع من فوق دابته فمات .

المبالغ فيه ، وقد كانت هذه كلها أغراضاً للشعر الجاهلى ، لذلك هدأ صوت الشعر وقل نشاطه بظهور الإسلام ، وقامت الخطابة بعبء تبليغ الرسالة وشرح مبادىء الإسلام ، وكان ذلك سبباً فى نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء ذوى اللسن ، الذين أثروا اللغة العربية بخطبهم وما أثر عنهم من كلام بليغ ، ومحاورات مقنعة ، وحكم قاطعة ، وأمثال سائرة .

مواقف الخطبة الإسلامية

جعل الإسلام الخطبة فرضاً فى صلاة الجمعة ، وهذا يعنى أن المسلم يسمع خطبة مرة فى كل أسبوع على الأقل ، وأن يكون فى كل مسجد خطيب يلقى خطبة فى كل أسبوع ، والخطبة سلاح الداعية الإسلامى فى كل مناسبة يدعو إلى الإسلام فيها ، وهى مشروعة فى العيدين ويوم الحج الأكبر ، وفى الدعوة إلى الحرب أو السلم ، ثم هى كذلك فى حفلات الزواج والإعراس وتولية الحكومات وولايات العهد ، وكان مبلغو دعوة الإسلام ، والمعلمون الموفدون إلى أطراف الجزيرة أو الجهات النائية عن مقام الرسول يعتمدون عليها فى شرح فكرة الإسلام وتحبيب الناس فيه ، واستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة لإعلان قومه برسالته ، وواجه بها القبائل فى مواسم الحج ، وهكذا كانت الخطابة أول سلاح استعمله الإسلام لإعلان مبادئه والدعوة إليها .

وكان الذين يدخلون الإسلام يدخلونه عن اقتناع ورغبة ، ومحبة وعاطفة ، وكان حبهم الإسلام وتقديرهم نعمة الله عليهم به ، يحملهم تلقائياً على الدعوة إليه ، ويستعينون على ذلك بالخطابة ، فكان المحيط الإسلامى كله مدرسة خطابية ، قويت فيها الخطابة وكثر الخطباء .

الخطابة بعد النبى

وكان عصر الرسول كله عصر جهاد ودعوة ، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى ، بدا موقف خطابى عظيم فيمن يتولى الخلافة بعده . وقد ذكرنا صورة موجزة منه فيما سبق ، ثم ارتد معظم العرب ومنعوا الزكاة ، وقام بين المرتدين خطباء يدعون إلى الثبات على الإسلام ، كما فعل سهيل بن عمرو

فى مكة ، وعثمان بن أبى العاص فى الطائف ، ونجد لأبى بكر مجالس شورى يتناوب فيها هو والصحابة الرأى ، من ذلك جمعه الصحابة واستشارتهم فيما يفعل إزاء المرتدين ، وبعد انتهاء هذه الحروب جمعهم أيضاً ليستشيرهم فى غزو الروم ، وهى مواقف شبيهة بمواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشارته الصحابة يوم بدر ، ثم استشارته إياهم فيما يفعل بالأسرى بعد نهاية المعركة ، وكذلك استشارتهم يوم أحد ، وهذه المواقف الاستشارية من مواقف الديمقراطية ، ومظهر من مظاهر حرية الرأى التى تنشط فيها الخطابة وتقوى .

وكان عهد عمر فى جملته استمراراً لعهد أبى بكر ، وقد مات أبو بكر وهو يأسف أن لم يكن أرسل عمر بن الخطاب غازياً فى الشام إذ أرسل خالد بن الوليد غازياً فى العراق فيكون قد بسط يديه كلتيهما فى سبيل الله . أما عمر فقد جاء وقد مهدت السبيل للغزو ، فاستطاع أن يبسط يديه كلتيهما فى سبيل الله ، ولم نجد فى عهده ما يزيد الخطابة نشاطاً ، وظل الأمر كذلك فى السنوات الأولى من خلافة عثمان ، وبدءا من السنة السابعة من حكمه ، بدأ الناس ينقدونه جهاراً ، ثم كانت الفتنة الكبرى بمقتله ، ثم انقسام المسلمين بعد بيعة على بن أبى طالب ، وخروج بنى أمية عليه بقيادة معاوية ، وبعد موقعة صفين وحادث التحكيم انقسم المسلمون إلى شيعة يناصرون علياً ، وأبرزهم أهل العراق ، وإلى أمويين يناصرون معاوية ، وأبرزهم أهل الشام ، ثم إلى خوارج ، وأكثرهم بدو وعرب خلص . وهؤلاء اشتهروا بقوة إيمانهم وشجاعتهم النادرة ، وتميزت خطبهم بميزات القوة والبلاغة ، وظلوا شوكة دامية فى جانب بنى أمية طول ما حكمت ، واستنفدوا جهداً كبيراً من طاقة المهلب بن أبى صفرة . فلما جاءت الدولة العباسية صادفتهم ، وقد فلت قواهم فاستطاعت القضاء عليهم .

وفى عهد الدولة الأموية ظهر عدد من المناوئين للخلفاء ، فبعد مقتل على ظهر ابنه الحسن ثم الحسين ، ثم أبناؤهما ، كما ظهر عبد الله بن الزبير

وكان خصما قوياً خليقاً أن يقوض العرش الأموى ويقضى عليه ، لولا ضنه بالمال وقصور سياسته عن استئلاف الناس به . وكان خطيباً مفوهاً ، وكان مصعب أخوه خطيباً أيضاً . ثم ظهر المختار الثقفى ، والأشعث الكندى ، ثم دعاة الدولة العباسية أمثال أبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى ، وأئمة الدعوة ، وكل أولئك كانوا خطباء أقوياء ، وبجانب أولئك جميعاً نجد الولاة أمثال زياد وابنه والحجاج وقتيبة بن مسلم وخالد بن عبد الله القسرى ، ويوسف بن عمر الفهرى ، ونصر بن سيار ، وكلهم خطباء بلغاء — وكذلك كان خلفاء بنى أمية — معاوية ويزيد وعبد الملك وابنه سليمان وهشام ... وهكذا نجد العهد الأموى كله عهد خطابة ، لكن هذا العهد أنهض الشعر أيضاً بما أباح للشعراء من أغراض الشعر التى كانت محرمة عليهم ، وبسخاء الأمويين لهم بالمال والعطايا .

واستمرت فى هذا العصر أنواع الخطابة الأخرى من المناظرات والمحاورات والوصايا . ونشط القصص ، ووعظ النساك ، ووعظ الأعراب ، وهذا النوع لم يكن رائجاً من قبل ، لأن البدو أسلموا بآخرة من الناس ولم يكن لهم ما للحضريين من حظ التفقه فى الإسلام ، فلما استكملوا حظهم منه صاغوا عظاتهم فى عبارات حكيمة ، وجمل بليغة رائعة ساعدهم عليها فصاحة ألسنتهم ، وفطرتهم على البلاغة وإجادة التعبير .

مميزات الخطابة فى هذا العهد

امتازت الخطابة فى أول العهد الإسلامى بنبل مقاصدها وسمو أغراضها وتنزهها عن الأغراض الشخصية ، فهى كانت دائماً قائمة على الدعوة إلى الإسلام واتباع مبادئه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتطهير النفوس من الأحقاد والاتجاه بالأعمال إلى الله وحده ، فلما كان العهد الأموى وانقسام المسلمين ظهر فى الخطابة عنصر السياسة ، وتفضيل فريق من طلاب الحكم على الآخرين ، ولكنها مع هذا ظلت تكتسى برود

ظهور عناصر جديدة

الإسلام ، فكل يحاج الآخر باسم الإسلام ويستشهد بآى القرآن ، وبرز غرض الجهاد والتحريض عليه أكثر من أى غرض آخر ، وخصوصاً فى معارك على ومعاوية ، ثم ظل نغمة مستمرة على ألسنة الخوارج بمختلف فرقهم . ولعل الخطبة الداعية إلى الجهاد لم تبلغ فى موقف من المواقف ما بلغته خطب الخوارج ،وخصوصاً فى إثارتها النفوس وترغيبها فى ثواب الله وتزيينها الجنة وما بها من نعيم ، وتخويفها من جهنم وما بها من عذاب أليم ، وهذا العنصر من أهم ما ميز الخطبة الإسلامية عن الخطبة الجاهلية ، فالخطبة الجاهلية تدعو للقتال حمية وحفاظاً على القبيلة وسمعة أبنائها ، وهذه تدعو للحرب حفاظاً على مبادىء الإسلام وترغيباً فى ثواب الله ، والفرق بين المقصدين بعيد فى دلالته ومغزاه .

أما من ناحية الأسلوب فقد تطورت الخطبة أيضاً . أصبح لها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بداية خاصة هى حمد الله تعالى والثناء عليه ، وذكر الشهادتين . وقد مر بك أن خطبة زياد التى لم يبدأها بالحمد سميت البتراء ، وسموا الخطبة التى لا تذكر فيها الشهادة جذماء ، والتى لا تزين بالصلاة على النبى شوهاء(١) . ولكن يظهر أن هذه التسميات لم تكن شائعة ولا قاعدة عامة ، وإنما وصفت بها بعض الخطب ، وقال ابن قتيبة : تتبعت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت أوائل أكثرها

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

ووجدت فى بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته » ثم قال : ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير ، وتكبير الإمام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة(٢) .

---

(١) انظر العقد : ٣٤/٦ .

(٢) عيون الأخبار : ٢٣١ .

ختامها

وأتخذت الخطبة كذلك ختاماً إسلامياً يعرف به أنها قد انتهت ، وهذا الختام كان معروفاً عند خطباء الجاهلية إذ كان الخطيب يكرر الجملة الأخيرة أو جملة معينة خاصة به فيعرف السامعون أن الخطبة قد انتهت . أما هذا الختام الإسلامى فهو ذكر عبارة مما جاء به الدين ، كأن يقول الخطيب: أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . أو قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ، أو يذكر دعاء من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومأثوراته ، أو يذكر آية قرآنية . فهذه كلها من مظاهر الختام الإسلامى .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، يختم خطبة الجمعة بقوله : اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك . وكان عمر يكثر أن يقول فى ختام خطبته : « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين(١) » . وكان عبد الملك بن مروان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبى قد عظمت وجلت أن تحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى » . وأكثر الخطباء يقولون : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . أو يقولون : قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ، وكلها كلمات إسلامية .

الاقتباس من القرآن

ومع أن كثيرا من خطب النبى والخلفاء بعده لم تشتمل على آيات قرآنية كان الناس فى العهد الأموى يعتبرون الخطبة الخالية من آيات القرآن الكريم ناقصة . وقد خطب عمران بن حطان — وهو من خطباء الخوارج وشعرائهم — عند زياد خطبة أتقنها جهده وأجادها ، ثم مر بقوم فإذا بينهم شيخ يقول : « هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن »(٢) . ولم يكن تضمين الآيات القرآنية والاستشهاد بها خاصاً بالخطب الدينية كخطب الحج

---

(١) العقد : ١٥١/٤ .
(٢) البيان والتبيين .

والجمعة والعيدين . . بل كانت خطب المحافل والحروب ، وما إليها كلها تحوى آيات قرآنية .

أما الاستشهاد بأبيات الشعر فكان شائعاً ، وخطبة الحجاج بالكوفة مليئة بأبيات الشعر وبالرجز ، ولكن لم يكن ذلك كثيراً فى خطب الخلفاء والولاة ، إذ نجد أكثرها خالياً من الشعر .

لين العبارة وسببه

وفيما عدا هذه الصور التقليدية لان أسلوب الخطبة ، ولم تعد تشتمل على الألفاظ الشديدة الكثيرة ، وسر ذلك فيما يبدو أن الخطب أصبحت غالباً بلغة قريش ، ومن كلام الحضريين ، وفى العصر الجاهلى كانت خطب قريش غير كزة ولا شديدة ، وإنما كان ذلك فى كلام الأعراب النائين ، واستفادت الخطبة الإسلامية من أسلوب القرآن والحديث النبوى ، وكانت تحوى غالباً آيات من القرآن للاستشهاد بها أو لإكساب الكلام زينة ورونقاً ، وخصوصاً الخطب التى تلقى فى عقود الزواج وأيام الحفل الجامعة ،فإن ذلك - كما يقول الجاحظ - « مما يكسب الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع »(١) . وفى هذا المقام تقدم الحضريون الذين يحفظون القرآن على الأعراب الذين لا يحفظونه .

ولم تنبت الخطبة الإسلامية نهائياً عن الخطبة الجاهلية ، فبقى بها كثير من خصائصها من جزالة الألفاظ ، وإن قل غريبها ، ومن الاستشهاد بأبيات الشعر ، وظلت الخطبة قصيرة إلا ما اقتضاه المقام من الطول . وقد جاء هذا فى الخطبة الجاهلية والإسلامية ، ففى الجاهلية يذكرون خطبة لقيس بن خارجة(٢) بن سنان قالها فى حرب داحس والغبراء ، ضرب بها الجاحظ المثل فى الطول(٢) ، وقيل لقيس ما عندك ؟ فأجاب : عندى قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ،

(١) انظر البيـان والتبيين : ١/١١٨ .

(٢) انظر الحيوان : ٦/١١٦ . والأغانى : ٧/١٤٢ . والعقد الفريد : ٣/٣١٣ .

آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع . قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى . وسئل بعض البلغاء لم لم يكتف بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ، إذ الأمر بالصلة نهى عن القطيعة . فقال : إن الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف(١) . وفى الإسلام روى أن سحبان بن وائل خطب أمام معاوية من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ولا سعل ، ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى ،وخرج منه وقد بقى منه شىء ، حتى دهش الحاضرون .

هذا الطول الطارىء لم يكن متبعاً دائماً ، وإنما كانت تقتضيه ظروف خاصة ، وخطب النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وأيضاً من بعدهم ليست بهذا الطول ولا تعد طويلة ، وخطب على والخوارج ذات طول نسبى ولكنها ليست طويلة ، سوى خطب معينة للإمام ينتابها كثير من الشك .

وكانوا يستحسنون فى الخطبة أن تكون قصيرة كيلا تنسى ، وأوصى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام فقال: وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . ونورد أمثلة للخطبة الإسلامية وعلى رأسها خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خطبة النبي ﷺ فى حجة الوداع(٢)

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

---

(١) انظر البيان والتبيين : ١١٧/١ .

(٢) هذه الخطبة جاءت فى مصادر كثيرة . واختلفت بعض الاختلاف فى فقرات كثيرة منها ، وانظرها فى الطبرى ١٦٨/٣ . وابن أبى الحديد : ٣١/١ . والعقد الفريد وكتب السيرة .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذى هو خير . . أما بعد : مقدمة

أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم . . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم(١) إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا(٢) . الموضوع

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب(٣) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إنما النسىء(٤) زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله .

---

(١) حرام عليكم سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، وكان ذلك يفعل فى الجاهلية .

(٢) تأكيد للحرمة ، لأنهم كانوا فى يوم عرفة ، وهو يوم حرام ، وفى بلد حرام ، وفى شهر ذى الحجة ، وكذلك جملة : ألا هل بلغت اللهم فاشهد من زيادة التوكيد .

(٣) كان مسترضعاً فى بنى ليث ، وقتلته هذيل ، وقد أسقط رسول الله صلى الله عليه وسلم ثارات الجاهلية ، وأسقط المطالبة بثأر عامر ، ومعنى وضع الربا أو الدم أنه لا يطالب به .

(٤) كان العرب إذا دخل الشهر الحرام الذى لا يجوز فيه القتال ، وهم فى حرب لا يقطعون حربهم ، بل يحلون الشهر ويستمرون فى حربهم ثم يحرمون شهراً آخر بعده ، فهذا هو النسىء وقد ترتب عليه اضطراب الشهور ، ووقوعها فى غير موقعها الحقيقى .

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض(١) ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح (٢) ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف(٣) . وإنما النساء عندكم عوان(٤) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه(٥) .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله وسنتى .

---

(١) أصبحت الشهور فى وضعها الحقيق ، فلا يجوز تغيرها .

(٢) عقوبات أبيحت للزوج طبقاً للخطأ الذى ترتكبه الزوجة .

(٣) من غير إرهاق لكم ومشقة عليكم .

(٤) جمع عانية بمعنى أسيرة . المرأة بخضوعها لزوجها وإمارته على البيت تشبه الأسيرة . فأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نرفق بها .

(٥) تأكيد على ما نهى عنه من عادات الجاهلية التى كان الرجل القوى يستبيح الاستيلاء على مال الضعيف بغير حق . وهذا كما فى قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر(١) ، من ادعى لغير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل(٢) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذه الخطبة من الخطب الجامعة لأنها حوت تعاليم كثيرة هامة ، وهى آخر خطبة جامعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبدو صرامتها فى أنه صلى الله عليه وسلم طبقها على ذويه قبل أن يطبقها على الآخرين ، فبدأ بوضع ربا العباس عمه ، وقد ضاع بهذا على العباس مال كثير ولكن حسبه أن كان له رأس ماله ، كما وضع دم ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحرث — والحرث أكبر أبناء عبد المطلب — وكان له بلاء مشهود يوم بدر ، وكانت الطريقة الجارية أن يؤخذ بثأره ممن قتله ، لكن الإسلام يجب ما قبله ، لهذا ترك رسول الله هذا الثأر .

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، وجعل دماءهم

---

(١) إذا ثبت الزنا على امرأة فالولد لزوجها — ويقام عليها الحد — فإن كان الزوج منكرا للولد لاعن من أمه . واللعان معروف .

(٢) لا يجوز له ذلك أصلا . وأصل العدل : القصاص وقتل شخص بشخص ، والعدل أن يأخذ دية تعادل ما أصابه .

متكافئة ، ونبههم فى هذا إلى أن أصلهم واحد هو آدم ، وإنما يتفاضلون بالتقوى لا بالأجناس ، فالله جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، ولم تغفل الخطبة شأن المرأة ومالها من حقوق ، وما عليها من واجبات .

فى الخطبة مقدمة ليست هى مجرد الحمد والشهادة ، ولكنها الوصية بالتقوى والعمل الصالح ، فهذه أمر بشىء جامع عام ، كل ما بينته الخطبة بعد ذلك فهو من التقوى والعمل الصالح ، ثم كان موضوع الخطبة هو التعاليم التى ألقيت ، ولم يحتج أكثرها إلى دليل وبرهان ، لأنها تعاليم النبى المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، ولكن بعضها ذكر له تعليل عابر لبيان توجيهه ، ولماذا كان على هذا النحو .

والخطبة ليست طويلة وليست أيضاً قصيرة إزاء ما جاء بها من تعاليم شرعية ، وقد اختلفت رواياتها فى كتب التاريخ والسير ، ولكنها على أطول رواية جاءت بها ليست ذات طول ، وإنما هى ذات توسط وأدنى إلى القصر ، وهى نموذج من البلاغة النبوية ، ونموذج من الإصلاح الاجتماعى الشامل ، ونموذج من إصلاح الإسلام ، لأنها تعكس بوضوح جوانب من العادات العربية السيئة التى كانت شائعة قبل الإسلام !! .

خطب رسول الله ﷺ

نورد بعض الأمثلة لخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستفتاح والتبرك . ومع أنه صلى الله عليه وسلم استقى بلاغته من معين القرآن والوحي الإلهى ، وكلامه مما تزين به الخطب ، وتستشرف إليه كل نفس ، وكل خطيب يتطلع إلى بلاغته العليا . مع هذا كله كانت معظم خطبه قصاراً ، ولم يكن يطيل خطبه إلا للمناسبات الداعية إلى الإطالة . ولقد أثبتنا خطبة الوداع ، وتعتبر من الخطب الطويلة . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه خطب مرة بعد العصر ، ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

وقد أورد الباقلانى هذه الخطبة فى كتابه إعجاز القرآن ، ولكن لم يذكر منها إلا كلمات قليلة هى :

« ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه ... » .

ومن أمثلة خطبه القصيرة :

١ ـ أول خطبة دعا بها قومه بمكة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما

تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبداً ، أو النار أبداً » .

فانظر إلى هذه الكلمات الوجيزة كيف رتبت واتصلت حلقاتها حتى انتهت إلى الغرض الذى تريد ، وليس بها تكرار ولا حشو . بدأت بأن الرائد — أيا كان — لا يكذب ، وهو نفسه معروف بالصدق والأمانة ، فقد اجتمع له ما يزيد صدقه تأكيداً ، ثم أكد ذلك ثانياً بأنه لو جاز أن يكذب فإنه لا يجوز له أن يكذب عليهم ، لأنهم أهله وعشيرته ، ثم زاد ذلك كله ليصدقوه أنه مرسل من الله ، وهو مرسل لهم خاصة لأنهم أهله يحمونه ويشرفون برسالته ، ورسول إلى الناس جميعاً ، فهى رسالة عامة . ثم حدثهم عن البعث بعد الموت والحساب على الأعمال — وهذا مفتاح الرسالة الإسلامية — فمن آمن بذلك سعى لمعرفة ما ينجيه ويرفع درجته .

٢ — خطبة أخرى له (صلى الله عليه وسلم)

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم(١) ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم(٢) ، إن المسلم بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب(٣) ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

---

(١) جمع معلم ، ما يستدل به كالعلامة .
(٢) تذكروا أنكم ستموتون .
(٣) عتاب . مصدر ميمى .

٣ ـ خطبة أخرى

« أيها الناس : كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سفر(١) عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم(٢) ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت(٣) وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » .

٤ ـ وأول خطبة له ﷺ بالمدينة

أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن(٤) والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ . وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ . فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنها تجزى(٥) ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف(٦) ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمته وبركاته .

---

(١) كشرب وركب بمعنى مسافرون .
(٢) جمع جدث وهو القبر .
(٣) طهرت .
(٤) بفتح العين وتشديد اللام بمعنى تعلموا واعلموا .
(٥) بالبناء للمفعول .
(٦) الضعف المثل ، ويقولون أيضاً : لك ضعف هذا أى لك مثلاه .

٥ ـ خطبته ﷺ فى الاستسقاء

جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فى عام جدب فوقف أمامه وقال : أتيناك يا رسول الله ، ولم يبق لنا صبى يرتضع ولا شارف(١) تجتر ، ثم أنشد :

أتينـاك والعـذراء يدمى لبانهـا ... وقدشغلت أم الرضيع عن الطفل(٢)
وألقى بكفيـه الفتى لاستـكانة ... من الجوع حتى ما يمر ولا يحلى(٣)
ولا شئ مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحنظل العامى والعلهز الغسل(٤)
وليس لنـا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام النبى صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً(٥) هنيئاً مريعاً(٦) سحاً سجالا(٧) غدقاً(٨)طبقاً(٩) ديما(١٠) درراً(١١)، تحيي به الأرض وتنبت

(١) الشارف الناقة المسنة الهرمة ، ويقال شارفة ، والجملتان كناية عن الجوع والأنعام تجتر ما فى بطنها ، فاذا خلا بطنها فلا اجترار .

(٢) اللبان — بفتح اللام الصدر — وهو يدمى لأن الصبية امتهنت بالعمل لعدم قدرتها على استئجار خادم . فهى كناية عن الفاقة والفقر . وشغل أم الرضيع عنه من هذا لأنها تعمل ولا تستطيع التفرغ له .

(٣) ألقى بكفيه أى استسلم وعجز عجزاً تاماً ، وما يمر ولا يحلى . أى لا يستطيع أن يعمل ما يضر أو ينفع .

(٤) العامى الذى أتى عليه عام ، والحنظل مر المزاق ، والعلهز طعام من الدم والوبر كانوا يأكلونه فى الجاهلية أيام المجاعة وقد أكلته قريش حين دعا عليهم رسول الله أن يجدوا سنين كسنى يوسف ، والغسل الردىء .

(٥) المغيث المنقذ، والمرىء : السائغ . (٦) خصباً،أى يكسب الأرض خصوبة .

(٧) السجل النصيب والدلو المملوءة العظيمة . فالسجال العظيم والتداول الذى ينال كل بلد منه نصيب ، كما يقال حرب سجال أى ينال كل من صاحبه مرة ويهزم أخرى .

(٨) الغزير الكثير . (٩) يطبق الأرض ويملؤها .

(١٠) أى يدوم حتى يروى .

(١١) جمع درة بكسر الدال ، من در السحاب . ودرته انصبابه واندفاقه .

به الزرع ، وتدر به الضرع ، واجعله سقياً نافعة ، عاجلا غير رائث(١) » :

فما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى نحره حتى ألقت السماء أرواقها(٢)، وجاء الناس يضجون : الغرق الغرق يا رسول الله.. فقال: « اللهم حوالينا ولا علينا » . فانجاب(٣) السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجـــذه(٤) .

قبس من البلاغة النبوية

بجانب ما ذكرنا من خطبه صلى الله عليه وسلم القصيرة ، نذكر بعضاً من أحاديثه البليغة الموجزة ، ففيها بجانب التبرك بكلامه مدد للخطيب ، ونماذج بلاغية تحتذى ، وبعض هذه الأحاديث يمكن أن يكون وحده موضوع خطبة ، وليحاول دارسو الخطابة أن يتخذوا بعضاً منها موضوعاً للتدرب ، ومحاولة لإنشاء خطبة محورها بعض هذه الأحاديث .

١ — قال صلى الله عليه وسلم للأنصار :

« إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

يريد أنهم كانوا يأتون كثرا عند النداء للحرب ، وحين اشتداد المعركة ولكنهم عند توزيع الغنائم كانوا يبدون العفة فلا يحضر إلا القليل . فالمراد بالفزع حالة الحرب ، والفزع فى الأصل الخوف والرهبة .

٢ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« خير المال سكة مأبورة ، وفرس مأمورة » .

ومعناه أفضل ما يملك الشخص نخيل مثمر وفرس نتوج ، فكلاهما يأتى بالخير الكثير على الجهد القليل . ولا يشغل وقت صاحبه ، والسكة هى

---

(١) غير مبطىء . (٢) صبت مطرها غزيرا .

(٣) تكشف وتزحزح . (٤) النواجذ أقصى الأضراس

الصف الممتد من النخل ، والمأبور الملقح بطلع الذكر . يقولون أبر النخل وأبره ، والمراد النخيل الصالح للإثمار ، والفرس المأمورة الكثيرة النتاج من أمر الله مال الرجل وآمره بمعنى نماه وزاد فيه .

٣ - وقريب من هذا الحديث قوله (صلى الله عليه وسلم) :

« نعمت العمة لكم النخلة تغرس فى أرض خوارة ، وتشرب من عين خرارة » .

فالنخل من أوفر الأشجار ثمراً ، وهو شجر صحراوى تمتد جذوره فى الأرض ويمتص الماء من بعد ويصبر عليه ، والأرض الخوارة الرخوة السهلة ، والعين الخرارة التى يجرى ماؤها أو ينطف ، والجملتان للدلالة على أنها لا تكلف جهداً. وسميت النخلة عمة لأنها ذات فضل تستحق به أن تكرم. وجاء فيها أيضاً : أكرموا عمتكم النخلة .

وفى حديث عبد الله بن عمر :

« إن من الشجر شجرة تشبه المؤمن وإنها لا يسقط منها أبلمة » .

والأبلمة الورقة — خوصة النخلة . أى أنها كثيرة النفع لا يذهب منها شىء بغير فائدة . ينتفع بجذعها وسعفها وخوصها وعذقها وبلحها . وقال عن النخيل أيضاً : المطعمات فى المحل الراسخات فى الوحل .

أى أن بلح النخيل يصلح طعاماً وغذاء ، فى أوقات الجدب ، وقلة الطعام،ومع ذلك تمتد جذوره فى التراب لا يكلف صاحبه إصلاح أرض ولا إمداداً بماء .

٤ - وقال صلى الله عليه وسلم :

« نهيتكم عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات » .

ويروى الحديث أيضاً : إن الله كره لكم عقوق الأمهات ، والمنع يراد به منع ما يعطى عادة من الصدقة والمساعدة ، وكلمة « هات » تعنى

الطلب ، أى كره لكم أن تمنعوا عونكم وتطلبوا عون الآخرين ، فهذا مناف للمروءة .

٥ — ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » .

وهو تصوير لشره الناس على جمع المال ، حتى لو كان للشخص واديان مليئان بالذهب ما قنع ولا اكتفى ، ولا تزال عينه تتطلع إلى مزيد حتى يموت ويدفن . ويروى أيضاً : ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .

٦ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .

وهو تأديب وتربية للغرائز البشرية ، فالمال القليل الذى يكفى حاجة الإنسان ولا يبطره خير من الكثير الذى ينسيه واجبه نحو الله .

٧ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

والمراد بالعلم هنا علم الدين والسنة ، يقوم عليه فى كل جيل قوم ذوو عدل وفهم وخشية من الله . فيوضحون معانيه الحقيقية ، ويبعدون تأويل المتأولين . والخلف — بفتح اللام — الجيل والقوم يأتون بعد سابقهم — بسكون اللام — يكون للجيل السيء الفاسد — كما فى قوله تعالى :«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » .

وفى كل عصر تجد مشاكل وتظهر تيارات فكرية كثيراً ما يلجأ الناس إلى تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتتسع لها . كما نجد فى وقتنا

كثيرين يحلون فائدة الأموال التى بالبنوك أو صناديق التوفير أو التأمين على الحياة ، ويتأولون لذلك عللا كثيرة ، إما غلوا منهم أو جهلا أو تعمداً لعمل الباطل ، ولكن توجد قلة تصمد للدفاع عن الحق .

٨ – وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا يوردن مجرب على مصح » .

والمجرب صاحب الإبل الجربى ، يقولون أجرب فلان أى ظهر الجرب فى إبله ، والمصح ذو الإبل الصحيحة ، أى لا يخلط إبله الجربى بالأخرى فتعديها ، ومثله من الحديث أيضاً : إذا نزل الوباء بأرض فلا تدخلوه ، وإذا كان أحدكم به فلا يخرج إلى غيره . وهذا من نصائحه صلى الله عليه وسلم فى اتقاء العدوى .

٩ – وقال عليه الصلاة والسلام :

« الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة » .

ويروى الحديث كالإبل مائة لا تجد فيها واحلة ، ويروى كإبل مائة لا تجد فيها واحلة . أى أن خيار الناس قليلون ، وأراذلهم هم الكثرة الفاشية . والراحلة من الإبل البعير النجيب التام الخلق الجلد القوى على الأسفار ، و « أل » فى الإبل للجنس ، فما بعدها صفة – أى هم كالإبل التى بهذه الصفة .

١٠ – وقال عليه الصلاة والسلام :

« إياكم والمشارة فإنها تميت الفرة ، وتحيي العرة » .

والمشارة : المخاصمة والمجادلة ، والفرة المنقبة والصفات الحسنة ، والعرة المثلبة التى تجلب العار ، فمخاصمة الشخصين تدعو كل واحد منهما أن يذكر معايب صاحبه ، ويغفل ماله من مأثرة ، فأحرى بعقلاء الناس ألا يشاروا ، ولا يخاصموا ، ولما دخل السائب بن صيفى على رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : أتعرفني ؟ . قال صلى الله عليه وسلم : كيف لا أعرف شريكي الذي كان لا يشاريني ولا يماريني ؟(١) .

١١ — وقال صلى الله عليه وسلم :

« دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة ، حالقة الدين لا أقول حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام وصلوا الأرحام » .

والحسد أن يستكثر الشخص نعمة أنعمها الله على غيره ، فتود نفسه لو أنها زالت عنه ، وهي تسبب الكراهية . وهذا الخلق يعارض تعاليم الدين ويجتثها من نفس صاحبه ، كما تحلق الآلة الشعر ، وهو داء قضى على الأمم السابقة،ومعنى دب فيكم يوشك أن يدب بينكم ، كما فى قوله تعالى : أتى أمر الله .

١٢ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

ويفسر بوجهين ، قيل لو كشفتم ما تكتمونه فى أنفسكم ، وأبديتم سرائركم ما استطعتم بعد ذلك أن تخفوا سراً وتدفنوه . فهو نهى عن إفشاء الأسرار وإذاعتها ، وقيل : لو علم بعضكم ما يكنه له الآخر وما تخفى سريرته له ، لثقل عليه أن يشيع جنازته ، وأن يوسده قبره . ومعنى هذا أننا لا ينبغى أن نكلف الناس شيئاً فوق طاقاتهم ، ولا أن نحاول التعرف على ما يكنون لنا ، بل نصحبهم على علاتهم .

١٣ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلى منهم لا أعطيه شيئاً مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم » .

---

(١) كان السائب شريك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الجاهلية . ولا يشارى — أى لا يشارر ويأتى بشر ولا يمارى لا يخاصم ويجادل .

وهذا يبين مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية أمته ونجاتها من النار ، فهو يعطى ضعيف الإيمان يتألف قلبه حتى يتمكن الإيمان من نفسه ، ويمنع غيره وهو أحب إليه لأنه وكله إلى إيمانه ودينه ، ولو منع ضعيف الإيمان لأبعد عن الإسلام ومات كافراً فيكبه الله فى النار . يقال كبه بمعنى ألقاه فى النار ، فأكب هو ، أى هوى وسقط .

١٤ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« إنى لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة » .

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع على المشركين . وقيل : قيل له : ادع على بنى عامر ؛ لأنهم آذوه ، وكانوا مشركين ، فذكر هذا الحديث .

هذا تأديب منه صلى الله عليه وسلم ، لا يشتم أعداءه الذين آذوه . ولهذا جاء فى الحديث أيضاً : لا ينبغى للمؤمن أن يكون لعاناً . وجاء : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء .

« إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ينتزعه من الصدور ، ولكن ينتزع العلم بنزع العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس علماء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا ، وأضلوا » .

وهذا حديث ذو أهمية للداعية الإسلامى ، لأنه يحتم عليه التثبت من علمه والاستزادة منه .

١٥ — وقال عليه الصلاة والسلام :

« الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن » . . .

والمراد بالفتك الاعتداء والخيانة ، والإسلام يقيد المسلم أن يفتك بغيره ، فهو مانع منه كما يمنع الدابة أن تذهب أو تمرح فى مرعى غيرها ، ولا «يفتك» برفع الفعل المضارع — أى إن شأن المؤمن أنه لا يفعل ذلك .

ومن قوله (ﷺ) عن جواد سابق : ما هو إلا بحر ، وقيل إنه قال : إن وجدناه لبحرا ، أى هو يموج فى جريه بسهولة كما يندفع ماء البحر ، وقد كان رسول الله (ﷺ) يحب الخيل فجاء فرس له سابقاً ، فقال هذا الحديث ، وفيه قال عمر بن الخطاب : كذب الحطيئة حيث يقول :

وإن جياد الخيـــل لا تستفزنا ولا جاعلات العاج فوق المعاصم (١)

وقال بعض العلماء لم يستفز رسول الله (ﷺ) سبق فرسه ، ولكنه أراد إظهار حب الخيل وتعظيم شأنها .

(١) لا يرهبنا المحاربون ولا تستميلنا حسان النساء .

من المحاورات فى هذا العهد

كثرت المحاورات فى العهدين الإسلامى والأموى، وذلك لكثرة المواقف الداعية لتبادل الآراء ، أو لاختلافها ، أو لمطالبة فئة من الناس بحق أو عمل لا ترضى عنه فئة أخرى، ومن هنا ينشأ الحوار ويشتد الجدل كل يدلى برأى ويستند إلى حجة ، وقد كانت هذه المواقف موجودة فى العصر الجاهلى ، ولكن الأحداث لم تكن سريعة متلاحقة كما هى فى هذه الحقبة . واتخذت المحاورات لذلك ألوانا كثيرة ، فأحيانا تكون هادئة رزينة لا يراد منها إلا التهدى إلى جانب الحق والصواب ، وأحيانا تكون حادة عنيفة ، يتشبث كل جانب برأيه ويعنيه قبل كل شىء أن يسقط الجانب الآخر ، ولك أن ترجع إلى الحوار الذى دار بين رسول الله (ﷺ) وأصحابه قبل غزوة بدر فى استشارتهم فيما ينبغى أن يفعل ، وأيضاً بعد هذه الغزوة فيما ينبغى أن يفعل بالأسرى ، فتجد حواراً هادئاً ، لا شدة فيه ولا لجب ، ولا مغالطة ولا انفعال ، وقس على ذلك مشاورته إياهم فى الخروج إلى الحرب يوم أحد . ولكن إذا رجعنا إلى الحوار الذى دار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة وإلى أنواع الحوار الكثيرة التى كانت تنشأ بين بنى أمية وأعوانهم من جانب، وبين بنى هاشم أعوان على من جانب آخر ، وجدت شدة فى القول وتقريعاً وعنفاً . وفى كل النوعين نجد جهداً فى البحث عن الأدلة كما نجد بلاغة فى القول وجمالا فى صوغ العبارات ، هذا مع أن أكثرها عبارات مرتجلة ومواقف فوجىء بها المتحدث دون ما استعداد .

ونختار من هذا موقف السقيفة لأنه ذو أهمية كبيرة فى التاريخ ولابد للداعية الإسلامى من الإلمام به ، ثم نذكر بعض المواقف الأخرى تحاشيا للإطالة .

وهاك صورة ناطقة من هذا اليوم المشهود .

يــوم السقيفــة(١)

يوم السقيفة من المواقف التى نجد بها أمثلة جيدة للخطبة القصيرة والحوار أو الجدل والمناظرة ، وأود أن أنقل صورة منه نقلا عن تاريخ الطبرى مع تصرف ضئيل واختيار لبعض الروايات ، وإيراده كاملا يبدى صورة حية لهذه الأمثلة التى ذكرت .

صورة الموقف

غداة توفى رسول الله (ﷺ) ماج الناس واضطربوا ، وذهبت الدهشة بلب الكثيرين منهم حتى أن عمر بن الخطاب خيل إليه أنه (ﷺ) سيعود ثانياً ، وكان قد سبق إلى ذهنه أن قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » يؤذن ببقائه (ﷺ) إلى نهاية الدنيا ، فلما جاء أبو بكر وثبت الناس ، وتلا عليهم قول الله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وقوله : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » . هدأ عمر وهدأ الناس ، وعاد أبو بكر مرة ثانية إلى بيت رسول الله (ﷺ) مع أقاربه لتجهيزه ودفنه ، وظل عمر وظل المسلمون بالمسجد ما بين باك ومحزون ينتظرون ما عسى أن يفعلوه توديعاً لرسول الله هذا الوداع الذى لا لقاء بعده .

ولكن عمر بن الخطاب بعد أن هدأ ، وبعد أن أقنعه حديث أبى بكر ، بدر إلى ذهنه التفكير فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله (ﷺ) ، وكان أول من فكر فى هذا من المهاجرين ، وكان حوله عدد من كبار الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح فدار بخلد عمر أن هذا الرجل يصلح لإمارة المسلمين ، وكان هذا عجيباً من عمر ، ولئن كان هذا التفكير من جانب

---

(١) السقيفة كسفينة هى الصفة والمظلة أو السقف غير الكامل . وكانت سقيفة بنى ساعده فى المكان الذى به الآن حديقة صغيرة عند ملتقى شارع المناخة .

عمر اهتماماً واعياً بشأن الإسلام وشئون المسلمين عامة والدولة الناشئة التى لم تستكمل نضجها بعد ، إنه لم يكن أول من فكر فيه على الإطلاق ، لقد سبقه الأنصار إلى هذا التفكير وودوا لو بقى هذا الأمر لهم دون سائر العرب ، ورأوا أنهم قد بذلوا لحماية الإسلام ما بذلوا ، وأن الإسلام لم ينهض ولم يترعرع إلا فى بلدهم وتحت سيوفهم ، ولو ظل حبيساً بمكة كما كان قبل الهجرة ، ما نال هذا النجاح ولا علت كلمة الله ودعوة الحق على كلمة المشركين عباد الأوثان . لذلك اجتمعوا — والمهاجرون لا يعلمون — فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون الرأى ، ويتخذون العدة للاستيلاء على الخلافة قبل أن يسبقهم إليها المهاجرون .

وإذن فقد كان هناك جمعان وإن شئت ثلاثة جموع ، الأنصار فى سقيفتهم مشغولون بأمر الخلافة ، وعلى وأبو بكر وعدد من بنى هاشم فى بيت رسول الله لا يشغلهم إلا تجهيز النبى (ﷺ) ودفنه ، وجمع ثالث من الصحابة بالمسجد ينتظرون ما يفعلون لتشييع هذا الجثمان الكريم ، ولكل منهم شأن يشغله عدا عمر الذى سبقهم إلى التفكير فى شأن خلافة رسول الله على المسلمين ، وقد فكر واطمأنت نفسه إلى أبى عبيدة ، دنا إليه وحادثه فى هذا الشأن ثم قال له : ابسط يدك فلأبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . ! ولكن أبا عبيدة لم يمدد يده ، بل نظر إلى عمر نظرة الدهش المتعجب ثم قال له : ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت ، أتبايعنى وفيكم الصديق ، وهو ثانى اثنين إذ هما فى الغار ؟

أبو عبيدة فى نظر عمر

ويدل على هذا ما كان لأبى بكر من مكانة فى نفوس الصحابة لا ندرى كيف غابت عن عمر فى هذا الوقت ، وقد أبدى عمر بعد ذلك تقديراً لأبى بكر وأحقيته بالخلافة ، ولكنه بعد استخلافه هو ظل يرى أن أبا عبيدة أصلح الناس لها ، وفى عام الوباء حين كان أبو عبيدة بالشام أراد عمر أن يستدعيه ليبايعه بالخلافة ، ولكن أبا عبيدة رفض ثم ذهب به الطاعون فى العام نفسه ، وحين طعن عمر ، وبحث عمن يلى الخلافة من بعده قال : لو كان أبو عبيدة حياً لوليته إياها .

ولكنه فى هذا الموقف تراجع ورأى أن أبا بكر أحق بها وأولى :

بينما عمر وأبو عبيدة فى حديثهم والصحابة الآخرون فى شئونهم جاءهم النبأ بأن الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يوشك أن يبايعوا سعد بن عبادة سيد الخزرج خليفة على المسلمين ، حينئذ أرسل عمر لأبى بكر أن اخرج إلينا فلم يجبه وقال: إنى فى شغل ، فأعاد عمر الرسول إليه يخبره أنه قد حدث أمر لابد أن يشهده ، هنالك خرج أبو بكر دهشاً إلى عمر فلما أخبره بما يجرى فى السقيفة رأى أن لا مناص من الذهاب إليها لإقناع الأنصار بالعدول عما شرعوا فيه .

هذا هو الجو الذى ألقيت فيه الخطب والمحاورات التى نريد أن نضعها نماذج لخطب قصيرة ، ومحاورات فى حدث يعتبر من أهم الأحداث الإسلامية خطراً .

انطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وبعض من الصحابة تجاه السقيفة وأنت تعلم أنها ليست بمبعدة من الحرم ، ولابد أن كل واحد من هؤلاء الكبار قد فكر وهيأ فى نفسه ما يواجه به المؤتمرين ويقنعهم به ، فهذا موقف لا يكفى فيه الارتجال ولا يهجم عليه بدون تفكير ، وإنهم لفى طريقهم إذ قابلهم بعض من الأنصار منهم عويم بن ساعدة (١) ومعن بن عدى (٢) ، وقد وصفا فى هذا الحادث بأنهما رجلان صالحان ، فقالا : أين تريدون يامعاشر

---

(١) عويم ممن شهدوا بدراً . وله حديث فى تفسير المتطهرين الذين ذكروا فى الآية : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا ... » وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم المرء منهم عويم بن ساعدة » .

(٢) معن بن عدى ، هو أخو عاصم بن عدى ، وهو صاحب هذا الموقف . وليس عاصما كما ظن بعض الكتاب المحدثين ، وهو من بلى حليف للأنصار ، ذكره ابن إسحاق فيمن شهد أحداً ، وكان عاقلا ، لما قال الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : وددنا أنا متنا قبله ، إنا نخشى أن نفتن بعده . قال هو : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً . واستشهد يوم اليمامة فى حرب مسيلمة .

المهاجرين ؟ وذكرا ما تمالأ عليه القوم ، وقالا : لا تأتوهم فإنه لا يكو ما تريدون، ثم قالا: لا عليكم ألا تقربوهم يامعاشر المهاجرين واقضوا أمركم : ، وفى رواية : لا تأتوهم واقضوا أمركم .

وكان رأى هذين الرجلين الصالحين أن يغضى المهاجرون عن الأنصار وأن يختاروا خليفة من بينهم ، لكنه رأى فطير ، فقد يفضى هذا العمل إلى اختيار خليفتين فى وقت واحد ، فهذا تفريق للمسلمين ، وإثارة للشحناء بينهم لهذا أصر المهاجرون على الذهاب إلى السقيفة .

ما دار فى السقيفة قبل حضور المهاجرين

كان سعد بن عبادة سيد الخزرج (١) وجعاً فى هذا اليوم لا يقوى على الوقوف للخطابة بل ولا على الجلوس ، ولا يقوى صوته على إسماع الناس ، لهذا جاءوا به مزملا ، فأضجعوه ، ووقف بجانبه ابن له أو بعض أقاربه ليسمع الناس ما يقول ، وكان الحباب بن المنذر الخزرجى (٢) ، من أشد الناس ممالأة لسعد ، وتمسكا أن تكون له الخلافة دون غيره .

حال سعد ابن عبادة

خطب سعد فى قومه على الطريقة التى ذكرنا فكان مما قاله :

---

(١) سعد بن عبادة من السابقين إلى الإسلام من الأنصار ، شهد بيعة العقبة وكان أحد النقباء ، وهو وأبوه وابنه من الأجواد . وكان يحمل راية الأنصار بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مات فى السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ودفن بقرية قرب غوطة دمشق . ولم يبايع أبا بكر بالخلافة ، وكان يحج وحده ، ولم ير أبو بكر حربه لأنه فرد ، ولأن له فضلا سابقاً فى الإسلام وحسن صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن حربه أو قتله يؤذى شعور الأنصار ، ويفرق كلمة المسلمين ، ولم يبايع عمر أيضاً ، ولكنه لم ينقطع عن الجهـــاد .

(٢) الحباب بن المنذر بن الجموح ، خزرجى سلمى ، شهد المشاهد كلها ، وهو صاحب المشورة يوم بدر ، وقد أطاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « قد أشرت بالرأى » . وكان من ذوى الرأى والفطانة حقاً ، ومات فى خلافة عمر بن الخطاب وفى حديثه هناك ما يبين مدى اعتداده بنفسه .

خطبة سعد

يا معشر الأنصار : إن لكم سابقة فى هذا الدين ، وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمداً — صلى الله عليه وسلم — لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله (ﷺ) ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به (١) . حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به ، وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم (٢) ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً (٣) ، وحتى أثخن (٤) الله — عز وجل — لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين ، فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس » .

فأجابوه بأجمعهم أن « قد وفقت فى الرأى ، وأصبت القول ولن نعدو ما رأيت ، نوليك هذا الأمر فانك فينا مقنع ، ولصالح المؤمنين رضاً » .

تحليل الموقف والخطبـــة :

سعد كما ترى قوى الحجة جداً ، أبدى وجهة نظر سليمة ، إنه لولا الأنصار والهجرة إليهم لقضت قريش على الإسلام والمسلمين ، فالذين استجابوا لدعوته بمكة من الضعاف الذين لا يحمون أنفسهم فضلا عن حماية

---

(١) الضيم هو الذل ، عموا به عمهم جميعاً وشملهم .

(٢) من عاداه من بينكم كنتم أشد عليه من قريش ، وما عاداه من غيركم كانت وطأتكم عليه أثقل من وطأتهم .

(٣) دخر كمنع وفرح : دخورا ، ودخرا ذل وعنا .

(٤) أثخن : أى أوهن . ومنه حتى إذا أثخنتموهم ، والإثخان كثرة التجريح وأثخن له الأرض ذللها وأوهنهـــا .

غيرهم ، فالأنصار لهم حقاً الفضل فى تثبيت الدين ثم نصره ونشره ، ومع هذا ظل رسول الله (ﷺ) راضياً عنهم حتى مات ، لماذا إذن لا تكون لهم الخلافة ؟

أثر الخطبة

ولقد وافقه القوم ورضوا رأيه ورضوه خليفة ، لكن لم يتقدم أحد لبيعته ، وهناك أمران خارجان عن نطاق الخطبة ، ألمعت إلى أحدهما وتركت الآخر ، هذان الأمران هما موقف المهاجرين أولا ، ثم موقف الأوس من الخزرج ثانياً ، والخطبة لم تذكر المهاجرين بالاسم ، ولكن حديثها كله يدور على أن الأنصار أولى منهم ، وإذا لم يقبل الناس بعد قبولهم رأى سعد على بيعته قال قائل منهم : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر ، من بعده ؟

يدل هذا القول على أن القوم لم تكن غائبة عنهم حجة قريش ، وأنهم لم يجدوا الشجاعة على الإقدام لمبايعة سعد ، وقال آخرون ردا على هذا : فإنا نقول : « منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » !

وقال سعد حينئذ : هذا أول الوهن .

وكان الذين اقترحوا هذه الشركة من الأوس لا من الخزرج ، والوهن يأتى من تسليم نصف الخلافة ، ومن انقسام الأنصار .

حضـــور المهاجرين :

حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن معهم والقوم فى هذا الموقف ، فأمسك الأنصار عن الكلام ، حتى جلس الوافدون ، وأهمهم أبو بكر وصاحباه ، وأراد عمر الكلام فمنعه أبو بكر تحاشياً لشدته ، وسكت عمر لأنه لم ير من الصواب أن يخالفه مرتين فى يوم واحد . فدار الحوار على هذا النحـــو .

أبو بكر : حمد الله وأثنى عليه ثم قال فيما قال :

. . . إن الله بعث محمداً (ﷺ) رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور ، يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم (١) وكل الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم (٢) وشنف (٣) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبدوا الله فى الأرض ، وآمنوا بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه (٤) وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يامعاشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ولرسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

أحد الأنصار (٥) : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعاشر المهاجرين

---

(١) يريد صبروا قبل الهجرة على العذاب الشديد . والتكذيب فحفظوا جرثومة الدين .
(٢) لم يرهبوا الأعداء ويتركوا الدين بسبب قلتهم .
(٣) عداوتهم وبغضهم .
(٤) أحبــاؤه وذووه .
(٥) لم يذكر اسمه ، ولعله الحباب بن المنذر ، وجاءت هذه القالة أيضاً قبل كلام أبى بكر .

رهط منا، وقد دفت دافة(١) من قومكم، وإذا هم يريدون أن يختزلونا (٢) من أصلنا ويغصبون الأمر منا . . . » .

أبو بكر – (ثانيا) :

أيها الناس نحن – المهاجرين(٣)– أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى: « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء (٤) ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً .

أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً . فأما العرب فلا تعرف (٥) هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش فنا الأمراء ومنكم الوزراء ، (٦) فلا تنفسوا (٧) على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

الحباب بن المنذر بن الجموح – (من الخزرج) .

. . . يامعاشر الأنصار : املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم (٨) ،

---

(١) الجماعة تأتى من البادية ، والجماعة تسير برفق .

(٢) يقتطعونا ، ويروى يحتازونا ، أى يستولوا علينا .

(٣) آثرنا هذه الرواية ، رواية نصب المهاجرين على الاختصاص ، وهى أقوى من رواية الرفع ، التى تجعل للمبتدأ خبراً بعد خبر .

(٤) الغنـائم .

(٥) فى أكثر الروايات : لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . يريد أن العرب ألفوا أن تكون هذه الأعمال الدينية لقريش ، فإذا ولى منكم الخليفة تفكك العرب .

(٦) يروى فنحن .

(٧) لا تحسدوهم .

(٨) فى ظلكم وتحت حمايتكم .

وفى ظلكم ولن يجترى مجترى على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة ، وأولوا العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم رأيكم ، أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

عمر بن الخطاب (وكان أمسك عن الكلام) :

. . . هيهات هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن (١) ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، منذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته — ونحن أولياؤه وعشيرته — إلا مدل بباطل ، أو متجانف (٢) لإثم ، أو متورط فى هلكة .

الحـــباب . . .

. . . يامعاشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك(٣) وعذيقها المرجب (٤) ، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة (٥) .

---

(١) فى حبل : يريد لا يصلح للخلافة اثنان .

(٢) مائل لــه .

(٣) الجذيل : مصغر جذل ، وهو عود تحتك به الإبل لتستريح ، ويضرب مثلا للرجل ذى الرأى الشافى .

(٤) العذيق مصغر عذق ، يراد به النخلة نفسها ، والمرجب الذى يسند بالحجارة والدعم — يكنى به عن الرجل الشريف ، يعنى به قومه .

(٥) يريد نبعث الحرب ، والجذعة الناقة الشابة .

عمر بن الخطاب :

إذن يقتلك الله .

الحباب : بل إياك يقتل .

(انتضى الحباب سيفه ، فضرب عمر على يده فسقط السيف ، فأخذه عمر وهم أن يضرب سعد بن عبادة) .

أبو عبيدة بن الجراح :

يامعشر الأنصار : كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

بشير بن سعد : (١) (خزرجى) .

« إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى من الدنيا عرضاً ، فان الله ولى النعمة علينا بذلك ، ألا إن محمداً (ﷺ) من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم فى هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

أبو بكر :

. . . هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا :

---

(١) ابن ثعلبة جلاس : بدرى ، وهو والد النعمان . استشهد بعين التمر مع خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ ، وبعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى سرية إلى فدك ، وإلى وادى القرى . واستعمله على المدينة فى عمرة القضاء ، وكان يكتب بالعربية فى الجاهلية . تهذيب التهذيب ١/٤٦٣ ، الإصابة ١/١٦٣ .

عمـــر : (وهو يمد يده ليبايع أبا بكر) :

ابسط يدك يا أبا بكر . . ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفة رسول الله ، فنحن نبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً .

أبو بكر : أنت أقوى منى ياعمر .

عمر : أنت أتقى .

أبو بكر : ولكنك أقوى .

عمر : لك قوتى مع تقواك .

أبو عبيدة : إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟

(عمر وأبو عبيدة يبايعان)

(بشير بن سعد يبايع أيضا)

الحباب بن المنذر :

عققت يابشير بن سعد ، عققت ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنفست الإمارة على ابن عمك ؟ (يريد سعد بن عبادة ، وكلاهما خزرجى) .

بشير بن سعد :

لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

أسيد بن حضير (١) (زعيم الأوس): يبايع ثم يتجه إلى قومه يخاطبهم :

---

(١) أسيد من بنى عبد الأشهل ، كان أبوه رئيس الأوس وفارسهم يوم بعاث ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، وأحد النقباء ليلة العقبة ، وكان بين الأنصار ثلاثة لا يجارون فضلا ، كلهم من بنى عبد الأشهل ، عباد بن بشير ، وسعد بن معاذ ، وأسيد . وهو أسلم قبل سعد بن معاذ ، مات سنة عشرين فى خلافة عمر . والأشهل الذى يقل سواد عينه حتى تميل إلى الحمرة . وبنو عبد الأشهل ينتمون إلى صنم كان لهم بهذا الاسم .

والله لئن وليّها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ، قوموا فبايعوا أبا بكر .

وتكاثر الحاضرون على أبي بكر يبايعونه ، وكادوا يطأون سعد بن عبادة :

عمر : (مشيراً إلى سعد) :

اقتلوه قتله الله . . .

أبو بكر : الرفق هنا ياعمر أبلغ .

سعد : أما والله قبل أن أرميكم بما فى كنانتى من نبل ، وأخضب سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى وما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى فلا أفعل .

عمـــر : لا تدعه يا أبا بكر حتى يبايع .

بشير بن سعد :

لا إنه قد لج وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه ، فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد

ـ وتمت البيعة لأبى بكر ـ

نظـــرة فى هـــذا الموقف

آثرت أن أنقل صورة من هذا الموقف أدنى إلى الحقيقة ، وفى كتب التاريخ والسير روايات أخرى ، وزيادات كثيرة أعرضنا عنها ، لأن هذه الصورة كافية فى إعطاء صورة واضحة ولا حاجة بنا إلى البحث أو الموازنة بين الروايات العديدة . ونحن فى مقام التحدث عن الخطابة القصيرة ، والمحاورات الخطابية نؤثر أن نضع أمام الداعية الإسلامى هذه الصورة ، وفى مضابط البرلمان صور عديدة من المحاورات السياسية والخطب القصيرة ، ولكن صورتنا هذه تعكس منظراً إسلامياً تاريخياً ، وبلغة عربية سليمة .

وندع للقارئ بعد هذا أن يحلل مواقف الأشخاص، ما بين متحمس يدنو حماسه من الثورة كعمر والحباب ، وبين مترو يحرص على صيانة الوحدة بين المسلمين ، وجمع شملهم مثل أبي بكر وبشير بن سعد وأسيد بن حضير ، ولكن يعنينا أن نبحث طريقة كل فريق فى دعوته لرأيه ، وتأتيه لجذب الناس حوله ، فهذا ما يحتاج إليه الخطيب فى دعوته الناس إلى مبدأ ما ، وقد نظرنا فى خطبة سعد .

مسلك أبي بكر فى خطبته

أما أبو بكر ، فبدأ ببيان ما كان عليه العرب من وثنية ومدى تمسكهم بها وحرصهم عليها ، وقد سبب هذا للمسلمين الأولين فى مكة متاعب كثيرة وشاقة ، ومع كل ذلك صمدوا وصبروا على ما أوذوا به ، ومعنى هذا أنهم وإن لم يستطيعوا نشر الدين وشهره ، لهم فضل إحياء مبادئه ثلاثة عشر عاماً ، ولولاهم لوئد هذا الدين طفلا — وبهذا أثبت للمهاجرين الفضل الأول ، بل أكبر فضل فى حماية هذا الدين وليدا ، ثم كان من لباقته وذكائه أنه لم يهمل جانب الأنصار ، بل أثبت لهم فضل إيواء المهاجرين ونصر النبي (ﷺ) — وبهذا انتهى إلى أن المهاجرين هم الأمراء والحكام ، والأنصار وزراؤهم ، لا يقضى أمر حتى يستشاروا فيه .

وحكمة أبي بكر فى هذا الموقف تستحق كل تقدير ، وأنت ترى أن خطبتيه معا تدوران على محور واحد ، ولكن الخطبة الثانية جاءت بأدلة جديدة ، وألمعت إلى تخويف الأنصار لا من قوة المهاجرين ، بل من انفلات العرب منهم ، فالعرب لم يألفوا الأنصار زعماء دين ولا حماة بيت الله ، وإنما ذلك أمر ثابت لقريش ، وكان ذلك رداً قوياً على المتحمسين من الأنصار ، ولا شك أنه ترك فى نفوس السامعين أثراً عميقاً ، لهذا لم يقدم أحد على مبايعة سعد ، بل تكاثروا على مبايعة أبي بكر .

وأما كلام عمر ، فقد دار أخيراً على ما دار عليه كلام أبى بكر ، وتكاد الحجة تكون واحدة ، أو أن عمراً شقق حججاً من كلام أبى بكر .

وجاء فى كتب التاريخ قول عمر : إنى كنت زورت(١) كلاماً فى نفسى ، فلما هممت بالكلام منعنى أبو بكر ، فلما تكلم لم يدع شيئاً كنت أعددته إلا ذكره . ونفهم من هذا أن كلا الرجلين فى لحظات قصيرة أعد فى نفسه حديثاً ، وكانت أفكارهما متحدة أو متقاربة ، ولكن عمر يواجه الموقف فى ثورة لم يكن يتوقع لها أن تأتى بما يريد ، بينما كان أبو بكر فى هدوئه ورزانته أدنى إلى النجاح .

من هذا تجد أن الإقناع والاستمالة معاً يتوقفان على طريقة الإلقاء وعلى حال الخطيب ، ومقدرته على النفاذ إلى قلوب سامعيه .

خطب أبى بكر وعمـــر

١ ـ خطب أبى بكر :

خطب أبى بكر كما وردت إلينا شديدة الإيجاز شديدة التركيز على الجانب الدينى ، ومعظمها بدون مقدمات طويلة ، ولكن هناك له خطب قليلة ـ وكل ما وصلنا من خطبه قليل ـ أطال فيها الحمد والتشهد والثناء على الله ورسوله حتى كان ذلك عدلا فى الطول لما جاء بعده ، وهذه المقدمة كانت أيضاً دعوة للعبادة والطاعة .

وأشهر خطبة ـ بعد خطبة يوم السقيفة ـ خطبته أول ما ولى الخلافة ، وهى أول خطبة يخطبها زعيم المسلمين بعد رسول الله ، وقد وضح فيها منهجه فى الحكم ، ووعد بالتزام سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفى فى الواقع بما وعد به خير وفاء ، وهى :

الخطبة الأولى لخلافته :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ...

---

(١) أعددت وزينت .

أيها الناس : فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم الضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »(١) .

ومن خطبه :

* الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه ، واستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى . من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حى لا يموت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون—إلى الناس كافة ، رحمة لهم وحجة عليهم ، والناس يومئذ على شر حال فى ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية ، فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، فأطيعوا الله ورسوله فإنه قال عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

---

(١) هذه رواية الطبرى ، وتروى الخطبة بغير ذلك .

أما بعد أيها الناس : إنى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كل أمر وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، من يكذب يفجر ، ومن يفجر يهلك . وإياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود ؟ . هو اليوم حى وغداً ميت ! . فاعملوا وعدوا أنفسكم فى الموتى ، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضراً ، فإنه قال عز وجل : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » .

فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ، واعتبروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم — صغيرها وكبيرها — إلا ما غفر الله ، إنه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك ، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به ، واحشرنا فى زمرته ، وأوردنا حوضه . . اللهم أعنا على طاعتك ، وانصرنا على عدوك .

٢ — خطب عمر :

وفى هذه الخطبة بعض الإطالة فى المقدمة ، وموضوعها هو الأمر بالتقوى . ولا تخرج خطب عمر رضى الله عنه عن هذا المنهج ، ونختار له هاتين الخطبتين . . .

خطبته أول ما تولى الخلافة :

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنى داع فأمنوا . . اللهم إنى غليظ فليني لأهل طاعتك

بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم . اللهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة. اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين ، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعونك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح الساعات والحذر من المشبهات ، اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شيء قدير .

خطبته عام الرمادة :

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال :

« أيها الناس استغفروا ربكم إنه كان غفاراً :

اللهم إني استغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله فإنك تقول وقولك الحق : وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً .

اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع (١) الصغير ورق الكبير (٢) وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر

---

(١) هزل وضعف .

(٢) وهن .

وأخفى ، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا(١) ، فإنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون .

فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المآزر(٢) ، وطفق(٣) الناس بالعباس يقولون : هنيئاً لك ياساقى الحرمين .

وهذه الخطب تمثل ما كانت الخطبة عليه فى عهد هذين الخليفتين ، وكانت كذلك عهد عثمان ، ثم طرأ عليها تغير واسع بعد مقتله .

وهى أيضاً غاية فى الصراحة وتصوير شخصيتهما ، فأبو بكر رضى الله عنه كان صادقاً كل الصدق فى هذا الدستور الذى رسمه فى خطبته الأولى ، ودلت الأحداث على أنه أحرص الصحابة والناس جميعاً على اقتفاء سنة رسول الله ، وأنه كان حقاً ناصراً للمظلوم الضعيف مذلا للظالم القوى .

وعمر فى خطبته الأولى أعطى صورة عن الرجل الذى يخشى حساب ربه ، وهو لا يبعد عن أبى بكر فيما وعد ، غير أن أبا بكر قطعه على نفسه عهداً ، وعمر ضرع إلى الله أن يجعله كذلك ، وهو شديد الاحتياط فى كل دعاء ، يطلب أن يكون سخياً ولكن فى غير إسراف ، ليناً لأهل الطاعة على ألا يجاوز الحق ، غليظاً على أهل النفاق على ألا يظلمهم ، وفى كل ذلك يسأل الله أن يكون حسن النية يعمل عمله لله وحده .

وخطبته الثانية دعاء وتوسل ، والضراعة والذلة لله تعالى فيه بادية .

---

(١) حتى لا يدركهم اليأس من رحمتك فيهلكوا بسبب قنوطهم من رحمة خالقهم .
(٢) كناية عن كثرة المطر حتى وحلت الطرق فخلعوا أحذيتهم وشمروا عن سيقانهم .
(٣) أطافــوا به .

خصائص الخطابة فى هذا العصر

استمرت للخطابة أغراضها التى كانت لها فى الجاهلية عدا خطب المنافرات التى حرمها الإسلام ، وقد رأينا قبل أنها بقيت منها صورة بوجه ما ، وحلت محلها المناظرات ، وهى فى جملتها محاجات لأمر ما ، أو دفع لاتهام ، وفى هذا قد يقف شخص ما ليقاطع الخطيب ويحاوره ، واكتسبت خطب الحرب والحض عليه صورة الجهاد المقدس لأجل الدين ، وجدت أيضاً خطب ولايات العهد وولايات الأقاليم ، والاستخلاف ، واتسمت خطب الزواج أيضاً بسمات إسلامية ، وشاركت الكتابة فى بعض هذه الأغراض ، وليس من همنا أن نستقصى كل أنواع الخطبة ، ويكفى أن نقدم منها ما يمكن أن يكون فيه عون الداعية فى رسالته ومرشده إلى ما ينبغى أن يعمل، وأهم ذلك كله الخطب الدينية .

الخطب الدينية وسيادتها

كانت الخطبة الدينية من أهم أغراض الخطابة فى هذا العهد ، وهى أيضاً من أهم ما يعنى الداعية الإسلامى ، ونعنى بالخطبة الدينية هنا ، كل خطبة تدعو إلى عمل دينى بحت ، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى إقامة ركن من أركان الدين ، كالصلاة أو الحج أو قراءة القرآن ، أو التعريف بحكم شرعى ، أو الإصلاح بين متخاصمين أو التذكير بالموت والدار الآخرة ، وهكذا . وحقيقة الخطبة الدينية أنها تشمل كل شئون الحياة ، لأن الدين الإسلامى ، يقوم على العقيدة ، والعبادة ، والمعاملة ، وبه قانون شامل لكل ما يقابل الناس فى حياتهم من زراعة وصناعة ، وبيع وإيجار وشركات وهكذا . ولكن لأننا أفردنا للشئون الأخرى أبواباً خاصة ، نقتصر فى هذا الباب على الشئون الدينية الخالصة .

هذا النوع من الخطابة لم يكن موجوداً فى العصر الجاهلى فيما نقدر ، وخطبة المأمون الحارثى التى سبقت ، وخطبة قس بن ساعدة ، مما نرجح أنه من الأدب المصنوع ، ونحن نجد الأدب الجاهلى خالياً من العنصر الدينى عدا ما كان من شعراء اليهود والنصرانية ، وكان أمية بن أبى الصلت ممن عرفوا النصرانية ، وكان يرجو ويطمع أن يكون النبى العربى المنتظر ، وجاء فى شعره أحاديث عن الدار الآخرة والأنبياء السابقين . أما الشعراء الوثنيون فلا نجدهم يتحدثون عن آلهتهم أو يذكرون شيئاً عن أصنامهم وكل ما جاء فى شعرهم ، لمحات تذكر بالموت ، أو بأن الناس سيحاسبون على أعمالهم وكان ذلك قليلا جداً ، كما فى قول طرفة :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد(١)
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ... ومن يك فى حبل المنية ينقد(٢)

وكقول زهير :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

وخلو الشعر الجاهلى على كثرته وتشتت أغراضه من الحديث الدينى يؤذن أيضاً بخلو الخطابة منه ، والخطبتان اللتان سبقتا على فرض صحتهما ، لا تتحدثان عن تعاليم دينية ، وإنما تنذران بفساد عبادة الأوثان ، وتوجهان إلى عبادة الخالق القادر ، وأن نبيا سيظهر . وينسب لكعب بن لؤى الجد الثامن لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطب من هذا النوع .

ـ وخطب النبى صلى الله عليه وسلم هى المثل الذى يحتذيه الخطيب الدينى الموفق ، وهى فى جملتها تهون من شأن الدنيا ، وتذكر بالآخرة ، وتحث على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة ، وهى خليقة أن تكون دستور المسلمين

---

(١) الطول : الحبل ، وثنياه طرفاه .
(٢) الحتف : الموت .

وقانونهم الذى لا يخالف أى شيء منه ، وهى فى واقعها بناء للأمة وسعادة لها ورفع شأن لأبنائها ، ولا يزال علماء الأخلاق وزعماء الإصلاح يجدون فيها مدداً لهم ، ويتخذون منها هادياً ومرشداً . وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فى الشئون الأخرى ، وكلها تتسم بأنها عمل لله تعالى وقربى إليه . وللخلفاء الراشدين والخلفاء والحكام بعدهم خطب دينية ومواعظ من هذا النوع ، وكثير منها مما يصل أعماق القلوب ، ويترك أثراً عميقاً فى النفوس ، فيستقيم به السلوك المعوج ، وتأنس الغرائز الجامحة ، ويعدل العصاة عن ارتكاب الذنوب ، وتكون هذه الخطب أبلغ فى النفس إذا كان صاحبها مقتنعاً بها ذا رغبة فى نشرها وإذاعتها بين الآخرين ، وقد قالوا : ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، وما كان من اللسان لا يجاوز الآذان »(١) وهو كلام حق لا جدال فيه .

والعنصر العام الفعال فى هذه الخطب المؤثرة هو التذكير بالموت وأنه حتم على كل حى ، وأن متاع الدنيا زخرف موقوت ، وعرض زائل وأنه من يفعل خيراً يجز به خيراً ، ومن يفعل الشر يلق عقوبته فى الدنيا والآخــــرة .

وقد كانت الخطب فى هذا العصر مجملة وقصيرة ، ويستطيع الواعظ الحديث أن يولد منها خطباً مطولة بما يدخل عليها من الشرح والتحليل ، وأمثلة هذه الخطب كثيرة جداً تجدها فيما جمعه ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » وأورده الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » وقد سبقت أمثلة لذلك من خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٣ .

تطور الخطبة منذ مقتل عثمان

لكى نلم بتطور الخطبة وتنوعها فى عهد الخليفتين عثمان وعلى، وفى العهد الأموى بعد ذلك ، نلقى نظرة عاجلة على أهم الأحداث السياسية التى فجرت الخطابة وانقسم المسلمون بسببها أقساماً كل له رأيه ومذهبه الذى يدافع عنه ، وكل يتخذ من الدين له عضداً وساعداً .

لمحة تاريخية

ونرجع بهذا إلى نهاية الخليفة عمر بن الخطاب ، فإنه وهو على فراش موته نظر فى الستة الذين رشحهم للخلافة ، فوجد فى كل واحد منهم صفة تحول دون اختياره خليفة وإيثاره بها على الآخرين ، ولكن ما أخذه على على بن أبى طالب ، كان أهون مما أخذ على أصحابه ، فقد قال له : ما يمنعنى منك يا على إلا حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إذا وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم(١) ، بينما أخذ على الآخرين صفات شخصية ، فسعد بن أبى وقاص رجل حرب فيه شدة وغلظة ، والزبير بن العوام مؤمن الرضا كافر الغضب – يعنى أنه لا يملك نفسه فى وقت غضبه – وعثمان بن عفان ذو عصبية ، وهو يحب قومه وأهله . ثم قال وهو يغالب سكرات الموت : لقد قومت لكم الطريق فلا تعرجوه ، ثم قال لعلى : لعل الناس يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين . . فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه ولا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ، ثم التفت إلى عثمان وقال : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك كذا وكذا ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس ، وأوصى ألا يغير أحد من ولاته على الأقاليم قبل أربعة أعوام .

---

(١) الإمامة والسياسة ، ص ٤٢ وما بعدها ، وتقيم على الحق : لا تنحرف عنه .

قتل عثمان

وآلت الخلافة إلى عثمان ، فأنس الناس إلى ما فيه من لين ودعة لم يكن شيء منهما في عهد عمر ، وشهدت السنوات الأولى من حكمه رخاء نعم به الناس وفرحوا ، وأبقى عثمان ولاة عمر أربعة أعوام ثم استبدلهم بآخرين كانوا أقل كفاية ، وبدأت أصابع بني أمية تلعب في السياسة العامة ، وبدأت محاباة عثمان لهم تسفر عن وجهها ، وظهر على الناس منذ السنة السابعة تذمر واستنكار ، ولم يكن لهذا الخليفة الحيي من الشدة ما يكبح به هذا التذمر ، ولا من القوة الشخصية ما يرد به بني أمية عن الطريق الذي انحدروا فيه ، بل كان بينهم من هو أحصف منه رأياً ، وأبقى على سمعته ، فقد كان عمر بن الخطاب صادر أموالا لأبي سفيان بن حرب ، فأراد عثمان أن يردها إليه ، فلم يقبل ، وأشفق عليه من مخالفة عمر ورده عملا عمله(١) ، ذلك لما يعلمه أبو سفيان من اطمئنان الناس إلى عدل عمر ، ثم استفحل الأمر بالخطاب الذي كتبه مروان بن الحكم ، وفيه الأمر بقتل محمد بن أبي بكر ، وكان الأمر يقضي أن يعاقب عقوبة تطفيء ثورة الثائرين ، لكن عثمان لم يفعل . وانتهت الثورة بقتله قتلة شنعاء ، والمصحف بين يديه .

بيعة علي

بايع الناس بعده علي بن أبي طالب بالخلافة ، وامتنع معاوية عن بيعته ، وقال حتى يسلم قتلة عثمان . ووقف أهل الشام وراء معاوية ، ووقف أهل العراق وراء علي ، فلما التقى الجمعان في صفين وهزم جيش معاوية الذي كان يقوده عمرو ، وبه معاوية أيضاً ، رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وقالوا : نحكم كتاب الله ، وطلبوا التحكيم . فانشق جيش علي قسمين ، قسما قبله وآخر رفضه ، والذين رفضوا هم الخوارج ، ثم انتهى التحكيم إلى ما آل إليه من الخدعة الشنعاء ، فإذا الأمة الإسلامية قد تقسمت إلى خوارج وشيعة وأمويين ، ورأى آخرون أن يعتزلوا هذه الفتنة . ودبر الخوارج مقتل معاوية وعمرو وعلي ولم يصب القتل إلا علياً ، ونصب ابنه الحسن

---

(١) العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ٤٠ ، ٤١ . ونجد هذا قد حدث غير مرة .

خليفة ، فتنازل سنة ٤١هـ عن الخلافة لمعاوية على شروط لم يرع معاوية منها شيئاً .

وبعد استقرار الأمر لمعاوية بايع ابنه يزيد ، لم يكن فى نظر الأكثرين يصلح للخلافة ، فقام الحسين بن على يطالب بحقه فى الخلافة ، ولما قتل بكربلاء ، كان مقتله مثيراً لمشاعر الشيعة ومغضباً لجمهور المسلمين ، وقام بعده عبد الله بن الزبير يطلب الخلافة ، وكادت تتم له بيعة عامة ، ثم قام بعده المختار الثقفى واتخذ من الشيعة عوناً له ، وفى أواخر القرن الأول الهجرى قام محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث فانضم إليه عدد كبير من الأنصار الساخطين على بنى أمية ، ثم قام يزيد بن المهلب بن أبى صفرة بثورة أخرى ، كل هذا والخوارج منذ موقعة صفين يجاهدون فى سبيل مبدئهم .

وفى أواخر العهد الأموى تولى خلافة المسلمين خلفاء لم يقدروا موقفهم فى الحكم ولا جلال الخلافة ، مما هيأ للخراسانيين والأعاجم بوجه عام أن يجهروا بدعوتهم السرية فظهر أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩هـ ، ثم قضى على الدولة الأموية نهائيا سنة ١٣٢هـ .

بهذا نجد أن الدولة الإسلامية منذ مقتل عثمان كانت أتونا من الحروب التى لم تكن تهدأ إلا لتقوم ، وكانت تشب قبل كل شىء بوقود الخطابة ، فأثرى هذا العهد حقل الخطابة ثراء لم يظفر التاريخ الإسلامى بمثله ، واتخذت فيه الخطابة مظهراً لم يكن لها من قبل .

ونضيف إلى هذا أن الفتوحات التى امتدت شرقاً وغرباً كانت تعتمد أيضا على الخطابة ، ولكننا لن نقف لديها طويلا .

ونستعرض بإيجاز مواقف الأحزاب وآثارها الخطابية .

الحزب الأموي وبنو هاشم

خصوم الأمويين

هذا هو الحزب الحاكم ، والأحزاب الأخرى جميعاً خصوم له ، ولكن أقوى حزب كان يعارض الأمويين هو حزب الشيعة أنصار على ، وهو الذى قوض أخيراً عرش بنى أمية وقضى عليهم ، ولا ترجع هذه الخصومة إلى بداية النزاع على الخلافة بين على ومعاوية ، ولكن جذورها ترجع إلى أعماق بعيدة فى التاريخ .

جذور الخصومة

فنى ألفاف الماضى قبل الإسلام نجد عنصرين أساسين لهذا النزاع ، أولهما ما كان من التنافس بين عبد المطلب ، وبين حرب بن أمية ، هذا التنافس الذى انتهى إلى نفى حرب إلى الشام ، فاستطاع أن يكون له هناك أتباعه . وثانى الأمرين ما كان من التنافر بين العراق والشام ، وهذا بدوره يرجع أصلا إلى العداء بين الفرس والروم ، وكان بنو المنذر أتباعا للفرس ، وكان الغسانيون أتباعا للروم، وكان هذان الجذمان العربيان بعضهم لبعض عدو ، وقد غضب النعمان بن المنذر على النابغة الذبيانى لأنه رحل إلى الغسانين ومدحهم ، ثم ظل العراق الفارسى والشام الرومى على عداء أيضا ، ولما انتقل على إلى الكوفة كانت الحرب واضحة جداً بين الشام والعراق ، وقد جاء فى خطاب معاوية إلى على هذا البيت :

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق له كارهينـــا

وبسبب التنافس القديم بين بنى هاشم وبنى أمية كان وقوف أبى سفيان ضد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومحاربته دعوته ، وقال مرة : تنازعنا الشرف وبنى هاشم، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا حتى إذا صرنا كركبتى البعير قالوا،منا نبي يوحى إليه . وهو كلام صريح فيما كانوا يرغبون فيه من إزالة هذا السبب الذى رفع بنى هاشم عليهم ، بل نجد معاوية يقول :

بنو هاشم أشرف واحداً ، ونحن أشرف عدداً ، فما كان إلا كلا ولا حتى جاءوا بواحدة بذت الأولين والآخرين(١) .

موقف الأمويين من الخلافة

ولم يتطلع بنو أمية للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شرفهم فى قريش لأنهم لا سابقة لهم فى الإسلام ، ولكنهم كانوا يرقبون أحداثها عن كثب ، لم يذكر لهم شىء يوم السقيفة ، فلما أوصى أبو بكر بالخلافة إلى عمر قال أبو سفيان : فما فعل المستضعفان ؟ . يريد علياً والعباس . ولما اختير عثمان من الستة الذين عينهم عمر قال على : والله ما هذا أول يوم تآمرتم علينا فيه . وقال أبو سفيان لبنى أمية : تلقفوها تلقف الكرة ولا تدعوها تفلت من أيديكم(٢) ، فهم بهذا ظفروا بشىء كانوا يتطلعون إليه من زمن بعيد .

ما أخذ على عثمان

وقد حابى عثمان أقاربه محاباة طمست فى أذهان الناس ما كان له من فضل وتضحية فى سبيل الإسلام حتى نجد كبار الصحابة يجابهونه بخطئه . قال له عمرو بن العاص : إنك ركبت بالناس نهابير(٣) من الأمر ، فتب يتوبوا . وقام رجل من الأنصار فأنكر عليه إعطاءه المال لمن لم يغزوا ، فاستغفر الله ، قال فما بال هذا الشارب لا تقيم عليه الحد — وهو يشير إلى الوليد بن عقبه بن أبى معيط — وكان قد صلى الصبح بالناس وهو سكران ، فصلاه أربع ركعات ثم التفت إلى الناس وقال : إن شئتم زدتكم . فقال عثمان لعلى : دونك ابن عمك فأقم عليه الحد ، فجلده عبد الله بن جعفر أربعين ، وأمسك ، وقال : جلد رسول الله وأبو بكر أربعين ، وكملها عمر ثمانين ، وكل سنة . كذلك نجد طلحة يجابهه وهو محاصر ممنوع من الماء ، فيقول له : أنت غيرت وبدلت .

---

(١) انظر العقد الفريد ٢٦٢/٣ . وأراد بالواحد عبد المطلب بن هاشم ، وبالواحدة التى بذت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) كان فى بيت عثمان ، وقد ذهبت عيناه كلتاهما فسأل بنى أمية حوله : أفيكم أحد من غيركم قالوا : لا . قال يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة . (مروج الذهب ٢٥٣/٢) .

(٣) مهالك : المفرد نهبرة ونهبورة . والنهابر جهنم .

ولعثمان فى شدته وحصاره محاورات وخطب نذكر شيئاً منها :

١ - محاورة على بن أبى طالب

كان عثمان قد جمع عدداً من ولاته وفيهم معاوية وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص . ليشاورهم فى أمره ، وما بلغه عنهم ، وقال لهم :

« إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على » فأشار كل برأيه ، ولكن لم ير واحد منهم أن يعزل هو أو غيره ، ولكن عمرو بن العاص قال له : « أرى أنك قد ركبت (١) الناس بما يكرهون » ، فاعتزم أن تعدل ، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وأمض قدما » — ولم يكن عمرو من ولاته بعد أن عزله عن مصر وولى مكانه عبد الله ابن أبى سرح . ورد عثمان عماله إلى أعمالهم ولم يعد الاجتماع بفائدة .

شدة عمرو على عثمان

ولما كانت سنة ٣٤ هـ قدم الناس وكثروا على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد والصحابة لا ينكرون عليهم شيئاً إلا أفراداً معدودين منهم زيد ابن ثابت ، وحسان بن ثابت ، فاجتمع الناس حول على بن أبى طالب يكلمونه ، فدخل على عثمان فقال :

خطبة الرعية

« الناس ورائى وقد كلمونى فيك ، والله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء (٣) فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (ﷺ) ، ونلت صهره ،

عظة على

(١) سلطت عليهم وقهرتهم .
(٢) ما علمنا شيئاً قبل أن تعلمه .
(٣) علمنـاه على انفراد .

وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . . .

فالله الله نفسك ، فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق اواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة .

تعلم ياعثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل ، هدى وهدى ، فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة . . . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر ، وليس معه ناصر ولا عاذل (١) ، فيلقى فى جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم ، وإنى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فإن عذاب الله شديد وأليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها موجاً ، ويمرحون فيها مرجاً » .

دفاع عثمان عن نفسه

فقال عثمان : « قد علمت والله ليقولن الذى قلت ، أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك : والله ما جئت منكراً أن وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ، أنشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ، وتعلم أن عمر ولاه ؟ »

قال على : نعم .

قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

قال على : سأخبرك ، أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما

---

(١) ليس هناك من يلومه أو يدافع عنه .

يطأ على صماخه (١) ، إن بلغه عنه حرف جلبه (٢) ثم بلغ به أقصى الغاية ، أنت لا تفعل ! ضعفت ورفقت على أقربائك .

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً .

قال على : لعمرى إن رحمى منهم لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرها .

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ، ؟ فقد وليته .

فقال على : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من « يرفأ » غلام عمر منه (٣) .

قال عثمان : نعم .

قال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول الناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

ثم خرج على .

تحليل الموقف

فى هذا الحوار تجد أن عليا يتغلب على عثمان ، ويبدو الخليفة وهو يحاول أو يروغ فيقول له : إن أقاربى أقاربك ، كما يخفق فى التسوية بينه وبين عمر .

أما ما جبهه به عمرو بن العاص حين اجتماعه بعملائه ، فلا تبدو فيه النصيحة بقدر ما يبدو فيه الدعاء ، وقد اعتذر عمرو بعد خروج الولاة عذراً عجيباً إذ قال إنه إنما قال هذا ليبلغ كلامه الناس فيثقوا به ، فيقود لعثمان خيراً ، أو يدفع عنه به شراً ، وعمرو رجل جرىء لا يبالى أن يقول ما يقول : وهو موتور لعزله عن مصر .

---

(١) الصماخ : الأذن ، كنى بها عن الرأس . يريد أنه يخضعه لأمره .
(٢) سحبه من وظيفته أو استحضره إليه .
(٣) كان يخاف عمر أكثر مما يخاف منه هذا الخادم .

٢ ـ خطبة عثمان بالمسجد

خرج عثمان عقب هذا الحوار إلى المسجد فألقى فى الناس خطبة جاء فيها :
« أما بعد . . . فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون. يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق . أحب مواردها إليها البعيد (١) ، لا يشربون إلا نغصاً (٢) ، ولا يردون إلا عكراً ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، وتعذرت عليهم المكاسب .

ألا فقد عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على .

أما والله لأنا أعز نفراً ، وأقرب ناصرا وأكثر عدداً (٣) ، وأقمن (٤) إن قلت هلم أتى إلى ، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم (٥) ، فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا .

ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضل فضل من مال ، فما لى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماماً » ؟

---

(١) النعام تترك الماء القريب لتشرب من آخر بعيد ، يريد أنهم يكرهونه ويحبون غيره .
(٢) عــكراً .
(٣) يريد أن قومه وأنصاره أقوى من أنصار عمر .
(٤) أقمن بمعنى أحرى وأحق ، إذا دعوت لنصرة أتانى الكثيرون .
(٥) يريد ولاته فى الأقاليم ، وكل إقليم عاب مواليه .

فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم حكمنا — والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم معارسكم تبنون فى دمن الثرى (١)

فقال له عثمان : اسكت لا سكت (٢) دعنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ فسكت مروان ونزل عثمان .

وهذه الخطبة القصيرة على حظ كبير من المنطق والسداد ، وهى مقسمة إلى عناصر مميزة :

بين أولا أن هناك أعداء له ، يعيبون أعماله ويطعنونه من خلف ، ويمنون الناس بما لا يحققونه لهم ، — وهو بهذا يردهم عن اتباع هؤلاء العيابين ويوئسهم مما يعدونهم به ، يريد بهذا أن يرد جماح الثائرين ، وأن يجعلهم يصمون آذانهم عن دعاة الثورة . وأشار إلى أن هؤلاء يخدعون أنفسهم أيضاً إذ يتوقعون فيمن بعده خيراً مما عنده ، وشبههم بالنعام الأحمق .

وفى العنصر الثانى بين لينه ورفقه بهم بجانب شدة عمر عليهم ، ثم هدد فى غير شدة بما لأسرته من قوة لم تكن لأسرة عمر ، وذكر أنهم إن أثاروا حرباً ضده أو خرجوا على طاعته ، فإن لديه جنوداً على استعداد لحربهم ، واعتذر عن ذلك بأنه لا يريده وليس هذا فى طبعه ولكنهم هم الذين حملوه على هذه الشدة ، وكان لبقاً جداً إذ قرن هذا التهديد بأنه أعطاهم أعطياتهم ولم ينقصهم شيئاً ، وأنه لم يقصر فى حق لهم . وكان عثمان — رضى الله عنه — صادقاً كل الصدق فيما وصف به نفسه من حب الرفق وأن الانتقام والشدة وإراقة الدماء ليست من خلقه . فعثمان حقاً حيي أقرب إلى الضعف ، ومع

---

(١) معارسكم مفعول به مقدم ، أى تبنون معارسكم فى دمن الثرى . والمعارس جمع معرس ما ينزل فيه المسافر . أى أبيتم الفراش اللين ولن يكون لكم بعده إلا الخشن .

(٢) لا سكت ، لا سمع لك صوت حتى تسكت . يدعو عليه بالموت .

قوة أتباعه وقومه لم يجنح إلى استعمال القوة ، ولم يقبل حتى الخروج إلى الشام ، ومن ميله إلى اللين والرفق أنه انتهر مروان وأسكته .

كان عثمان يحابى أقاربه بالوظائف وغير الوظائف ، وحين أمر عبد الله ابن سعد بن أبى سرح أن يفتح إفريقية ، جعل له خمس الخمس من الغنيمة ، وعملا بالآية القرآنية — تقسم خمسة أقسام ، أربعة للغزاة ، وخمساً لبيت المال ، فأعطاه عثمان خمسة ، ثم قسم الأربعة الأخرى التى أرسلت إليه بين بنى الحكم ، وقيل بين بنى مروان ، وقد أثار هذا عليه الناس مع الأسباب الأخرى ، وهو يعتذر بأنه مال زائد عن الحاجة ومن حق الخليفة أن يتصرف فيه .

وضاعت خطبة عثمان هباء لأن الثورة كانت قد أخذت تشب ، وكان هناك عوامل أخرى أكبر من أن تطفئها خطبة ، والخطبة فى بداية تطور لأنها أصبحت سياسية ، وليست دينية بحتة كخطبته التى سبقت .

ومنذ ذلك الوقت تفجر النزاع بين على ومعاوية ، حتى أدى إلى الحرب المسلحة ، ثم كانت خدعة عمرو ، ثم انقسام الأمة إلى شيعة وأمويين وخوارج . ثم نشأ حزب ابن الزبير . . . وكل أولئك اعتمدوا على الخطابة ، فأصبح لها سوق رائجة ونهضت نهضة لم تكن لها فى عصر آخر .

ثالثا : الخطابة فى العصر الأموي

هذا العصر من أزهى عصور الإسلام خطابة ومحاورات ، ولم يكن حظ الخطبة من الرواج والنقاء فى أى عصر من عصور الأدب العربى كله مثل ما كان فى هذا العصر ، خصوصاً فى أول قيام الدولة ، وأثناء بذل جهودها العديدة فى تثبيت أقدامها ودحض خصومها .

سبب هذا الرواج أن دواعى كثيرة للخطابة كانت متوفرة ، الحرية مكفولة ، واللغة حية سليمة ، والطبيعة موفورة للمتكلمين ، وظروف السياسة العامة تدعو إلى كثرة الخطب وتثير الحماس فى نفوس الخطباء ، والأحزاب المتنافسة تعتمد على الخطبة قبل كل شيء .

تعددت الأحزاب وظلت تتعدد لمدة طويلة ، وجد فى أول الأمر حزبان كبيران — حزب معاوية وحزب على ، ثم سرعان ما ظهر الخوارج وبرزت أيضاً فجأة موقعة الجمل ، ثم ظهر حزب الشيعة بعد مقتل الحسين ، كما ظهر حزب الزبيريين ، ثم حزب ابن الأشعث ثم المختار الثقفى ، واعتمدت كلها على الخطابة ، ومع ما كان يلجأ إليه كل حزب من التحاف الدين والتستر بوشاحه ، كان كل حزب ينتقص خصومه ويذكر معايبهم ، وقامت لذلك محاورات ومناظرات كثيرة وعنيفة ، وهى فى جملتها لم تخرج عن منهج الخطابة ، ولم يقف هؤلاء جمعياً ضد الحزب الأموى فقط ، فقد كان الإمام على يحارب فى جبهات متعددة ، ثم استقر الأمر لابن الزبير ، كان يحارب العلويين كما يحارب الأمويين ، وقد عاقب منهم من عاقب ، وناظر من ناظر ، وله مع ابن عباس وابن الحنفية مواقف معلومة ، كل هذه الخصومات والثورات اعتمدت على الخطابة واتخذتها وسيلة دعاية يدافع بها كل عن نفسه ويشهر بخصومه .

ساعد على هذا أيضاً أن المستمعين كانوا لا يزالون عربا خلصاً ، يفهمون اللغة ويقدرون الكلام الجيد البليغ ، وكان ذلك مما يشجع الخطيب ويبعث فيه الهمة والنشاط على تجييد الخطبة وتجويد عباراتها .

وقد كثر فيها الاقتباس من القرآن رغبة فى جعل الدعوة دينية ودفاعا عن مبادىء الإسلام .

ولما هدأت كل هذه الخصومات واستقر الأمر لبنى مروان انبعث فى الشعر نشاط قلل من نشاط الخطابة وأهميتها ، ولكنها لم تنقطع ، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعراً للخطابة ، وسنذكر موقف يزيد بن الوليد من ابن عمه الوليد بن يزيد وخطبته التى قالها بعد قتله .

وهناك خطب دينية بحتة ليس فيها شىء من السياسة فمن خطبة لمعاوية :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم فى كر الجديدين(١) ، ثم ارجعوها كليلة عن بلوغ الأمل(٢) ، فإن الماضى عظة للباقى ، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن الجد ، فتنقطع حجتكم فى موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم عليه فيما أسلفتم .

أيها الناس : أمس شاهد فاحذروه ، واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغدا رسول فأكرموه »(٣) .

وهذا الإيجاز كان يفهم فى عصره ، أما الآن فلا يلقى إلا بالشرح المستفيض .

ولبنى أمية الآخرين مواعظ لا تقل عن هذه تأثيراً ، وكانت هذه الخطب

---

(١) الجديدان : الليل والنهار . والسفر بالأبصار : إبعاد التأمل ، أى تأملوا فى تقلبات الأزمان .

(٢) عاجزة عن الوصول إلى إدراكه .

(٣) الماضى سجل أعمالنا وهو شهيد علينا ، والحاضر مجال اختبارنا ، والمستقبل رسول لما يصل .

الدينية مما يثبت هيبتهم ويقوى ملكهم ، ويظهرهم أمام الناس فى مواقف تشبه مواقف الخلفاء السابقين ، وربما طالت خطبة الجمعة حتى يدخل وقت العصر ، أو حتى تكاد الشمس تصفر ، وبدأ هذه الإطالة الوليد بن عبد الملك وحاكاه أخوه يزيد ، وكان الحجاج يطيل أيضاً حتى يسأم الناس ويتلفتون إلى الشمس المائلة نحو الغرب ، فيهيب بهم ويوبخهم أن سئموا الوعظ ، وكان الحسن البصرى يعيب الحجاج لهذا وقال عنه : « واعجبا من أخيفش أعيمش جاء ففتننا عن ديننا ، يصعد على المنبر فيخطب والناس يتلفتون إلى الشمس ، فيقول : ما بالكم تتلفتون إلى الشمس ، إنا والله ما نصلى للشمس ، إنما نصلى لرب الشمس ، أفلا تقولون له : « يا عدو الله : إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ؟ » . . ثم يستدرك فيقول : كيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم علج قائم بالسيف(١) .

وقد راجت الخطبة الدينية فى عصر بنى أمية رواجاً شديداً ، لكثرة مناوئى الدولة الأموية ، ولهذا دخلها كثير من الطول ، فقد كان الخلفاء الأمويون وولاتهم ، يدخلون فى خطب الجمع والأعياد والحج المسائل السياسية ، ويوهنون من شأن أعدائهم ، فتطول الخطبة ، وكان الناس يسأمون خطبهم فيتخلفون عنها فى صلاة الجمع ، وينصرفون عنها فى صلاة الأعياد ، ولذلك رأى مروان بن الحكم أن يقدم خطبة العيد على صلاته كيلا ينصرف الناس دون سماعه(٢) . واستمر ذلك متبعاً حتى قام أبو مسلم الخراسانى بدعوته وأمر سليمان بن كثير أن يصلى بشيعة على صلاة العيد على النحو الذى نراه الآن .

وليس للخلفاء الراشدين خطب مطولة ، بل كلها تتسم بالإيجاز ،

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/ ٤٧٠ .

(٢) انظر صلاة العيدين فى البخارى .

وينسب للإمام على خطب مطولة سميت بأسماء خاصة ، كالغراء والزهراء . وكلتاهما فى نهج البلاغة ، وفى العقد الفريد ، وما فيهما من دقة المعانى ، والإسراف فى طول التحميد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم يحمل على الشك فى نسبتهما للإمام ، ونحن نعلم أن الشريف الرضى صنع خطباً كثيرة مما فى نهج البلاغة ، وأن معظم الكتاب من عمله ، ولعل هذه الخطب مما صنع .

وكان هناك خطباء وعاظ ربما أطالوا الخطبة وحشوها بالمواعظ المؤثرة ، وهم أنفسهم لا يعملون بما يقولون ، ولا يعرفون بالتقوى والورع ، ومن هؤلاء الحجاج بن يوسف ، وخالد بن عبد الله القسرى. وجلس معاوية ابن أبى سفيان يوماً يقص فأبكى السامعين . فقال له عمرو بن العاص ، وكان فى مجلسه : أحرقت قلبى بمواعظك ! أترانا حاربنا علياً لأنه كان على باطل ونحن على حق ؟ . إن هى والله إلا دنيا تكالبنا عليها ، فإما قبست لى من دنياك وإلا نابذتك(١) ! وكان الحسن البصرى يعجب من الحجاج فيقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتك فتك الجبارين ! ويوافق الله فى قوله ويخالفه فى عمله » .

وكل هؤلاء كانوا يقتبسون من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهجه ، فى تهوين الدنيا والتذكير بالموت ، وتساعدهم مقدرتهم الكلامية على صوغ عبارات قوية تقرع القلوب ، وتثير الإشفاق من الحساب فى الدار الآخرة ، ومن كلام الحجاج فى هذا المقام :

أيها الناس :

« قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ(٢) ، رب دائب

---

(١) فى العبارة شىء من التغيير كتبتها من الذاكرة .
(٢) الأعمار تنقص بمرور الأيام ، وأعمالنا محصية علينا .

مضيع(١) ، وساع لغيره ، والموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم . ومما فى أيديكم لما بين أيديكم(٢) ، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن(٣) ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم . . أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله ، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر(٤) وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، فى روضة يحبرون ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً » .

وهذا وعظ قوى يبعث على الزهد . استفاد قائله من خطب النبى صلى الله عليه وسلم ، ونهج نهج القرآن فى المزاوجة بين النعيم والعذاب ، وحال أهل الجنة وأهل النار .

والحق أن أمثال معاوية والحجاج لم يكونوا عصاة ولا جاحدين لتعاليم الإسلام ، وكانوا يرون أن أعمالهم السياسية إنما هى لخدمة الإسلام ، وأكبر أخطاء معاوية توليته يزيد ابنه عهده على ما كان فيه . أما الحجاج فعلى شدة قسوته وجبروته خدم الإسلام ، وقطع دابر الفتن والثورات ، ولو أن الأمة الإسلامية ظلت على تفرقها ومطالبة كل حزب بالخلافة لنفسه لقضى ذلك عليها ، أو على الأقل عاق فتوحاتها ، ووقفت الدعوة الإسلامية محيط محدود .

* * *

(١) رب شخص لا ينقطع عن العمل وهو فقير أو لا أجر له عند الله .
(٢) ما فى أيدينا هو الدنيا ، وما بين أيدينا الدار الآخرة لأنها مستقبلة .
(٣) مضى سريعاً ولم نتعظ به .
(٤) تتصاعد أنفاسها المحرقة .

ونستعرض من الآن بإيجاز بعضاً من خطباء كل حزب وليس من الممكن أن نستقصي جميع الخطباء ، وفيمن نذكرهم كفاية .

خطبـــاء الحزب الأمـوى

كان هذا الحزب أكثر الأحزاب خطباء ، لأنه وهو الحزب الحاكم انضم إليه خطباء ممن كانوا فى حزب على ، وممن كان يمكن أن يكونوا تبعاً لأى حزب آخر ، وقد كان كل من المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أنصار على ثم انضما إلى معاوية ، وبعد القضاء على حزب الزبيريين انضم إلى بنى أمية آخرون من شعرائه وخطبائه . وكان فى بنى أمية عدد من الخطباء خلفاء كما كان فى ولاتهم عدد من الخطباء المشهورين أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى وعمرو الثقفى ونصر بن سيار . . وهكذا كان خطباء هذا الحزب كثيرين ومشهورين . ونذكر منهم .

١ – معاوية بن أبى سفيان

من معاوية؟

معاوية من كبار الخطباء فى قومه ، وقد مرت خطب له ، وهو أيضاً من دهاة العرب ، ومن أحكم الناس سياسة ، وأبصرهم بعلاج المشكلات ، وبدت عليه مخايل السيادة منذ طفولته ، وتوقعت ذلك له أمه غير مرة (١) ، أسلم عام الفتح ، وكان كاتباً حاسباً سديد الرأى بادى الفطنة ، وهو من كتاب الوحى ، سئل ابن عباس عن صلاة له فقال إنه فقيه ، وقال عنه عمر إنه كسرى العرب ، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد ثم أقره عثمان فكانت ولايته عشرين عاما ، وتنازل له الحسن بن على عن الخلافة عام الجماعة فكان خليفة لمدة عشرين عاما أيضاً إلا قليلا ، وهو فى الواقع تسمى بأمير المؤمنين عقب حادث التحكيم .

---

(١) قالت إحدى جليساتها ان ابنك هذا سيسود قومه ، قالت هند : ثكلته إن لم يسد العرب جميعاً .

وهو فى نظر المستشرقين والكتاب الأوربيين المؤسس الثانى للدولة الإسلامية بعد أبى بكر ، ذلك بسبب انتصاراته العظيمة على البيزنطيين براً وبحرا ، وبسبب جمعه شمل الدولة ولم شعث العرب .

مقدرته الخطابية

وكان معاوية خطيباً مفوهاً يجيد تشقيق الكلام ويأتى بالعبارات البليغة الموحية . وقد قال فيه الشاعر :

ركوب المنابر وثابها ... معن بخطبته مجهر
تريع إليه هوادى الكلا ... م إذا ضل خطبته المهذر (١)

وكان يعين معاوية على إجادة خطبه أمور كثيرة أهمها جراءة قلبه وذكاء جنانه ، ثم طواعية الكلام له ، وقد فخر بنو أمية بمزاته الخطابية وقالوا إنه « أخطب الناس قائماً وقاعدا ، وعلى منبر وفى خطبة نكاح » ولم ترد عنه خطب كثيرة تناسب هذه الشهرة . وأكثر خطبه بعد مقتل عثمان . ودخوله مع على فى محاورات وجدل سياسى .

سعة حيلته

لم يكن معاوية وهو وال فى الشام بحاجة إلى خطب كثيرة أو طويلة ، فقد كان جيشه أطوع جيش ، وقومه أطوع قوم . وكان معاوية أكثر من أى حاكم أموى ، وربما أكثر من أى حاكم فى عصره — بصراً بالسياسة وقدرة على الاستيلاء على قلوب أتباعه ، وقد استعمل المال تارة واللين أخرى ، وتأويل النصوص والأحكام ثالثة وهكذا ، وكان جوده بالمال وجود الأمويين من بعده من أهم الأسباب التى ألفت قلوب رعاياهم وجمعهم حولهم ، فقد كان على بن أبى طالب حريصاً على ألا ينفق شيئاً من بيت المال فى غير وجهه الشرعى ، فيعدل الناس إلى معاوية .

قدم عقيل بن أبى طالب على أخيه على يشكو تأخر العطاء وغلاء الأسعار وثقل الدين ، فقال له على : والله ما لى مما ترى شىء إلا عطائى ،

---

(١) معن : عميق مبالغ ، وهوادى الكلام نوازعه وفروعه ، جمع هادية والمهذر ، الذى يكثر هذر الكلام ، ولا يصل أعماق مراده .

فإذا خرج فهو لك : فقال عقيل : . . . وماذا يبلغ منى عطاؤك ، وما يدفع من حاجتى ؟ فقال على : هل تعلم لى ما لا غيره أم تريد أن يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك بأموال المسلمين ؟ . . .

فخرج إلى معاوية فقص عليه ما حدث ، فرحب به معاوية وأكرم نزله وقال : يا أهل الشام ، هذا سيد قريش وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فثاب إلى أهل الدعاء إلى الحق . . . إن جميع ما تحت يدى لى ، فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه ، . . . وأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، وقال : مائة ألف تقضى بها ديونك ، ومائة ألف تصل بها رحمك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك (١) .

ولما قتل عمار بن ياسر أبدى عمرو بن العاص أسفه ، وذكر الحديث أنه تقتله الفئة الباغية فقال له معاوية : قبحك الله من شيخ ، فما تزال تنزلق فى قولك ، أو نحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به ! ثم التفت إلى أهل الشام فقال : إنما نحن الفئة الباغية التى تبغى دم عثمان (٢) .

وهكذا كان يجد من التأويل والسخاء ما يستميل به قومه . وقد أعفاه ذلك من الخطب ، فلم تكن له إلا كلمات قصيرة يوجههم بها فيتجهون ويأمرهم فيطيعون ، ولكن كثرت خطبه منذ خلافه مع على ولم تنقطع بعد عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) حين تنازل له الحسن بن على ، وقد قدم المدينة فى هذا العام ، فقال له رجال من قريش : الحمد لله الذى أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فلم يرد عليهم بكلمة حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ، ١/١٣٦ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ، ٢٠٣ . وفى ابن أبى الحديد والعقد أن قائل الحديث هو عبد الله ابن عمرو .

أما بعـــد :

فانى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ، ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت منى نفاراً شديداً ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة ، مواكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحكقم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يثرى وإن قل أغنى .

أول خطبة له بالمدينة

وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة . .

* * *

كاشف معاوية مستمعيه من أهل المدينة بأنهم لم يختاروه حاكماً ولكنه قهرهم على قبوله، وهى مقدمة يعرفهم بها أنه غير مخدوع بهم، ولا بما يسمع منهم من كلمات المجاملة ، ولكنه مع هذا لم يفته أن يطمئنهم فى أثناء خطبته أنه لا يؤاخذهم بما فى نفوسهم من كراهة له . وانتقل من هذا إلى أنه لا يستطيع أن يتقشف تقشف الخليفتين الأولين ، ولعلهم ربما نفروا من هذا التقشف ورضوا بما ينالهم من عطائه ، أما سنيات عثمان التى ذكرها ، فإنما أراد بها الثناء عليه ، فعثمان لم يكن متقشفاً ، ولكنه كان يجود بماله الخاص ، وكان من الأثرياء . . ثم مناهم بالمؤاكلة الحسنة والمشاربة الجميلة ، وهى طريقته فى الاستمالة بالمال . وهو يعلم أن أهل المدينة لا يقرون له بسهر الليل تهجداً وقراءة قرآن ولا بميزة من العبادة ، فذكر أنه إن لم يكن خيرهم فى هذا فحكمه خير لهم من حكم غيره .

تحليل هذه الخطبة

ومن سياسته أن أعلن أنه لن يؤاخذ عدوا له بعداوته ما دام لا يثير عليه فتنة ، ولا يشن حرباً ، وهي سياسة نجدها فى خطب زياد والحجاج .

ولعلم معاوية بعدم الرضا عنه حذر من الفتنة .

خطبة غير طويلة ولكنها جامعة لكل جملة منها غرض مستقل .

ولمعاوية خطب أخرى أكثرها قصير،وبعضها فى مثل هذا الطول أو أكثر قليلا وله خطب دينية خالصة فى مثل هذا الأسلوب .

سياسته كما يصورها :

كان معاوية يدرك أن الخلافة من حق على وأبنائه ، وأن الناس لهم أميل ، ولكنه كان يرى أنه أقدر منهم سياسة ، وأبصر بطرق الحكم ، ودفعه طموحه لهذا أن يأخذ الحكم منهم ، وقد أرسل إلى الحسن بن على رسالة صريحة فى هذا جاء فيها :

« ... أما بعد فأنت أولى بهذا الأمر منى لقرابتك ، ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايعتك ، فسل ما شئت » ! . ووقع على ورقة بيضاء وأرفقها بالرسالة ، وهى كياسة منه وحسن تأت لما يريده(١) . وكان يقول : لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها(٢) . وكان أنصار على يثنون عليه أمامه فيصفونه بالتقوى والورع وقيام الليل ، فيترحم عليه ويقول : لقد كان كذلك . وهكذا كانت سياسته قائمة على استمالة الناس بالحيلة واللين والدهاء .

---

(١) الطبرى : ٥/٢ .
(٢) العقـد : ١٣٠/٥ .

بيعة يزيد

وعندما أراد أخذ البيعة لابنه يزيد لم يشأ أن يطلبها من الناس بنفسه أو يظهر اقتراحها عليهم ، ولكنه أوعز بها إلى آخرين من الشعراء والخطباء ، ويقال إن المغيرة بن شعبة هو صاحب الفكرة ومزينها فى رأس معاوية ، وكان المغيرة على الكوفة ، وعلم أن معاوية يريد عزله ليولى مكانه سعيد ابن العاص ، فتقرب إلى معاوية بهذه الفكرة ، وقال له : « وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان »(١) . ولكن يبدو أن الفكرة كانت موجودة قبل ذلك ، لأنا نجد زوجة معاوية فاختة أم ولده عبد الله تصده عن هذا العمل فيجهد جهده فى إنجازه ، أوصى صفيه الضحاك بن قيس الفهرى أن يقترحه على ملأ من الناس ، وأوصى آخرين أن يؤيدوا الضحاك ففعلوا(٢) ، ورغم معارضة من عارضوا ولى معاوية الضحاك على الكوفة مكافأة له ، وولى عبد الرحمن بن عثمان الثقفى على الجزيرة لأنه كان أول من أيد الضحاك بإيعاز معاوية ، ثم عزل مروان بن الحكم عن المدينة لأنه كتب له أن قريشاً تأبى بيعة يزيد ، ثم هدد معارضيه أبناء الصحابة بالقتل،وكذب على أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء بايعوا ، فى قصص معروف ، وكل هذا الحماس ينبىء أن الفكرة لم تكن طارئة ، ولا يبعد أن يكون معاوية أوحى بها إلى المغيرة ، على أننا نجد المغيرة يبذل جهداً بالكوفة لاستمالة الناس بالمال .

ونجد معاوية أيضاً يجد فى الاتصال بولاته ليرسلوا إليه وفوداً يؤيدون

---

(١) الإمامة والسياسة ١/٢٦٣ . تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٢) أوحى معاوية بهذا أيضاً إلى مسكين الدارى الشاعر فوقف فى المسجد وأنشد :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلا فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوية : اجلس يا مسكين،وننظر فيما تقول ، متظاهراً بأن ذلك اقتراح الشاعر وليس بإيعاز منه .

ترشيح يزيد لولاية عهده ، ثم يخطب فى المدينة مزكياً ابنه منحلا لتوليته بعلل شتى .

ويقول صاحب العقد الفريد(١) : إنه لما مات زياد أظهر معاوية عهداً مفتعلا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية لزياد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين . . حتى استوثق له من أكثر الناس . فلما كانت سنة خمس وخمسين ، كتب إلى سائر الأمصار فوفد عليه من كل قطر قوم ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمر ابن حزم ، فكان مما قاله لمعاوية : يا أمير المؤمنين، إن الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تولى أمة محمد ، فأخذ معاوية بهر(٢) حتى تنفس الصعداء(٣) ، وذلك فى يوم شات ، ثم قال : إنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم ، فابنى أحب إلى من أبنائهم .

بوجه عام كانت سياسة معاوية مجاراة لوصية أبيه — غداة تولى عثمان الخلافة : « تلقفوها تلقف الكرة ، ولا تدعوها تفلت من أيديكم » ، فكان حريصاً على بقائها فى عقبه .

والمشهور بين المؤرخين أن المغيرة بن شعبة هو صاحب هذه الفكرة ، فإن صح هذا فهو اقتراح صادف هوى وعزماً سابقاً من معاوية ، يدل على ذلك هذا التصميم البالغ الحد ، ويذكر ابن الأثير أن معاوية ذهب إلى المدينة فى ألف من رجال الشام ليرغم أبناء الصحابة المعارضين على البيعة ليزيد .

ومعنى هذا أن معاوية يحسن التأتى لما يريد ، ويهيئ للأمر الذى يريده مختلف الأسباب ، فإذا دعا الأمر إلى استعمال القوة استعملها ، ولكن بعد استنفاد حبل السلم .

---

(١) ج ٥ ، ص ١٣٠ .

(٢) البهر : انقطاع النفس .

(٣) كبرحاء : تنفس طويل .

وصية يزيد

أما وصيته التي تركها لابنه يزيد عندما مرض مرضه الأخير فهي تنبيء حقاً عن معرفته بالناس ودرسه نفسياتهم ، وهي ترد في كتب الأدب والتاريخ باختلاف يسير في عباراتها(١) . ويقال إنه لم يشافهه بها ، ولكنه طلب من كل من الضحاك بن قيس الفهري ، ومسلم بن عقبة المرى ليبلغاها إياه إذ كان هو غائباً ، ويقال إنه دعا يزيد نفسه وألقاها عليه . ولكنها رواية مرجوحة تدحضها ظروف موت معاوية ودفنه . فمن الثابت تاريخياً أن الذي تولى غسله ودفنه هو الضحاك بن قيس ، وأنه خطب الناس فقال :

« إن ابن هند قد توفي ، وهذه أكفانه على المنبر ، ونحن مدرجوه فيها ، ومخلون بينه وبين ربه ، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة » ولو كان يزيد حاضراً لم يكن الضحاك ولا لغيره أن يفعل شيئاً من هذا .

وقع موته عند خصومه :

ليس عجيباً أن يبكي معاوية بعض خصومه مثل عبد الله بن الزبير وابن عباس ، ذلك أنهم كانوا يقدرون دهاءه ومقدرته السياسية ، كما كانوا يتوقعون آثاراً سيئة من يزيد الذي أخذ له أبوه البيعة كرهاً عنه .

أما عبد الله بن الزبير فجاء عنه أنه صلى بالناس الصبح ثم انفتل من الصلاة ونشج ثم قال :

« رحم الله معاوية إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا ، وما ابن أنثى بأكرم منه ، وإن كنا لنعرفه يتفارق لنا(٢) ، وما الليث المجرب بأجرأ منه » وأنشد البيتين السابقين عن خطابته ثم قال : «والله لودى أنه يبقى بقاء أبي قبيس لا يتخون له عقل ، ولا تنقص له قوة » .

وأما ابن عباس فجاء عنه روايتان ، جاء أنه استأذن على معاوية ليزوره

---

(١) انظر الأغاني ، جـ ١٧ ، ص ١١١ ، طبعة دار الكتب .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١٣ .

فى مرضه ، فأخذ معاوية يهيء نفسه قبل أن يدخل عليه ، فلما دخل وجلس تمثل معاوية :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فأجاب ابن عباس :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فما خرج حتى سمع الصراخ على معاوية ، وهى رواية فى كثير من كتب الأدب . وجاء فى الأغانى أنه أتاه نعى معاوية وولاية يزيد، وهو يأكل مع أصحابه ، فألقى اللقمة وأطرق ، ثم قال : جبل تدكدك ، ثم مال بجميعه فى البحر ، واشتملت عليه الأبحر ، لله در ابن هند ما كان أجمل وجهه وأكرم خلقه ، وأعظم حلمه . ولما استنكر عليه بعض سامعيه قال له : « ويحك : إنك لا تدرى من مضى عنك ، ومن بقى عليك ، وستعلم » .

وهذا واضح فيما يتوقع من يزيد .

نص الوصية :

وردت هذه الوصية بصيغ مختلفة قليلا فى كتب التاريخ والأدب ، وننقل هذه الصورة من الإمامة والسياسة :

« يابنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته(1) العبادة « فخل بينه وبين دينه

---

(1) أنهكته وذهبت بقوته .

يخلى بينك وبين دنياك »(١) ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها لك فظفرت عليه فقطعه إرباً إرباً »(٢) .

وهناك رواية أخرى تذكر شيئاً عن أهل الأقطار العربية ، جاء فيها : « انظر إلى أهل الحجاز ، فإنهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وانظر إلى أهل العراق ، فإن سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم(٣) . ثم انظر إلى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار(٤) ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، لا يقيموا( ) فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم ، ولست أخاف أن ينازعك هذا الأمر غير عبد الله ابن عمر ... إلخ » .

وفى رواية ثالثة : لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة . . ولم تذكر هذه الرواية عبد الرحمن بن أبى بكر . وهناك رواية رابعة تجعل هؤلاء خمسة وتزيد عبد الله بن عباس .

---

(١) ليست فى الطبرى .

(٢) فى رواية : فإنه خب ضب ،فإن ظفرت به فاسحق رأسه ، فإنه رأس الأفعى . والخب « كبُر » الماكر الخبيث .

(٣) لا تدرى ما يكنون لك ولا ما يصيبك منهم .

(٤) الشعار ما يلى الجسم من الثياب ، والدثار ما فوقه .

(٥) العبارة إنشائية صيغة نهى ، ولذا جزم الفعل .

تحليل الوصية

هذه الوصية تعكس صورة واضحة من سياسة معاوية ، ومعرفته بالناس ، وبالشعوب ، وما ينبغى أن يعامل به كل قطر وكل شخص . وربما زيد فى هذه الوصية ما لم يكن فيها ، ولكن هذه الزيادة ليست بعيدة عن رأى معاوية ، ولا عمن قيلت فيه ، ولكننا نستبعد ذكر ابن عباس ، لأنه لم يكن متطلعاً للخلافة ، ولا بدا فى محاوراته مع معاوية أنه يريد الحكم لنفسه ، بل كان يراه حقاً للحسين ، وحكم معاوية على أهل العراق هو أصدق حكم وأصوبه ، فهم خذلوا الحسين فعلا بعد أن استحثوه ، وحكمه على أبناء الصحابة حكم خبير بنفسياتهم ، وعبدالله بن الزبير يتهم من كثيرين بأنه هو الذى حرض الحسين على الخروج إلى العراق ، وزين له المطالبة بالحكم ، وكان يعلم أن العراقيين لن ينصروه ، ولكنه يريد أن يخلو له الجو بعد الحسين ، ولم يكن بعد الإمام على من هو أقوى من حزب الزبيريين ، وكان عبد الله خليقاً أن يقضى على الحزب الأموى كله للكثرة التى التفت حوله ، ولكن بنى أمية كانوا أبصر بالسياسة ، وأقدر على تأليف القلوب بما يبذلون من الأموال .

ولمعاوية ويزيد ابنه خطب دينية بعيدة عن شئون السياسة ، وخطب يزيد الدينية تصور قدرته على الخطابة أكثر مما تصور نفسيته .

وهناك جانب آخر يبرز سياسة معاوية ودهاءه ومقدرته السياسية وجرأته الشديدة ، ذلك هو كتاباته الكثيرة لعلى نفسه ولأتباعه من مثل قيس بن سعد وأبى أيوب الأنصارى ، وقد استطاع أن يستميل زياداً إليه بهذه الطريقة .

معاوية فى نظر التاريخ

خلاصة القول فيه أنه رجل سياسة وليس رجل دين ، وهو فضلا عن رغبته العظيمة فى تولى الحكم يرى نفسه أولى به من بنى هاشم ، كما قال للحسن بن على : أنتم أهل عبادة ولكن لا علم لكم بالحكم . ولحبه الحكم حرص على توريثه يزيد ابنه مع علمه بما فيه . وقد لامه عليه الكثيرون حتى السيدة

عائشة أم المؤمنين لامته عليه ، ومن الناحية الثانية وحد معاوية الدولة تحت حكمه ثم قادها قيادة ناجحة ، وسع حدود الدولة الإسلامية وأنشأ أول أسطول إسلامى واقتص أطرافاً من الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، كل هذا والأمة الإسلامية تتمتع برخاء ، ولم يقصر فى نشر العلم وبث الوعظ والثقافة الدينية .

٢ — يزيد بن معــاوية

كانت أم يزيد هى ميسون بنت بحدل من قبيلة كلب ، وهى قبيلة كبيرة أصهر إليها هو وعمرو بن سعيد وعثمان بن عفان وغيرهم . ولعل معاوية التمس بهذا الإصهار أن يكون له سند من هذه القبيلة البدوية ، وإلى ميسون هذه يرجع أكبر الأثر فى تكوين يزيد ، وقد كانت كثيرة الحنين إلى حياة الصحراء ، وكانت تذهب إليها كثيراً وتصطحب يزيد معها ، وكانت قبيلتها نصرانية أسلم منها بعض وبقى آخرون على نصرانيتهم ، وباختلاط يزيد بهم تعلم الشرب كما تعلم الفروسية والفصاحة ، وكان الأمويون يبعثون بأبنائهم إلى هذه الصحراء — صحراء تدمر أو صحراء الشام كما سميت بعد — ليتعلموا اللغة ويسلم لسانهم من اللحن ، ولما لم يرسل عبد الملك ابنه الوليد إليها نشأ لحانة . كان يزيد مع ميله للمجون وحبه للغناء(١) والشراب ، فارساً شجاعاً وعينه أبوه قائد حملة بحرية لفتح القسطنطينية ، وقد أحرزت هذه الحملة نجاحاً وإن لم تفتح القسطنطينية ، وأطلق على يزيد بعدها اسم فتى العرب ، وكان ذلك تمهيداً لتقليده ولاية العهد .

وليزيد خطبة شهيرة قالها عقب وفاة أبيه وإفضاء الخلافة إليه منها :

« ... إن معاوية كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من قبله وهو خير ممن بعده ، ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه .

---

(١) كان مسلم بن عمرو أبو قتيبة بن مسلم مغنى يزيد (عيون الأخبار ٥/٢١٣) .

وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا آسى على طلب علم(١) ، وعلى رسلكم إذا كره الله أمراً غيره » .

٣ – عمــرو بن العاص

هذا رجل مشهور بلسنه وطموحه ودهائه ، وكان عمر بن الخطاب إذا رآه ماشياً يقول : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا .

وقد رأى معاوية بثاقب بصيرته أن يضمه إليه ، وأعطاه مصر طعمة له. وكان مدرهاً(٢) فصيحاً قوى الحجة بعيد مرامى الكلام ، وكان عمر إذا تلعثم أمامه شخص يقول: أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو قريب الشبه من زياد ابن أبيه فى خسة نسبه ، وأمه قريبة الشبه من سمية ، وكانت تدعى النابغة ، قيل هو اسمها ، وقيل اسمها سلمى ، وسميت النابغة لأنها كانت بغياً ، وقد عيره الحسن بن على فقال له : وضعتك أمك مجهولا من عهر – أى من فجور .

كانت أم عمرو أمة لرجل من عنزة ، فنالها سبى وبيعت بمكة فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، من أجواد قريش وأعلام تيم ، والذى كان فى بيته حلف الفضول ، فأعتقها وكانت بغياً فوقع عليها فى طهر واحد خمسة من رجال قريش هم : أبو لهب بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب ، وأمية بن خلف الجمحى ، وهشام بن المغيرة المخزومى ، والعاص بن وائل السهمى ، فولدت عمرا هذا وكل منهم ادعاه لنفسه ، لكن النابغة نسبته للعاص بن وائل(٣) ، ويقال إن ذلك لأنه كان

---

(١) عبارة عيون الأخبار : ولا اشتغل بعلم. وآثرنا رواية العقد الفريد، وهو يعنى أنه مستكمل ثقافته .

(٢) بليغــاً .

(٣) كان هذا من طرق الزواج عند العرب ، يطأ الرجل المرأة فإذا ولدت منه صارت له زوجاً ونسب الولد إليه ، وقد كرهت النابغة أبا سفيان لبخله .

ينفق عليها أكثر ، وكان عمرو شديد الشبه بأبي سفيان بن حرب ، وقد هجاه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب فقال :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت   لنا فيك منه بينات الشمائل

واشتهر عمرو بسعة الحيلة وقوة الشخصية وحب الرياسة ، وجراءة القلب ، وكان يعهد إليه بحل مشكلات الأمور ثقة فى ذكائه وسعة حيلته ، وهو سفير قريش إلى النجاشي ليرد المسلمين المهاجرين ، ثم هو فاتح مصر ، وأحد الدهاة الأربعة المشهورين .

محاورته الحسن ابن على.

بعد انضمامه إلى معاوية كان شديد الهجوم على العلويين مولعاً بالنيل منهم ، وله محاورات كثيرة معهم خصوصاً الحسن بن على وابن عباس .

قال عمرو مرة لمعاوية :إن الحسن أفه(١)،فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من أعينهم ، ففعل معاوية ، فتكلم الحسن وأجاد ثم قال : أيها الناس ، لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين لابتيها لم تجدوه غيرى وغير أخى ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . فساء ذلك عمراً ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد . أتصف الرطب ؟ .

قال الحسن : أجل . . تلقحه الشمال ، وتخرجه الجنوب وتنضجه الشمس وتصبغه . فغاظ ذلك عمراً أكثر .

مواقفه مع ابن عباس

وله مع ابن عباس مواقف كهذا ، ولكن ابن عباس كان يعيره بأمه ، وبهربه يوم صفين ، وكشفه عورته أمام على ليتقى بها سيفه ، وكان عمرو يقول له : والله ما فى قريش أثقل على مسألة ولا أمر جواباً منك(١) ؛ وقال له مرة : إنى والله لمسرور بك . . فهل ينفعنى عندك ؟ فقال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا .

---

(١) من الفهاهة وهى العى والعجز عن الكلام .

(٢) العقد الفريد وشرح ابن أبى الحديد ١/١٩٦ .

وأمر من المرة والقوة : أى لا أجد جواباً أصعب من جوابك .

وكذلك له مواقف كهذه مع عبد الله بن الزبير ، ولكنهم جميعاً كانو يقطعونه بسابقتهم فى الإسلام ، وشرف نسبهم ، ولم يكن ذلك كله يوهن عمراً ، لأنه كان بعيد الهمة محباً للرياسة ، وكان يقول : عليكم بكل أمر مزلقة مهلكة ، أى اطلبوا الأمور الشاقة التى تعرض للزلق وللهلاك .

أبرز صفاته

وهو قائد شجاع موفق فى حروبه ، ولكنه طموح يحب الرئاسة ويأنف أن يكون تابعاً ، وكان معاصروه يلجأون إليه فى حل مشكلاتهم العويصة ، ويعرفون مكانته العقلية والسياسية ، ولما طلب مصر من معاوية طعمة له تلكأ معاوية ، فقال له أخوه عتبة : « أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر إن هى صفت لك ؟ . ليتك لا تغلب على الشام » فأعطاه إياها . وكان معاوية فى مأزق ، إذ كانت ثورة بمصر قادها ابن أبى حذيفة ، وهجوم من قيصر الروم لطلب الشام ، وتهيؤ على ابن أبى طالب للحرب ، فوجد لديه الحل الملائم من مهادنة القيصر ، وقتل ابن حذيفة والتفرغ لحرب على ، وقد كتب لابن عباس خطاباً جاء فيه :

خطابه إلى ابن عباس

« فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبراً ، واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا لمن يكره البقاء كما فيكم » .

وجاء فى رد ابن عباس عليه :

رد ابن عباس

« إنى لا أعلم رجلا أقل حياء منك فى العرب ، مال بك الهوى إلى معاوية وبعته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس فى عشواء طمعاً فى هذا الملك ، فلما ترامينا أعظمت الحرب إعظام أهل الدين ، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع ، لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب وكسر أهل الدين ، فإن كنت تريد الله فدع مصر وارجع إلى بيتك ... » .

رجل سياسة وحب جاه

وعمرو كمعاوية رجل سياسة أكثر مما هو رجل دين ، وكان وهو وال على مصر فشت له فاشية من مال ونعم ، وكانت له تجارة فأنكر عليه عمر ذلك فأجابه : ألى يوجه اللوم فى ذلك . . لقد كان جدى وائل يلبس الجبة سداها الذهب ولحمتها الفضة . . يريد أنه لم يكن مقلا قبل ولاية مصر . لكن عمر أرسل إليه رسولا حاسبه وقاسمه ثروته ، وضم ما لم يره حقاً له إلى بيت المال .

وجاء فى النجوم الزاهرة أنه ترك إردبين من الذهب ، فتورع ولداه عبد الله ومحمد عن أخذ شىء منهما وردا المال كله إلى معاوية .

وأبرز عمرو فى حكومته بمصر خير مثال للتسامح الدينى ، وخير مثال للعدل الاجتماعى ، خفف الضرائب عن الزراع ، وساعدهم على تنشيط الزراعة ، ولما طلب عمر منه الخراج وألح فيه استمهله وأبى أن يرسل إليه شيئاً حتى ينتهى الحصاد حرصاً على الزراع أن يبيعوا شيئاً من ماشيتهم ، أو أن تضعف زراعتهم . وأحبه المصريون كما لم يحبوا أى وال آخر عليهم ، رضى الله وعفا عنه .

٤ ــ عتبة بن أبى سفيان

ولاه أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ ، وكان قد حج بالناس سنة ٤١ ، ٤٢ ، وولى المدينة والطائف لأخيه غير مرة ، وشهد موقعة الجمل مع السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ وفيها ذهبت عينه ، ولنجاح سياسته بمصر جمع له معاوية الصلاة والخراج ، وعتبة قريب الشبه من أخيه فى سياسته ، كان يعلم أن أهل مصر فيهم كثرة من أتباع على ، فأخذهم بالشدة حيناً واللين حيناً حتى أرغمهم على الخضوع لبنى أمية ، وكان أخطب من معاوية ، بل من أخطب بنى أمية ،حتى قال الأصمعى : الخطباء من بنى أمية عتبة وعبد الملك ، وأقوى خطبه ما كان بمصر ، وهى خطب مليئة بالتهديد ، وقد نجح فى تهديده حتى إنه خطب مرة فقال :

« ... قد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبيتم درأكم(١) بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ... لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل : فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه. » فصاح المصريون من جنبات المسجد سمعاً سمعاً ، فناداهم عتبة : « عدلا عدلا »(٢) .

ومن خطبه ذات التهديد :

« يا أهل مصر : خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفاراً ، أثقله حملها ولم ينفعه علمها ! وإني والله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما اكتفيت بالسوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة ، ولا أبطيء عن الأولى إن لم تصلحوا على(٣) الأخرى » .

ولا نقف بعد ذلك عند كل خطيب منهم ، ولكننا نذكر عبد الملك ، وقد قدمنا أنه كان يحسب للخطبة حساباً حتى كانت سبب شيبه ، وكان سليمان ابنه خطيباً ويحب كلام الأعراب وأوصاف السماء والمطر ، ومن خطبائهم عمر بن عبد العزيز ،والوليد بن يزيد ، ولكن أسقطه مجونه وكلفه بسعدى وسلمى ، ويزيد الناقص وله خطب قوية بليغة .

ومن الخطباء المنتمين إلى هذا الحزب ولا يجدر بدارس الخطابة أن يغفلهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وعمرو بن العاص ، وزياد والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد ، ومن خطباء ولاتهم قتيبة بن مسلم الباهلي ، والنعمان بن بشير الأنصارى ، والضحاك بن قيس الفهرى ، ونصر بن سيار . . وغيرهم .

والحق أن أكثر ولاة بني أمية وقوادهم كانوا خطباء ، وقد قلنا من قبل إن دواعي الخطابة كانت متوفرة ،واللغة كانت طيعة ، ولهذا كثر الخطباء

---

(١) دفعكم .
(٢) النجوم الزاهرة ، ١٢٣/١ .
(٣) إذا لم تصلحوا على الأمر الهين أسرعت إلى العقوبة الشديدة .

جداً فى هذا العصر . وهناك أيضاً قبائل اشتهرت بالخطابة ، فكنت تجد الرجل وابنه وأباه وجده وبعض حفدته كلهم خطباء ، ومن أشهر القبائل فى إجادة الخطابة تميم وإياد ، ثم ثقيف وأزد اليمن ، وكان القرشيون لكثرة شعبهم وعددهم وللفصاحة المتأصلة فيهم أكثر القبائل خطباء . ولا يتسع الحديث هنا لذكر كثرة من أولئك أو هؤلاء ولكنا نذكر بعضاً ، لنضع أمامك بعض المثل ، فإذا شدوت حظاً من ذلك فارجع إلى المصادر الأصلية من كتب التاريخ والأدب لتشبع رغبتك من المزيد والدنو من الكمال .

٥ — زياد ابن أبيه

أهمية شخصيته

شخصية زياد تستحق أن نقف لديها أكثر مما نقف لدى أى شخصية أخرى من خطباء هذا العصر ، فعرض سيرته لا يقف عند مقدرته الخطابية ، ولكنه يظهر جوانب من محاولات السياسة وتأويل الفقه ، وتيارات الأحزاب والجماعات ، كما يظهر جوانب أخرى من بعد النظر وعمق التفكير وتقدير الأحداث المتوقعة . لهذا نقف أمامه وقفة لا نرى أن تكون قصيرة ولكنها غير مسرفة فى طولها .

نشأته وأصله :

ولد زياد بالطائف ، فى السنة الأولى من الهجرة ، أو ربما بعدها بقليل ، ويقال أيضاً إنه ولد عام الفتح ، وأمه كانت تدعى سمية ، كانت لدى الحرث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور . قيل إنها كانت أمة لكسرى ، فأعطاها أبا الخير بن عمرو الكندى ، فوهبها أبو الخير الحرث بن كلدة لأنه أصحه من مرض كان يشكوه ، وقيل بل كانت لدهقان فارسى كافأ بها الحرث لإبرائه من مرضه ، وولدت سمية للحرث نافعاً ونفيعاً ، وكان نفيع أسود اللون فأنكره الحرث وانتفى منه ، وقيل له إن سمية بغى فانتفى من الولدين جميعاً وترك سمية ، وزوجها عبداً رومياً(١) كان لابنته فولدت

(١) قيل أيضاً أنه عبد عربى من ثقيف .

له زياداً هذا ، وكان الإخوة الثلاثة على حظ من الذكاء والحكمة ، وهم جميعاً موضع شك واضطراب فى أنسابهم .

ولما فتحت الطائف نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من نزل وانضم إلى المسلمين فهو عتيق وولاؤه لله ورسوله ، فنزل نفيع متدلياً بحبل فى بكرة فسمى أبا بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يعتز بهذا الولاء ، وانضم نافع إلى أبيه ، ثم أذعنت ثقيف كلها ودخلت الإسلام فأصبح زياد وأخواه مسلمين .

وحين أنشىء معسكر البصرة فى عهد عمر استقر بها كثير من الفاتحين والعرب ، وفى سنة ١٤هـ أو نحوها عين عتبة بن غزوان عاملا عليها ، وعتبة كان زوجاً لبنت الحرث بن كلدة فاصطحب معه أقرباءه وأصهاره وعبيداً وسمية وأبناءها الثلاثة نافعاً وأبا بكرة وزياداً ، ولما فتح عتبة الأبلة(١) أصاب بها غنائم كثيرة ولم يجد بين المسلمين من يحسن الكتابة ويحسب هذه المغانم غير زياد ، وكان يومئذ غلاماً فى رأسه ذؤابة ، فجعل له كل يوم درهمين ويقال إنه كان فى الرابعة عشرة من عمره(٢) ، ثم ظل يصحب الجيش فى فتوحاته فى الشرق يكتب للناس الحساب ويدون أسماء المحاربين .

ويبدو أن زياداً لذكائه الخارق تعلم الحساب والكتابة ممن كانوا يعرفونها بالطائف ، ثم كانت شخصيته هى التى مكنت له أن يظهر أمام القواد ، وجعلتهم يثقون به على صغر سنه ويولونه الأعمال .

صلته بأبى سفيان :

كانت البغايا فى الجاهلية لهن رايات يعرفن بها ، وكان لهن مكان أو أمكنة خاصة ، وكان الفتيان ينتحون هذه الأماكن ، وكان من العرب من يكرهون

---

(١) بلدة على شاطىء دجلة غرب البصرة ، وكان نهر الأبلة يعد من جنان الدنيا .
(٢) الطبرى ٣/٩٥ .

فتياتهم على الذهاب إلى هذه الأماكن طلباً للمال وابتغاء لعرض الحياة الدنيا ، وكانت سمية ممن يغشينها فيقال إن أبا سفيان خرج إلى بعض الأماكن وهو ثمل فسأل صاحبة الراية عن فتاة ، فلم يجد غير سمية ، فقال هاتها على نتن إبطها ، فوقع عليها فولدت له زياداً على فراش عبيد .

هذه رواية جاءت فى كتب التاريخ والأدب ، ذكرها ابن عساكر وصاحب العقد الفريد وابن أبى الحديد وغيرهم . ومع هذه الكثرة نجد بها هنوات تبعث على عدم الاطمئنان إلى تفاصيلها ، فسمية كانت فارسية جميلة ، وكان زياد أحمر اللون(١) ، والفارسيات أرق وأنظف من العربيات ، فكيف تكون سمية نتنة الإبطين ؟ . ثم إن علم أبى سفيان بصفاتها يدل على أنه كان يعرفها من قبل ، وفى مثل هذا الموضع يتردد على الفتاة عدد من الشبان . وإذن فميلاد زياد ليس مقطوعاً أنه نتيجة هذا اللقاء ، ولا أنه ابن أبى سفيان دون غيره .

خطبته واعتراف أبى سفيان به :

قيل إنه لما فتح سعد بن أبى وقاص جلولاء أرسل زياداً بحساب غنائمها إلى عمر بن الخطاب ، فأدى مهمته بكفاية بالغة ، وحدث عمر عن فتوحات الجيش الإسلامى ببلاغة لفتت نظر الخليفة ، فأمره أن يخطب الناس من فوق المنبر بما حدثه به ، فخطب وأبدع حتى وصفه عمر بأنه خطيب مصقع . فقال زياد : « إن جندنا أطلقوا بالفعال ألسنتنا »(٢) . وكانت هذه الخطبة أول ما ظهر من مقدرته الخطابية ولفتت الأذهان نحوه ، وبها استلحقه أبو سفيان(٣) .

ويقال إن عمر أرسله إلى اليمن لإصلاح فساد كان قد نجم بها ، فلما عاد

---

(١) الطبرى ٤/٢١٦ .
(٢) المصدر السابق ٣/١٣٦ .
(٣) العقد ٥/٢٩٠ .

خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاص: « لله در هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق العرب بعصاه » . فأخبره أبو سفيان أنه ابنه وأنه هو الذى ألقى به فى رحم سمية .

ويقال أيضاً : إنه ألقى خطبته وأبو سفيان وعلى بن أبى طالب عند أصل المنبر ، فقال أبو سفيان لعلى : أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ . قال : نعم . قال : إنه ابن عمك ، أنا قذفته فى رحم سمية . قال على : فما يمنعك أن تدعيه ؟ . قال : أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد على إهابى ؟ . وهو يريد أنه يخشى عمر أن يقيم عليه حد الزنا ، ويقال إنه قال إنه لم يستلحقه جهراً أنفة منه .

والرواية الأولى تبدو عليلة جداً ! فمن ناحية أن أبا سفيان لم يكن يجهل أن الإسلام يجب ما قبله ، ويمحو أعمال الجاهلية . وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك لكثيرين ، ولم يحاسب أبا سفيان نفسه على ما عمل قبل إسلامه ! . ومن ناحية أخرى أنه ارتكب هذه الفعلة وهو متزوج ، لأنه متزوج قبل عام الهجرة الذى ولد فيه زياد بمدة طويلة ، فإذا كان حقاً يخشى الحد فحده الرجم ، وليس مجرد إفساد الإهاب ، ومن ناحية ثالثة هذا الإقرار لا يلحق زياداً به ، فقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وإذا كان هذا مما يخفى على أبى سفيان فإنه لم يكن ليخفى على الإمام على ، وهو من الممتازين فى الفقه والقضاء ، ولكن معاوية استلحق زياداً بعد ذلك بهذا الإقرار .

اتصـــاله بالولاة :

بسبب نجابة زياد وإجادته الكتابة والحساب لم يستغن عنه ولاة البصرة فظل على صلة بها فى عهد عمر وعثمان وعلى حتى استلحقه معاوية .

كان يكتب للمغيرة بن شعبة ، وكانت بينهما مودة ، ثم كتب لأبى موسى الأشعرى ، وكان له منزلة عنده . وقال أبو موسى وجدت له نبلا ورأياً

فأسندت إليه عملي ، ورأى عمر حدة ذكائه فعزله عن عمله عند أبي موسى ، وقال إنه لم يصرفه عن خيانة ولا تقصير ، ولكنه كره أن يحمل فضل عقله على الرعية .

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وحين كان والى البصرة عبد الله ابن عامر بن كريز ، كان زياد شديد الصلة به ، فكان والياً على الديوان وبيت المال ، وكان ابن عامر إذا شخص عن البصرة يستخلفه عليها ، ولكن ساء ما بينهما بعد ذلك ، وظلت العلاقة بين أولادهما سيئة أيضاً ، ذلك لأن زياداً حفر نهر الأبلة فى غيبة ابن عامر .

وفى عهد على رأى أن يعتزل الفتنة ، وأراد على أن يوليه البصرة فلم يقبل ، فولاها ابن عباس وولى زيادا الخراج وبيت المال ، وكان ابن عباس يستشيره ويستطلع رأيه فى مشكلاته ، ويسند إليه عمله إذا شخص عن البصرة ، وقد جره قيامه بهذه الأعمال إلى الاتصال بالحزب العلوى أكثر فأكثر .

سياسة زياد :

كان زياد داهية بعيد الغور بعيد النظر حصيف الرأى فى معظم مواقفه ، والقاعدة البارزة فى سياسته أنه يسلط بعض أعدائه على بعض ، ويضرب طرفاً منهم بطرف آخر . فيريح نفسه وجنده ويكسب موقفه .

أراد معاوية أن يخرج البصرة من طاعة على فأرسل إليها ابن الحضرمى ليؤدى رسالته ، وكان ابن عباس غائباً وزياد قائماً على البصرة ؛ ونزل ابن الحضرمى على بنى تميم ، فذهب زياد إلى ربيعة يستعينهم ، فلم يجد لديهم عوناً ، فلجأ إلى الأزد — وزعيمهم يومئذ صبرة بن شيمان — فحماه ، واستطاع أن يشب المنافسة بين القبيلتين حتى كادت الحرب تقع بين الأزد وتميم(١) .

---

(١) الطبرى ٤/١٠٦ .

ولما وجهه على إلى بلاد فارس ليطفىء فتنها، وكانت قد خلعت طاعته ومنعت الخراج وطردوا عمال على ، ووضع أهل كل ناحية أيديهم على ما لديهم ، ولعل هذا أشق موقف صادف زياداً ، بل هو أصعب ما يصادفه حاكم أياً كان ، ولو أن زياداً إذ ذاك لجأ إلى السلاح لنشبت حرب كبيرة تستنفد جزءاً أكبر من طاقة على وتطمع معاوية أكثر فيه ، أو تخرج الإقليم كله إليه ، ولكن زياداً لجأ إلى الحيلة واستعمل اللين وربح الموقف بالسياسة لا بالحرب . قال الطبرى : « بعث إلى رؤسائهم فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض .. وقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً» (١) ويبدو أن هذا العمل كان من أهم ما لفت نظر معاوية إليه وجعله يفكر فى فصله عن على حتى واتته فكرة استلحاقه .

استلحاق زياد :

حاول معاوية استلحاق زياد عقب هذا الحادث . فوجه إليه خطاباً جاء فيه : « إن العش الذى ربيت فيه معلوم عندنا ، فلا تدع (٢) أن تأوى إليه ، كما تأوى الطيور إلى أوكارها ، ولولا شىء الله أعلم به لقلت كما قال العبد الصالح : فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون »(٣) .

ثم كتب أبياتاً منها :

تنسى أباك وقد حقت مقـــالته إذ تخطب الناس والوالى لنا عمر
فافخر بوالدك الأدنى ووالـــدنا إن ابن حرب له فى قومه خطر

ولم ينل الخطاب ما كان معاوية يتوقعه ، ولكنه ترك فى نفس زياد أثراً ،

---

(١) راجع تفاصيل هذا الحادث فى ابن أبى الحديد ، جـ ٤ ، ص ٤١ وما بعدها .
(٢) لا تهجره ولا تترك انضمامك إليه .
(٣) يريد أنه قادر على حربه ولكنه يحترم أخوته .

أعلن الخطاب على الناس ، وسخر من معاوية ، وذكر أنه ابن آكلة الأكباد ، ولم ييأس معاوية منه ، واهتم على لما علم به . فبعث إلى زياد بخطاب أيضاً جاء فيه :

« وإنه كانت من أبي سفيان فلتة فى أيام عمر من أمانى الباطل وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثاً ولم تستحق بها نسباً ، وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ثم احذره » .

وكانت نتيجة الخطاب على غير ما رجا على أيضاً ، فقد التقط زياد شهادته بإقرار أبي سفيان وقال : شهد بها ورب الكعبة .

ولما مات على كان زياد فى بلاد فارس وبيده أموالها ، وجندها له طائعون ، فبعث معاوية إليه بخطاب يتهدده ويخيفه ، فلم يعبأ وقال : يتهددنى وأمامه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار . ثم ما لبث الحسن ابن على أن صالح معاوية ، فأصبح زياد بين أمرين : إما أن يستقل بفارس ويبحث عن أحد الشيعة أو عن أى شخص متطلع للخلافة فينضم إليه ، وإما أن يستسلم. ولكن لم يكن ثم شخص ظاهر للخلافة فى حياة الحسن ، يضاف إلى ذلك أن نفس زياد مالت إلى النسب القرشى . حقاً إنه كان يسمى نفسه « زياد بن عبيد » ، وفى رسالة له بعث بها إلى الإمام على قال من زياد بن عبيد ، لكن يبدو أنه كان معروفاً أن أمه من البغايا ، وأنه مطعون النسب ، فإدراك واحدة منهما بنسب شريف أولى ، وإلى هذا الحد لم يبد منه عمل إيجابى للانضمام إلى معاوية ، ومعاوية يخشاه(١) .

لجأ معاوية إلى احتيال آخر ، فكتب إليه يطلب أن يدفع ما لديه من

(١) انظر العقد الفريد ٢٩٣/٣ .

الخراج ، فرد زياد بأنه أنفق ما أنفق واستبقى للمستقبل ما استبقى وسائر الخراج دفع إلى على ، واستراح معاوية إلى هذه الإجابة لأنها لم تنكر أنه أمير المؤمنين الآن وثبت له حق المطالبة بالخراج ، فأرسل إليه يطلب قدومه عليه ، وأبى زياد أن يحضر .

لجأ معاوية إلى التهديد فحبس أبناء زياد : عبد الرحمن ، وعبيد الله ، وعبادا ، وكتب إليه أنه سيقتلهم إن لم يحضر ، فلم يهتم زياد أيضاً ، ولكن أخاه أبا بكرة سعى لدى معاوية ليطلقهم فأطلقهم . ولعل معاوية لم يكن يريد إلا تعريفه أنه قادر على النيل منه بوجه ما ، ولاحظ لمعاوية فى قتلهم إلا إشعال فتنة لا يريدها أن تشعل .

استدعى معاوية المغيرة بن شعبة ليسفر لدى زياد فى إقناعه بالانضمام إليه ، فرمى داهية بداهية ، وباختصار نجح المغيرة فى استمالة زياد وإقناعه وكان بينهما صداقة ، ولزياد عند المغيرة يد تجعله يطمئن إلى أنه لا يخدعه ، فخـــدعه(١) .

كان معاوية قد أرسل معه خطاباً وعده فيه ومناه ، لكن زياداً كان يخشى غدره فاستوثق لنفسه أولا ثم قدم عليه بما معه من أموال فارس ، فقبلها معاوية ، ثم استدعى شهوداً شهدوا أن أبا سفيان أقر به قبل موته(٢) ، ثم خطب زياد فكان من كلامه :

---

(١) اتهم المغيرة وهو وال على البصرة أنه ارتكب الفاحشة ، وشهد عليه ثلاثة منهم أبو بكرة وأخوه زياد ، وتلجلج زياد ، فأقام عمر الحد على الثلاثة الذين شهدوا ، وحلف أبو بكرة لا يكلم زياداً ما عاش . وبذا قامت علاقة بين المغيرة وزياد .

(٢) تم هذا الاستلحاق سنة ٤٤ هـ . جلس معاوية على المنبر وزياد بين يديه فى جمع من الناس وقام جماعة من الناس فشهدوا أنهم سمعوا أبا سفيان يقرر أنه أبوه ، ثم قام أبو مريم السلولى وكان خماراً فى الجاهلية بالطائف ، فذكر أن أبا سفيان قدم عليه مخموراً وطلب أن يلتمس له بغياً فالتمس له سمية ، فرضيها على نتن رائحتها ، وكان زياد ثمرة التقائه بها فى تلك الليلة ، كما بين أن سمية كانت من ذوات الرايات وكانت تنزل منازل البغايا وتؤدى من بغائها مالا للحرث بن كلدة .

« هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لى بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا ، وأما عبيد فإنه والد مبرور أو ربيب مشكور »(١) .

وولى معاوية زياداً البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم ضم له الكوفة ، فأصبح بذلك والياً على العراقين ، وهو أول من جمع له بينهما .

حكومته :

ولى زياد على البصرة وهو يعرف ما بها — كما بالعراق كله — من تفرق الكلمة وتشعب الرأى واختلاف الأهواء ، كما أنه يدرك حرج موقفه بعد تحوله من جانب على إلى جانب معاوية ، وربما خفف هذا الأمر أن الحسن تنازل عن حقه ، ولكن زياداً لم يصبح محايداً ، بل أصبح أموياً ، لهذا رأى أن الشدة أجدى فى هذه الحالة ، فاشتط فى العقوبة حتى عاقب على الظنة ، وأخذ بالشبهة وملأ قلوب الرعية بالرعب منه ، فشمل البلاد أمن عام ، ومع ذلك لم ينقص من أحد أعطية ولا أيأس أحداً من عدله ، وكتب فى مجلسه عنوان سياسته « الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، والمحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته» . وكان يقول « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه » .

وبهذه الحكومة كفى زياد معاوية مشقة إخضاع العراق ، ودل اختياره على دهاء معاوية وحصافة رأيه ، فقد ظل يراوده ولا ييأس من نفوره حتى لان له فربح به ربحاً عظيماً ، وكان زياد بدوره فرحاً بهذا النسب الجديد . وقد جاءه مرة رجل بخطاب من السيدة عائشة رضى الله عنها فى أوله :

---

(١) العقد ٣/٢٩١ .

« من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبى سفيان » . فقال له زياد : إذا كان الغد فجئنى بكتابك ، فلما جاءه جمع الناس وأمر بقراءة الخطاب أمامهم ، ليعلموا أن أم المؤمنين تشهد بصحة نسبه ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكره قال عنه: صاحب البصرة، والكثيرون يقولون «ابن أبيه » . وكان فى تثبيت هذا النسب تثبيت له وقطع للألسنة الساخرة منه والضائقة به .

ولم يترك زياد فى حكومته وسياسته الداخلية ما ألفه من ضرب بعض خصومه ببعض ، وعمل فى العراق على تفتيت وحدة القبائل فقسمها أرباعاً ، وكان سعد بن أبى وقاص قد جعلها أسباعاً ، وكانت قبله أعشاراً ، ونقل بعضاً من الكوفة إلى البصرة ليقلل عدد القبيلة الواحدة ، ويفل شوكة المتآمرين ، والصبغة البادية على حكمه هى الشدة البالغة ، وقد تؤدى إلى ظلم ولكنه لا يبالى بذلك فى سبيل إقرار الأمن والقضاء على الاضطرابات . وقد نجح فى هذا إلى حد أن المرأة كانت تبيت وباب بيتها مفتوح ، والتاجر يدع بضائعه فى السوق ولا يجرؤ أحد أن يدخل بيتاً أو يأخذ شيئاً من مال غيره .

وكان يمزج شدته بما يخففها ويحول بين الناس وبين الوقوع فى عقوبته ، أمر أهل البصرة أول قدومه أن يلزموا بيوتهم ليلا ، ولا يفارق أحد منزله بعد صلاة العشاء ، فكان الناس يهرعون إلى بيوتهم عقب صلاتهم العشاء وربما تركوا نعالهم بالمسجد خوفاً أن يتأخروا فيقتلوا ، أما هو فكان يؤخر صلاته حتى يكون آخر من يصلى ، ثم يأمر قارئاً بترتيل سورة طويلة من القرآن، ثم يقول للحارس : اخرج فإن صادفت شخصاً فاقتله(١) ، فهو شدد ولكنه أعذر إلى الناس بهذا الإمهال .

وكان يقبل أن يناقش فى رأيه ، ولكنه لا يقبل تطاول مناقشيه عليه ، فعندما ألقى خطبته البتراء بالبصرة اعترض عليه أبو بلال الخارجى ، فقال :

---

(١) راجع الطبرى ٤/١٦٧ .

إن الله تعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وأنت تأخذ البرىء بالظالم ، والمحسن بالمسىء ! . فأجابه : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » . ولما سأله شخص عن أبيه قتله(١) ، وألقى فى الكوفة أول ما دخلها خطبة كتلك التى ألقاها بالبصرة فحصبوه ، فأمر باغلاق أبواب المسجد ، وأخذ الذين حصبوه فقطع أيديهم .

وذكر المبرد فى كامله(٢) أنه كان يبعث إلى الجماعة من الخوارج فيقول : ما أحسب الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرجلة(٣) ، فيحملهم ، ويقول : اغشونى الآن واسمروا عندى ، فبلغ عمر بن عبد العزيز فقال : قاتل الله زياداً ،جمع لهم كما تجمع الذرة(٤) ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة(٥) ، وأصلح العراق بأهل العراق(٦) ، وترك أهل الشام فى شأنهم ، وجبى الشام ألف ألف ، وثمانية عشر ألفاً(٧) .

وليس لزياد أثر بارز فى صلاح الأرض وتنمية الزراعة حتى قال عنه الأصمعى أنه أقام تسع سنين على العراق لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة(٨) ، وسبب ذلك أن البصرة والكوفة أنشئتا معسكرين للجند المحاربين ، والفترة التى حكمها زياد كانت فترة حروب وانشغال بالخوارج على

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ص ١٦٣ ، ج ٢ .

(٣) الرجلة : المشى على الأرجل ، وحملهم أرسل إليهم ما يركبونه .

(٤) النمـــلة .

(٥) كما تحوط أولادها ، يريد أحسن تأديبهم .

(٦) سلط بعضهم على بعض ، والعبارة لعمرو بن معد يكرب فى وصف سعد بن أبى وقاص . فتوح البلدان ، ص ٢٧٨ .

(٧) ساق لهم ربما من غيرأ ن يكلفهم مشقة حرب .

(٨) ابن عساكر ٥/٤١٤ .

الأخص ، ولكنه حفر نهر الأبلة وكان خوراً يجرى فيه ماء المطر ، وماء النهر حين مده ثم يجف عند جزره ، وقد كان عمر بن الخطاب أمر أبا موسى بحفره ، ثم طم منه نحو فرسخ ، فأشار زياد على عبد الله بن عامر بن كريز بحفره فلم يفعل ، ثم شخص إلى خراسان وولى زياداً البصرة فحفره ، فأغضب ذلك ابن عامر إذ اتهمه أنه يريد أن يذهب بهذا الفخر دونه .

موقف أبى بكرة منه :

قاطع أبو بكرة زياداً منذ تراجعه عن الشهادة على المغيرة بن شعبة ، وظل مقاطعاً له ما عاش ، ومع ذلك لم يكن أى منهما يتراجع عن خدمة الآخر إذا سنحت له فرصة ، وقد رأينا كيف توسل أبو بكرة لدى معاوية لإطلاق أولاد زياد من سجنه ، وولى زياد أبناء أبى بكر إمارة مدن كبيرة . ولما قبل زياد استلحاق معاوية أنكره أبو بكرة وقال : إن أمنا لم تكن بغياً ، ثم حدث أن استأذن زياد معاوية فى الحج فأذن له ، فذهب أبو بكرة إلى بيته وقد أجلس له أولاده ، فسلم أبو بكرة عليهم دون زياد ثم قال لهم : إن أباكم ركب أمراً عظيماً فى الإسلام بادعائه إلى أبى سفيان ، فوالله ما علمت سمية بغت قط ... وهو مار بالمدينة ، وبها أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا بد له من الاستئذان عليها ، فإن أذنت له فقعد منها مقعد الأخ من أخته ، فقد انتهك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة عظيمة ، وإن لم تأذن له فهو عار الأبد . ثم خرج . فقال زياد : جزاك الله خيراً من أخ فما تدع النصيحة على حال ، ورجع عن حجه .

ولما مرض أبو بكرة مرض موته أرسل زياد إليه أنس بن مالك ليصلحه فقال له : اتق الله فى زياد أخيك ، فإن الحياة يكون فيها ما يكون ، فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه ، ووالله ما علمت إنه لوصول للرحم . هذا عبد الرحمن ابنك على الأبلة ، وهذا داود على الرى ، وهذا عبد الله على فارس كلها ، والله ما أعلمه إلا مجتهداً . فقال أبو بكرة :

وأهل حروراء(١) قد اجتهدوا فأصابوا أو أخطأوا ، والله لا أكلمه أبداً ولا يصلي علي . فرجع بها أنس إلى زياد ، وقال له : إنه قبيح أن يموت بالبصرة وأنت بها ولا تصلي عليه ، ولا تقوم على قبره ، فاركب دوابك والحق بالكوفة ففعل . ومات أبو بكرة فصلى عليه أنس .

ونحن من قبلنا نرى أن قبول زياد انتسابه إلى أبي سفيان كانت زلة جللته بعار أكثر مما حلته بشرف ، وحقق على أمه تهمة حفظها لها التاريخ ، كما أذل أباه عبيدا ووسمه بخزي وعار ، وقد كان له من مواهبه وصفاته ما يكفيه ذلك كله ، ولم يكن معاوية وهو يرى حاجة إليه ليعزله عن ولايته أو يقصر في إسناد ولاية إليه . وقد ربح معاوية منه كثيراً ولم يستفد هو منه ولم يأخذ بقدر ما أعطى .

٦ ـ الحجاج

من أعظم ولاة بني أمية وأشهرهم ، وأشدهم أثراً في أحداث التاريخ الإسلامي ، وهو خطيب وجرىء ، وذو قسوة وجبروت ، ومع ذلك له مواقف رحيمة وتسامح ، وفي كل ذلك يتسم بالذكاء والحصافة ، أوصى عبد الله بن مروان أولاده به وهو في مرضه ، فقال : أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ، وهو وطأها لهم بقتله منافسيهم وعلى الأخص عبد الله ابن الزبير ، وابن الأشعث ، ولولاه ما استطاع المهلب أن يفعل بالخوارج ما فعل ، لأن العراقيين كانوا يتقاعدون عن الغزو معه .

قبيلته ووالداه :

الحجاج ثقفي ، وبنو ثقيف قبيلة كبيرة تضارع قبيلة قريش ، وكانت تقيم بالطائف ، ولم تكن منقطعة الصلة بمكة ، وكانت على صلة بقريش ونصارى الحيرة ، وكان أمية بن أبي الصلت قرأ كتب النصارى واستفاد

---

(١) الخوارج : الذين اجتمعوا في هذه القرية قريباً من الكوفة .

من أخبار الحيرة وكان يتوقع أن يكون نبياً ، وقد رثى قتلى قريش فى بدر وهجا المسلمين . وكان الحرث بن كلدة قد تعلم الطب فى جنديسابور ، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هموا بالردة ومنع الزكاة فقام عثمان بن أبى العاص عامل النبى عليهم فقال : يا بنى ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من يرتد ، فثبتوا على الإسلام . فلما كانت فتوحات أبى بكر كان لهم فيها يد وجهاد ، ولما كانت خلافات على ومعاوية كان المغيرة بن شعبة ممن خاضوا نارها ، ثم قام بعد ذلك المختار الثقفى بثورة ضد عبد الملك بن مروان . وهكذا كان لهذه القبيلة نشاط سياسى عوضت به ما فاتها من السبق إلى الإسلام .

ولم يكن الحجاج من ذوائب ثقيف ، ولكن همته البعيدة وتكوينه الشخصى مما هيأه لهذا المجد الذى تبوأه . كان أبوه معلم صبيان بالطائف وكان هو كذلك أيضاً ، وقد هجاه الشعراء فقال :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدا من عبيد إيـــاد
زمان هــو العبد المقر بذلــه ... يراوح صبيان القرى ويغادى

وكان أبوه يدعى يوسف بن الحكم بن أبى عقيل ، وأمه تدعى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى . قيل إنها كانت زوجة للمغيرة بن شعبة فدخل عليها بعد صلاة الصبح فوجدها تتخلل . فقال لها إن كان تخللك من طعام الأمس إنك لقذرة ، وإن كنت تتخللين من طعام اليوم إنك لنهمة ، كنت فبنت . فقالت له : والله ما فرحنا إذ كنا ، ولا أسفنا إذ بنا ، وما هو الشىء ظننت ولكننى استكت فأردت أن أتخلل بسواك ، فندم المغيرة على ما بدر منه ، وخرج فلقى يوسف بن أبى عقيل فقال له : إنى نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها تنجب لك ، فتزوجها يوسف فولدت الحجاج هذا وكانت سمته كليباً ولكن غلب اسم الحجاج .

ويقال أنها كانت تحت الحرث بن كلدة طبيب العرب ، فلما وجدها

تتخلل على ما ذكرنا بعث إليها بطلاقها ، وجرى بينهما الحوار السابق (١) ؛

وقالوا عن الحجاج إنه ولد مشوها لا دبر له ، وأنه كان يأبى الرضاع حتى خشي عليه فطب له الحرث إذ نقب عن دبره وجعله يقبل الرضاع (٢) .

وترك الحجاج مهنة التعليم ولحق بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك ومستشاره فعمل فى شرطته ثم بدأ نشاطه ونجابته فكان رئيس الشرطة .

بداية ظهوره :

شكا عبد الملك إلى روح انحلال عسكره وأنهم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله ، وذكر له الحجاج فقلده شرطته . فلم يكن أحد يتخلف إلا أعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون . فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ قالوا له : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا . فقال لهم : هيهات ، قد ذهب ما هنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر ، وأمر بإحراق خيمة روح نفسه . وشكا روح إلى الخليفة ، فلما أحضر الحجاج قال : ما أنا فعلت وإنما فعله أمير المؤمنين ، إنما يدى يدك وسوطى سوطك ، وما على أمير المؤمنين أن يصرف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قلمنى له . فأخلفه عبد الملك لروح ما ذهب وتقدم الحجاج فى منزلته .

---

(١) يقال إنها هى التى سمعها عمر ليلا تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أو من سبيل إلى نصر ابن سياد

ويقال إن تلك هى جدته لأمه ، وكان يعير بأنه ابن المتمنية . وقصة نصر معروفة لا نرى داعيا لإعادتها . وقد ذكر الميدانى أن المتمنية ليست أمه ولكن مصعب بن الزبير قال له مرة : يا ابن المتمنية فظن الناس أنها هى .

(٢) انظر وفيات الأعيان ترجمة الحجاج . ومروج الذهب ١٣٢/٣ . والعقد الفريد ٢٩٨/٥ وما بعدها .

في حرب ابن الزبير :

بعد أن قضى عبد الملك على مصعب بالعراق وجه الحجاج لقتال عبد الله بمكة ، وكان قد تحصن بها وسمى نفسه العائذ ، فحاصرها الحجاج مدة حتى انفض أتباع عبد الله ، واضطر أن يبرز إليه بنفسه ، فقتل وصلب جسده أياماً ، ثم ولاه عبد الملك العراق ، وكان إذ ذاك يموج بالفتن ويغلى بالشر وتدبير المكايد ، فقضى على ذلك كله بالشدة والعنف ، وسفك الدماء حتى ملأ قلوب الناس بالرهبة وأذلهم بسلطانه ، وبذا توطد الملك لبنى أمية واطمأنت أحوالهم الداخلية . ولم يبق ممن يناوشونهم سوى الخوارج ، وهؤلاء ظل المهلب بن أبى صفرة وأولاده يحاربونهم حتى أوهنوا عزمهم وفلوا شباتهم ، وكان الحجاج وراء ذلك إذ هو الذى يبعث الأمداد للمهلب ولا يستطيع أحد أن يتخلف خوفاً من سيف الحجاج .

الحجاج وزياد :

هذان الواليان أقوى ولاة بنى أمية وأشدهم بأساً ، والعرش الأموى مدين لهما بما لا يدينه به أى وال أو قائد . كلا الرجلين يمتاز بالذكاء والشدة ، ولكن الحجاج اعتمد على قسوته أكثر مما اعتمد على سياسته ، بينما كان زياد على العكس من ذلك ، وكانت مهارته أنه يضرب عدوه بعدوه فيوهن خصومه ويريح جيشه . وقد سأل عبد الملك عباد بن زياد عنهما فقال عباد : « إن زياداً قدم العراق وهى جمرة تشتعل . فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق ، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد القلوب ، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق ، ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك إلا على قعود يوجف به » .

وهذا واضح فى أن زياداً أبعد بصراً بالسياسة وأقوم رأياً ، ويقولون إن زياداً أراد أن يتشبه بعمر بن الخطاب فظلم ، وأن الحجاج أراد أن يتشبه

بزياد ففجر . وانضمام زياد لبني أمية سد ثغرة كان معاوية يخشى ألا تسد إذا فتحت ، وحال دون فتن لولاه لاضطرمت . أما الحجاج فقد واجه الفتن وهي مضطرمة ، وخاض حروباً لم يكن ثم مناص من خوضها .

وخلاصة القول فيهما أن زياداً أقوى وأحزم وأكيس ، وأن الحجاج أدى لبني أمية ما لم يؤد زياد لهم .

خطبته بالكوفة :

هذه الخطبة أشهر خطب الحجاج لأنها أولى خطبه والياً ، ولأنها هي التي ثبتت مكانته وبثت مخافته في نفوس العراقيين ، وهي في كثير من كتب التاريخ والأدب ، وننقلها هنا عن كتابي البيان والتبيين ، والكامل للمبرد (١).

بينما الناس في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلها يومئذ في حال حسنة يخرج الرجل منهم ومعه العشرة والعشرون من مواليه (٢) إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفه ، متنكباً (٣) قوسه يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمر ابن ضابئ البرجمي : ألا أحصبه (٤) لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر ، فلما رأى عيون الناس إليه حسر (٥) اللثام عن فيه ونهض فقال :

وذكر الجاحظ عن رواته :

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٣٠٧ . والكامل ١/٢٢٤ المكتبة التجارية . وصبح الأعشى ١/٢١٨ وتاريخ الطبري ٧/٢١٠ ، وغريب الحديث لابن قتيبة جـ ٣

(٢) كانوا في ثراء ، ولديهم كثير من الموالي.

(٣) يحملها على منكبيه.

(٤) أرميه بالحصباء وهي الحصا الصغير الذي تغطى به أرض المسجد.

(٥) رفعه وكشف وجهه .

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها فى اثنى عشر راكباً على النجائب حتّى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النّهار ، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية (١) . فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء ، فقال : على بالناس : فحسبوه وأصحابه خوارج ، فهموا به ، حتّى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جــلا وطلاع الثنايــا متى أضع العمامــة تعرفونى (٢)

أما والله إنى لأحتمل الشر بحمله (٣) ، وأحذوه بنعله (٤) ، وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤوسا قد أينعت (٥) وحان قطافها ، وإنى لصاحبها (٦) ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

(قد شمرت عن ساقها فشدوا) (٧)

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيــم قد لفها الليل بسواق حطم (٨)

---

(١) الحرورية : الخوارج الذين كانوا بحروراء – قرية على بعد ميلين من الكوفة .

(٢) من قصيدة لسحيم بن وثيل – بوزن كريم – الرياحى : أى ابن رجل جلا الأمور ووضحها ، وطلاع الثنايا تعنى أنه صلب قوى يقتحم الشدائد، والثنايا جمع ثنية ، وهى ما التوى من الأرض .

(٣) بكسر الحاء – أى بثقله

(٤) أتبعه وأقابله بمثله .

(٥) أينعت الثمرة نضجت واستحقت الجنى .

(٦) يريد أنه متولى قطع هذه الرءوس كما يقطف الثمار صاحبها، ولا ينازعه أحد – فهو سيقطع هذه الرءوس غير مسئول عن قطعها .

(٧) جاء هذا الشطر فقط فى البيان والتبيين ، وذكر المبرد الرجز الآتى كله .

(٨) الرجز لرويشد بن رميض العنبرى ، الشد : الجد والاجتهاد ، وزيم اسم الناقة ، وحطم هو شريح بن ضبيعة . وكان رويشد غزا اليمن وفى عودته ضل الطريق فساق شريح الإبل بشدة حتّى أدرك الماء ، فقال فيه رويشد الرجز فسمى « الحطم » وهو الذى لا يبقى من السير شيئاً : والأكول الذى يقضى على الطعام : والنار الحطمة التى لا تبقى . . .

ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم (١)

ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبى أروع خراج من الدوى (٢)
مهاجر ليس بأعرابى

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا (٣)
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد (٤)
(لابد مما ليس منه بد)

إنى والله يا أهل العراق (والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق) (٥) ما يقعقع لى بالشنان (٦)، ولا يغمز جانبى كتغماز التين (٧) . ولقد فررت (٨) عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وأجريت إلى الغاية القصوى (٩) ، وإن

---

(١) الوضم : الخشبة التى يقطع عليها اللحم ، ونحوها – يريد أنه سواق جاد ، لا توكل إليه صغائر الأمور .

(٢) العصلبى : الشديد ، والكريم ذو الجسم والجهارة ، وقيل الجميل الرائع الحسن ، والدوى الصحراء الملساء ليس بها علم ولا أمارة، يريد أنه يستطيع الخروج من الشدائد والمشكلات، ويقال أيضاً داوية ، وهى المتسعة التى يسمع لها دوى بالليل .

(٣) شمرت عن ساقها . يريد الحرب أو الحالة، أى جد جدها – كما فى الآية يوم يكشف عن ساق .

(٤) عرد بوزن عتل شديد . والبيت الأخير لابد مما ليس منه بد، ليس فى الخطبة، وزادها الأخفش فى الكامل لتمام الشعر ، وهذه الأبيات لم تأت فى البيان والتبيين .

(٥) مما زيد فى البيان والتبيين وليس بالكامل ولا صبح الأعشى ولكنه بالعقد الفريد أيضاً .

(٦) الشنان جمع شن ، جلد القربة ، كانوا يحركونه فيحدث قعقعة تنفر منها الإبل فتجرى ، وبها كانوا يستحثونها على السير . يريد أنه لا يخوف مما لا يخيف .

(٧) لا أحتمل أن أجس وأختبر .

(٨) فر الرجل الفرس نظر فى أسنانه ليعرف سنه ، ويعرف الجواد من عينه فيقال : الجواد عينه فرارة، والذكاء تمام السن وحدة القلب ، يريد أن الخليفة اختاره بعد فحص دقيق ورأى حصيف .

(٩) إلى نهاية الشوط حيث توضع قصبة يستولى عليها السابق ، تسمى الغاية .

أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته (١) بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً (٢) وأصلبها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم (٣) في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال. والله لأحزمنكم حزم السلمة (٤)، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل (٥) ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت(٦) فإياي وهذه الجماعات ، وقال وقيل وما تقولون ، وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده(٧) وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ،وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه (٨) ، ياغلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين .

قال المبرد : فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم ، فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اكفف ياغلام ، ثم أقبل على الناس فقال : سلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً : هذا أدب ابن نهية ، — (وهو رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج) — أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب

---

(١) الجعبة التي توضع فيها السهام ، وعجم العود جسه بأسنانه لمعرفة مدى صلابته .

(٢) أمر من المرة وهي القوة .

(٣) أوضع أسرع وجرى .

(٤) واحدة السلم ، وهو شجر ذو شوك — يحزمه الراعي بحبل ثم يضربه بالعصا فيقع ورقه لتأكله الماشية .

(٥) الإبل التي تدخل بين إبل أخرى ، فيضربها صاحبها حتى لا تزاحمها على الماء .

(٦) خلق الجلد قاسه وقدره ، وفراه قطعه — يريد أنه لا يرجع عن شيء هم به .

(٧) أوجعته بآلام تشغله عن غيره .

(٨) في البيان والتبيين : إلا سفكت دمه ، وانتهبت ماله . ثم دخل منزله .

أو لتستقيمن قناتكم : اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ إلى قوله « سلام عليكم » لم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

وأسرع الناس حتى كان الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده .

بلاغة الحجـــاج :

كان الحجاج آية فى البلاغة والفصاحة ، كان يخطب فيطيل فلا يتلعثم ولا يتلجلج ولا يخطىء ، رعد الأصمعى أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجـــاج بن يوسف وابن القـــرية ، والحجاج أفصحهم، وقال مالك بن دينار ما رأيت أحداً أبين من الحجاج إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه حتى إنى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين .

ونحن نتبين خطب الحجاج فنلمس فيها أسباباً هى أساس بلاغتها وقوتها، أهمها ذكاؤه وقدرته على تصوير الأسباب التى تؤيد رأيه وتدحض آراء معارضيه ، ومنها جرأته وشجاعته النادرة على مواجهة الصعاب حتى ليتحمل نعى ابنه وأخيه فى يوم واحد ، ومع ذلك يجد جلداً وقوة ليقف بين العراقيين وهو يعلم أنهم أعداؤه وشامتون به ، ولكنه يدير كلامه على وجه يجعله يرى أن الخلاص من العيش بين العراقيين نعمة . وثالث هذه الأمور تكوينه الأدبى ، وانظر كيف حشا هذه الخطبة بالأمثال والأشعار والعبارات المجازية .

ولهذه الصفات نفسها كان الحجاج سديد الإجابة عندما توجه إليه لائمة أو يسأل سؤالا محرجاً ، وقد رأينا كيف أجاب عبد الملك حين سأله عن إحراقه فسطاط روح بن زنباع ، وسخر منه مرة خالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر متبختراً فى المسجد عليه سيف محلى ، فقال بخ بخ : هذا عمرو

ابن العاص ، فمال إليه الحجاج فقال : والله ما سرني أن العاص ولدني ولا ولا ولدته ، أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، والذي ضرب بسيفه هذا مائة من قريش يشهدون على أبيك بالكفر وشرب الخمر حتى أقروا أنه ولي .

وكان من عادته إذا صعد المنبر أن يتلفع بمطرفه ، ثم يبدأ كلامه متأنياً هادئاً حتى ما يكاد يسمع ،حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيتزع بها أقصى من في المسجد .

ظلم الحجـــاج :

كان الحجاج ظالما قاسياً مسرفاً في سفك الدماء لا يبالي أن يقتل الرجل لسبب واه لا يستدعي قتله ،ولا يبالي أن يقتل جماعة كثيرة لمثل هذا السبب ، وقد رأينا قتله عويمر بن ضابئ البرجمي وهو شيخ كبير ، وكان ذلك بالكوفة ، وفي البصره جاءه ذو الكرسفة (١) ، وكان شيخاً كبيراً أيضاً ، فقال : أصلح الله الأمير إن بي فتقاً وقد عذرني بشر وقد رددت العطاء ، فقال : إنك عندي لصادق ،ثم أمر به فضربت عنقه (٢)، وقدم رجل من سليم رجلا إلى الحجاج وقال : إنه عاص ،يريد ألا يذهب للحرب . فقال الرجل : أنشدك الله أيها الأمير في دمي ، فوالله ما قبضت ديواناً قط ولا شهدت عسكراً ، وإني لحائك أخذت من تحت الحف (٣)، فقال : اضربوا عنقه ، وكتب إلى المهلب : من خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله ، فإني قاتل من قبلي ، ومن كان عندي من ولي من هرب عنك فأعلمني مكانه ، فإني أرى أن آخذ الولي بالولي والسمي بالسمي (٤) وقد أحصى الذين قتلهم صبراً (٥)

(١) هو رجل من يشكر كانت له عين عوراء يضع عليها صوفة فلقب بذي الكرسفة .

(٢) انظر الكامل ٢ /٢٣٦ تجارية .

(٣) الحف المنسج .

(٤) من يحمل اسم الآخر .

(٥) من قتل في غير معركة .

فكانوا مائة وعشرين ألفاً ، وعرضت السجون بعد موته فكان بها ثلاثة وثلاثون ألفاً لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، ووجد فيهم أعرابي كان قد شرع يبول في أصل مدينة واسط ، فلما أطلق سراحه أخذ يقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط   خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

وقتل فيمن قتل سعيد بن جبير (١) العالم العابد وابن التمرية. كما كان كثير الشتم للإمام علي .

جرأته على المأثورات الإسلامية :

كان الحجاج جريئاً على آيات القرآن والأحاديث تارة يؤولها تأويلا بعيدا ، وتارة يخالفها دون مبالاة ، وكانت الفكرة السائدة لديه أن تنقطع الثورات والفتن ويستتب الأمن لتهدأ الأحوال أمام الخليفة الأموي ، وفي سبيل ذلك استباح ما لم يستبحه غيره .

أراد مرة أن يحج فاستخلف ابنه محمداً على البصرة ، ثم خطبهم فقال :

« . . . استخلفت عليكم ابني محمدا — وما كنتم له بأهل — وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله (ﷺ) في الأنصار ، فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وأنا أوصيته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم .

وخطب مرة فتحدث عن عثمان فقال : إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم ، قال الله فيه : « إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » وكان أبو البختري جالساً بالمسجد ، فقال : كفر ورب الكعبة ، ويعزى إليه

---

(١) من موالي بني أسد ، كتب لعبد الله بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة ، ثم لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، ثم خرج مع ابن الأشعث ضمن القراء الذين صحبوه ، وهرب بعده إلى مكة فقبض عليه خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله .

أنه رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله (ﷺ) ومنبره فقال : إنما يطوفون بأعواد ورمة .

وكتب مرة إلى عبد الملك يقول : إن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين ، لأن الله خلق آدم بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا إليه ، فأعجب عبد الملك بهذا الخطاب وود لو يجد خارجياً يحاجه به ، فاستأمنه « حوار بن يزيد الضبي » وكان هارباً من سجن الحجاج ، فأمنه فقال : قد جعلك ملكاً ونبياً وخليفة ، إن كنت ملكاً فمن أنزلك وإن كنت نبياً فمن أرسلك ، وإن كنت خليفة فمن استخلفك ؟ أعن مشورة من المسلمين أم ابتزت الناس أمورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك : لا تجاورنى فى بلد أبداً فذهب إلى مصر حتى مات عبد الملك (١) .

وكان عجيباً حقاً من الحجاج أن يضرع إلى الخليفة إلى هذا الحد مع طغيانه البالغ على من هم تحت يده ، وقد وصف نفسه مرة لعبد الملك بأنه لجوج حسود حقود ، فقال عبد الملك ما فى إبليس شر من هذا .

آراء العلماء فيه :

كان الحسن البصرى يبغضه جداً ويقول إنه عقوبة من الله ، ولما أخبر بموته خر ساجداً ، وكان القاسم بن محمد يقول إنه ينقض عرى الإسلام عروة عروة ، وكان عمر بن عبد العزيز يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون ذلك أشد إلى عذابه فى الآخرة ، ولما بلغه موته خر ساجداً أيضاً ، وكان يقول : لو جاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم جميعاً ، وكانت له دراهم ضربها تسمى الدراهم الحجاجية ، فكان أنس وابن سيرين لا يبيعان ولا يشتريان بها .

---

(١) انظر الحديث مستوفى فى العقد الفريد ٥/٣٢٣ .

الحجاج والوليد :

ظل الحجاج والياً على العراق طوال عهد عبد الملك ، وكان الحجاج يرى أن عبد الملك قد بوأه منزلا لم يكن يطمع فيه ولا يتوقعه ، وكان يدرك كراهة أهل العراق له،ويعلم لهذا أنه إذا نزعت منه ولاية العراق شمت به الأعداء ، ونال منه الخصوم الكثيرون ، ولعله لهذا تحمل من عبد الملك كثيراً من ألوان المهانة ، وقد رأينا بعضاً من ذلك . ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويقلدها ولده الوليد كان الحجاج ممن زينوا له ذلك وشجعوه عليه ، ومات عبد العزيز قبل أخيه فاستقر الأمر للوليد استقراراً لا مشاحة فيه،ولكنه ظل يحفظ للحجاج مسعاه لدى عبد الملك ، ثم أراد الوليد بدوره أن يخلى أخاه سليمان من ولاية العهد ويولى ابنه فشجعه الحجاج أيضاً ، ولكن فى هذه المرة مات الوليد قبل أن يخلع سليمان ، ومات الحجاج قبل الوليد .

كان الحجاج أيام عبد الملك خادماً مطيعاً يترضى سيده ويرتكب فى سبيل مرضاته ما لا يرتكبه غيره ، وكان عبد الملك يقدر عمله ولكن لا يسمح له بالزيادة عن كونه والياً ، ولما دنت منيته أوصى أولاده بالحجاج وقال إنه جلدة ما بين عينى ، فلما تولى الوليد كان للحجاج عليه دالة ، وفوضه أمر العراق كله ، بل وغير العراق أحياناً ، فكان مطلق اليد يفعل ما يريد .

وكان والى المدينة أيام عبد الملك هو عمر بن عبد العزيز — ابن أخيه وزوج بنته — وكان يحكمها بمجلس شورى مكون من فقهائها، وكان يأسى لما يعانيه أهل العراق من عسف الحجاج وقهره ، فكتب إلى الوليد يخبره بذلك ، فاضطغنها الحجاج عليه ، ثم كتب إلى الوليد يخبره أن المارقين من أهل العراق يجلون إلى مكة والمدينة وأن ذلك مما يسبب وهن الدولة ، وأشار

عليه أن يوليهما عثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسرى ، فعزل الوليد عمر وولى خالداً مكة وعثمان المدينة (١) .

وقد كان منطق الواقع يقضى أن يأمر الوليد عمر أن يرد الفارين من أهل العراق إلى موطنهم ، لا أن يعزله ، ولكنه استشار الحجاج وعمل بمشورته ، وخالد بن عبد الله متهم فى دينه ، أما عثمان فأخرج العراقيين جميعاً تجاراً ولاجئين وفارين ، ليقتص الحجاج منهم أو ممن يرى الاقتصاص منه .

بهذا ترى أن الحجاج لم يعد فى عهد الوليد كما كان فى عهد أبيه عاملا أو والياً، وإنما أصبح شريكاً فى إدارة الدولة ومستشارا لدى أمير المؤمنين ومطلق اليد فى عمل ما يريد .

صفحة بيضاء من حياته :

لكل إنسان حسنات وسيئات ، وقد ذكرنا من مساوئ الحجاج ما ذكرنا فلنلق نظرة على أعماله الحسنة .

استطاع الحجاج أن يقضى على الفتن والثورات ، وبإرهابه الناس أصبح لواء الأمن يرفرف على البلاد كلها ، وله الفضل فى نشر الأمن الداخلى ومد الفتوح والقضاء على الثورات الخارجية زمن الوليد وزمن أبيه أيضاً ، وهو الذى وجه العراقيين إلى الحرب مع المهلب بن أبى صفرة كما رأينا ، وهو الذى بعث قتيبة بن مسلم الباهلى لحرب خراسان وجعله عامله عليها بعد يزيد بن المهلب ، ففتح منطقة ما وراء النهر ، حتى قارب حدود الصين ، وهو الذى سير محمد بن القاسم الثقفى القائد الشاب للحرب فى الهند ففتح حوض السند ، فالحجاج أحسن اختيار القواد بذكائه ، وحمل الجند على طاعتهم والعمل معهم بشدته ، وكان يعنى بتجهيز الحملات ويزودها بكل

(١) راجع تفاصيل ذلك كله فى تاريخ الطبرى ٦/٤٨ وما بعدها .

ما تحتاجه حتى الخيوط والمال ، وكان لا يبالى بما ينفق فى تجهيز حملاته ثقة منه أن ما يناله بيت المال من خمس الغنائم يعوض ما أنفق . أنفق ستين مليون درهم على الحملة التى خرجت مع محمد بن القاسم ، وكان خمس غنائمها أثنى عشر مليوناً .

وللحجاج أعمال داخلية عظيمة أيضا :

أشاع الأمن ولجأ إليه الضعاف المظلومون حتى كانت المرأة إذا اعتدى عليها هتفت به فيلبى دعوتها . وفى عهده ضربت النقود العربية لأول مرة وكان العرب قبل ذلك يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، وعنى بتعمير الأراضى وتجفيف المستنقعات وزرع الأراضى البور وشق الترع وإصلاح ما طم أو احتاج إلى إصلاح منها ، وتنظيم الرى وتحسين الضياع فعاد ذلك كله على الأمة بالرفاهية والرخاء .

ومما عمله للنهوض بالزراعة أنه أمر بإعادة الفلاحين الذين نزحوا من قراهم إلى المدن إلى مواطنهم ليعمروا الأرض ، كما منع ذبح الثيران كى تستخدم فى حرث الأرض وريها .

ومع ما اشتهر به من القسوة والظلم كان يعفو عن الكثيرين ، وخصوصاً المهزومين المستسلمين من ثوار البصرة ومحاربى دير الجماجم ، ويبدو أنه كان يجنح إلى القسوة البالغة إذا رأى فيها إسكان فتنة ، فهو يرهب بها الناس ، أو إذا كان يرى الشخص المعاقب ذا خطر على الدولة ويستحق العقوبة — وهو فى هذا لم يبال أن يأخذ البرىء بذنب المجرم . وهذا — فيما يبدو — هو الذى سوغ له رمى الكعبة بالحجارة وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه مدة طويلة حتى قالت له السيدة أسماء بنت الصديق : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟

وقد صادف يوم حصاره الكعبة ورميها بالمنجنيق أن أبرقت السماء

وأرعدت . فتخوف الناس وظنوا ذلك نذير غضب من الله، فقال لهم أنا ابن نجد وأعرف صواعقها (١) .

ولكننا نقول إزاء هذا: هل كان ابن الزبير أقل صلاحية لولاية المسلمين من عبد الملك ؟ أو لم يكن أحرص على قوانين الإسلام وأحكام القرآن من كل بنى أمية ؟ إن ابن الزبير كابن أبى طالب — حرص على إبقاء مال المسلمين للمسلمين بينما استعمله هؤلاء لتثبيت ملكهم ، ثم نجد الحجاج يقتل فقهاء العراق وقراءه ، وما كانوا يقولون غير ما يعتقدون .

وأروع صفحة من أعمال الحجاج هى أمره بنقط المصاحف وشكلها فسهل قراءتها من ناحية ، وطور الخط العربى كله من ناحية أخرى ، وهو بانى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة ، وأخذت اسمها من هذه الوسطية .

نهاية الحجـــاج :

مات الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان عمره ثلاثاً وخمسين أو أربعاً وخمسين سنة ، ورأينا ما كان من العلماء والصالحين من ابتهاج بموته ، وسأله أحد عواده وهو على فراش موته: كيف تجدك ؟ فقال : سفر طويل ، وزاد قليل ، فويلى إن لم يرحمنى الجبار . وقال الوليد: مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبى مسلم — وهو كاتب الحجاج — فكنت كمن سقط منه درهم فأصاب ديناراً ، وكان يقول : ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، وأنا أقول إنه

---

(١) خطب فيهم خطبة جاء فيها : « لا يهولنكم هذا ، فإنى أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربى ، فلو ركبنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعق تنزل بها .. ثم صاح بأهل الشام أن قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين فكانوا يرمون الكعبة ويرتجزون :

خطارة مثل الفريق المزبـــد   يرمى بها عواذ أهـــل المسجد

وانظر الطبرى ٦/٤٤٨ ، والعقد ٥/١٨٠ .

جلدة وجهي كله ، وقد أقر عماله بعد موته على ما هم عليه ولم يغير منهم أحداً .

ولم يترك الحجاج بعده تركة تذكر ، بل كانت مصحفاً وسلاحه وبضع مئات من الدراهم .

٧ – خالد بن عبد الله القسرى (١)

من ولاة هشام بن عبد الملك على العراق ، ومن خطباء بنى أمية المشهورين وهذه أجود صفاته وأكرم مناقبه .

نسب خالد

ينتمى خالد إلى القحطانيين ، وأبوه هو عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز ، قال أبو الفرج : وهم أهل بيت شرف فى بجيلة لولا ما يقال فى عبد الله بن أسد فإن أصحاب المثالب ينفونه عن أبيه ، وعلى ما قيل فيه كان له ولابنه خالد سؤدد وشرف وجود .

كان الجد الأعلى كرز يدعى كرز الأعنة ، ويدعوه الجاهليون رب بجيلة وكان ممن حرم الخمر فى جاهليته تنزها عنها . وقدم أسد وابنه يزيد على رسول الله (ﷺ) فأسلما ، وروى يزيد عنه (ﷺ) حديثاً واحداً هو وصية له وهو : « أحب للناس ما تحب لنفسك » . وكان من محاربى الشام فى عهد عمر وكان سيداً مطاعاً بين اليمنين ، وبعثه معاوية فى أربعة آلاف من جند الشام لنصرة عثمان فوصل المدينة بعد مقتله فرجع ولم يحدث شيئاً ، وحضر مع معاوية موقعة صفين وله بها خطبة حكيمة (٢) .

---

(١) انظر أخباره مستوفاة فى الأغانى ٢/٥٢ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ٢/٢٢٦ .

(٢) منها . . « قد كان من قضاء الله جل وعز أن جمعنا وأهل ديننا فى هذه الرقعة من الأرض . والله يعلم أنى كنت لذلك كارها ، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يدعونا نرتاد لديننا ، وننظر لمعادنا حتى نزلوا فى حريمنا وبيضتنا ، وقد علمنا أن بالقوم حلماء وطغاما ، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ، وقد كنا لا نحب أن نقاتل أهل ديننا فأحرجونا حتى صارت الأمور إلى أن يصير غدا قتالنا حمية ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . . . والذى بعث محمدا بالحق لوددت أنى مت قبل هذا ، ولكن الله تبارك وتعالى إذا أراد أمراً لم يستطع العباد رده . فنستعين بالله العظيم » ثم انكفأ .

آباؤه

أما عبد الله والد خالد فإنه لم يكن من ذوى النباهة والشأن ، ويتهم بأنه دعى وليس من هذه القبيلة ، وتتصاعد هذه التهمة إلى كرز فيقال إنه كان عبداً لعبد القيس فى هجر فأبق منهم ، وتقلب بين أماكن وقوم كثيرين حتى أخذته بنو أسد فزوجوه مولاة لهم يقال إنها كانت بغياً ثم اشترى نفسه ونزل على بجيلة بالطائف فانتسب إليهم ، ويقال إن أصله من يهود تيماء .

وكتب عبد الله بن يزيد لحبيب بن مسلمة الفهرى فى عهد عثمان ، وكان كاتباً قديراً فنال حظاً وشرفاً ، وكان خطيباً مفوهاً ولكنه كان يسمى خطيب الشيطان، وتزوج عبد الله فتاة رومية نصرانية وهبها له عبد الملك بن مروان فأنجبت له خالداً هذا ، فخالد إذن سيء النسب من قبل والديه جميعاً .

كان عبد الله مع عمرو بن سعيد الأشدق على شرطته أيام عبد الملك ، فلما قتل عمرو هرب عبد الله واختفى حتى سألت اليمانية فيه عبد الملك فأمنه عام الجماعة ، ونشأ خالد بالمدينة نشأة ماجنة خليعة ، فكان فى حداثته يتخنث (١) ويتبع المغنين والمخنثين ويمشى بين عمربن أبى ربيعة وبين النساء فى رسائلهن إليه ورسائله إليهن ، وكان يسمى الخريت (٢) والجرىء ، وكان يجمع بين عمر ومعشوقاته .

وفي عهد هشام بن عبد الملك تولى إمارة العراقين بعد عمر بن هبيرة ، فبدت له صفات حميدة وأخرى ذميمة جدا .

فمن صفاته الحميدة أنه كان جواداً معطاء ، وأنه شجاع جرىء القلب على الخليفة أحياناً ، وكان خطيباً مفوها .

مساوىء خالد

ومساوئه عديدة جداً منها أنه بنى لأمه النصرانية كنيسة فى ظهر قبلة المسجد بالكوفة، فكان إذا أراد المؤذن أن يؤذن ضرب لها بالناقوس، وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءاتهم ، وكان أهل الكوفة يكرهونه ويقولون ابن البظراء (٣) ، ويقال إنه ختن أمه على الكبر وهى

---

(١) يتكسر ويبدى اللين فى كلامه ومشيته .
(٢) العالم بمسالك الطرق .
(٣) لأنها نصرانية لم تختن .

كارهة، وكان أعشى همدان يعيره بذلك. ويقال إن الأسرة كلها كانت توصف بالكذب، وأن يزيد بن أسد كان يلقب خطيب الشيطان لكذبه. وكان أكذب الناس فى كل شىء، معروفاً بذلك. فسلك ابنه عبد الله منهجه فى ذلك وحمل أيضاً لقبه خطيب الشيطان ثم جاء خالد ففاق الجماعة ولكن رياسته وسخاءه ستر بعض أمره.

وكان خالد يكره المضرية ويكره على بن أبى طالب، وقد طلب من المدائنى أن يكتب له السيرة النبوية وألا يذكر علياً إلا أن يذكره فى سواء الجحيم، ورأى يوماً عكرمة مولى ابن عباس وعليه عمامة سوداء، فقال بلغنى أنه يشبه علياً سود الله وجهه كما سود ذاك، وكان يلعنه فى خطبه.

وكان يتهم بالزندقة، وله أعمال كثيرة تدل على رقة دينه وزيغ عقيدته، وكان يتقرب إلى الخلفاء بما يضر بدينه. ولم ينفعه، كان يقول: لو أمرنى أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجراً حجراً، ونقلتها إلى الشام. وكان يولى النصارى والمجوس على المسلمين، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم، وكان أهل الذمة يشترون الجوارى المسلمات ويطئونهن، وهو أمر يحرمه الإسلام، ولكنه كان يبيحه لهم. وكان يستهين بتعاليم الإسلام ويتطاول على الله تعالى وعلى أنبيائه. فلما حفر الوليد بئراً عذبة الماء قريباً من الحجون — كان خالد ينقل ماءها فيوضع فى حوض إلى جنب زمزم، ويقول وهو يخطب: إن إبراهيم خليل الله استسقى ماء فسقاه الله ملحاً أجاجاً، وإن أمير المؤمنين استسقى فسقاه الله عذباً نقاخاً (١). وكان يرى أن حفظة القرآن من الحمقى.

وما من حسنة من حسناته إلا ردت بصفة أخرى سيئة. أما سخاؤه بالمال فكان يقابله بخله بطعامه. فقد كان لا يطيق أن يؤكل طعامه. وشجاعته فى بعض المواقف يقابلها جبنه وخوفه أمام خصومه، فلما خرج عليه المغيرة

(١) النقاخ العذب الصافى البارد.

ابن سعيد العجلي وهو على المنبر دهش وتحير وقال : أطعموني ماء : وقد قال الكميت الأسدى يمدح يوسف بن عمر الذى ولى العراق بعد خالد :

وما خالد يستطعم الماء فاغـــرا   بعدلك ، والداعي إلى الموت ينعب

وعيره يحيى بن نوفل بهذا فقال :

بل السراويل من خوف ومن هلع   واستطعم الماء لما جـــد فى الهرب
وألحن الناس كل الناس قاطبـــة   وكان يولع بالتشديق فى الخطب

وقد رأينا من قبل كيف أرتج عليه .

ووقف مرة يخطب وأراد أن يستشهد بآية قرآنية فأرتج عليه ولم يجد فى رأسه شيئاً من القرآن ، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وظل يكررها ، ثم قال لصديق له زنديق افتح على ، فقال له : لا يهولنك ذلك فما رأيت عاقلا يحفظ القرآن وإنما يحفظه الحمق . قال : صدقت .

موقف هشام منه

وكان شديد الصلة بهشام فمازالت هنواته تلقاءه وسيئاته تتوالى حتى تغير عليه قلبه فأبغضه ولم يجد بدأ من عزله . قال عنه مرة : ابن الحمقاء ، فبلغته ، وقال فى خطبة له : والله ما إمارة العراق مما يشرفنى ، فغاظت الكلمة هشام بن عبد الملك فكتب إليه :

« بلغنى يا ابن النصرانية أنك تقول : إن إمارة العراق ليست مما يشرفك ، صدقت ، والله ما شيء يشرفك ، وكيف تشرف وأنت دعى إلى بجيلة القليلة الذليلة ... »(٢) .

ولما عزله هشام قتل ابنه يزيد بن خالد ، وعذبه هو فشد فى رجله شريطا وجعل الصبيان يجرونه . وكان قد كتب إلى يوسف بن عمر وهو باليمن أن يلى العراق ويحاسب خالداً فحبسه وعماله وحاسبه ثم أودعه السجن حتى قتل فى أيام الوليد بن يزيد قتلة شنيعة . قيل وضع قدميه بين خشبتين

(١) راجع ترجمة خالد فى وفيات الأعيان .

وعصرهما حتى تقصفتا ، فرفع الخشبتين إلى ساقيه وفعل بهما ذلك ، ثم رفعهما إلى وركيه ثم إلى صلبه ، فلما انقصف صلبه مات .

مثل من تصرفه الكلامى

ولما كان والياً على مكة خطب يوم جمعة فأثنى على الحجاج خيراً وذكر طاعته ثم ورد عليه كتاب من سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه وإظهار البراءة منه . فلما كانت الجمعة التالية قال :

... إن إبليس كان ملكاً من الملائكة ، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان قد علم الله من غشه وخبثه ما خفى على الملائكة ، فلما أراد فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه . وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه ما خفى عنا ، فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين . فلعنه فالعنوه لعنه الله .

وهذا تأت حسن لتحوله وإتيانه بشيء يعارض ما سبق أن قاله .

وقال مرة لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فقد زنتها ، ومن كانت شرفته فقد شرفتها ، فأنت كما قال الشاعر :

وتزيدين أطيب الطيب طيباً   أن تمسيه ، أين مثلك أينا
وإذا الدر زاد حسن وجوه   كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر : إن صاحبكم أعطى مقولا ، ولم يعط معقولا(١) ، وهو تواضع من عمر ، ولكنه ثناء على خالد بحسن القول .

وخطب مرة فذكر الله وجلاله ، ثم قال :

« ... كنت كذلك ما شئت أن تكون ، لا يعلم كيف أنت إلا أنت ، ثم ارتأيت أن تخلق الخلق ، فماذا جئت به من عجائب صنعك !! الكبير

---

(١) مفعول بمعنى المصدر فيهما ، أى أعطى قولا ولم يعط عقلا .

والصغير من خلقك ، والظاهر والباطن من ذرك من صنوف أفواجه وأفراده وأزواجه ، كيف أدمجت قوائم الذرة والبعوضة إلى ما هو أعظم من ذلك من الأشباح التى امتزجت بالأرواح .

وخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه فقال : سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوق جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها .

خطباء آخرون من هذا الحزب

هناك خطباء آخرون من الحزب الأموى يستحق الكثيرون منهم أن نقف لديهم ونذكر لهم خطباً نشرحها ، ولكن حسبنا ما ذكرنا ، ونشير إشارات عابرة إلى بعضهم ، منهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وكان ممن أيدوا بيعة معاوية لابنه يزيد فقال :

« إن يزيد أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه » .

فقال له معاوية : أوسعت أبا أمية فاجلس .

ومنهم عتبة بن أبى سفيان ، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وولاة بنى أمية كانوا خطباء أيضاً ، منهم عدا من ذكرنا : قتيبة بن مسلم ، ويوسف بن عمر ، ونصر بن سيار . ومن مشهورى الخطباء فى هذا الحزب الضحاك بن قيس ، وهو أول من تكلم فى شأن تولية يزيد بإيعاز من معاوية ، وجاء فى هذه الخطبة :

« أصلح الله الأمير وأمتع به .. إنا قد بلونا الجماعة والألفة ، والاختلاف والفرقة ، قد رأينا من دعة يزيد ابن أمير المؤمنين وحسن مذهبه وقصد

سيرته ويمن نقيبته ، مع ما قسم الله له من المحبة فى المسلمين والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته . . ما دعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا . فليوله أمير المؤمنين — أكرمه الله — عهده ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعاً بعده » .

وقد كثر الخطباء المنتمون إلى هذا الحزب لنجاحه فى الاستيلاء على الحكم ولطول مدته ، فبعد استقرار معاوية لم يعد ثم إلا خطباؤه وخطباء الخوارج ، وخطباؤه أكثر ، لكن خطباء الخوارج أبلغ وأخلص .

مقاصد الخطبة الأموية

كان المقصد الأساسى للخطبة الأموية هو تثبيت الحكم الأموى ، وللوصول إلى هذا الغرض كانت تحوم حول عناصر معينة ، أهمها ذكر مزايا الأمويين وما لهم من فضل على رعاياهم ، ثم الحط من شأن على وأنصاره ، وفى عهد معاوية لم يكن له خصوم غير الشيعة والخوارج ، ولكن الخوارج لم يكن نبه شأنهم ولا أصبحوا ذوى خطر يهدد العرش الأموى ، لهذا كان معاوية يعنى بالتركيز على إهانة على والحط من قدره ، وكانوا يتخذون من ذكر عثمان وظلمه ممن اعتدوا عليه ودمه الضائع وسيلة للنيل من على وبيان أنه هو المسئول عن هذا الدم المهدور والخليفة المعتدى عليه ، ويستدعى هذا أيضاً أن يذكروا ما كان لعثمان من أياد على الإسلام ، وما كان له من قربى لرسول الله ، وما أثنى النبى صلى الله عليه وسلم عليه به . كل هذا ليتخذوا من تعظيم قدره وجليل مكانته وسيلة لبيان فظاعة الاعتداء عليه ثم لإبراز على فى صورة الآثم المرتكب لهذا الإثم العظيم .

وصية معاوية للمغيرة ابن شعبة

وقد ذكر الطبرى وصية أوصى بها معاوية المغيرة بن شعبة الثقفى حين ولاه الكوفة عام الجماعة جاء فيها :

« أما بعد : فإن لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا(١) ، وقد قال المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا   وما علم الإنسان إلا ليعلما(٢)

---

(١) « ما » فى « ما تقرع » مصدرية ، أى لذى الحلم وحده قرع العصا ، والحلم : الذكاء والعقل ، ومن الأمثال العربية : «إن العصا قرعت لذى الحلم» — قيل كان عامر بن الظرب أحد حكام العرب الحصفاء ، فلما شاخ أنكر من عقله شيئاً ، فأوصى بنيه أن يقرعوا له العصا بالمجن إذا حاد فيفطن .

(٢) علم ليستفيد من علمه .

وقد يجزى عنك(١) الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك(٢) بما يرضيني ، ويسعد سلطاني(٣) ، وتصلح به رعيتي ، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحم(٤) عن شتم علي وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب على أصحاب علي ، والإقصاء لهم(٥) ، وترك الاستماع منهم » .

سب علي وأهل الكوفة

فمعاوية يعلن في هذه الوصية أنه ترك أشياء كثيرة كانت تستحق أن يوصيه بها ، ولكنه تركها اعتماداً على فطنته وذكائه ، أما شتم علي وأصحابه وتزكية عثمان وعمله فمما لا يفوته أن يذكره به ، ثم كان هذا دستوراً للأمويين جميعاً ، ونجد المغيرة بن شعبة شديد الإلحاح في سب علي وإهانته والحط منه ، هذا مع علمه بأن الكوفة تحوي أنصار علي ، ومنها نبت المذهب الشيعي ، ثم نجد الأمويين خلفاء وولاة يلعنون علياً في خطب الجمعة ، ووقف ذلك عمر بن عبد العزيز زمن حكمه ، لكنهم رجعوا إليه بعده ، ويتغالى ولاة الأمويين أحياناً فيسبون البلاد والشعوب التي كانت تساعد علياً ، وهذا أكثر وضوحاً في خطب الحجاج وزياد . وكانت إهانة هذين تقترن بالتهديد والوعيد ، ومن ذلك قول الحجاج : « إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أرى الدم بين العمائم واللحى » .

وقد مرت خطبة زياد البتراء ، وما فيها من تهديد مزلزل للقلوب .

وربما كان معاوية — واضع دستور الأمويين — من شتم علي وتهديد الرعية إن خرجت على الحاكم ، أقل تهديداً من الآخرين ، وقد قال لزياد : لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة ، ولكن تشتد أنت وألين أنا .

---

(١) الخطاب لكل شخص ، أي قد يؤدي عن المرء شخص لم يوصه بشيء .
(٢) علمك بما أحب .
(٣) يجعل حكومتي قوية .
(٤) بوزن تتعدى ، بمعنى لا تحد ولا تتحاش .
(٥) إبعادهم إهانة لهم .

لهذا نجد تهديده عاماً إذ يقول مثلا : إياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة . ويقول عتبة بن أبى سفيان لأهل مصر : « إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا ! » .

ومن المقاصد الشائعة فى الخطبة الأموية أن يذكر الخليفة أنه دون ما يرجون منه وما يرجو من نفسه . ودون ما تتطلب المثالية ، ولكنه أفضل من غيره ، وأحسن ما يمكن أن يكون فى وقته . ولعل بنى أمية كانوا يفعلون ذلك قطعاً لألسنة الناقدين ، فهم يسلمون بأنهم دون الكمال ولكنهم خير من غيرهم ، نجد هذا فى أول خطبة ألقاها معاوية إذ قال : فإن لم تجدوا فى خيركم ، فإنى خير لكم ولاية ، وفى آخر خطبة له قال : لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى .

وفى جميع عناصر الخطبة ومقاصدها تستند إلى جانب دينى ، وأسلوب وعظى يرغب فى الآخرة وينفر من الدنيا أو يهون من شأنها ، هذا ليظهروا أمام الناس أنهم يعملون فى حقل الدين ولا يبعدون عن حظيرة الإسلام .

تطور الخطبة الأموية

إذا نحن وازنا بين الخطبة الأموية وخطب الخلفاء الراشدين وعهد النبوة نجد أن التطور الذى نال الخطبة واسع جداً ، طالت بعض الإطالة ومع اشتمالها على عنصر دينى لم تعد دينية إلا نادراً، وسنجد هذا يستمر حتى آخر العهد الأموى ، وينتقل أيضاً إلى العهد العباسى .

وقد ذكرنا هذه الميزات ونحن لما نتجاوز عهد معاوية لنرى أنه رائد هذا المنهج ، وأنها سياسة له قلده فيها خلفاؤه .

خطبة يزيد بن الوليد بعد قتل الوليد بن يزيد

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد أيها الناس ...

إنى ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة فى

الملك ، وما بى إطراء نفسى ، ولا تزكية عملى ، وإنى لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ، ولكنى خرجت غضباً لله ودينه ، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه ، حين درست معالم الهدى ، وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة ، والراكب البدعة ، والمغير السنة . فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع ، على كثير من ذنوبكم ، وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه ، فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى ، وسألته ألا يكلنى إلى نفسى ، وهو ابن عمى فى نسبى ، وكفوى فى حسبى ، فأراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ولاية من الله وعزماً ، بلا حول منا ولا قوة ، ولكن بحول الله وقوته ، وولايته وعزته .

أيها الناس ...

إن لكم على – إن وليت أموركم – ألا أضع لبنة على لبنة ، ولا حجراً على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى أشد ثغره وأقيم مصالحه ، مما تحتاجون إليه وتقوون به ، فإن فضل شىء رددته إلى البلد الذى يليه ، وهو أحوج البلدان إليه ، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولا أجمركم فى بعوثكم فتفتتنوا وتفتن أهاليكم ، فإن أردتم بيعتى على الذى بذلت لكم فأنا لكم به ، وإن ملت فلا بيعة لى عليكم ، وإن رأيتم أحداً أقوى عليها منى فأردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ، ويدخل تحت طاعته .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وقد كان الوليد بن يزيد على شاكلة أبيه يزيد بن عبد الملك ، مجوناً وتفانياً فى الشراب وحب الغناء ، وكرهه الناس وأغروا به يزيد ، وقتل بقرية كانت تدعى البخراء ، على بعد ثلاثة أيام من مدينة تدمر ، ومع أن عدداً كبيراً من الناس كانوا قد بايعوا يزيد أو اتفقوا معه على البيعة سراً قبل أن يقتل الوليد يبدو عليه التردد ، ومحاولة استجلاب الناس نحوه :

وفى هذه الخطبة تبدو ثلاثة عناصر أساسية :

تزكية عمله وتبرير ثورته على الوليد ، وفى هذا وصفه بأنه بدعى خارج عن السنة ، وأنه كان يخشى منه أن يفسد الآخرين ، ثم بذله الأمانى للشعب من ذكره توفير حاجياتهم واستشارتهم فى كل أموره وعدم تجمير الجيش المحارب — أى عدم إطالة غيبته ، حرصاً عليه وعلى ذويه ، وأخيراً إظهاره عدم التهافت على الخلافة ، وأنه على استعداد لأن ينخلع عنها إذا رأوه قد حاد عن حدود الدين ، أو كان هناك من هو أليق لها منه . ولعله لم يكن فى حاجة لكل ذلك،لأن الناس كانوا قد كرهوا الوليد وملوه . وكان يزيد يشتهر بالنسك ويؤمل الناس فيه الخير .

ومع ذلك أنقص رواتب الجيش — وكان يلقب بالناقص لهذا — وكانوا يقولون : « الأشج والناقص أعدلا بنى أمية » . والأشج هو عمر بن عبد العزيز .

ويزيد بن الوليد ابن أميرة فارسية ، هى ابنة كسرى يزدجرد ، لم تلد للوليد غيره ،وكانت ولايته خمسة شهور وأياماً . توفى سنة ١٢٦هـ .

وكانت الدولة قد آذنت بالشيخوخة والضعف ، فقد بايع يزيد هذا لأخيه إبراهيم بن الوليد ، فلم تطل مدته إلا شهوراً ثم جاء بعده مروان ابن محمد بن مروان ، وكان حازماً شهماً بليغاً ، ولكن الدولة كانت قد أدبرت عن بنى أمية ، وانتشرت الدعاية والفتن ضدهم .

ولسنا بحاجة للبحث عن خطب أخرى فى هذا العهد ، وحسبنا ذلك من العصر الأموى أزهى عصور الخطابة العربية جميعاً .

الأحزاب السياسية فى العهد الأموى

سبب قيام الأحزاب

لكى نتعرف منهج الخطباء الذين كانوا يناوئون بنى أمية نستعرض أسباب قيام هذه الأحزاب ، والمبدأ الذى قام عليه كل حزب ، لأن خطبهم كانت تدور حول هذه المبادىء لتزكيها وتشرحها ثم تدحض مبادىء الآخرين وتهونها فى نفوس الناس ، ونحن قد رأينا من قبل عناصر العداء القديم المستحكم بين بنى أمية وبنى هاشم ، وقد ظل هذا العداء قائماً بين أبى سفيان وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين عاماً حتى أكره أبو سفيان على الخضوع للدين الجديد ولنبيه يوم فتح مكة ، وحتى اللحظة الأخيرة كان من الصعب عليه أن يقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما محا الإسلام من نفوس الأمويين وأنصارهم آثار الشرك ظلت نفوسهم تتطلع إلى الرياسة وتصبو إلى المناصب العليا ، ولكن لم يكن لأى منهم — وقد دخلوا الإسلام آخر من دخل — أن يكون خليفة للمسلمين ، وكانوا دائماً يتشبثون بعثمان بن عفان لسابقته فى الإسلام وصلته برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما آلت إليه الخلافة فرحوا بها وحرصوا على بقائها فيهم ،

التطلع إلى الخلافة

هذا كله بينما كان على بن أبى طالب يتطلع إلى الخلافة منذ وفاة رسول الله ، وكان عمه العباس يسانده فى هذا ، حتى أنهما دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته ، فأدرك العباس أنه ميت ، فلما خرجا طلب من على أن يسأله لمن الأمر من بعده ، ولكن علياً استحيا ولم يفعل ، فلما اختير أبو بكر خليفة تردد على فى بيعته(1) لأنه كان يرى أنه أحق بها لقرابته وصهره لنبى الإسلام ، ثم بايع أبو بكر عمر فصدم على ثانياً . وقال أبو سفيان عنه وعن عمه العباس : ما فعل المستضعفان ؟ . ولما قلدها عثمان قال على :

---

(1) الإمامة والسياسة ١/٤٨ ، ومروج الذهب ٢/٣٠٩ .

والله ما هذه أول مرة تتآمرون علينا ، ولما غضب الناس على عثمان وقامت حوله الثورات قدم معاوية من الشام فأتى مجلساً فيه من كبار الصحابة على وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فهددهم وأوصاهم بعثمان وقال : « لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا » . ثم عرض على عثمان أن يقتل هؤلاء أو يشتتهم ، فنفر عثمان . فقال له : اجعل لى الطلب بدمك إن قتلت . قال عثمان : نعم هذه لك ، إن قتلت فلا يطل دمى(١) . فلما بويع على بالخلافة بعد عثمان امتنع معاوية عن البيعة وقال : أبلعونى ريقى ، إنها ليست بخدعة الصبي عن اللبن ، ثم قامت الحرب بين على وبينه ، فكان أبرز ما فيها أن علياً يمتاز بالشجاعة والصراحة واللين ، وأن معاوية يمتاز بالدهاء والعمق ، وكان جيش معاوية طيعاً يؤمر فيأتمر ، وينهى فينتهى ،لا يسأل لماذا أمر ولا لماذا نهى ، بينما كان جيش على شريكاً فى الرأى منقسماً فى وجهات النظر حتى أفسد عليه رأيه بالعصيان ، وعقب هزيمة معاوية يوم صفين رفعوا المصاحف على الرماح وقالوا: نحكم القرآن ، وأدرك على أنها خدعة ولكن فريقاً كبيراً من قومه أصروا على التحكيم ، بينما قال جماعة منهم إنه كفر ، هذا لأنه خليفة شرعى ولا يصح أن يحكم فى أمر ثبت له بحكم الشريعة ، وانتهى التحكيم بخدعة ثبت فيها عمرو معاوية بعد أن خلع أبو موسى الأشعرى علياً ، وعلى إثرها تسمى معاوية أمير المؤمنين ، وعادت الحرب جذعة ، ولكن أصبح لعلى خصمان ، لأن الذين رفضوا التحكيم من أول الأمر اعتبروا علياً كافراً وحاربوه ، وربح معاوية بهذا الموقف ربحاً مضاعفاً .

موقف معاوية

ولما بايع معاوية ابنه يزيد ، أبى أبناء الصحابة الكبار : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايعوا ، ثم قام الحسين بثورة قتل فيها ، فقام بعده عبد الله بن الزبير يطالب

تولية يزيد العهد والاستهواء بالمال

(١) الإمامة والسياسة ص ٥٣ – وطل دمه أي أهدر بدون دية أو قود .

بالحكم ، وأقر له بالخلافة أكثر المسلمين وأكثر أقاليم الدولة ، لكنه كان كعلى بن أبى طالب رجل شجاعة وسنة ولم يكن رجل سياسة ودهاء ، وكان خصمه عبد الملك بن مروان صنو معاوية فى دهائه وعمق سياسته ، استعمل — كما فعل معاوية — المال فى تأليف الرجال ، ورمى ابن الزبير بالحجاج فقتله ، وقام ابن الأشعث بحركة أخرى فانضم أولا إلى ابن الزبير ، ثم أعلن المطالبة بدم الحسين فانضم له عدد من الشيعة ، ثم دعا لنفسه ، وكانت حركته أقل من حركة ابن الزبير أثراً ولكنها ضايقت الخليفة الأموى فترة من الزمن ، ثم قضى عليه . وبقى الخوارج إذا قضى على داعية منهم قام آخر وحديثهم متشعب طويل .

من هذا العرض السريع نتبين وجهة الخطابة لكل فريق . والعناصر الهامة التى يمكن أن يدور عليها حديث كل خطيب :

وقد كان حزب على أقوى الأحزاب ولكنه قضى عليه سريعاً ، وظل حزب الخوارج هو الشوكة الدامية وأيضا السيل المتدفق من الخطابة ، ولم يقض عليه إلا فى العصر العباسى .

(أ) الحزب العلوى

دم عثمان

آلت الخلافة إلى على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان ، وبعد الثورات التى قامت ضد عثمان فى أواخر أيامه ، وكان قتله متوقعاً ، ويتحمل الأمويون أقاربه مسئولية الموقف المتأزم بين عثمان والثائرين عليه . فمروان بن الحكم هو الذى زور الخطاب بقتل محمد بن أبى بكر ، وأثار ثائرة الناس على الخليفة ، وقد حضر معاوية من الشام ولم يعمل له شيئا سوى أن حمل عليا ومن معه مسئولية دم عثمان ثم عادإلى الشام .

خلافة على

وبعد قتل عثمان دعا الزبير بن العوام إلى مبايعة على وذهب إليه مع جمع فى بيته فأبى على أن يقبل البيعة ، وقال : ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر ، فرجعوا ، ولكنهم قالوا يمضى قتل عثمان ولا خليفة

فيثور كل رجل فى ناحية ، ولو صارت تولية على مع قتل عثمان أمنت الفتنة ، فأصروا على مبايعة على وضموا إليهم الأشتر النخعى وعادوا إلى على يخوفونه الفتنة حتى قبل ومد يده . ثم أتوا طلحة فأبى بيعته وقال حتى يجتمع أهل الشورى ، فأخذوا به إلى على فبايع بلسانه ومنعه يده . ثم ذهبوا بعلى إلى المسجد ، فكان طلحة أول من مد يده لبيعته ، وكانت له أصبع مشلولة فتطير منها على ، ثم غضبت عليه عائشة (رضى الله عنها) وكانت غاضبة على عثمان من قبل ، وكتب سعد بن أبى وقاص لعمرو بن العاص إذ سأله عمن تولى كبر عثمان : إنه قتل بسيف سلته عائشة وصقله طلحة ، وسمه ابن أبى طالب ، وسكت عنه الزبير وأشار بيده وأمسكنا نحن ولو شئنا دفعنا عنه .

دهاء معاوية

وكان الكثير يتوقعون معارضة معاوية إذ جاءت بيعة على من كل مكان إلا الشام ولم يقبل معاوية تولية على إياه الشام ولا وجد على من يتولاه ، ثم انتكث عليه الزبير وطلحة ، ثم نجمت الفتنة تحرك قرونها ، وكان مع على كثرة ، ولكن معاوية كان أكثر دهاء وأعمق سياسة ، ويرى الكثيرون أن معاوية ما ترك عثمان فى ورطته إلا وهو يترقب الخلافة لنفسه . وانضم إلى على عدد كبير من الصحابة وكان الأنصار معه إلا أفراداً ، ولكن لما قامت الحرب كان معاوية أحزم وفى جيش أطوع ، وكان على ألين وفى جيش متفرق الكلمة متشعب الرأى ، واستدعت المواقف الكثيرة المتضاربة من على بيانات وتوجيهات وردوداً على المعارضين ، لهذا كثرت خطب الإمام ، وكان رضى الله عنه بالغ القدرة فى الخطابة حوله عدد ممن يجيدون الخطابة أيضاً ، ولم يمت هذا الحزب باستيلاء معاوية نهائياً ، بل الشيعة يعملون سراً تارة وجهراً أخرى ، وانضم إليهم بنو العباس حتى تقوض العرش الأموى فظفر العباسيون بالحكم دون العلويين ، وظل الشيعة يناضلون مرة ثانية حتى قامت لهم فى القرن الرابع دولة صدقها بعض وكذبها بعض وهى دولة الفاطميين .

خطبــاء الحزب العــلوى

١ – على بن أبى طالب

أشهر هؤلاء على الإطلاق هو على بن أبى طالب ، بل هو أشهر خطباء هذا العصر كله ، كان رضى الله عنه فصيح اللغة قوى التعبير واسع المعانى قوى الحجة ، وقد تعرض لمواقف خطابية عديدة لكثرة خصومه ومعارضيه ولازدحام الأحداث فى حياته ، ما كادت تتم بيعته حتى عارضه طلحة والزبير ، واستثارا أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – فكانت موقعة الجمل التى استنفدت قدراً من طاقته ، وفيها ألقى عددا من الخطب . ثم كانت حرب معاوية فى صفين ، ثم حروب الخوارج . وفى كل ذلك ألقى الإمام عديداً من الخطب ، ثم له خطب أخرى دينية ووعظية ، وهكذا نجد له خطباً كثيرة وبليغة . وقد جمعت خطبه فى كتاب نهج البلاغة جمعها الشريف الرضى – أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى – وضم إليها كتبه ومواعظه وحكمه . وقدم لكتابه بمقدمة قال فيها إن مجموعه هذا « يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ، ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام ولا مجموعاً فى كتاب » .

وحقاً لا يوجد لأحد من مأثور الخطب والمكاتبات ما يصل إلى هذا الحد ، والكتاب ليس كل كلامه ، ولكنه مختار من آثاره الأدبية . لهذا أبدى الكثيرون شكوكاً واتهامات لهذا الكتاب ، قيل إن الشريف الرضى ألف كثيراً من هذه الخطب ونحلها للإمام . وقيل إن عديداً من الشيعة صنعوا ذلك فى أوقات مختلفة قبل مجيء الشريف الرضى ، وقد شرح هذا الكتاب ابن أبى الحديد شرحاً واسعاً وأفاض فى الثناء على بلاغة الإمام وفصاحته ، وتعرض لنسبة نهج البلاغة إليه فأنفق جهداً غير قليل فى تأكيد نسبته إليه ،

ولكن هناك خطباً تبعد كل البعد عن ذوق العصر الذى عاش فيه الإمام ، ومهما يكن من شأن هذا الوضع فإن القدر الصحيح المقطوع بصحته أو الذى لا مجال للطعن فيه قدر كبير لا يوجد مثله لأى خطيب آخر فى هذا العصر .

ومقدرة على فى الخطابة معروفة ، وقال عنه الحارث الأعور : والله لقد رأيت علياً وإنه ليخطب قاعداً كقائم ومحارباً كمسالم . يريد بقاعد خطبة النكاح(١) .

وخطب الإمام ناصعة الأسلوب قوية الحجة عميقة المعانى . وخطبه الدينية أو الصوفية ذات أثر قوى فى نفوس قارئها . قال ضرار الصدائى : إنه رآه فى بعض لياليه ماثلا فى محرابه يتململ تململ السليم(٢) ، ويبكى بكاء الحزين وهو يقول : « يا دنيا غرى غيرى ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات . لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها ، أملك طويل وأجلك قصير ! آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !! .

وورع على وتقواه وحرصه على إقامة السنة فى مقابلة ما يبذل الأمويون من بيت المال لاستجلاب الأنصار وإسكات الأعداء كان ذا أثر كبير فى فقد على عدداً من رجاله وخسرانه المعركة وكانت له . فالصوفية أو الدعوة إلى العمل للدار الآخرة كانت فى على خلقاً وطبعاً ، وتعبيره عنها يفيض بالصدق وحرارة العاطفة .

والإمام على ينسب إليه شعر حكيم قوى مما يؤيد مقدرته الكلامية وأصالة البلاغة فى لسانه ، ولكن كثيراً من هذا الشعر مصنوع .

ومن مكوناته الأدبية أنه من قراء القرآن ومفسريه ، وكان الصحابة الكبار يلجأون إليه لحل المشكلات الفقهية والقضائية ، وكان يحلها معتمداً

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١١٨ ، - والحرث الأعور من رجال على فى صفين كان جهير الصوت كالعباس بن عبد المطلب .

(٢) السليم الملدوغ .

على دوسه القرآن وفهمه أسراره ، وكان من أقضى الصحابة وأبصرهم بمسائل الحدود ، ولا يفضله فى علم الميراث إلا زيد بن ثابت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرضكم زيد(١) .

هذا وقد قدمنا نموذجاً للخطبة الكاملة من كلام الإمام ، وخطب أصحابه يوم صفين فقال :

« أيها الناس : إن الموت طالب لا يعجزه هارب ، ولا يفوته مقيم ، أقدموا ولا تنكلوا ، فليس عن الموت محيص ، والذى نفس ابن أبى طالب بيده إن ضربة سيف أهون من موت الفراش .

أيها الناس : اتقوا السيوف بوجوهكم ، والرماح بصدوركم ، وموعدى وإياكم الراية الحمراء » .

ولما دبر الخوارج قتل على ومعاوية وعمرو ، كان عبد الرحمن بن

---

(١) كان الإمام سريع البديهة جداً فى حساب الفرائض ، وقد جاءته فتاة وقالت له : مات أخى عن ستمائة دينار فلم أعط منها إلا ديناراً واحداً فقال – رضى الله عنه – لعله مات عن زوجة وبنتين وأم واثنى عشر أخاً وأنت ،قالت : نعم،فقال ذاك حقك الذى يخصك . وأنت إذا قسمت هذه التركة بين الورثة عدا الأخوة وجدت للزوجة١/٨، وللبنتين ٢/٣ وللأم ١/٦ ، وبقى١/٢٤ للأخوة ولكى تحوله إلى عدد صحيح للذكر ضعف الأنثى ضربت المقام ٢٤ × ٢٥ فيصر ٦٠٠ للأخت منها ١/٦٠٠ .

وهناك مسألة أخرى تسمى الحيدرية نسبة إليه إذ كان يسمى حيدرة ، كما تسمى المنبرية ، فقد سئل وهو على المنبر عن ميراث زوجة وأبوين وابنتين ، وكان قد بدأ خطبته فقال : الحمد لله الذى يحكم بالحق قطعاً ، ويجزى كل نفس بما تسعى ، وإليه المآب والرجعى ، فوقف بعض الناس وسأله هذه المسألة ، فقال على الفور : صار ثمنها تسعاً ، لأن المسألة عالت إلى سبع وعشرين بدلا من أربع وعشرين ، فيصير نصيب الزوجة ٣/٢٧ بدلا من ٣/٢٤ – فصار نصيبها وهو الثمن١/٩ .

وقال الشعبى فى هذا : ما رأيت أحسب من على .

بعثه النبى – صلى الله عليه وسلم – قاضياً إلى اليمن وهو شاب ، فقال : ما أدرى ما القضاء ، فضرب رسول الله فى صدره وقال : اللهم اهد قلبه وسدد لسانه ، قال على : والله ما شككت بعد فى قضاء اثنين .

ملجم هو المنوط به قتل علي ، وكان للأشعث الكندي أصبع في مقتله ، فقد رتب ابن ملجم أن يقتله عند خروجه من بيته لصلاة الصبح ، فقضى ليله عند الأشعث ، وقد سمعه حجر بن عدي يستنهضه ويقول له : فضحك الصبح ، فلما أشيع قتل الإمام قال حجر للأشعث : أنت قتلته يا أعور ؟

وآخر كلام للإمام علي وهو وصيته أبناءه بعد أن ضرب ، فقد أغشي عليه وهم بجانبه ، فلما أفاق التفت إلى الحسن والحسين ، وبجانبه محمد ابن الحنفية فقال لهما :

« أوصيكما بتقوى الله والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً » . ثم التفت إلى محمد فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى . قال فإني أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما ، ثم أقبل ثانياً على الحسن والحسين فقال : أوصيكما به خيراً ، فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وانتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحبـــاه .

علي في نظر معاوية :

كان معاوية يقر لعلي بكل فضائله ، ولكنه كان يحرص على انتقاصه حتى بعد موته ، وذلك كيلا يذكر الناس محاسنه ومزاياه فيتعاطفوا مع شيعته ، كان معاوية صادقاً كل الصدق حين قال للحسن بن علي : إنكم أهل علم وعبادة ولكن لا علم لكم بالحكم .

وقد قدم عبد الله بن أبي محجن الثقفي على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين إني أتيتك من عند الغبي الجبان البخيل ابن أبي طالب . فقال معاوية : لله أنت ، أتدري ما قلت ؟ .

أما قولك الغبي فوالله لو أن ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي . وأما قولك : إنه جبان فثكلتك أمك ! هل رأيت أحداً

قط بارزه إلا قتله . وأما قولك إنه بخيل . فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن لنفد تبره قبل تبنه .

فقال الثقفى : فعلام تقاتله إذن ؟ .

وسأل معاوية ضراراً الصدائى أن يصف علياً ، فوصف ورعه وتقواه وطول تهجده . فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، لقد كان كذلك .

فمعاوية لا ينكر من صفاته إلا صلاحيته للحكم ، فيرى نفسه أصلح منه ، وكثيرون من أتباع على جبهوا معاوية بأنه طالب دنيا وعلى طالب آخرة ، وبأنه حاد عن قانون الله ، حتى السيدة عائشة — رضى الله عنها — قالت له مثل ذلك . ولكن معاوية كان يحسن إلى أتباع على ولا يرى داعياً لإهانتهم أو للانتقام منهم ، ولا يكف عن شتم على ولعنه من فوق المنبر ، وكان هذا عملا من أعمال السياسة .

وكان معاوية فى هذا كله أذكى من عبد الله بن الزبير الذى انتقص بنى هاشم وسجن جماعة منهم ، كما سيأتى ذلك بعد .

٢ — الحسن بن على

ولد الحسن — رضى الله عنه — فى السنة الرابعة من الهجرة ، نشأ وتربى تحت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه وبصره ، وكان يحبه هو والحسين حباً جماً ، وكان الحسن أشبه الناس بجده ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وروى عن الحسن عدد من الصحابة ، وممن روى عنه أم المؤمنين السيدة عائشة — رضى الله عنها — . وقال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين . وتوجد نصائح مأثورة مما لقنه أبوه الإمام على ، وكان الحسن هادئاً رزيناً صائب الرأى بليغ العبارات .

لما قتل الإمام على أقبل الناس يبايعون الحسن فقال : أبايعكم على السمع

والطاعة ، وأن تحاربوا من حاربت وتسالموا من سالمت . فارتابوا وأمسكوا أيديهم ، وقبض هو يده ، فذهبوا إلى الحسين فقالوا : نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب الضالين أهل الشام . فقال : معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حياً . فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بدأ أن يبايعوه على ما اشترط(١) . وتمت بيعته فى رمضان سنة أربعين ، وكتب إليه عبد الله ابن عباس رسالة جاء فيها : « اشدد عن يمينك وشمر للحرب ، وجاهد عدوك واستر من الظنين ذنبه بما لا يثلم دينك ، واستعمل أهل البيوتات تستصلح عشائرهم ... » .

وكان الحسن أكره الناس للفتنة ، ولهذا كره استمرار الحرب مع معاوية ، فعقد معه صلحاً ، ولم تهرق فى عهده محجمة من دم ، التقى جيشاهما فنظر إليهم الحسن أمثال الجبال فى الحديد . فقال أضرب بعض هؤلاء ببعض فى ملك من الدنيا لا حاجة لى به ؟ فبايع معاوية على أن يجعل له العهد من بعده ، فنفر أصحابه . فقال لهم : أنتم بايعتمونى على السمع والطاعة ، فكانوا يقولون له : يا للعار . فيجيب : العار ولا النار . ومازال بآله وأصحابه حتى قبلوا ما عاقد عليه معاوية .

ومات الحسن فى السنة الخمسين . وكان قد أوصى أن يدفن مع جده فى بيت عائشة ، فمنعه مروان بن الحكم . وكان الوالى على المدينة سعيد ابن العاص ، فصلى عليه ودفن بالبقيع . وقيل أنه مات مسموماً .

ولما تم صلحه مع معاوية صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس : إن الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت ، وقد سالمت معاوية وبايعته ، فبايعوه ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ١/٢٨٥ .

وأشار إلى معـاوية .

وحاول سليمان بن صرد(١) سيد أهل العراق ورأسهم – وكان غائباً عن الكوفة وقت البيعة – أن يغرى الحسن بالنكوص فى بيعته ، ولامه على أنه لم يأخذ غلية كتاباً ويشهد عليه . وقال : إن معاوية سيقول ما كنت أردت بذلك إلا إطفاء الفتنة ، وأراد الذهاب إلى الكوفة لإخراج عامل معاوية ، فقال الذين حضروا جميعاً : ابعث سليمان وابعثنا معه ، فلم يوافقهم الحسن رغم حماسهم واستعدادهم للحرب ، ولكنه قام فخطبهم فقال :

«... أما بعد فإنكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة ، والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما أردتم ، ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما أردت إلا حقن دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم . فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر لله والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم ، حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سيلى الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ... » .

ولم يؤثر عن الحسن خطب كثيرة ، لأنه لم تطل خلافته إلا شهوراً سبعة وسبعة أيام ، وظل معاوية طوال حياته يكرمه ، بينما ظل الأمويون ومن تبعهم ، وخصوصاً عمرو بن العاص يتحرشون به ، ولكنه كان

---

(١) هو سليمان بن صرد بن أبى الجون . من خزاعة . كان اسمه يسارا . فغيره النبى (صلى الله عليه وسلم) ، شهد صفين مع على . وهو الذى قتل جوشنا مبارزه . وكاتب الحسين بعد ذلك ثم تخلف عنه ، ثم كان من الذين خرجوا يطلبون دمه ، وكانوا أربعة آلاف ، وكان ممن قتلوا بعين الوردة سنة ست وخمسين . وكان عمره ثلاثا وتسعين ، وحمل رأسه إلى مروان ابن الحكم .

فصيحاً قوى الحجة يتغلب عليهم كما ترى فى الحوار الذى دار بينهم . على أن معاوية كان يتمنى موته كى يتم بيعة ابنه يزيد .

ولما مرض الحسن مرضه الذى مات فيه — وكان ذلك فى السنة الخمسين ، أى بعد تنازله لمعاوية بعشرة أعوام — كتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاته ، فكتب إليه معاوية : إن استطعت ألا يمر يوم إلا يأتينى فيه خبر عنه فافعل ، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفى .

وهذا يبين مدى ما كان لمعاوية من رغبة فى التخلص منه ، فلما أتاه خبر موته خر ساجداً ، وكان عبد الله بن عباس بالشام ، فحضر إلى معاوية أو هو استدعاه ، فقال : « قد بلغنى الذى أظهرته من الفرح والسرور لموت الحسن ، أما والله لا ينسأ موته فى أجلك ، ولا يسد حفرتك ، وما أقل بقاءك وبقاءنا بعده ! » . ثم خرج ابن عباس ، فرأى معاوية أن يبعث إليه يزيد يعزيه ، فجلس يزيد بين يديه واستعبر لموت الحسن ، فلما قام أتبعه ابن عباس بصره وقال : « إذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس » . يتعجب من دهائهم .

ومن خطب الحسن المعروفة خطبته حين اختلف الناس على أبيه بعد واقعة التحكيم ، قال له أبوه : قم يا حسن فقل فى هذين الرجلين — عبد الله ابن قيس ، وأبى موسى الأشعرى — وعمرو بن العاص ، فقام الحسن فقال :

« أيها الناس : إنكم قد أكثرتم فى هذين الرجلين ، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب دون الهوى فحكما بالهوى دون الكتاب ، ومن كان هكذا لم يسم حكما ، ولكنه محكوم عليه . وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : واحدة أنه خالف أباه إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى ، وأخرى أنه لم يستأمره فى نفسه ، وثالثة أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس . وأما الحكومة فقد حكم النبى — عليه الصلاة والسلام — سعد

ابن معاذ فى بنى قريظة ، فحكم بما يرضى الله به ولا شك ، ولو خالف لم يرضه رسول الله » .

فأخذ بهذا الحديث أقطار المعارضين ، بين جواز التحكيم وخطأ المحكمين.

وكان الحسن بعيد النظر فى السياسة ، ولعل والده لو أخذ برأيه أثناء الفتنة لكان للأحداث مجرى غير الذى حدث ، ولرجحت كفة العلويين دون نزاع . فقد أشار عليه أولا أن يركب راحلة ويلحق بمكة فلا يتهم بشىء من أمور عثمان ، وهذا ما فعله معاوية إذ رجع إلى الشام ، وطلب الحسن من أبيه ألا يبايع إلا على بيعة جماعة ، كما أمره حين خالف عليه طلحة والزبير ألا يكرههما على البيعة ، ولا يحارب من أجلها ، بل زاد أن طلب منه أن يتخلى عنها ويقيل الناس من بيعتهم . وقال له: لو تشاوروا عاماً ما زويت عنك ولا وجدوا منك بدأ ، ولكن علياً لم يطعه . وقال: أحارب من عصانى بمن أطاعنى .

وكان رضى الله عنه مقدراً من ذويه وأعدائه على السواء .

خطبـــاء علويون آخــرون

هناك خطباء عديدون ينتمون إلى حزب الإمام على ، لكنهم جميعاً تنبهم خطاباتهم بجانب خطب الإمام الكثيرة البليغة ، ومن ناحية أخرى لم يستقر لعلى ولاة ولا قواد فى الأقاليم لمدة طويلة ، وكانت معاركه ومواقفه الخطابية مركزة فى المواقع التى شهدها بنفسه ، فكان هو الخطيب الأول بوصفه رئيس الحزب وموجهه ، لكننا نستعرض أتباعه فنجد بينهم عدداً كبيراً من ذوى الخطابة واللسن ، ونذكر فى مقدمتهم أبناءه ثم من الصحابة هؤلاء الأشخاص :

١ – الأشتر النخعي

هو مالك بن الحرث – كان رئيس قومه مطاعا فيهم ، وكان محباً للإمام علي ، شهد معه صفين وموقعة الجمل ، ويقال إنه شهد خطبة عمر بالجابية ، وشهد موقعة اليرموك ، وأصابته ضربة فسال منها القيح إلى عينه فشترها ، فسمي الأشتر ، وكان من المحرضين على عثمان ، وشهد حصره . وولاه علي على الجزيرة ، ثم ولاه مصر بعد صرف قيس بن سعد عنها ، وقيل بعد صرف محمد بن أبي بكر ، لكنه مات قبل دخولها ، وأكثر الأقوال أنه مات مسموماً ، ولكن يختلف المؤرخون في طريقة موته وكيف دس له السم ، فيقال إن معاوية كتب إلى الخانسيار – وهو رجل من أهل الخراج في العقبة – أن يخلصه من الأشتر ويترك له خراجه ، فدس له سماً مات به . وأبلغ معاوية وعمرا موته فقال عمرو : إن لله جنوداً من عسل . وقيل صحبه مولى لعثمان بن عفان يدعى نافعاً ، أظهر له الود وقال إنه مولى لعمر بن الخطاب ، فأدناه الأشتر ووثق به وولاه أمره فصحبه إلى عين شمس فتلقاه أهل مصر بالهدايا والترحاب فسقاه نافع هناك سما .

كان الأشتر شجاعاً جريئاً . اشتبك مع عبد الله بن الزبير في موقعة الجمل فكان كل واحد منهما إذا قوى على الآخر جعله تحته وركب صدره ، فعلا ذلك مراراً وعبد الله يقول :

اقتـلاني ومالـكا واقتلا مالكا معـي

فصارت مثلا ، وهو يريد أنه مصر على قتله حتى ولو مات معه ، ولكنهما انصرفا من غير أن يقتل أحدهما الآخر ، وجاء عن ابن الزبير أنه قال : ما ضربته ضربة إلا ضربني ستاً أو سبعاً ، ثم أخذ رجلي وألقاني في الخندق وقال : لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً ، وترك في رأسه بركة لو صبت فيها قارورة لاستقرت بها وكان الأشتر شاعراً أيضاً .

٢ – قيس بن سعد

هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، كان من ذوي الرأي والحكمة والدهاء ، كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، وقد خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين عاماً ، وكان شريف النفس سيد قومه غير مدافع ، وكذلك كان أبوه وجده . وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوم فتح مكة انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية من أبيه وسلمها إياه(١) ، وكان قيس طوالا ضخماً حسن الهيئة ، إذا ركب حماراً خطت رجلاه بالأرض ، وكان يقول : اللهم ارزقنى مالا فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال ، وكان جواداً متلافاً حتى إنه كان يستدين ويطعم ، وشهد غزوة العسرة ، فكان يطعم ويستدين حتى نهاه أبو عبيدة أمير الجيش ، واستدان منه رجل ثلاثين ألفاً ، فلما ردها عليه أبى أن يقبلها . وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : الجود من شيمة أهل ذلك البيت . وقال عنه أبو بكر وعمر : إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه ، فمشيا فى الناس ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقام سعد بن عبادة خلفه فقال : من يعذرنى من ابن أبي قحافة وابن الخطاب ؟ يبخلان على ابنى .

شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها ، ومع على مشاهده أيضاً ، وحضر فتح مصر واختط له فيها بيتاً . وكان – كشريح وعبد الله بن الزبير – سناطاً ليس فى وجهه شعر ، وكان الأنصار يقولون : وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا .

ولاه الإمام على مصر ، وأعطاه خطاباً قرأه على الناس أول ما دخلها ،

---

(١) ذلك لأن سعد قال : اليوم يوم الملحمة ، يوم تقط الرقبة . فشكا أبو سفيان ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال : بل اليوم يوم المرحمة ، وأمر أن تكون الراية مع قيس .

وفيه أنه ممن يرضى هديه ويرجو صلاحه ونصيحته ، وقد أحسن قيس سياسة المصريين ، وأعطى أتباع معاوية فهدأت الحال فى مدة حكمه حتى قلق معاوية وخاف سياسته فاحتال لإخراجه منها ، أرسل إليه رسلا ودس على على حتى أخرجه من مصر ، فساءت حالها بعده ، وقد أوصى محمد ابن أبى بكر بحسن معاملة المنتمين إلى بنى أمية حتى تظل مصر هادئة ، لكنه لم يستجب له ، فساءت حالها وقامت بها ثورات .

وهناك مكاتبات متبادلة بينه وبين معاوية ، حاول فيها معاوية أن يستميله فلم يفلح . ومن سياسته أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قام بمصر فنعى عثمان وطالب بدمه ، فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلى تثب ؟ . فوالله ما أحب أن لى ملك مصر إلى الشام وأنى قتلتك ، فبعث إليه مسلمة : إنى كاف عنك ما دمت والى مصر .

وحديثه مستفيض فى كتب التاريخ . وتوفى سنة ٨٥هـ . وانظر مروج الذهب جـ ١ ، ففيه مزيد يستحق أن يذكر .

(ب) حزب ابن الزبير

لابد لنا من إلمامة عابرة بموقف عبد الله بن الزبير من أحداث السياسة فى عهد معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ، لنبرز بها صورة من صور النضال لأجل الخلافة أولا ، ثم لنرى من هذه الصورة موضوعات الخطابة الزبيرية ، ومواجهتها للأحداث التى واكبتها ، ونعرض لجذور هذه الأحداث بدءاً من عهد معاوية وبيعته ابنه يزيد .

معارضة البيعة :

رأينا من قبل كيف عرض معاوية هذه الفكرة ، وكيف احتال لها ، وذكرنا أن جماعة من كبار أبناء الصحابة ومن الصحابة رفضوا هذه البيعة ، وكان على رأسهم الحسين بن على ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير صاحب الدعوة

الزبيرية والحزب الزبيرى ، وقد حاج هؤلاء معاوية بحجج قوية ، كان منها ما جاء على لسان ابن الزبير ، وهو :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله ، وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطاً من المسلمين ، وتزويها عن ابنك فافعل » .

وكان معاوية فوق المنبر فنزل ، ولكنه أسرها فى نفسه حتى يدبر الأمر من وجهة أخرى .

وكان الآخرون قد تحدثوا أيضاً برأيهم ، وأدلى كل بوجهة نظره ، وكان من أشد المتكلمين عبد الله بن جعفر والحسين بن على ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان من أكثرهم إخافة لبنى أمية ، يدل على ذلك وصية معاوية ليزيد عند موته — وقد ذكرناها — كما يدل عليه ما كتب به سعيد بن العاص إلى معاوية حين كان والى المدينة وطلب معاوية منه أن يدعو الناس لبيعة يزيد ، إذ قال : « إن الناس عن بيعة يزيد بطاء ، لا سيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يجبنى منهم أحد ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته ، وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير » .

وعقب موت معاوية أرسل يزيد إلى خالد بن الحكم — وكان عامل المدينة (١) — أن يأخذ له البيعة من هؤلاء ، ولم يكن موت معاوية قد فشا ،

---

(١) هذا من كلام ابن قتيبة وفى الطبرى ٥/٣٢٧ أن عامل المدينة كان الوليد بن عتبة بن أبى سفيان .

فاستدعى الحسين بن على وابن الزبير فى بيته ليلا ، وطلب منهما البيعة ، فقال ابن الزبير : قد علمت أنا كنا أبينا البيعة إذ دعانا إليها معاوية. . . ومتى ما نبايعك على هذه الحال نرى أنك أغضبتنا على أنفسنا ، دعنا حتى نصبح وتدعو الناس إلى البيعة ، فنأتيك فنبايعك بيعة سليمة ، ثم خرجا كلاهما إلى مكة ، وكان ذلك فى سنة ٦٠ ه .

وفى سنة ٦١ ه كانت فاجعة كربلاء التى قتل فيها الحسين ، وكان الوالى على العراق هو عمرو بن سعيد الأشدق فأرسل برأسه إلى يزيد ، وبموت الحسين أصبح ابن الزبير أبرز من يتجه إليه الغاضبون على يزيد بالخلافة ، وهو من قبله قام بمكة ينعى على أهل الكوفة وعلى العراقيين عامة تفريطهم فى نصر الحسين ، كما ذكر سيئات يزيد وذميم أخلاقه ، وبدا ليزيد أن يسالمه ويتألفه ، ولكنه كان أكبر من أن ينخدع له ، وكان أيضاً بعض من بنى أمية شجعوا ابن الزبير ودعوا إلى بيعته ، فلم يسع يزيد إلا أن يأمر عمرو بن سعيد أن يعبىء جيشاً لحرب ابن الزبير بمكة ، فعبأ جيشاً جعل على رأسه عمرو بن الزبير ليحارب أخاه ، فأسره عبد الله وهزم الجيش (١) .

وفى سنة ٦٣ ه اشتد الأمر على يزيد ، إذ قرر أهل المدينة خلعه أيضاً ، ولما طلب من عمرو بن سعيد أن يذهب إلى الحجاز ليخضع العصاة هناك ، أبى وقال إنه لا يريد أن تراق دماء قريش على يديه ، ولعله بعد قتل الحسين أنف أن يلوث بدماء أخرى ، فأرسل يزيد « مسلم بن عقبة المرى » ، وهو سيد من سادات العرب وبطل من أبطال الحرب ، فتردد أولا ثم قبل ، وسخا بالعطاء لمن يذهب معه ، فكثر جنده حتى بلغوا اثنى عشر ألفاً ، وكان أكثرهم من بنى كلب أخوال يزيد ، فاقتحم هذا الجيش المدينة ، ويقال إنه استباحها ثلاثة أيام (٢) ، واشتهرت هذه الموقعة باسم موقعة الحرة لأنه المكان الذى عسكر فيه مسلم قبل دخوله المدينة .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث فى الطبرى ٥/٣٤٤ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ٤٨٦ .

واتجه مسلم بعد المدينة إلى مكة فمات في الطريق ، وخلفه على الجند رجل يقال له الحصين بن نمير السكوني ، وأوصاه مسلم وصية جاء فيها : « أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قريشاً من أذنك » وأضافت رواية أخرى : « ولا تردن أهل الشام عن عدوهم ، ولا تقيمن إلا ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق »(١) . ووصل الحصين إلى مكة فحاصرها ورمى الكعبة بالمجانيق ، فوصلهم نعي يزيد وهم على هذه الحال ، وعلم ابن الزبير بموته قبلهم فتنادى قومه : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ، وكانت وفاته سنة ٦٤ هـ .

أثر موت يزيد :

أحدثت وفاة يزيد اضطراباً كبيراً في أنحاء الدولة إذ رغب الكثيرون أن يتخلصوا من حكم هذه الأسرة ، أما معاوية الثاني فاعتكف في بيته على ما سبق مدة أربعين يوماً أو شهرين . جمدت خلالها شئون الأمويين ، ولما مات تولى قيادة الناس في دمشق الضحاك بن قيس الفهري الذي تولاها من قبل عقب موت معاوية بن أبي سفيان حتى يحضر يزيد ، وأثناء هذا الجمود تقدمت دعوة ابن الزبير وزاد أنصاره ، ولعل أكبر نصر له كان انضمام زفر بن الحرث مع قومه القيسيين إليه ، فهؤلاء كانوا يكرهون بني كلب ويكرهون يزيد لتقديمه أخواله الكلبيين عليهم ، وفي العراق نما الهرج والمرج ، إذ انشق الخوارج على أنفسهم ، وكانوا من أعوان ابن الزبير فاستقلوا عنه ، فأسأمت حالهم أهل العراق ورأوا أن ابن الزبير هو الملجأ الوحيد لهم ، فعظم بذلك شأنه .

ووجد الأمويون أنفسهم أمام مأزق شديد لأن الضحاك الفهري — فت في عضدهم كثيراً — بانضمامه إلى ابن الزبير ، وكانت شئون الأمويين في يدي رجلين بارزين هما مروان بن الحكم شيخ القبيلة حينئذ ، ومالك بن

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٦ .

بحدل خال يزيد ، فرأى مروان أن يبايع ابن الزبير أيضاً ، لكن مالكاً والآخرين رأوا أن يجمعوا كلمة الأسرة وأن يولو عليها مروان أكبرهما سناً ، فبايعوه على أن يكون الأمر بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد الأشدق ، وكانت بيعة مروان سنة ٦٤هـ — فى الجابية ولم تطل مدة مروان أكثر من عشرة أشهر فمات سنة ٦٥ هـ . ولكنه نكث بعهد الجابية إذ جعل ولاية عهده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ونحى خالدا وسعيداً ، ثم ترك الدولة وليس مع بنى أمية غير الشام ، والشام منقسم أيضاً .

عبد الملك وابن الزبير :

دلت الأحداث إذ ذاك على مهارة عبد الملك السياسية ، وأنه ينهج نهج معاوية فى دهائه وسخائه وحيلته .

اتجه أولا إلى زفر بن الحرث الكلابى فعقد معه صلحاً وأرضاه ، فهد بذلك ركنا من قوة ابن الزبير ، ثم اتجه إلى العراق فحارب مصعب بن الزبير وقضى عليه ، واضطر قبائلها المختلفة المتناحرة أن تبايعه ، ثم ولى الحجاج ابن يوسف الثقفى حرب ابن الزبير ، فذهب هذا أولا إلى الطائف موطن قبيلته ومنها ناوش ابن الزبير فترة ، ثم اتجه إلى مكة فأقام المجانيق على جبل أبى قبيس ورمى الكعبة بالحجارة ، ولم يتركه عبد الملك بل أرسل له مدداً كبيراً من الشام ، فلما اشتد الحصار والرجم تفرق أنصار ابن الزبير وقتل قتلته المعروفة ، وحمل رأسه إلى الحجاج ثم إلى عبد الملك ثم طيف به على الناس والأقاليم تهديداً لهم وشماتة ، وصلب جسده على أسوار مكة ، وكانت نهايته سنة ٧٣ هـ .

وهذه هى الحركة الزبيرية سردناها بنظرة عابرة ، ثم نتجه بعد هذا إلى بعض المواقف الخطابية التى صاحبتها .

عبد الله بن الزبير خطيبـــاً

أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله (ﷺ) ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وكان ميلاده عام الهجرة ، وهو أول ولد للمسلمين بالمدينة ، وقد فرح به المسلمون جميعاً لأن اليهود أرجفوا أنهم أخذوا المسلمين فلا يولد لهم بالمدينة . وقد حنكه رسول الله (ﷺ) ، وكان ريق رسول الله (ﷺ) أول شيء دخل جوفه ، وهناك حادث آخر يعزى إليه وهو أن رسول الله (ﷺ) احتجم مرة فقال لعبد الله : اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما بان عن النبي شرب الدم ورجع ، وقال جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ، قال له رسول الله (ﷺ) لعلك شربته . قال نعم، قال ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس ، فكانوا يرون أن ذلك سبب ما به من قوة وشجاعة ، وكان مع هذا ذكياً عابداً فقيهاً ، فما رأى الناس أحسن من صلاته ، كان يقف كأنه عمود لما يطيل من القراءة ، ولما فى صلاته من الخشوع ، وما ترك باباً من أبواب العبادة إلا تكلفه .

وقد شهد مع أبيه موقعة اليرموك وموقعة الجمل ، كما شهد فتح إفريقية ، ذكر ابن عذارى أن عبد الله بن أبى سرح كان إذا احتاج أن يفكر فى أمر دخل خيمته وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد بالدخول عليه ، فلما أعياه أمر البربر فى إفريقية فعل ذلك ، فجاء عبد الله ابن الزبير يريد مقابلته فمنعه الحاجب ، فأخذ يدور حول الخيمة فرآه ابن أبى سرح من خصاصها فدعاه ، فأخبره ابن الزبير أنه اهتدى إلى ثغرة فى صفوف العدو يمكن أن يهجم عليهم منها ، وأطلعه عليها فتم بها الفتح للمسلمين (١) .

---

(١) انظر البيان المقرب ص ٤٢ وما بعدها .

وكان عبد الله بشيراً بفتح آخر إلى عثمان ، فلما قدم المدينة ذهب إلى الخليفة قبل أن يدخل على أبيه وحدثه بهذا الغزو فأعجبه حديثه فقال له : هل تستطيع أن تخبر الناس بمثل هذا يابنى ، قال : أنا أهيب لك منهم ، فقام عثمان فى الناس خطيباً ، وقال : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله إلى جانب المنبر فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فأعجب به الناس ، فلما سكت نزل عثمان ، وقام عبد الله إلى أبيه ، فقبله أبوه بين عينيه وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » ، والله يابنى ما زلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت ، ثم قال : إذا أردت أن تتزوج امرأة فانظر إلى أبيها وأخيها ، قبل أن تتزوجها (١) .

ولعل هذه الخطبة كانت أول ما بدا من نجابته فى الخطابة فقد كان ما يزال شاباً حتى أشفق عليه أبوه ، ووجد على عثمان أن يوليه هذا الأمر وهو فى هذه السن ، هكذا ذكر ابن عبد الحكم ، ولا نراه جيداً لأن إفريقية فتحت سنة ٢٧ هـ . أى أن ابن الزبير كان فى هذه السن ، فهو ليس حدثاً .

أما الخطبة فهى :

« الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً (ﷺ) فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعواناً قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وعزروه ونصروه ووقروه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومة لائم .

أيها الناس . رحمكم الله .

---

(١) فتوح مصر ص ٢٥٠ .

إنا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبردين (١) ، ويخفض بنا فى الظهائر (٢) ، ويتخذ الليل جملا (٣) . يعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، ورغاء الإبل ، وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياماً نجم كراعنا (٤) ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأناهم (٥) وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم (٦) قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئاً واسعاً ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف [فصفق عليها مروان بن الحكم] — فتركت المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النفل (٧) ، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين ، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك .

---

(١) أول النهار وآخره .

(٢) جمع ظهيرة .

(٣) يركب الليل فى سفره .

(٤) نريح إبلنا .

(٥) نتأنى ونتريث .

(٦) يريد الوالى .

(٧) ما نالوا من الغنيمة .

فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

خطبته بعد قتل الحسين :

تقدم أنه قام خطيباً بمكة بعد قتل الحسين فلام أهل الكوفة خاصة ، وأهل العراق عامة ، ومن هذه الخطبة :

« إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق ، إنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً ، فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب — فرأى والله — وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً — أنه مقتول ، ولكنه آثر الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسيناً ، وأخزى قاتل حسين ، لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان فى مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حم نازل (١) ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع .

أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا ، ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم (٢) ، وأولى فى الدين والفضل .

أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب (٣) الصيد ، فسوف يلقون غيا .

---

(١) الذى قدر واقع .

(٢) أحق منهم بالخلافة والملك .

(٣) تطلاب بمعنى طلب . من مصادر سماعية مفتوحة الأول دائماً . والفقرة كلها تعريض بيزيد بن معاوية فقد كان صاحب لهو وشراب .

فثار إليه أصحابه قائلين أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق بعد الحسين أولى بها منك . وكان عبد الله إذ لجأ إلى مكة وقال إنى عائذ بها يدعو لنفسه سراً ويبايع الناس .

وفى هذه الخطبة نجد أن الحسين قد وجد نفسه مضطرا أن يواجه جيش ابن زياد مع علمه أن سيقتل ، وأهل الكوفة هم الذين ألجأوه لهذه التضحية ، والشيعة يقولون إن الحسين خرج إلى العراق عالماً أنه سيقتل مؤثراً الاستشهاد فى سبيل الحق ، ورأى الشيعة بعيد جداً ، لأن معاوية جعل على رأس كل واحد ممن امتنعوا عن البيعة جنديا يقتله إذا عارض معاوية فيما يعلن من البيعة ، وأعلن هو من فوق المنبر أن هؤلاء بايعوا ، فلم يجرؤ واحد منهم أن يجيب بكلمة ، أو يبدى أية معارضة ، ولو كان يرى من الواجب أن يستشهد لفعل ، ولكان قتله فى المسجد أدعى للثورة وذهاب بيعة يزيد إلى الأبد .

خطبته لما بلغه قتل مصعب :

لما بلغ عبد الله قتل أخيه أمسك عن ذكره أياماً حتى تحدثت به إماء مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس مليا لا يتكلم ، والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقاً . فقال رجل إلى من بجانبه : ما له لا يتكلم ! أتراه يهاب المنطق ؟ والله إنه للبيب الخطباء ، قال لعله يريد أن يذكر مقتل أخيه سيد العرب فيشتد ذلك عليه وهو غير ملوم ، ثم تكم عبد الله فقال :

« الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

أما بعد . فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفرداً ضعيفاً ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعباً قتل — رحمة الله عليه ومغفرته — فأما الذى أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة ،

يُ ، نجدها حيمة عند المصيبة ، ثم يرعوى (١) من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء ، . وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة (٢) إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغام (٣) الصم الآذان — أهل العراق — إسلام النعم المخطمة (٤) وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذونه منه ، فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين . إنا والله لا نموت حتف آنافنا (٥) ، ولكن قعصاً (٦) بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط ، ألا وإنما الدنيا عارية (٧) من الملك القهار ، الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد (٨) ملكه ، فإن تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر (٩) ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق (١٠) المهين .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

هذه خطبة ليست طويلة ولكنها ليست قصيرة أيضاً ، وإذا وازنت بينها وبين خطبة الحجاج حين نعى إليه أخوه وابنه تجد تقارباً فى المنحى ،

---

(١) يفيء ويرجع .

(٢) الخير فى الدار الآخرة لأنه قتل مجاهدا فى سبيل الله .

(٣) العوام الذين لا عقل لهم ولا تعليم .

(٤) الخطام ما يوضع على أنف البعير من الحبال ليقاد به — ويقال خطمه إذا وضع فيه هذا الحبل .

(٥) يقال للذى يموت على فراشه مات حتف أنفه . أى خرجت روحه من أنفه دون معركة .

(٦) دُفعاً .

(٧) عارية بالتشديد شىء معار .

(٨) يفنى .

(٩) المتكبر الفرح .

(١٠) الأحمق .

وكلتا الخطبتين تقوم على فكرة سياسية ، واحتياط من الخطيب للمستقبل ، غير أن الحجاج كان يهدد ويشتم لأنه مالك ، أما الزبير فلاين مستمعيه ليستعين بهم فى المعارك المقبلة ، وقد أظهر التجلد ، واعتذر عن بكائه بأنه للعاطفة التى يجدها كل حبيب لفراق حبيبه ، ولكنه يعلم أن أخاه مات فى سبيل الله شهيداً ، وفى هذا ما يشجع الآخرين على الحرب وعلى نيل هذه الشهادة .

آل الزبير :

أما أبوه فهو الزبير رضى الله عنه ، انصرف من موقعة الجمل فتبعه ابن جرموز فقتله وهو قائم يصلى فى مكان يسمى وادى السباع ،وأما عمه فهو عبد الرحمن بن العوام — أخو الزبير — قتل يوم اليرموك ، كما قتل ابنه عبد الله من قبل ، « فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه وأخوه » فابن عمه هو عبد الله ابن عبد الرحمن قتل يوم الدار دفاعاً عن عثمان ، وأما أخوه المنذر ، كان قد شهد موقعة الحرة ، ثم انحاز إلى أخيه بمكة ، فلما سار إليهم جيش يزيد إلى مكة خرج إليه المنذر فقاتلهم ساعة قتالا شديداً ، ثم دعاه رجل من أهل الشام إلى المبارزة ، فخرج إليه فضرب كل صاحبه ضربة مات منها ، فماتا معاً .

هذا وخطب ابن الزبير كثيرة ولكن مناظرته مع معاوية وأتباعه أكثر ونورد بعضاً منها ، وله أيضاً مناظرات مع عمرو ومع بعض الهاشميين .

أما ولاته فمنهم أخوه مصعب ، وكان شجاعاً ذكيا وخطيباً قوياً ومنهم عبد الله بن يزيد الأنصارى . وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله ابن مطيع .

خطبة لمصعب بن الزبير :

ولمصعب خطبة أول ما ولى العراق ليست إلا آيات من أول سورة القصص هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام)

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) .

ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) .

صورة من محاورات ابن الزبير والأمويين

هذه المحاورات كانت كثيرة متكررة ،ونكتفى بعرض هذه الصورة، وهى جميعاً تدور على محور واحد ، ابن الزبير يذكر صلة أبيه وجدته صفية برسول الله ، وقرابتهم من السيدة خديجة ، وما كان لهم فى الإسلام من سابقة وجهاد ، مع قرن ذلك بما كان لبنى أمية من عداء لرسول الله (ﷺ) وشنهم الحروب ضده ، ومحاربتهم الإسلام ، أما معاوية فكان يلجأ إلى أن الرياسة فى الجاهلية والإسلام كانت لبنى عبد مناف ، ذلك ليجمع بنى أمية مع بنى هاشم تحت جد واحد ، وأن بنى زهرة لم يكن لهم من الأمر شيء ، وكل ما لهم من مفاخر إنما جاء بسبب صلتهم برسول الله (ﷺ) وهو من بنى عبد مناف — فكان يقول له مثلا :

« عمتك أم المؤمنين — يعنى خديجة — فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهى أدنتك من الظل ، ولولاها لكنت ضاحياً . — يريد أن زواج العوام والد الزبير من صفية قربه من بنى هاشم ، وهكذا كانت طريقهما . (١) .

---

(١) راجع العقد الفريد ٤/٩٥ وما بعدها .

وإليك هذه الصورة .

قدم عبد الله بن الزبير على معاوية فرحب به وأدناه حتى أجلسه على سريره ثم قال : .

– حاجتك أبا خبيب – (وهى كنية عبد الله لأن خبيباً أكبر ولده) .

– ترد على المهاجرين والأنصار فيئهم ، وتحفظ وصية نبى الله فيهم تقبل من محسنهم وتتجاوز عن مسيئهم .

– هيهات ، هيهات . لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أليتها (١).

– مهلا معاوية ، فإن الشاة لتدر للحالب وإن المدية فى يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذى خرج من صلبه ، وما تدور الرحاء إلا بقطبها (٢) ، ولا تصلح القوس إلا بعجبها (٣) .

– يا أبا خبيب ، لقد أجررت الطروقة قبل هباب الفحل (٤) ، هيهات هيهات ، وهى لا تصطك لحيانها اصطكاك القروم السوامى (٥) .

– العطن بعد العل ، والعل بعد النهل ، ولابد للرحا . من الثفال (٦) . . ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء ، وأخذت قريش مجالسها .

---

(١) ما نسميه نحن لية – ذنب الشاة أو عجزها .

(٢) قطب الرحا عمود صغير يكون فى وسطها . والرحا يمد ويقصر .

(٣) مؤخرها – وهو يريد أنه لا يصلح إلا بهؤلاء .

(٤) الطروقة : الناقة استحقت أن يطرقها الفحل . وأجرها جذبها من رسنها وهباب الفحل وهببه قيامه للطرق .

(٥) يقال سما الفحل سماوة إذا اندفع إلى أنثاه فهو سام وجمعه سوام – والقروم جمع قرم وهو الفحل.وتصطك تضطرب وتتحرك، يريد أنك تعجلت أموراً قبل موعدها وجرأت الناس .

(٦) العطن مبرك الإبل ، والعل أو العلل ، هو الشرب الثانى للإبل ، والنهل هو الشرب أول مرة ، والإبل تشرب ثم تعود للشرب ثانياً ، فإذا ارتوت ذهبت إلى مبركها ، والثفال ما يفرش تحت الرحاء ليقع عليه الطحين . يريد أن معاوية لم يؤد لهؤلاء أوليات الأمور التى يطمئنون بها ويأنسون إليه .

وكان بينهم عمرو بن العاص ، قال لهم معاوية : أفيكم من يكفيني ابن الزبير ؟

قال عمرو : أنا يا أمير المؤمنين ،قال :ما أظنك تفعل، قال : بل والله لأربدن (١) وجهه، ولأخرسن لسانه ، ولأردنه ألين من خميلة (٢) .

قال دونك فأعرض له حين يدخل .

وبلغ هذا الحديث عبد الله ، فذهب لمجلس معاوية وجلس نصب عيني عمرو ، ومر الحديث ساعة ، ثم قال عمرو :

وإني لنار ما يطاق اصطلاؤها لدى كلام معضل متفاقم (٣)

فأطرق ابن الزبير ساعة ثم رفع رأسه وقال :

وإني لبحر ما يسامى عبابه(٤) متى يلق بحرى حر نارك تخمد

فقال عمرو أولا وأجابه عبد الله على هذا النحو .

— والله يا ابن الزبير إنك ما علمت لمتجلبب (٥) جلاليب الفتنة ، متأزر بوصائل (٦) التيه ، تتعاطى الذرى الشاهقة ، والمعالى الباسقة . وما أنت من قريش في لباب جوهرها ، ولا مونق حسبها (٧) .

— أما ما ذكرت من تعاطي الذرى ، فإنه طال بي إليها وسما ما لا يطول بك مثله . أنف حمى (٨) ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي (٩) في تليد

---

(١) لأجعلن وجهه أربد مغبراً .
(٢) الخميلة القطيفة .
(٣) عظيم منتشر .
(٤) عباب البحر معظم موجه .
(٥) ملتف بالفتنة كالجلباب الذى يحيط بالجسد .
(٦) جمع وصيلة وهى ثوب يمان مخطط ، والتيه العجب .
(٧) المونق المعجب من آنقه الشيء بمعنى أعجبه .
(٨) يريد أنه غيور يأبى الضيم .
(٩) الصارم السيف القاطع والمشرفى المنسوب إلى مشارف اليمن .

فارع (١) وطريف مانع ، إذا قعد بك انتفاخ سحرك (٢) ووجيب قلبك.

وأما ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرها ، ومونق حسبها ، فقد حضرتنى وإياك الأكفاء العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك.

فقال القوم : قد أنصفك يا عمرو.

قال عمرو : قد فعلت.

قال ابن الزبير :

ـــ أما إذا أمكننى الله منك فلأربدن وجهك ، ولأخرسن لسانك ، ولترجعن فى هذه الليلة وكأن الذى بين منكبيك مشدود إلى عروق أخدعيك(٣).

ثم قال :أقسمت عليكم يا معاشر قريش : أنا أفضل فى دين الإسلام أم عمرو ؟.

فقالوا : اللهم أنت . قال :فأبى أفضل أم أبوه ؟ . قالوا : أبوك حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآله ،وابن عمته.

قال : فأمى أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق وذات النطاقين.

قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سلمى بنت العوام ، صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أفضل من عمته.

قال : فخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين.

قال : فجدتى أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) التليد القديم والفارع العالى – يريد أنه ذو أصل ونسب.

(٢) السحر الرئة أو أعلى الصدر . يقال انتفخ سحر فلان إذا عدا طوره.

(٣) يريد ذليلا مطأطئ الرأس ، والذى بين منكبيه رأسه أو عنقه ، والأخدعان عرقان على جانبى العنق وإذا شد رأسه إلى أخدعيه انخفض.

قال : فجدى أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

قضت الغطارف من قريش بيننا فاصبر لفصل خصامها وقضائها(١)
وإذا جريت فلا تجار مبرزا بذ الجياد على احتفال جرائها(٢)

أما والله يا ابن العاص : لو أن الذى أمرك بهذا واجهنى بمثله ، لقصرت إليه من سامى بصره(٣) ، ولتركته يتلجلج لسانه ، وتضطرم النار فى جوفه ، ولقد استعان منك بغير واف ، ولجأ إلى غير كاف .

بين ابن الزبير وبنى هاشم

يردد بعض المؤرخين أن عبد الله بن الزبير هو الذى دفع بالحسين إلى الخروج على يزيد . وأنه هو الذى زين له الخروج إلى العراق ، وكان يدرك عاقبة الحسين ، ولكنه غرر به كى يخلو له الجو ويكون أولى الناس بها ، فإن الناس لا يقدمونه على الحسين ، ويستأنس بعضهم لهذا بالجفوة التى كانت بينه وبين بنى هاشم ، وامتناع بعضهم عن مبايعته بالخلافة . ولسنا ندرى حقيقة هذا الموقف ، ولكن من المعروف حقاً أن بعض بنى هاشم أظهروا الطعن على ابن الزبير وأبوا مبايعته ، وكان هو يشتمهم ويسبهم من فوق المنبر حتى إنه أسقط ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من خطبته ، وعاتبه الناس على هذا فقال : إنى أذكره سراً وأصلى عليه ، ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت قلوبهم وأبغض الأشياء إلى ما يسرهم . وكان عبد الله بن عباس ، ومحمد ابن الحنفية على رأس معارضيه ، وكان معهم جماعة من بنى هاشم ، فجمعهم ابن الزبير وهددهم

---

(١) الغطاريف جمع غطريف .

(٢) المبرز الذى يفوق أقرانه . وبذ فاز وغلب ، والاحتفال الاجتماع . والجراء المجاراة ، أى يفوق من يسابقه رغم استعداده وجمعه قواه للمسابقة .

(٣) أذللته حتى يغض بصره .

إن لم يبايعوه أن يحرقهم بالنار ، فلم يبايعوه ، فسجن محمد ابن الحنفية وخمسة عشر من بني هاشم فى سجن كان يسمى سجن عارم ، فظلوا أياماً غير أن المختار بن أبى عبيد عبأ حملة من الشيعة سراً استطاعوا أن يكسروا السجن وأن يخرجوهم منه .

وهذا الموقف من المواقف السيئة فى حياة ابن الزبير ، وهى ذات دلالة واضحة على ضيق أفقه السياسى ، وكان أولى به أن يسلك معهم مسلك معاوية ، وأن يعطيهم أعطياتهم ويقربهم إليه . ثم يحول بينهم وبين الانسياح فى البلاد حتى لا يكونوا جبهة ضده ، وكان مخطئاً كل الخطأ بقطعه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إسرار ذكره فى خطبته ، وقد زاد ذلك أعداءه ، وأغضب أتباعه عليه ، وهذا موقف له مع عبد الله بن عباس .

خطب مرة أمام الناس وعبد الله بن عباس بينهم ، وكان قد كف بصره فقال ابن الزبير :

أيها الناس : إن فيكم رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، قاتل أم المؤمنين وحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفتى بتزويج المتعة !.

فقام ابن عباس ، وقال لعكرمة : أقم وجهى نحوه ثم قال :

إن يأخذ الله من عينى نورهما فى فؤادى وعقلى منهما نور

وأما قولك يا ابن الزبير أنى قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك(١) ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها(٢) ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان على مؤمناً فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبى طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها ، فأفتيت بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر سطع فى المتعة مجمر آل الزبير .

---

(١) يريد عبد الرحمن بن أبى بكر .

(٢) يريد أن علياً بعد الظفر بها أعادها معززة مكرمة .

وبهذا ترى أن ابن عباس أمه وتغلب عليه ، فحوكان أجدر به إذ لم يستطع ضمه إليه أن يعرض عنه ويتقى رده عليه .

وقد جاءت هذه المحاورة فى الطبرى برواية مطولة ، واكتفينا برواية العقد الفريد .

بين ابن الزبير والخـوارج

مواقف الولاة الزبيريين :

بعد قتل المختار الثقفى ، ولى ابن الزبير عبد الله بن يزيد الأنصارى أميراً على الكوفة ، وجعل معه إبراهيم بن محمد بن طلحة أميراً على خراجها ، فقدما إليها ، وقد علم ابن يزيد أن الشيعة يريدون أن يخرجوا بها ، وكانت قيادتهم حينئذ لسليمان بن صرد . فارتقى ابن يزيد المنبر وألقى هذه الخطبة :

خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أما بعد . فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ما هو ، فقيل لى : زعموا أنهم يطلبون دم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم(١) ، قد — والله — دللت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ، ابدأهم قبل أن يبدأوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلونى قاتلتهم ، وإن تركونى لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ؟ . فوالله ما أنا قتلت حسيناً(٢) ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله — رحمة الله عليه — فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ، ولينتشروا ظاهرين ، ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهير(٣) .

---

(١) يرثى لهم ولخطأ تصرفهم .

(٢) قتله غيرى .

(٣) معين ومساعد .

هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه إليكم عهد العاهد به(١) ، على مسيرة ليلة من جسر منبج(٢) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم — فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رققتم(٣) ، وتلك — والله أمنية عدوكم — وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، وهو الذى قتلكم ومن قبله أتيتم(٤) ، والذى قتل من تثأرون بدمه(٥) قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم(٦) ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم(٧) ، إنى لم آلكم(٨) نصحاً ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا » .

خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة

كان إبراهيم هذا من الشجعان حتى سمى أسد قريش ، ومات سنة ١١٠هـ فى العام الذى مات فيه ابن سيرين والحسن البصرى . أما أبوه محمد بن طلحة فقد قتل يوم الجمل .

قام إبراهيم فى هذا الموقف فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه :

« ... أيها الناس : لا يغرنكم من السيف والغشم(٩) مقالة هذا

---

(١) كان ابن زياد بعد موت معاوية الثانى ذهب إلى الشام ، وصد مروان عن التسليم لابن الزبير . فلما استقر له الأمر وجه عبيد الله إلى العراق وأمره بنهب الكوفة . وكان ابن زياد فى طريقه إليهم .

(٢) بلد بين حلب والفرات .

(٣) ضعفتم .

(٤) من جهته جاءتكم الذلة .

(٥) الذى قتل الحسين .

(٦) بقوتكم كاملة .

(٧) اجعلوا الواقعة تنزل به لا بكم .

(٨) لم أقصر فى نصحكم .

(٩) الغشم الظلم والأخذ بالقوة والعنف .

المداهن(١) الموادع (٢) ، والله إن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن استيقنا أن قوماً يريدون الخروج علينا ، لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم (٣) ، والعريف (٤) بما فى عرافته ، حتى يدينوا(٥) للحق ويذلوا للطاعة » .

رد المسيب بن نجبـــه :

وثب المسيب بن نجبه فقطع على إبراهيم منطقه ، فقال :

يا ابن الناكثين(٦) ، أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ .

أنت والله أذل من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا، وقد قتلنا أباك وجدك ، والله إنى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل المصر ، حتى يثلثوا بك جدك وأباك(٧) . وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولا سديداً ، إنى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحاً لك ، وقابلا قولك .

فقال إبراهيم : « إى والله ليقتلن ، وقد أدهن ثم أعلن »(٨) .

رد عبد الله بن وال التيمى :

قام عبد الله بن وال فقال :

ما اعتراضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ، فوالله ما أنت

---

(١) المنافق .

(٢) الذى يميل إلى الموادعة وعدم الحرب .

(٤) نعاقب الشخص بذنب صديقه .

(٤) العريف رئيس القوم، لأنه معروف وبارز فيهم .

(٥) يخضعوا .

(٦) الذين ينقضون العهد ، وهو يشير إلى أن طلحة بايع عليا بالمدينة ثم نكث وقال : بايعت والسيف على عنق .

(٧) حتى تكون ثالثهم فى القتل .

(٨) اتبع المداهنة والمدارة أولا ثم جهر بما كان يكنه .

علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلعمر الله لئن كنت مفسداً ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك الناكثان فكانت بهما اليدان(١) ، وكانت عليهما دائرة السوء » .

أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنرجو أن تكون به عند العامة محموداً وأن تكون عند الذى عنيت واعتريت مقبولا .

* * *

وفى ربيع الآخر سنة ٦٥هـ قام سليمان بن صرد يدعو الشيعة إلى حرب ابن زياد ، فعسكر بالنخيلة(٢) ، ولكن تخلف عنه الكثيرون ، فخطب هذه الخطبة .

خطبة سليمان بن صرد

« ... أيها الناس : من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه ، فرحمة الله عليه حياً وميتاً ، ومن كان إنما يريد الدنيا ، وحرثها(٣) ، فوالله ما نأتى فيئاً نستفيئه ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا فى عواتقنا ، ورماحنا فى أكفنا ، وزاد قدر البلغة(٤) إلى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا » .

---

(١) من تعبيرات العرب كانت به اليدان أى أصابه الشر الذى بيته لغيره .
(٢) ضاحية من ضواحى الكوفة تجمع بها الخوارج من قبل .
(٣) متاعها .
(٤) ما يتبلغ به الشخص من الطعام ، أى ما يمسك حياته فقط .

خطبة صخير بن حذيفة

ثم قام صخير بن حذيفة بن هلال المزنى ، فرد على سليمان بهذه الخطبة :

« ... آتاك الله رشدك ولقاك حجتك . والله الذى لا إله غيره ما لنا خير فى صحبة من الدنيا همته ونيته .

« أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبنا ، والطلب بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما نقدم على حد السيوف ، وأطراف الرماح » .

فتنادى الذين حولهم من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

من تتمة هذا الحديث أن نذكر أنه بينما يتهيأ القوم لمقابلة ابن زياد قام عبد الله بن سعد فطلب أن يهجموا على الكوفة لأن بها قتلة الحسين بينما لا يوجد فى الجيش القادم من الشام من قتلته غير ابن زياد ، لكن سليمان ابن صرد ، أصر على وجهته ، وقال إننا إن قتلنا الذين بالكوفة « ما عدم رجل أن يلقى رجلا قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلا لم يكن يريد قتله ، إن الذى قتل صاحبكم هو هذا الفاسق ابن الفاسق ابن مرجانة ، عبيد الله بن زياد ، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه » ، وكان هؤلاء يسمون التوابين ، لأنهم تابوا من إثم الحسين .

وانضم إليهم عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة فى جماعة من أصحابهما وتلاقوا مع جيش الشام فى عين الوردة . فى وسط الجزيرة فأصاب هؤلاء الأحلاف من جيش ابن زياد مقتلة عظيمة ، ولكن قتل سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله ابن وال . ورأى من بقى من التوابين أن لا طاقة لهم بجيش الشام فارتحلو

تحت إمارة رفاعة بن شداد البجلى ، فلما وصلت هذه البشرى عبد الملك صعد المنبر وألقى هذه الخطبة .

* خطبـــة عبد الملك

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أما بعد فإن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح(١) فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب ابن نجبة خذاريف(٢) ، ألا وقد قتلنا(٣) من رءوسهم رأسين ضالين مضلين ، عبد الله بن سعد أخا الأزد ، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل . فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع » .

* * *

(١) مثير ومنشئ . من ألقح النخلة . وألقح الفحل الناقة ، وبدون اللقاح لا تثمر الشجرة ولا تنتج الناقة .

(٢) جمع خذروف – وهو شيء كالنحلة التى يلعب بها الصبيان . يريد هشم رأسه وتركه قطعاً صغيرة .

(٣) فى الأصل قتل – والضمير يرجع لله – فى قوله فإن الله قد أهلك ولا يجوز قراءته بالبناء للمفعول .

٣ - المهلب بن أبي صفرة وأبناؤه

المهلب بن أبي صفرة من الأزد ، وبيته وبنوه من البيوت والأسر الشريفة التي ينتمى إليها كثيرون من ذوى الأمجاد والشجاعة والكرم . وأبو صفرة اسمه ظالم بن سراق ، ولكنه كنى بابنة له كانت تدعى صفرة . كانوا من قرية يمنية تسمى « دبا » أسلم أهلها عام الوفود قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدوا ضمن المرتدين أول خلافة أبى بكر ، وقد حاربهم عكرمة بن أبى جهل وأرسل أسراهم إلى الخليفة ، فأطلق سراحهم وقال : اذهبوا حيث شئتم ، فنزل أبو صفرة البصرة ، وكان يقال بصرة المهلب .

وقيل هذا الحديث غير جيد ، وإن أبا صفرة لم يرد على أبى بكر ، ولكن ورد على عمر وهو شيخ أشيب(١) .

ولد المهلب — وهو أصغر أبناء أبيه — قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين ، ونشأ شجاعاً كريماً ذا بأس وبصر بالحروب ، اتصل بعبد الله بن الزبير أيام خلافته فخلا به وحادثه ، ثم جعله والياً له على خراسان ، ولما اشتد قتال الخوارج وأهل العراق بعد موت يزيد كتب أهل البصرة إلى ابن الزبير أن يعين عليهم والياً من قبله ، فولى عليهم المهلب وتولى ابنه يزيد خراسان ، وقد استطاع المهلب أن يقهر الخوارج فى مواقع متعددة ، وقتل نافع بن الأزرق وخلقاً كثيراً من الخوارج ، ولما انتصر عبد الملك على عبد الله بن الزبير ولى أخاه بشر بن مروان الكوفة ، وولى البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد(٢) ، فلم يفلحا فى حرب الخوارج

(١) انظر ابن خلكان ٥ / ٣٥٠ وما بعدها . وارجع إلى الفصل الذى عقده المبرد فى كامله للحديث عن الخوارج .

(٢) ليس هذا هو خالد بن عبد الله القسرى .

وعهد عبد الملك للمهلب من جديد بحربهم ، وكان بشر قد مات وتولى الحجاج العراق كله . وتولى المهلب خراسان وظل بها حتى مات بها سنة ٨٢هـ ، فتولاها ابنه يزيد .

وعلى الرغم من أن الحجاج كان يرسل الوفود المحاربة من العراق لتعمل تحت إمرة المهلب — على نحو ما مر فى خطبته — وعلى الرغم من أنه تزوج هند بنت المهلب ، كان يكره يزيد ويحقد عليه ، لأنه كان يخشى أن يتولى العراق ، ومما ذكر فى هذا أن الحجاج نزل مرة بدير به شيخ من أهل الكتب ومن المنجمين ، فسأله الحجاج عمن يلى العراق بعده . فقال له شخص يسمى يزيد ، فاقتنع الحجاج بنبوءته ولم يجد من يصلح لهذا غير يزيد بن المهلب ، فوشى بالمهلبيين إلى عبد الملك وما زال به حتى عزل يزيد سنة ٨٥ وولى مكانه قتيبة بن مسلم . وحبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم عذاباً شديداً ، وأغرمهم مغارم ثقيلة ، ولكن يزيد كان يتحمل كل ذلك بصبر وشجاعة نادرة ، فيزيد الحجاج غيظاً منه .

ثم تمكن يزيد وإخوته من الهرب فلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج ومن أخيه الوليد فأجارهم ، وما لبث الوليد أن مات وأفضت الخلافة إلى سليمان سنة ٩٦هـ ، فولى يزيد العراق مكان الحجاج فحقق نبوءة الكاهن ، وفتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب إلى الخليفة بالفىء الذى تحت يده وكان عظيما يبلغ ستة آلاف ألف ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز — ولم يكن يحب المهالبة لشدتهم ويقول إنهم جبابرة — طلب المال من يزيد فقال إن الغنيمة كانت دون ما كتب به إلى سليمان ، وأنه ذكر الستة الملايين للشهرة والمباهاة ، فلم يصدقه عمر وسجنه وقال له : اتق الله وأد ما لديك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها . فبقى فى سجنه حتى مرض عمر مرض موته ، فهرب يزيد ثانياً إلى البصرة ، فلما مات عمر سنة ١٠١هـ وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، استولى ابن المهلب على البصرة . ذلك أنه كان بينهما عداء أيضاً ، وكان ابن عبد الملك قد نذر لئن ظفر بابن

المهلب ليقطعن من جسمه عضوا ، ثم جرد حملة هزمت ابن المهلب ، وقتل سنة ١٠٢هـ .

هذه هي الخطوط الرئيسية لهذه الأسرة . وكان المهلب كثير النسل حتى قيل أنه نسل ثلاثمائة ولد . وكان له أبناء وحفدة ذوو شجاعة وكرم وذوو عقل وأدب ، وقد ذكرنا من قبل أنهم ذوو فضل على بنى أمية بكفايتهم إياهم حرب الخوارج .

وفى ضوء هذه اللمحة نذكر بعض خطبهم .

١ – خطبة يزيد بن المهلب بين يدى الوليد

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« ... يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفره فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام ، فى المشارق والمغارب ، ما إن المنة علينا فيها عظيمة » .

وهذه الخطبة تبين مدى ما نال هذا القائد من مهانة السجن والخوف منه ، وقد كان الوليد حين استأمنه سليمان ليزيد طلب أن يرسل إليه ، فكان يزيد يخشى هذه المقابلة ، لهذا عد بلاء أهل البيت من أجل بنى أمية منة لهم عليه وليست له عليهم . وإذا قرئت الكلمة المنة – بضم الميم – كان المعنى أنهم تحملوا فى ذلك مشقة كبيرة .

٢ – خطبة له يحرض أهل العراق على حرب يزيد

جرد يزيد بن عبد الملك حملة لحرب ابن المهلب تحت قيادة أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه الوليد ، وخطبة ابن المهلب تحريض على مواجهة هذه الحملة .

« ... إن هؤلاء القوم لن يردهم عن غيهم إلا الطعن فى عيونهم والضرب بالمشرفية(١) على هامهم .

... إنه قد ذكر لى أن هذه الجرادة الصفراء — يعنى مسلمة(٢) — وعاقر ناقة ثمود — يعنى العباس(٣) — والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه(٤) حتى كلمته فيه فأقره على نسبه ، فبلغنى أنه(٥) ليس همهما إلا الالتماس فى الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً — وليس إلا أنا — ما برحت العرصة(٦) حتى تكون لى أو لهم .

قالوا(٧) : نخاف أن تعنينا(٨) كما عنانا عبد الرحمن بن محمد(٩) ، قال(١٠) : « إن عبد الرحمن فضح الذمار(١١)، وفضح حسبه ، وهل كان يعدو أجله ؟ » .

ومن هذه الخطبة يتبين لنا أن أهل العراق كانوا يتقاعدون عن الحرب معه ، وهذا شأنهم مع الكثيرين إلا أن يساقوا سوقاً . وبجانب ذلك كان الحسن البصرى يثبط الناس عن النهوض مع المهلب ، ويقول لهم : الزموا

---

(١) المشرفية . السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام — قرى عربية كانت تصنع بها السيوف — والهام جمع هامة وهى الرأس — يريد نقتلهم بسيوفنا .

(٢) كان نحيفاً أصفر .

(٣) كانت أم العباس رومية وكان أزرق العينين أحمر الوجه ، وهو يريد أنه ليس عربياً وأنه مشئوم كعاقر ناقة ثمود — ويقال أيضاً أشأم من أحمر عاد والمراد بها ثمود . لأنها تسمى أيضاً عادا الآخرة ، وأما قوم هود فهم عاد الأولى .

(٤) ينفى نسبه .

(٥) هذا هو خبر إن فى قوله : « إنه قد ذكر لى » .

(٦) الباحة والفسحة بين المساكن — يريد ما تركت هذه الأرض .

(٧) العراقيون .

(٨) تحملنا المشقة .

(٩) هو عبد الرحمن الأشعث .

(١٠) يزيد بن المهلب .

(١١) ما تجب حمايته من الأهل والوطن .

رحالكم ، وكفوا أيديكم ، لا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير . وقد قتل يزيد فى هذه الموقعة .

٣ ـ مروان بن المهلب يرد على الحسن البصرى

وقف مروان يخطب أهل البصرة ليحرضهم على الذهاب مع أخيه ويرد كلام الحسن البصرى ، وكان بينهما أخذ ورد .

قال مروان :

« ... لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى(١) يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه(٢) ، أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلمتنا ؟ أما والله ليكفن عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سقاط الأبلة ، وعلوج فرات البصرة ـ قوماً ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا ، أو لأنحين عليه مبردا خشناً »(٣) .

فلما بلغت هذه المهانة الحسن قال : والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه لى . فقال بعض أصحابه : لو أرادك وشئت لمنعناك . فقال لهم : أآمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دونى ؟ وبلغ ذلك مروان فاشتد عليهم فتفرقوا . ولكن الحسن ظل فى تثبيطه الناس عن بنى المهلب ، وانقطع مروان عن شتمه .

واشتهر المهلب وبنوه بالسخاء المفرط ، وكان يزيد يجود حتى وهو فى محنته وسجنه ، وكان يزيد يدفع للحجاج كل يوم ألف درهم يشترى نفسه من عذابه . فإن لم يجدها عذبه ، وكان الناس يعاونون يزيد فى الحصول

---

(١) لم يذكر اسمه .
(٢) يسيل الدم منه .
(٣) أعامله بشدة .

عليها ، فدخل عليه مرة بعض الشعراء. قيل الفرزدق ، وقيل الأخطل فمدحه بقـــوله :

أبا خالد بادت(١) خراسان بعدكم وصاح ذوو الحاجات أين يزيد
فلا مطر المروان بعدك مطرة ولا اخضر بالمروين بعدك عود(٢)
فما لسرير الملك بعدك بهجـــة ولا لجواد بعد جودك جود

فأعطاه يزيد مائة الألف التى أعدها ليفتدى بها من العذاب ، فلما بلغ الحجاج ذلك قال : أكل هذا الكرم وأنت بالسجن ، وهبت لك عذاب اليوم ويوماً بعده .

ومدحه شاعر آخر فقال :

فلم أر محبوساً من الناس ماجدا حبا زائرا فى السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه بخمسين ألفاً عجلت لسعيد

وهو سعيد بن عمرو بن العاص ، كان صديقه وأراد أن يزوره وهو فى سجن عمر بن عبد العزيز . ادعى أن يزيد مدين له بخمسين ألف درهم ويريد أن يطالبه بها . فأذن له بالدخول عليه ، فلما عرفه بما احتال به ، أقسم ليدفعن له هذا المبلغ ودفعه .

كان المهالبة مخلصين فى عملهم ، ولم يدبروا خروجاً على الدولة بخراسان ، ويبدو أنهم لو فعلوا لنجحوا كما نجح أبو مسلم بعد ، لأن الخراسانيين يكرهون بنى أمية .

---

(١) خربت .

(٢) المروان : مرو العظمى . ومرو الصغرى ، كلتاهما بخراسان وكانت الكبرى منذ عهد معاوية مسلحة للمسلمين .ومعسكراً .

٤ - الخوارج

كان الخوارج من أشد أصحاب على اختلافاً عليه ، كما أنهم من أقوام أثراً فى هزيمته وفشله أمام معاوية ، طلعوا عليه بآراء مضطربة وبدا فى كلامهم التهديد والشدة من أول موقف لهم ، فاستنفدوا جزءاً كبيراً من طاقته الحربية ، ثم آخذوه بما أشاروا به عليه ، وكان أمر على كما قال معاوية : كنت فى أصلح جند وأطوعه وكان على فى أخبث جند وأعصاه .

وأول ما بدأ هذا العصيان يوم صفين كان من جماعة منهم الأشعث بن قيس الكندى ، ومسعر بن فدكى التميمى ،وزيد بن حصين الطائى .. قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف . وكان الأشتر النخعى يحمل على معاوية وقومه بقوة وإقدام فقال هؤلاء : لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان ، فاضطر الإمام إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وما بقى منهم إلا شرذمة قليلة ، فامتثل الأشتر ورجع . ثم حين قبل على التحكيم اختار عبد الله بن عباس حكماً من قبله ، فأبى الخوارج وقالوا هو منك ، واختاروا أبا موسى الأشعرى . فلما خدعه عمرو عاد هؤلاء على على يقولون : لم حكمت الرجال ؟ لا حكم إلا لله .

وأول الخارجين بعد التحكيم هم جماعة الحرورية ، اكتسبوا هذا الاسم من المكان الذى تجمعوا به ، وهو حروراء — قرية قريبة من الكوفة — وكان على رأسهم عبد الله بن الكواء ، وعبد الله بن وهب الراسبى ،

---

(١) راجع أخبار الخوارج فى الكامل ٢/١٠٥ الباب ٤٩ . وانظر العقد الفريد . والملل والنحل للشهرستانى ١/١١٥ ، وانظر « أدب الخوارج » للدكتورة سهير القلماوى .

وحرقوص بن زهير البجلي الذي كان يعرف بذي الثدية ، وكان جمع هؤلاء اثني عشر ألف رجل كلهم أهل صلاة وصيام .

والخوارج في جملتهم من البدو الأعراب ذوى الخشونة والصراحة التي لا تعرف شيئاً من اللين والتهذيب . ويذكر المبرد في كامله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قسم غنائم خيبر ، وكان قد جعلها لمن شهد الحديبية فقط . وقف عليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ، فقال : لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله . وفي رواية أنه قال : ما عدلت منذ اليوم ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ومن يعدل إذا أنا لم أعدل ؟. فأراد عمر بن الخطاب قتله .فقال له النبي : دعه إنه سيكون لهذا وأصحابه شأن . وقيل: أمر رسول الله أبا بكر بقتله ،فمضى وعاد يقول رأيته راكعاً ، وكذلك فعل عمر وعلى . وهى رواية لا تطمئن إليها النفس ، ورويت في هؤلاء أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم : « سيخرج من ضيضئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم وصوم أحدكم في جنب صيامهم ، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم » وهذا الرجل هو ذو الخويصرة . أو هو حرقوص بن زهير المعروف بذى الثدية ، فقد كان له ثدية بارزة كثدى الأنثى .

وخرج إليهم على بنفسه فناظر ابن الكواء حول موضوع التحكيم مناظرة قطع فيها ابن الكواء ، وكان يقول لعلى : أنظرنا في هذه المسألة حتى نفكر ،ثم يقول : وأنظرنا في هذه أيضاً ، ثم أسلس القوم ورجعوا إلى الكوفة فصلوا بها العصر خلف على ، ولكنهم رجعوا ثانياً ، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس فقهرهم في جداله أيضاً ، فقالوا إنه من قوم يقول الله فيهم : بل هم قوم خصمون(١) .

---

(١) يجدر بطلاب الدعوة أن يرجعوا إلى كامل المبرد لقراءة ما كتب عن الخوارج .

وأول أمير عليهم كان عبد الله بن وهب الراسبي من الأزد ، وكان ذا رأى ونجدة ، ولم يكن راغباً أول أمره فى هذه الإمارة ولكنهم أصروا على اختياره ، فتبرأ من الحكمين وممن رضى بقولهما ، وحكم بكفر على بن أبى طالب ، وسمى هؤلاء المحكمة لأنهم قالوا : لا حكم إلا لله ، واضطر على أن يحاربهم فأفنى معظمهم فى موقعة النهروان حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا تفرقوا فى البلاد ، وكونوا فرقاً جديدة(١) ، وكبار فرقهم هم : المحكمة والأزارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والأباضية، والثعالبة ، والصفرية ، وهى الفرق الأصلية التى انشعبت منها فروع أخرى .

ورأى الخوارج عامة أن الإمامة لا يشترط أن تكون فى قريش ، بل يجوز أن يولاها كل من تتوافر فيه شروطها ، وكفروا علياً ، وقبلوا حكم عثمان ستة أعوام فقط ، أما أبو بكر وعمر فقالوا بصحة خلافتهما .

ومن رؤوس المحكمين عروة بن أدية ، وهى أمه ، ويقال أيضاً عروة ابن حدير ، وهو أبوه . وهو أول من حمل السيف ، وجرأته وصراحته تمثل منهج الخوارج وطريقهم ، حمل على الأشعث بن قيس الكندى ، وقال له : ما هذه الدنية ، أشرط أوثق من شرط الله . وحمل عليه بالسيف فولى فضرب به عجز بغلته .

وكان عروة ممن نجا من موقعة النهروان وبقى حتى قتله زياد ابن أبيه صبراً ، فقد سأله زياد عن أبى بكر وعمر وعثمان ، فأثنى على الأولين وقال : كنت أوالى عثمان على أحواله ست سنين ، ثم تبرأت منه ، وشهد عليه بالكفر ، وقال كنت أتولى علياً حتى حكم ثم تبرأت منه ، وشهد عليه بالكفر .وأما معاوية فسبه سباً قبيحاً ، وسأله زياد عن نفسه فقال له عروة : أولك لزنية وآخرك لدعوة وأنت فيما بينهما عاص ربك ، فأمر به فضرب عنقه . وكان معه مولى له فقال له زياد : صف لى أمره واصدق . فقال : ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له فراشاً بليل قط(٢) .

---

(١) كان فى الكوفة إذ ذاك نحو ألفين آخرين لم يدخلوا معركة النهروان .

(٢) أسند المبرد هذا الحديث مرة إلى زياد وأخرى إلى ابنه عبيد .

وليس هذا نادراً فى الخوارج ، فإن القوم كانوا ذوى إخلاص وعبادة ، وتشبث بما يعتقدون ، وقد مر بك وصف أبى حمزة الشارى أصحابه فى خطبته ، وليس هذا الوصف مبالغاً فيه ، ولا خاصاً بصحبه ، وقد وجه على بن أبى طالب ابن عباس إليهم أول أمرهم ليفاوضهم ، فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الإبل ، عليهم قمص مرحضة(١) ومر مرداس بن حدير برجل يهنأ(٢) بعيره فخر مغشياً عليه ، فظن الأعرابى أنه صرع . فلما أفاق قال له : ليس بى ما خفته على ، ولكنى رأيت بعيرك هرج(٣) من القطران ، فذكرت به قطران جهنم .

بهذا الإخلاص للدين ، وبالشجاعة البدوية الجريئة ، واللسان العربى الفصيح ، وصفاء القريحة والذهن ، قامت فرق الخوارج ، وظلت تناضل فى سبيل فكرتها ، كلما قتل رئيس طائفة ومن معه قامت طائفة أخرى برئيسها ، ولم يقتصر مقامهم على العراق والأقاليم العربية ، بل انتقلوا إلى بلاد فارس ، فكان لهم بها شأن كبير ، ولكن المهلب بن أبى صفرة وبنيه ظلوا يناوئونهم وينالون منهم فى المعارك العديدة حتى أضعفوهم وفلوا شوكتهم ، فهان حربهم على الذين جاءوا بعد المهلب ، ثم قضى عليهم نهائياً فى أوائل الدولة العباسية .

ومع اتفاقهم فى آداب وآراء دينية عامة ، كانوا على خلاف فيما بينهم على آراء أخرى ، ولهذا تعددت فرقهم ، وأبرز ما كان من الخلافات بينهم أن جماعة منهم آثروا القعود عن الحرب ، وسموا القعدة . ومن أشهرهم الصفرية ، وكان عمران بن حطان رأساً فيهم ، فقد أشفق على بناته من اليتم إذا هو قتل ، ولكن ظل متنكراً يتنقل بين القبائل ويتسمى بأسماء مختلفة وينتسب إلى قبائل مختلفة حتى انتهى إلى جماعة من الأزد باليمن

(١) بللها العرق . (٢) يضع القطران على جروحه .

(٣) يقال هرج البعير — كفرح — إذ سدر من شدة الحر والطلاء بالقطران .

فبقى معهم حتى مات ، وله أقاصيص طريفة وشعر جميل(١) . وكان قطرى بن الفجاءة المازنى — وهو من شجعان الخوارج وشعرائهم — يقرع القعدة ويلومهم ، وكان معدن الأيادى رئيس الصفرية أو بصدد أن يكون رئيساً ، فقال شعراً جاء فيه :

سلام على من بايع الله شارياً وليس على الحزب المقيم سلام(٢)

فبرأت منه الصفرية ، وقالوا خالفت لأنك برئت من القعد ، يعنون خالف مذهب الخوارج فى الصدق والصراحة . وقتل على بن أبى طالب رجلا منهم فقال : حبذا الروحة إلى الجنة . فقال عبد الله بن وهب : ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار . فقال جماعة : نرى الرجل قد شك، وقد جئنا مغترين به ، فمال ألف منهم أو نحوهم إلى أبى أيوب الأنصارى ، وكان على ميمنة على ، ولا ندرى لم قال ابن وهب هذه الكلمة ، ولا ما أراد بها ، فإنه من الغالين فى الحروب .

والخوارج بكل فرقهم يأنفون من الكذب ، ومن ارتكاب الكبائر والمعاصى الظاهرة ، وهم أكثر ميلا إلى الأخذ بظواهر النصوص ، وهم يمثلون الإيمان الصادق العميق الذى لا يعرف تهاوناً ولا تأويلا ، ويرون من الدين أن يبذل الشخص النصيحة لكل من يحتاجها ولو كان عدوا له ، لأن كتمان النصيحة من الكذب ومن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كتمان الحق ، ووصفوا من يتستر منهم وينكر أنه من الخوارج بالردى أى الهالك .

وأورد كل من المبرد وابن عبد ربه قصة طريفة فى هذا بين عبد الملك وبعض الخوارج لا نرى بأساً من سردها ولكن ابن عبد ربه أوردها موجزة ونسبها للوليد . وهى تذكر فى معرض فصاحة الخوارج وثباتهم معا .

---

(١) انظر الكامل ٢/١٤٦ .

(٢) الشارى الذى باع نفسه لله ، والحزب المقيم هم القعدة .

وخلاصة ما جاء بها أن أحد الخوارج قدم إلى الخليفة ليعاقبه ويقتص منه . فرأى قبل أن يأمر بقتله أن يحادثه فأعجبه فهمه وعلمه وأدبه وذكاؤه .. فرغب فيه . واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فحاجه ببصيرة ورأى ، فألح فى استدعائه فقال الخارجى : لتغنك الأولى عن الثانية . . وقد قلت فسمعت فاسمع أقل . ثم أخذ يتحدث عن مذهبهم وحججهم حتى ظن عبدالملك كما قال : أن الجنة خلقت لهم،وأنه أولى بالجهاد منهم ، فرجع إلى نفسه وقال : لست تجيب بالقول والله لأقتلنك . وقبل أن يصدر أمره بقتله دخل عليه ابنه مروان باكياً ، وكان غلاماً أبياً عزيز النفس ، فشق مرآه على أبيه وأخذ يهدئه فقال له الخارجى : دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها . . فعجب عبد الملك أنه وهو موقوف للقتل لا يشغله شىء عن دعوته . فقال الخارجى : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء. فصفح عن قتله ولكنه أمر بحبسه . وقال له :أخشى أن تفسد على بألفاظك أكثر رعيتى . من شككنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى .

أما أمثلة شجاعتهم واستهانتهم بالموت فى سبيل مبدئهم فقد يطول بنا القول إذا ذهبنا نذكر الأمثلة العديدة لمواقفهم . وقد اختلفت حالهم عن حال الشيعة كثيراً . لأن الشيعة أخذوا بمبدأ التقية والتظاهر بما ليسوا عليه . أما الخوارج فآثروا الصراحة والجهر بمبادئهم . ونذكر بعض مشهوريهم ، وتجد فى سيرتهم مثلا من شجاعتهم وإصرارهم وإيثارهم التضحية فى سبيل مبدئهم .

١ ــ حوثرة الأسدى :

كان متنحيا بفارس . فلما علم بقتل على كتب إلى حابس الطائى أن يتولى أمر الخوارج ريثما يصل إليه بجمع حتى يتعاضدا ضد معاوية . واجتمع

جيشاهما مع أصحاب النخيلة بجانب الكوفة وهى المكان الذى فاوض فيه على الخوارج من قبل – وكان معاوية إذ ذاك قد دخل الكوفة وتمت بيعته . ورهب معاوية هذا الجمع وأراد الحسن بن على أن يحاربهم فأبى . فاستدعى والد حوثرة وقال : اكفنى ابنك . فذهب إليه أبوه ودعاه إلى الرجوع فلم يستجب له . وألح الوالد وأصر الابن . فقال : سأجيئك بابنك لعلك تراه فتحن إليه فقال : يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى إلى ابنى . فرجع الرجل يائساً .

وأعد معاوية جيشاً من أهل الكوفة . لأنهم أعداؤه وأنصار على . ولم يسلموا له إلا كرهاً بتسليم الحسن . وفى قتالهم كسب له . وفى نصرهم كسب أيضاً . فلما واجههم حوثرة قال لهم : يا أعداء الله . أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه . واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه ! ! . فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال : يا أبت . لك فى غيرى مندوحة . ولى فى غيرك عنك مذهب . فحمل عليه رجل من طيء فقتله . فلما رأى أثر السجود قد لوح جبهته ندم على قتله . لما علم أنه من ذوى العبادة وقيام الليل .

ويملك الإنسان العجب والإعجاب . من إصرار حوثرة على رأيه . كما يقدر نبله وحسن مسلكه من رفضه مبارزة والده .

٢ – مرداس بن أدية أخو عروة :

وأدية أمه وأبوه حدير ، وهو أبو بلال من بنى ربيعة ، ومن رءوس الخوارج وكانوا يعظمونه . وكان مجتهداً كثير الصواب فى لفظه . وكان لا يرى بأساً من الأخذ بالتقية ، ولما علم أن عبيد الله بن زياد يتوعد البلجاء امرأة تميمية من رهط سجاح المتنبئة ومن نساء الخوارج – ذهب إليها وأمرها أن تستتر فلم تقبل . وقطع عبيد الله يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . فمر أبو بلال والنساء مجتمعون حولها . فلام نفسه أن تكون امرأة أزهد فى الدنيا وأطيب نفساً عنها منه . وأعلن عداءه لعبيد الله وليزيد ، وكان الخليفة فى ذلك الوقت

فلما حبس عبيد الله عدداً منهم وبينهم مرداس ، رأى السجان اجتهاده فى العبادة وحلاوة منطقه . فعرض عليه أن يطلقه كل ليلة على أن يعود إلى السجن قبل الفجر . فمكث على ذلك مدة . ثم أعلن عبيد عزمه على قتل مسجونيه جميعاً ، فإذا مرداس عائد فى موعده . وأبى أن يهرب وقال لا ألقى الله غادراً. ولكنه نجا ولم يقتل . فلما رأى جد ابن زياد فى تعقب الخوارج عزم على الخروج إلى فنزآسك — بين رامهرمز وأرجان — فأقام بمن معه فكانوا لا يقاتلون إلا من قاتلهم . ونما عددهم حتى كان أربعين رجلا . فمرت به قافلة تحمل مالا لابن زياد . فحط ذلك المال وأخذ منه وقومه أعطياتهم وترك الباقى وقال : قولوا لصاحبكم إنما قبضناأعطياتنا .

ووجه إلى أبى بلال أسلم بن زرعة فى ألفين فلم يقدر ورجع خشية الموت وقال : لئن يذمنى ابن زياد حياً خير من أن يمدحنى ميتا . وكان الصبية فى الأسواق والشوارع يصيحون به إذا مر : « أبو بلال وراءك » — وانتدب ابن زياد إليه جمعاً أمر عليهم رجلا يسمى عباد بن أخضر — وهو عباد ابن علقمة المازنى (١) . فصادف وصوله وصول القعقاع بن عطية الباهلى خراسان يريد الحج . فانضم بمن معه إلى عباد . فوقع القعقاع أسيراً . فقال لمرداس : لست من أعدائك إنما قدمت للحج فأطلقه فانضم ثانياً لعباد . وكان الجيش يزيد على أربعة آلاف . فلم ينالوا من الخوارج شيئاً . بل قتل القعقاع — فلما كان وقت صلاة الجمعة نادى أبو بلال بالموادعة حتى يصلوا فرمى القوم جميعاً أسلحتهم . ولكن الحرورية أطالوا الصلاة على عادتهم وفرغ عباد وصحبه قبلهم فمالوا عليهم فقتلوهم وأتى برأس مرداس إلى ابن زياد حيث أرسله إلى يزيد . وكان ذلك فى سنة ٦١ هـ السنة التى قتل فيها الحسين بن على .

فهذا مثل آخر من وفائهم وشجاعتهم حتى إن ما يقرب من خمسة آلاف شخص لا ينتصرون على أربعين إلا بالغدر والخيانة. وهذا على عكس ما كان

---

(١) الأخضر زوج أمه فنسب إليه . ولكن علقمة أبوه .

يفعل نجدة بن عويمر وعبد الله بن الزبير إذ كانا يصليان معاً بالحرم يوم الجمعة ويمسكان عن القتال من أجل الحرم .

٣ — قطرى بن الفجاءة :

هو قطرى بن الفجاءة المازنى من الخوارج الأزارقة . خرج زمن مصعب ابن الزبير عندما تولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله ، وظل بعد مصعب يحارب عبد الملك والحجاج عشرين سنة . كان أتباعه خلالها يسلمون عليه بالخلافة ويسمونه أمير المؤمنين . وكان الحجاج يسير إليه الجيوش متتالية وهو يستظهر عليهم . وله مواقف بطولية كثيرة . وكان مهيباً أمام خصومه حتى إن بعضهم خرج لمبارزته فما إن حسر قطرى عن وجهه حتى ولى الرجل. وهو يقول : لا يستحيي إنسان أن يفر منك .

وفى سنة ثمان وسبعين توجه إليه جيش بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي فظهر عليه وقتله . وقطع رأسه وأرسل إلى الحجاج . ولم يعقب قطرى . وبقدر ما كان شجاعاً مقداماً كثير الحرب كان شاعراً عذب الألفاظ جيد المعانى . وكان خطيباً مفوهاً ذا قدرة بالغة على التأثير . ونورد شيئاً من شعره وخطبه . فمن شعره :

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال : ويحك لن تراعى(١)
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع
وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع(٢)

قال ابن خلكان عن هذه الأبيات إنها تشجع أجبن خلق الله ، وما أعرف فى هذا الباب مثلها . وما صدرت إلا عن أبية وشهامة عربية .

---

(١) الشعاع كسحاب التفريق — يريد أن الخوف جعل خواطره متفرقة .
(٢) سقط المتاع الذى لا قيمة له .

ومن شعره أيضاً :

لعمرك إنى فى الحيــاة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم(١)

لعمرك إنى يــوم ألطم وجههـــا ... على نائبات الدهر جد لئيم(٢)

ولو أبصرتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم(٣)

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـــا ... تبيح من الكفار كل حريم(٤)

رأت فتيــة باعوا الإله نفوسهم ... بجنــات عــدن عنده ونعــيم

ومن خطبــه :

حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

« ... أما بعد . فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات وراقت بالقليل(٥) . وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها(٦) ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة.خوانة غدارة ، حائلة(٧) زائلة ، ونافذة بائدة . أكالة غوالة . لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : «كماءأنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح(٨) ، وكان الله على كل شىء مقتدراً » . مع أن امرءالم يكن منها فى حبرة(٩) إلا أعقبته بعدها عبرة(١٠)، ولم يلق من سرائها بطنا إلامنحته من ضرائها ظهراً(١١)،

---

(١) أم حكيم زوجه .

(٢) نائبات الدهر كوارثه- يريد أنه لو ضربها لكان لئيما جداً لا يساعدها على نكبات الدهر .

(٣) دولاب بلدة بالأهواز وكان بها المعركة التى قتل بها نافع بن الأزرق .

(٤) يريد بالكفار جيش المسلمين الذين ليسوا من الخوارج .

(٥) تزينت وجملت فى نظر الناس بالقليل .

(٦) نعمتها وجمالها .

(٧) متحولة متغيرة .

(٨) الآية من سورة الكهف . والهشيم الحشيش الجاف .

(٩) الحبرة السرور والبهجة .

(١٠) العبرة الدمعة ، يريد أن سرور الدنيا يعقبه حزن .

(١١) تلتفت بوجهها عنه .

ولم تطله(١) فيها غيثة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء . . وحرى(٢) إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى(٣) ، أمر(٤) عليه جانب وأوبى(٥) ، وإن آتت أمرأ من غضارتها (٦) ورفاهتها نعما أرهقته (٧) من نوائبها نقما . ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم(٨) خوف . غرارة غرور(٩) ما فيها ، فان ما عليها ، لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى . من أقل منها استكثر مما يؤمنه(١٠). ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه(١١) ويطيل حزنه ويبكى عينيه ، كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمأنينة إليها قد صرعته ، وذى احتيال قد خدمته، وكم من ذى أبهة(١٢) بها قد صيرته حقيراً ، وذى نخوة(١٣) قد ردته ذليلا، وذى تاج قد كبته(١٤) لليدين وللفم(١٥)،

---

(١) تطله : ينزل عليه منها بلل قليل كالطل . يريد لا تنيل الإنسان منها خيراً قليلا إلا أعقبته بشر كثير .

(٢) الدنيا خليقة بذلك ، أى هو أمر متوقع منها .

(٣) عذب وحلا .

(٤) ساق المرارة جانب آخر .

(٥) صار ذا وباء .

(٦) الغضارة . نضارة الزرع وخضرته .

(٧) أكثرت عليه وأكدته .

(٨) القوادم جمع قادمة ، وهى الريش الذى فى أطراف الجناح ، والريش الصغير تحته يسمى الخوافى .

(٩) غرور صيغة مبالغة من غر ، كغرارة ، والشيطان يسمى الغرور لأنه يغر كثيرا ويخدع . يريد كل شىء فى الدنيا يغر ويخدع .

(١٠) من أخذ من الدنيا قليلا ، وقنع ولم يطمع توفرت له أسباب الأمان فى الآخرة، لأنه أحرى أن يكون بعيداً عن الحرام .

(١١) يوقعه فى الحرام ويهلكه .

(١٢) عظمة ونعمة .

(١٣) يقال : نخا ينخو نخوة إذا افتخر وتعظم كنخى ، أى أن الدنيا ردت كثيرين من ذوى العظمة إلى الحقارة والذلة .

(١٤) ألقته على وجهه. يقال : كبه فأكب ، كنسل الطائر ريشه فانسل . من أفعال تتعدى بدون الهمزة ، وتلزم مع الهمزة ، وفى القرآن : أفمن يمشى مكباً على وجهه .

(١٥) يداه وفمه على التراب — كقوله : فخرت صريعاً لليدين وللفم .

سلطانها دول (١) ، وعيشها رنق (٢) ، وعذبها أجاج(٣) ، وحلوها مر ، وغذاؤها سمام (٤) ، وأسبابها رمام (٥) ، وقطاعها سلع (٦) ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها (٧) بعرض اهتضام (٨) ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وضعيفها منكوب ، وجارها وجامعها محروب (٩) . مع أن من وراء ذلك سكرات الموت وزفراته ، وهول المطلع (١٠) ، والوقوف بين يدى الحكم العدل ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ألستم فى مساكن من كان أطول منكم أعماراً ، وأوضح آثاراً ، وأعد عديداً ، وأكثف جنوداً ، وأعتد عتاداً(١١) ، وأطول عماداً ، تعبدوا الدنيا أى تعبد ، وآثروها أى إيثار ، وظعنوا عنها بالكره والصغار ، فهل بلغكم أن الدنيا أسمحت لهم نفساً بفدية(١٢) ، أو أغنت عنهم فيما أهلكتهم به بخطب بحيلة(١٣) ، بل أرهقتهم بالفوادح(١٤) ، وضعضعتهم بالنوائب ، وعفرتهم للمناخر ، وأعانت عليهم ريب المنون ، وعفرتهم بالمصائب ، وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها ، وآثرها وأخلد إليها ، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر الأمد ، هل زودتهم إلا السغب(١٥) ، أو أحلتهم إلا

---

(١) يتحول فلكل حظ وحرمان .

(٢) مكدر .

(٣) ملح .

(٤) جمع سم .

(٥) حبالها مقطعة – أى لا تؤمن .

(٦) القطاع الصرام والحصاد ، والسلع شجر مر أو سام أو نبتة خبيثة .

(٧) الحصين .

(٨) ظلم .

(٩) مصاب بالحرب وهو الويل والدمار

(١٠) ما يطلع عليه – يريد من شئون الآخرة .

(١١) أقوى عدة .

(١٢) هل سمحت نفس الدنيا التى آثروها بشىء يفتدون به أنفسهم .

(١٣) لم تعطهم حتى ما يحتالون به لإنقاذ أنفسهم .

(١٤) الخطوب التى تثقل ولا يطاق حملها .

(١٥) الجوع .

الضنك(١) ، أو تورت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة ؟ أفهذه تؤثرون أم عليها تحرصون ، أم إليها تطمئنون ؟ .

يقول الله تبارك وتعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون »(٢) ، فبئست الدار لمن نهم بها ، ولم يكن فيها على وجل منها ، اعملوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد ، فإنما هى كما نعت الله عز وجل : « لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »(٣) . فاتعظوا فيها بالذين يبنون لكل ريع آية يعبثون ، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون(٤) ، وبالذين قالوا من أشد منا قوة(٥) ، واتعظوا بمن رأيتم من إخوانكم كيف حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً (٦) ، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً (٧) . وجعل لهم من الضريح أكنان (٨) ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات (٩) جيران ، فهم جيرة لا يجيبون داعياً ، ولا يمنعون ضيما(١٠) ، إن أخصبوا لم يفرحوا، وأن قحطوا لم يقنطوا ، جمع وهم آحاد(١١) ، جيرة وهم أبعاد ،

---

(١) المكان الضيق .

(٢) سورة هود آية ١٦ .

(٣) سورة الحديد .

(٤) مقتبس من الآية ١٢٩ من سورة الشعراء .

(٥) من سورة فصلت الآية : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات » .

(٦) ليس الذى فى النعش يسمى راكباً .

(٧) جمع ضيف .

(٨) الضريح القبر ، والأكنان جمع كن : ما يستتر به الإنسان ويستكن فيه .

(٩) حطام وبقايا الأجسام البالية .

(١٠) ظلماً واعتداء .

(١١) مجتمعون فى مكان واحد ولكن لا صلة بينهم .

متناءون وهم يزارون ولا يستزيرون ، حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دفعهم ، وهم كمن لم يكن. قال الله تعالى : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين »(١) . استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، وبالآل(٢) غربة ، وبالنور ظلمة ، فجاءوها(٣) كما دخلوها ، حفاة عراة فرادى ، غير أن ظعنوا(٤) بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، إلى خلود الأبد ، يقول الله تبارك وتعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين »(٥).

فاحذروا ما حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه .

٤ — شبيب بن يزيد :

هو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى من ذهل بن شيبان ، من مشهورى الخوارج خطابة وشجاعة ، وهو من الأبطال العالمين ، وكبار الثائرين على بنى أمية ، داهية ذا طموح وعنف . قال الجاحظ : كان يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد ، وكانت أمه جهيزة وزوجته غزالة من ذوات الشجاعة النادرة، تخوضان الحروب ببسالة وجراءة. وكان ادعى الخلافة وتسمى أمير المؤمنين.

ظهر شبيب فى خلافة عبد الملك وحينما كان الحجاج والياً على العراق ، وظهر بالموصل ، فبعث إليه الحجاج حملات متتالية فهزمها جميعاً ، وكانت خمساً قتل فيها خمسة قواد . ثم خرج من الموصل يريد الكوفة ، وخرج

---

(١) سورة القصص الآية ٥٨ .
(٢) الأهل والأقارب .
(٣) جاءوا إلى الأرض .
(٤) رحلوا وانتقلوا .
(٥) سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

إليها الحجاج من البصرة ، ولكن الحجاج أغذ السير ، ولقرب مكانه دخلها قبل شبيب ، وكان شبيب يريد أن يقابله قبل أن يدخلها ، وتحصن الحجاج بقصر الإمارة وأغلق أبوابه ، ودخل شبيب وأمه وزوجه صبحاً ، فلم ينزل الحجاج إليه ، وقتل شبيب حرس القصر ، ولكنه لم يستطع اقتحامه لإحكام أبوابه ، وأعياه وأصحابه فتحه ، وأخذ يضربه بعمود كان بيده فنقبه فقط ولم يكسره ، ويقال إن هذا النقب ظل بالباب حتى خرب القصر ، ودخلت غزالة مسجد الكوفة فصلت به ركعتين ، قرأت فى الأولى سورة البقرة وفى الثانية سورة آل عمران . وذلك وفاء بنذر كان لها ، وصلى معها سبعون رجلا ، كل هذا والحجاج معتصم بالقصر لم يجرؤ على النزول إليهم ، وقد عيره بهذا عمران بن حطان — وكان الحجاج يطارده — فقال :

أسد على وفى الحروب نعامـــة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غـــزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

وإزاء عجز الحجاج أرسل عبد الملك جيشاً كثيفاً من الشام عليه سفيان ابن الأبرد الكلبى . فلما وصل الكوفة خرج الحجاج أيضاً ، وتكاثر المحاربون على شبيب فانهزم وقتلت أمه وزوجه ، ففر مع فوارس من جيشه ، فلما كان على جسر جبيل ، وهو نهر بالأهواز نفر به جواده فألقاه فى الماء فغاص ولم يستطع النجاة بنفسه لثقل الحديد الذى كان عليه ، وبعد أيام طفا وقذفت به المياه إلى الشاطىء ، فحمل على البريد إلى الحجاج . ويقال إن الحجاج شق بطنه وأخرج قلبه فوجده صلباً كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها ، فشقه فكان بداخله قلب صغير كالكرة ، فشق أيضاً فوجد به علقة الدم بداخله ، وكان غرقه سنة سبع وسبعين .

ومن العجيب أن الحجاج كان إذا سمع عن غزالة يمتلىء قلبه رعباً ، وفى هذه المعركة اختلط عليه أمره ، وخلع فؤاده الفزع ، وكان أثناء هربه يخلط فى كلامه . وقد كانت غزالة تتناوب قيادة الجيش هى وزوجها شبيب ،

وكانت باسلة تخوض صدور الجيش فتفرقهم وتمزقهم ، وهى فى هذه المعركة لم تقتل مهزومة ، بل قتلت خدعة وغدراً . غافلها بعض جنود الحجاج ورموها من خلف بينما كانت تهجم على جيش الحجاج ويفر منها ، وبعد موت غزالة قوض جند شبيب ، ولحقته الهزيمة .

هذا طرف من أخبار الخوارج ، وهم فرقة إسلامية ذات شأن فى تاريخ الإسلام ،ولا يجمل بالداعية المسلم ألا يكون ملماً بطرف من أخبارهم ، وفى أخبار زهدهم وورعهم مدد كبير للدعاة . أما خطباؤهم فهم كثر أيضاً نذكر بعضاً منهم فيما بعد . ولم يكن الخوارج كلهم فرقة واحدة ، ولا مبادئهم كلها متحدة . بل اختلف اجتهادهم اختلافاً واسعاً ، ومرجعهم آيات القرآن ، وقد اختلفت نظرتهم إليها واتسع تأويلهم ، حتى قال فيهم أبو أمامة الصحابى الجليل : من قتلوه فهو فى الجنة ، ومن قتلهم فهو فى الجنة ، وتلا الآية الكريمة : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » . يريد أنهم أولوا القرآن فزاغوا فى تأويلهم . وفى المكاتبة التى دارت بين نافع الأزرق ونجدة بن عويمر مثل واضح لهذا التباعد فى التأويل . ومع كل هذا كانوا صادقى الإيمان والإصرار على عقائدهم ، حتى إنهم يرون أن قتل الإمام على قربان يثاب عليه فاعله . ويقول عمران ابن حطان فى عبد الرحمن بن ملجم :

يا ضربة من تقى ما أراد بهـــا ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضواناً
إنى أفكر فيـــه ثم أحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزاناً

ولم يكن من السهل أن يناظروا ويقنعوا ، بل كان استمساكهم بعقيدتهم بالغ الحد ، على أن كثيرين منهم نفروا من ابن نافع لما أحل وحرم ولما استباح من قتل النساء والأطفال . ولكنهم كانوا على غير طريقة الشيعة المتسترة المخادعة تمسكاً بمبدأ التقية ، والذين أخذوا بالتقية سموا القعدة ، وكان عمران بن حطان منهم ، وقد أشرنا إلى حياته . وأدب الخوارج فى

جملته يمثل الأدب العربى الصريح ، وبلاغتهم قوية . ذلك لأنهم من البدو الخلص ، الأصلاء فى اللغة ، وقد أفرد ابن عبد ربه مكاناً فى عقده لدعاء الأعراب ، وكلامهم وخطبهم ، وأساليبهم فيها جميعاً تهز النفوس وتأخذ بمجامع القلوب .

ويكفى فى مقام الحديث عن الخطابة أن نتحدث عن الأزارقة ، وعن بعض رجال الخوارج عدا من ذكرنا .

١ – الأزارقة :

هم أصحاب نافع بن الأزرق ، بايعوه أميراً عليهم وسموه أمير المؤمنين ، وخرجوا معه من البصرة إلى الأهواز ، وانضم إليهم خوارج عمان واليمامة فصاروا أكثر من عشرين ألفاً . استولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكرمان وجبوا خراجها ، وكان ذلك فى أيام عبد الله بن الزبير ، فقتلوا عماله بهذه النواحى . وهذه الفرقة أشد فرق الخوارج شوكة وأكثرها عدداً ، وكان بها عدد كبير من أمراء الخوارج ومشهوريهم – منهم قطرى ابن الفجاءة المازنى ، وعمر بن عمير العنبرى . . كانوا كما قال الشهرستانى زهاء ثلاثين ألف فارس ، وكان والى البصرة من قبل الزبير هو عبد الله ابن الحرث بن نوفل ، فأرسل إليهم صاحب جيشه مسلم بن عبيس فقتلوه وهزموا أصحابه ، فأرسل إليهم آخر فقتلوه ، فأرسل ثالثاً فقتلوه ، حتى خشى أهل البصرة على أنفسهم وبلدهم ، فندب إليهم المهلب بن أبى صفرة ، فظل يناضلهم وأولاده تسعة عشر عاماً ، حتى فرغ من أمرهم فى أيام الحجاج وقتل نافع نفسه فى حروب المهلب سنة ستين هجرية . فبايعوا بعده قطرى ابن الفجاءة المازنى ، وتسمى أيضاً أمير المؤمنين . كان هذا الحزب كله يكفر على بن أبى طالب ، ويقولون إن الآية القرآنية « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام »(١) ،

(١) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

نزلت فى شأنه ، كما كانوا يزكون عبد الرحمن بن ملجم ، ويقولون : إن الله أنزل فى شأنه : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » . ثم كفروا أيضاً عثمان وطلحة والزبير ، والسيدة عائشة — رضى الله عنها — وعبد الله بن عباس . وفى الواقع حكموا على سائر المسلمين بالكفر وتخليدهم فى النار ، وكفروا أيضاً قعدة الخوارج عن القتال ، وأوجبوا هجرة الخوارج إليهم وكفروا من قعد عنها .

وأسوأ ما دعا إليه الأزارقة أنهم أباحوا قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، وأسقطوا رجم الزانى المحصن لأن هذا الحد لم يذكر فى القرآن ، وأسقطوا حد القذف فى رمى الرجال المحصنين دون قذف النساء المحصنات ، وقالوا إن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم . وإن التقية لا تجوز فى القول ولا فى العمل .

هذه أهم مبادئهم ولسنا بصدد درسها ، ولكننا فى مقام الحديث عن عن الخطابة يعنينا ذكر الحجج التى دافعوا بها عن آرائهم .

٢ — النجـــدات :

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، ويسمون أيضاً العاذرية لأنهم يرون أن الجهالة بأحكام الفروع عذر يرفع العقوبة ، وهم على عكس الأزارقة يجيزون التقية فى الأقوال والأفعال ، ويرون أن لا حاجة إلى إمام قط ، ولكن على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإذا رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام فأقاموا إماماً لهم جاز لهم ذلك .

كان نجدة قد خرج مع عسكره من اليمامة يريد اللحاق بنافع بن الأزرق فقابله جماعة أخبروه بما أحدث نافع من الخلافات ، وبايعوه هو أميراً وسموه أمير المؤمنين ، لكنه أحدث أيضاً أشياء لم يرض عنها أصحابه فقتلوه سنة ٦٩هـ . استتابه أكثر أتباعه من أحداثه ، فخرج إلى المسجد وأعلن توبته ، لكنهم عادوا فخطأوا أنفسهم وندموا ، وقالوا إنه إمام له أن يجتهد

وتوبته كانت إثماً منه ، فطلب منه جماعة منهم أن يتوب من توبته ، وأن يستتيب الذين طلبوا التوبة منه وإلا نابذوه .

وخرج عليه اثنان من الزعماء هما راشد الطويل وأبو فديك ، وكان قد وزع جيشه إلى الشام وجهات أخرى ، فاستولى أبو فديك على اليمامة ، ورأى أن يعجل بقتل نجدة قبل عودة جيشه . فاختفى نجدة عند بعض القبائل ، ونادى منادى أبي فديك من دل على نجدة فله عشرة آلاف ، وأى مملوك دل عليه فهو حر ، فدلت عليه أمة كانت عند الذين اختفى نجدة لديهم فقتلوه .

بين نافع ونجـــــدة

نذكر هذه المجادلة بين هذين الزعيمين من الخوارج حول مبادئهما . كتب نجدة إلى نافع :

« ... أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر . . لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم .

فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء مرضاته وأصبت من الحق فصه(١) ، وصبرت على مره ، تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك . أكفرت الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه ، من قعدة المسلمين وضعفهم . قال الله تعالى، وقوله الحق ، ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله »(٢) . ثم سماهم تعالى — أحسن الأسماء فقال : « ما على المحسنين من سبيل » . ثم استحللت قتل الأطفال — وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم . وقال جل ثناؤه : « ولا تزر وازرة

(١) حقيقته وعينه .

(٢) سورة التوبة الآية ٩١ .

وزر أخرى »(١) . وقال سبحانه فى القعدة خيرا ، فقال : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً »(٢) . فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين ، أو ما سمعت قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر »(٣) . فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ثم إنك لا تؤدى أمانة لمن خالفك ، والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها . فاتق الله فى نفسك ، واتق يوماً لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، فإن الله بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصل ، والسلام » .

فكتب إليه نافع :

« ... أما بعد ، أتانى كتابك تعظنى فيه ، وتذكرنى ، وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسأل الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

عبت على ما دنته به من إكفار القعدة وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة من المخالفين ، وسأفسر لك إن شاء الله .

أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج(٤) واضح ، وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا : « كنا مستضعفين فى الأرض » فقال :

---

(١) سورة الإسراء / ١٥ .

(٢) سورة النساء / ٩٥ .

(٣) الآية ٩٥ سورة النساء .

(٤) النهج الطريق الواضح – فذكر الوضوح بعده لزيادة الإبانة والتوكيد .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »(١) . وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله »(٢) . وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم»(٣)، فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله . ثم قال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم »(٤) ، فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال ، فإن نوحاً نبي الله ، كان أعلم بالله منى ومنك ، وقد قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »(٥) . فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا تقوله فى قومنا ؟ . والله تعالى يقول : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » .

وهؤلاء كمشركى العرب لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف ، أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم ، كما أحل دماءهم لنا ، فدماؤهم حلال طلق(٦) وأموالهم فى المسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من مقالتنا .

والسلام على من أقر بالحق وعمل به »(٧) .

هذان الخطابان يبينان وجهة النظر المختلفة بين هاتين الفرقتين ، وحسبنا ذلك ، ولمن أراد مزيداً أن يرجع إلى كتب التاريخ .

---

(١) سورة النساء ٩٧ .
(٢) سورةالتوبة ٨١ .
(٣)، (٤) التوبة / ٩٠
(٥) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧ .
(٦) حلال خالص .
(٧) راجع كتاب الكامل للمبرد باب ٤٩ .

من شهيرات النساء وخطيباتهن

من تمام الحديث عن الخطابة والخطباء أن نذكر بعض الشهيرات والخطيبات من النساء ، ومكان الخطيبات دون مكان الخطباء من الرجال ، وعددهن نادر ، وهذا أمر طبيعى . فالخطيب إما مدل بنصيحة ، أو محرض على حرب ، أو داعية إلى صلح ، أو ما أشبه ذلك . وحظ المرأة من هذا كله ضئيل ، وقد كانت المرأة العربية فى العهد الجاهلى مهضومة الحق مكبوتة الصوت مجحودة النصيب من الميراث ، لهذا لم يكن لها بروز فى مجالس الشورى وتبادل الرأى ، وهناك سيدات قليلات برزن بكلمات حكيمة أو رأى صائب ، وكان الجاهليون يعظمون المرأة المنجبة ، ومن أشهرهن ، فاطمة بنت الخرشب ، وهى أم الكملة وزوج زياد العبسى . وأبناؤهما هم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس . وسئلت عنهم فقالت : هذا بل هذا . . عدمتهم جميعاً إن كنت أعرف فيهم واحداً دون إخوته ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . ومنهن أم البنين ابنة عامر بن عمر ، وزوج مالك بن جعفر ، وأبناؤها خمسة هم : ملاعب الأسنة ، وطفيل الخيل ، وربيع المقترين ، ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء . وفيها قال لبيد بن ربيعة :

* نحو بنـــو أم البنين الأربعة *

لأنها جدته أم أبيه ، وهم فى الواقع خمسة وليسوا أربعة . ومنهن أسماء بنت دريم . من المنجبات والحكيات ، كان أبناؤها يرعون فيما حولها ، فمر بها وائل بن قاسط ، فنظر إليها نظرة مريبة ، وخافته على نفسها ، فقالت : اذهب وإلا استصرخت عليك أسبعى ، ثم نادت : يا كلب ، يا ذئب ، يا فهد ، يا دب ، يا سرحان ، يا أسد — وهذه أسماء بنيها الستة —

فحضروا إليها جميعاً . فقالت لهم : هذا ضيفكم أكرموه ، ولم تر أن تفضح نفسها أو تخزى الرجل ، ولو أنها تركتهم يفتكون به لفتحت للناس مجال القول فيها . وقد سمى هذا الوادى وادى السباع ، وهو الذى قتل فيه الزبير ابن العوام ، وسمى بهذا الاسم منذ هذا الحادث .

وكان العرب يفخرون أيضاً بالمنجبات من نسائهم ، وبمن أنجبن من جداتهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين : « أنا ابن العواتك من سليم » . وهؤلاء العواتك ثلاث ، كل واحدة عمة للتى بعدها . وهن : عاتكة بنت هلال بن عبد مناف بن قصى . وعاتكة بنت مرة ابن هلال . وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال . وكانوا يتحدثون عنهن وعن الفواطم من قريش . وهن : فاطمة بنت عبد الله بن عمر بن عمران ، جدة رسول الله ﷺ وفاطمة بنت أسد زوج أبى طالب عم رسول الله ﷺ ثم سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ . هؤلاء هن الفواطم من قريش ، وكان الحسن والحسين يسميان ابنى الفواطم . ولما خطب الأشعث بن قيس(١) إلى على بن أبى طالب ابنته رده قائلا : أغرك أن ابن أبى قحافة أعطاك أخته .

وأكثر من هذا أننا نجد بين العربيات الجاهليات ملكات ، منهن بلقيس ، ومنهن زينب أو زينوبيا ملكة تدمر .

وفى الإسلام اشتهر أيضاً بعض من النساء برأيهن وحسن تصرفهن ، نذكر بعضاً منهن وإن كن غير خطيبات ، وهن :

---

(١) كان الأشعث الكندى ممن ارتدوا بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم جيء به إلى أبى بكر أسيراً ، فتاب فعفا عنه . ثم خطب أخته فرة فزوجه منها ، ويقال إن أبا بكر ندم بعد ذلك على مسامحته ، وقال إنه لا يرى شراً إلا أعان عليه — وكان وابنه وحفيده — ذوى أثر فى الفتن التى نجمت عهد على وبنى أمية .

١ — أمية بنت أبي قيس الغفارية :

خامر قلبها الإسلام وهى صبية لم تعد طور الحداثة ، فجاءت على بعد الشقة تبايع رسول الله ﷺ. وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها ، وخرجت إلى خيبر زعيمة النساء اللاتى خرجن لمواساة الجرحى وسقى الماء ، وكان عمرها يوم خيبر سبعة عشر عاماً . جاءت إلى رسول الله ﷺ فى نسوة من غفار ، فقلن : قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا ، فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله . وقد أحسنت أمية القيام بعملها ، فقلدها رسول الله ﷺ قلادة ، لم تفارق صدرها طيلة حياتها ، وأوصت أن تدفن معها .

٢ — أم سنان الأسلمية :

من أسلم ، وأسلم بطن من خزاعة . قدمت إلى المدينة حين قدم إليها رسول الله ﷺ مهاجراً فبايعته ، ثم جاءته وهو خارج إلى خيبر فقالت : يا رسول الله ، أخرج معك فى وجهك هذا ، أخرز السقاء ، وأداوى المرضى والجرحى ، إن كان ثم جرحى ولا يكون ، وأبصر الرحل . فقال : أخرجى على بركة الله ، فإن لك صواحب قد كلمننى وأذنت لهن من قومك ومن غير قومك ، فإن شئت فمع قومك ، وإن شئت فمعنا . قالت فمعك . فجعلها مع زوجه أم سلمة ، فكانت معها ، وهى التى مشطت صفية بنت حيي وألبستها حين زفت إلى رسول الله .

روت أم سنان أحاديث كثيرة ، وابنتها بثينة من فضليات الثقات من رواة الحديث .

٣ – حمنة بنت جحش :

أمها أميمة بنت عبد المطلب – فهى بنت عمة رسول الله ، وأخت زينب بنت جحش أم المؤمنين ، تزوجها مصعب بن عمير أول داعية إسلامى بالمدينة ، وحضرت غزوة أحد ، وكانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح من بين القتلى ، وتخرج إلى المكان الملائم فتأسو جراحه ، وتهيء له ما يريحه ، وكان عملها مما تزل دونه أقدام الرجال ، ولما عاد رسول الله (ﷺ) والمسلمون من أحد ، قام النساء يسألن عن أهليهن فلا يخبرهن الصحابة إشفاقاً على من فقدن من ذويهن ، فلما انتهين إلى رسول الله (ﷺ) جعل يجيبهن ، لا تسأله واحدة إلا أجابها ، فجاءته حمنة ، فقال : يا حمنة ، احتسبي أخاك عبد الله بن جحش ، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون رحمه الله وغفر له ، قال : احتسبي خالك حمزة . قالت : إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، رحمه الله . ثم قال : ياحمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير . فقالت واحرباه !

فقال النبي (ﷺ) : إن للمرأة لشعبة من الرجل ما هى له فى شىء . وتزوجها بعد مصعب طلحة بن عبيد الله الصحابى الجليل المبشر بالجنة ، والذى قتل فى موقعة الجمل . فولدت له محمداً . وعمراً ، ومحمد هو التقى العابد المعروف بالسجاد . وقد مر حديث له مع الخوارج .

٤ – أسماء بنت يزيد الأنصارية :

ذكرها ابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب . باسم أسماء بنت زيد بن السكن ، بايعت النبي (ﷺ) عند مقدمه المدينة . وتلقت عنه كثيراً من الأحاديث . وتخرج عليها كثير من التابعين ، وقد عمرت بعد رسول الله (ﷺ) ، وحضرت موقعة اليرموك ، وكانت أول المعركة تسقى الظماء . وتداوى الجرحى ، فلما اشتدت المعركة وحمى وطيسها ، اقتلعت عمود خيمتها

وغامرت بين صفوف الرجال تضرب من يقابلها من جنود الروم ، فصرعت بعمودها هذا تسعة منهم .

وتمتاز هذه عن الأخريات بمقدرتها الكلامية ، فهى خطيبة نساء العرب ورسولهن إلى رسول الله (ﷺ) جاءت إليه وهو بين أصحابه فقالت : بأبى أنت وأمى ، وافدة النساء إليك . وإنى رسول من ورائى من نساء المسلمين ، كلهن يقلن بقولى ، وعلى مثل رأيى ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء محصورات مخدرات قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا علينا بالجمعات ، وشهود الجنائز ، وعيادة المرضى ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله ، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمرا أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وربينا أولادكم ، وغزلنا أثوابكم أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟

فالتفت رسول الله (ﷺ) بوجهه إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ قالوا : ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا ! فقال : انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال . فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها . حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهم ما قاله لها رسول الله (ﷺ) ففرحن وآمن جميعاً .

هذا حديث عابر عن أربعة من النسوة ، وإذا رجعت إلى كتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، والقسم الذى خصصه ابن حجر للنساء فى كتاب الإصابة ، وابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب وإلى كتب الأدب الأخرى تجد كثيراً من الأحاديث والطرف الشائقة عن المرأة العربية .

شهيرات النساء فى معركة على ومعــاوية

أبرزت هذه المعركة عدداً من خطيبات النساء وذوات الشجاعةوالجرأة النادرة ، ولكن هؤلاء كن من أنصار على ومن الخوارج ، ولا تجد فى حزب معاوية من فعلن مثل ذلك ، وبعد استقرار الأمر لمعاوية ظل هؤلاء النسوة على مبدئهن ، ورحل عديدات منهن إلى معاوية لنيل عطاء منه أو لغير ذلك ، فكان معاوية يذكرهن بما فعلن يوم صفين ، من خوضهن المعركة تارة وتحريضهن عليه تارة أخرى ، فلا يأسفن ولا يتراجعن ، وكان معاوية لدهائه وسياسته لا يردهن بدون عطاء ولا ينتهرهن ، ولم يكن ثم ما يدعو لذلك وقد أصبحن قليلات الخطر ، وقد أفرد صاحب العقد الفريد بابا للوافدات على معاوية فذكر منهن ثمانى وافدات ، ونحن ذكرنا من قبل من الخوارج غزالة الحرورية زوجة شبيب ، وبينا ما كان لها وله من بطولة وإقدام ، ويشبهها فى هذا ليلى بنت طريف الشيبانية، وأخوها الوليد بن طريف وكلاهما من بقايا أبطال الخوارج ، ولكنهما كانا فى عهد الرشيد العباسى ، وكان الذى يحاربهما من قواده هو يزيد بن مزيد الشيبانى ، ونكتفى بذكر ثلاثة ممن وفدن على معاوية .

١ ــ الزرقاء بنت عدى :

وهى الزرقاء بنت قيس بن عدى الهمدانية ، من الخطيبات الشهيرات ، أبرز مواقفها يوم صفين ، كانت بين الصفوف على جمل تحض الناس على قتال معاوية وقومه ، وتدفعهم إلى الثبات والهجوم ، ومن كلامها فى هذا الموقف :

« .. أيها الناس . ارعووا وارجعوا . إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء

لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، إن المصباح لا يضيء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس . إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يامعاشر المهاجرين على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى . . ؟ . ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، و « الصبر خير فى الأمور عواقباً » ، إيها فى الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين . . . » .

وقد غاظ موقفها هذا معاوية وقومه ، وكان معاوية وبعض أعوانه يحفظون خطبتها هذه . وأشاروا عليه مرة أن يقتلها فلم يقبل ، وقال : بئس الرأى أشرتم به .

وكان من سياسة معاوية أن كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها عليه مع بعض محارمها وفرسان قومها ، وأن يوسع عليهم فى النفقة ، وأن يحسن جهازها ويهيئ لها سفراً مريحاً ، ولكنها لم تكن راغبة فى الوفود على معاوية ، فقالت لعامله : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلى ، فإنى لا آتيه ، وإن كان قد حتم ذلك فالطاعة أولى .

وقد أحسن معاوية استقبالها ، وأكرم وفادتها ، ولما سألها عن موقفها يوم صفين ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر »

وقال لها : لقد شركت عليا فى كل دم سفكه ! ، قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليسه .

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم والله ، لقد سررت بالخير ، فأنى لى بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم لعلى بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، اذكرى حاجتك ، قالت : لا أسأل أميراً أعنت عليه .

٢ ـ عكرشة بنت الأطرش

هى عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، كانت أيضاً ذات شجاعة وبلاغة ، خاضت بنفسها معركة صفين ، تقلدت السيف ووقفت تخطب المحاربين من جند على فتقول : « . . أيها الناس . عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين فى دينكم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم .

إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب ، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فالله الله عباد الله فى دينكم .

إياكم والتواكل ، فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويطفئ نور الحق ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى .

يا معاشر المهاجرين والأنصار . امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تقصع قصع البعير » .

وفدت على معاوية فسلمت عليه بالخلافة ، فقال لها : الآن صرت أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم . إذ لا على حى .

وكانت تتوكأ على عكاز لها ، فقال لها معاوية : لكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش . . فإن كدت لتغلبن أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وكانت قد وفدت عليه تطلب أن يرد على أهل العراق صدقاتهم ، فلما حاورته أعيته حجة ، فأمر برد صدقاتهم .

٣ – أم الخير بنت حريش :

هى أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى ، كانت من أنصار على ، وقد أثارها مقتل عمار بن ياسر ، فوقفت تخطب القوم ، وترغبهم فى الجهاد بخطبة طويلة منها : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » !

إن الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل ، وبين السبيل ورفع القلم ، ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس .

. . . قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبرا يامعاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كخمر مستنفرةفرت من قسورة ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ،باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى،وعما قليل ليصبحن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ولات حين مناص .

فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ،وتقوى كلمة الشيطان . فإلى أين تريدون رحمكم اللهعن ابن عم رسول الله . . . مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون . . . قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم

الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق بين جمع هوازن . فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً »

طلب معاوية من واليه على الكوفة أن يوفدها عليه ، وسألها عن هذه الخطبة فقالت إنه كلام لم أكن زورته قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة . ووصفها بعض أعوانه أنها كانت كالفحل يهدر فى شقشقته .

قال معاوية : ما أردت بهذا إلا قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، فقالت : والله ما يسوءنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه . قال : هيهات ياكثيرة الفضول .

* * *

هؤلاء ثلاث من الخطيبات أنصار على ، وهناك أخريات من غير حزبه ومن غير الخوارج اشتهرن بذكائهن وحسن تفكيرهن وكلماتهن الحكيمة ، وكان الناس يسألونهن فى مشكلات الأمور ، ومعضلات المواقف ، ويذكرن عادة مع الخطباء لهذه الأسباب .

نذكر منهن أشهرهن هند بنت الخس (١) بن حابس من قبيلة إياد ، كانت ذات فصاحة وحكمة وكانت ترد سوق عكاظ ، فيسمع الناس منها ويسألونها ، وربما حاولوا إعجازها أو إحراجها ، وكان لها أخت تسمى « جمعة » على شاكلتها فى ذكائها وحكمتها ولكنها دونها شهرة ، وصف الجاحظ هندا بأنها من أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ، والكلام الفصيح ، والأمثال السائرة ، والمخارج العجيبة ، وتسمى الزرقاء، وقال يونس. لا يقال إلا بنت الأخس، وقال عمرو ابن العلاء : داهيتا نساء العرب هند الزرقاء ، وعنز الزرقاء وهى زرقاء اليمامة . وكلام هند ابداواتها ملىء بالألفاظ الغريبة .

---

(١) بضم الخاء . ويقال الخص . وأكثر ما تحدث عنها بابنة الخس .

قيل لها : ألا تتزوجين ؟ فقالت بلى : لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان (١) ولا الظريف المتظرف ، ولا السمين الألحم ، ولكن أريده كسوباً إذا غدا ، ضحوكاً إذا أتى (٢) ، وأتت سوق عكاظ فجاء إليها رجل يمتحن عقلها ويمتحن جوابها ، فقال لها : إنى أريد أن أسألك . قالت : هات .

قال : كاد . فقالت : المتنقل يكون راكباً .

قال : كاد . فقالت : الفقر يكون كفرا .

قال : كاد . فقالت : النعامة تكون طائرا .

قال : كاد . فقالت : السرار يكون سمراً .

ثم قالت له هى : أسألك ، قال : هاتى .

قالت : عجبت . قال للسباخ : لا ينبت كلؤها ولا يجف ثراها .

قالت : عجبت . قال . للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها .

قالت : عجبت . قال : لشفرك لا يدرك قعره ولا يدرك حفره .

وكان هذا إيذاناً بعجزه وانقطاعه ، فأراد أن ينهى حديثها بما يجرح حياءها . وقيل لها ما ألذ الأشياء : قالت قبلة فتاة فتى ، ووالله ما ذقتها .

وأسوأ ما كان من هند أن واقعها مولى لها . وقيل لها فى ذلك فقالت: إنه لطول الإلف وقرب الوسائد .

---

(١) تريد أنها لا تريده لنسبه .

(٢) عيون الأخبار ٦/٢١٤ .

نفحة أندلسية

لا نودع العصر الأموى من غير أن نذكر خطبة طارق بن زياد ، لبلاغتها وروحها الحربى . وفى الوقائع التى حدثت فى عهد الأمويين ، وفى الحروب التى قامت بينهم وبين أعدائهم من المسلمين وغيرهم وجدت خطب تصور أدب الحروب . وقد أوردنا بعضاً منها . كما أوردنا أمثلة من خطب الخوارج .

أما خطبة طارق فقد قيلت فى وقت مبكر من العهد الأموى أيضاً . فنى سنة (٩٢ هـ – ٧١١ م) أرسل موسى بن نصير جيشاً كثيفاً بقيادة طارق ابن زياد هذا . فعبر المضيق الذى عرف فيما بعد باسمه . وكان جيش طارق نحو سبعة آلاف جندى ، لاقى بهم جيشاً يبلغ مائة ألف فانتصر على عدوه انتصاراً عجيباً ، ثم أغراه انتصاره بأن يتابع جولته فى تلك البلاد وهى تتهاوى أمامه مدينة بعد أخرى وإقليماً بعد إقليم .

ويحيط فتح العرب الأندلس أساطير كثيرة هى أدنى إلى طرف الأدب أن تكون من نسيج الخيال . ومما قيل فى هذا أن طارقاً أول ما استقر بأرض الأندلس أحرق أسطوله . وخطب قومه بأنهم أصبحوا محصورين بين البحر والعدو ولا ينجيهم إلا سيوفهم .

والذى يعنينا من الخطبة هو بلاغتها ومنهجها فى تحميس الجيش . وتخويفه إياهم عاقبة الهزيمة تارة . وتمنيتهم الظفر والتمتع بخيرات الأندلس تارة أخرى .

ومؤرخو الأدب يبدون شكوكاً كثيرة وقوية حول هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق . لأنه لم يكن دخل الإسلام إلا منذ أربعة أعوام تقريباً . وهى مدة

لا تكفى لإجادته العربية . وكان جيشه أيضاً من البربر الحديثى العهد بالإسلام . إلى أسباب أخرى لا يعنينا هنا أن نقف لديها . نترك لقرائنا تقسيم الخطبة وتمييز أجزائها . وتفحص ما فيها من عبارات قوية، بليغة . ومقدرة الخطيب فى الملاءمة بين كلامه وموقفه . وقد بر طارق بما وعد به جيشه إذ هجم هو بوصفه قائداً على قائد أعدائه فقتله كما وعد . وحسبنا فقط أن ندرس الخطبة من حيث هى ولا يعنينا البحوث الأدبية الأخرى .

خطبة طارق بن زيـاد

طارق هذا كان مولى لموسى بن نصير . قيل إنه من بربر إفريقية . وقيل من أصل فارسي . ولهذا يتشكك الكثيرون فى نسبة هذه الخطبة إليه لأنه لم يدخل الإسلام ويعرف اللغة العربية إلا بعد اتصاله بمولاه موسى ، وموسى تولى قيادة المغرب سنة ٨٩ ﻫ فى خلافة الوليد ، ثم أرسل طارقاً لفتح الأندلس سنة ٩٢ ﻫ فهذه السنوات القليلة لا تكفى لتكوين خطيب يؤلف مثل هذا الكلام ، وهناك أسباب أخرى غير هذا السبب لسنا بصدد عرضها ، لأن الذى يعنينا هو عرض خطبة فنية تصلح أن تكون نموذجا يحتذيه الخطيب . وهناك شيء آخر لا يكاد يصدق . وهو أن طارقاً حين وصل إلى أرض الأندلس أحرق سفنه حتى يرى الجيش محصوراً بين البحر والعدو فيستبسل فى الدفاع والحرب ، ويظهر أن الفكرة أخذت من مطلع الخطبة . ونصها نقلا عن نفح الطيب هو :

« . . أيها الناس أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم. وليس لكم والله إلا الصدق (١) والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً (٢) ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة (٣) ، ولأحملنكم على خطة

---

(١) الصدق : الشدة .

(٢) إذا طال الزمن وأنتم على ما أنتم عليه من الفقر ولم تتقدموا فى فتوحكم استهان بكم الأعداء.

(٣) لست ناجياً منه ، والنجوة ما ارتفع من الأرض ، وهو بنجوة من هذه الأمور أى هو بعيد عنها .

أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي بما حظكم فيه أوفر من حظي (١) .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان . من بنات الرومان (٢) الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان (٣) المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان (٤) .

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً (٥) ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً (٦) ، ثقة منه بارتياحكم للطعان . واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون فتحها(٧) خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولي إنجادكم (٨) على ما يكون لكم ذخراً في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم

---

(١) ليس نصيبكم من هذا الجهاد أكبر من حظي .

(٢) يروى اليونان . وربما خلط العرب فيهما .

(٣) الذهب ينبت نباتاً ، ويدخل في نسيج الملابس للزينة وإظهار الثراء والعظمة .

(٤) يريد محجبات في قصور الملوك ولسن ممن يعملن أو يمتهن .

(٥) يروى عزبانا بالزاى ، جمع أعزب كأعمى وعميان ، وليست رواية جيدة إذ لا نظن أن المحاربين كانوا عزاباً . ويروى عربانا بالراء . وهو الأكثر ، واعترض عليه بأنهم بربر وليسوا عربانا ، ويمكن أن تحمل على المجاز والتشبيه ، أي اختاركم شجعاناً كالعربان .

(٦) جمع ختن بالتحريك . أقارب الزوجة .

(٧) يروى أيضاً وليكون مغنمها ، فعلى الأول يكون المعنى ليكون لكم شرف فتحها ، وعلى الثاني : ليكون لكم غنائمها .

(٨) إرشادكم وهدايتكم .

إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه (١) . واحملوا بأنفسكم عليه . واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون .

من اشتهروا بالخطابة وجودة الكلام

هناك قبائل اشتهرت بالفصاحة واللسن ، وإجادة الخطب وطولها ، كما أن هناك أفراداً اشتهروا بذلك أيضاً . وأوردت كتب الأدب والتاريخ كثيراً لهؤلاء ، ونذكر بعضاً منهم للتعرف عليهم وللاستئناس بكلامهم وبحسن تصرفهم فيما عرض لهم من مواقف . فنذكر هؤلاء الأفراد ومع بعضهم ذكر أسرهم .

١ – إياس بن معاوية المزنى :

وهو إياس بن معاوية بن قرة . مضرى من مزينة ، كان لأم ولد ، وكان ذكياً نجيباً حسن التأتى للأمور التى تعرض له ، عرف بجودة الفراسة وصدق الحدس (٢) تولى قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وظل بها حتى مات سنة ١٢٢ هـ ، كان فصيحاً يعجبه كلامه فيطيل ، وكان يجالس عبد الله ابن شبرمه الضبى من القضاة أيضاً ، فقال له مرة : نحن لا نتفق ، أنت لا تشتهى أن تسكت وأنا لا أشتهى أن أسمع . وأخذ عليه الجاحظ هذا المذهب لأن للكلام غاية ولأن نشاط السامع له نهاية . فإذا زاد الكلام عن هذا مع جماله صار ثقيلا مملولا ، وقد وصف إياس مرة نفسه بالعى ، ولم يكن يعنى ما يقول ، وإنما أراد التخلص من منصب القضاء الذى عرضه عليه عمر ابن هبيرة ، فقال : لا أصلح لأنى عيي ، ولأنى دميم ، ولأنى حديد (٣) .

---

(١) فى الهجوم على لذريق .

(٢) الحدس : التخمين والظن .

(٣) ذو حدة .

فاجابه قائلا : أما الحدة فان السوط يقومك ، وأما الدمامة فإنى لا أريد أن أحاسن بك أحداً ، وأما العى فقد عبرت عما تريد .

وكان إياس ذا عقل فاضل حتّى قال عقبة بن عبد الرحمن بن الحرث : رأيت عقول الناس قريبا بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف. وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيراً .

وقد بدت نجابته منذ حداثته . إذ خاصم شيخاً كبيراً لدى بعض القضاة فى عهد عبد الملك فتقدم خصمه . فأنكر عليه القاضى ذلك ، وقال أتتقدم شيخاً كبيراً ؟ فقال إياس : الحق أكبر منه . قال القاضى : اسكت . قال : فمن يقوم بحجتى . قال : لا أظنك تقول حقاً حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . أحق هذه أم باطل ! فقام القاضى من ساعته فدخل على عبد الملك فخبره الخبر . فقال : اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام . لا يفسده على .

٢ — الفضـــل الرقاشى :

هو الفضل بن عيسى الرقاشى ، من أخطب الناس ، ومن القاصين المجيدين ، ومن المتكلمين على مذهب المعتزلة . وهو رئيس طائفة منهم سميت الفضلية نسبة إليه(١) . وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد أحد رءوس المعتزلة وعدد من الفقهاء ، وكان يمزج قصصه بالعظات والتأملات فيقول مثلا : « سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً » .

والرقاشيون أسرة اشتهرت بالخطابة كلها ، وقصة ثبات الخطابة فيهم إلى زمن معين تدل على أثر الوراثة ، وانتقال صفات الآباء للأبناء ، لأنهم أعاجم كانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا تعلموا العربية وبقيت لهم صفة

(١) فى الخوارج طائفة أيضاً تسمى الفضلية منسوبة إلى الفضل بن عبد الله وليس إلى الفضل ابن عيسى .

الخطابة فى الإسلام ، نزعهم ذلك العرق ، فكانوا وأولادهم الذين ولدوا فى الجزيرة العربية خطباء أيضاً ممتازين ، وظلوا كذلك حتى أصهر إليهم الغرباء ، ففسد ذلك العرق فيهم وضعفت خطابتهم .

كان للفضل ابن عم يسمى يزيد بن أبان الرقاشى ، من أخطب الناس ، وأبان أيضاً عم الفضل كان خطيباً ، وكان يزيد من أصحاب أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ ، وكان يجالس الحسن البصرى ، وكان يجلس مجلسه ويتكلم ويعظ فى حضوره ، وكان مع جودة كلامه وتفوقه فى الخطابة والقصص زاهداً عابداً غزير العلم .

وكان للفضل ابن يدعى عبد الصمد أغزر من أبيه مادة وأبين كلاماً وأجود خطابة ، جلس مرة يتحدث عن البعوضة ودقيق خلقها ، وعامة شئونها ، فاستغرق هذا الحديث ثلاثة مجالس .

وكان للفضل ابنة تسمى سوادة ، تزوجها سليمان بن طرخان أحد حفاظ البصرة الثلاثة . فولدت له المعتمر بن طرخان ، وكان ثلاثتهم من الفصحاء ، ومن رجال الكلام ، إلا أن سليمان لم يكن على مذهب الفضل ، ولا من الطائفة الفضلية، ولما ماتت سوادة شهد ثلاثتهم جنازتها ، فاقتضى الأدب أن يقدما الفضل للصلاة عليها .

فهذا خطيب من أسرة خطيبة .

رابعاً: الخطابة فى العصر العباسى

قدمنا أن العصر الأموى هو أزهى عصور الخطابة العربية ، وذكرنا الأسباب التى هيأت للخطابة فيه هذا الرقى والازدهار . والواقع أنه منذ مقتل عثمان ، ونشوب الخلاف بين على ومعاوية نشطت الخطابة نشاطاً كبيراً ولم تهدأ باستقرار الحكم لبنى حرب أو بنى مروان ، لأن الفتن والثورات ظلت تتوالى واحدة بعد أخرى . وظل كل يوم يظهر منافسون وطلاب للحكم ، وكان أقرب هذه الأصوات خموداً أصوات الزبيريين وأتباع ابن الأشعث ، أما العلويون فسكتت خطابتهم ، ولكن تحولت مناهضتهم إلى دعوة سرية ظلت تعمل فى خفاء وتكتم جهد المستطاع حتى أتت أخيراً على الدولة الأموية نهائياً . وأما الخوارج فظلوا يعملون فى جهد لا يعرف السرية ، وصراحة لا تعرف المواربة . فكان فى نضالهم المستمر حياة للخطبة العربية وشريان دافق لاستبقائها حتى آخر الدولة .

فترت الخطابة أواخر الدولة الأموية بعض الفتور لاستقرار الحكم ، ولتولى أمر الدولة أحداث انصرفوا إلى اللهو والترف ، حتى الخوارج الذين ظل لهم صوت كان شأنهم قد قل وشوكتهم قد فلت بحروب المهلب ابن أبى صفرة وأولاده . فلما جاءت الدولة العباسية انبعثت فى جسم الخطابة الواهن حركة حياة ، بسبب الخصومات التى كان لابد أن تواجهها أول قيامها ، ولكن ما لبثت الدولة أن قضت على هذه الخصومة ، فعادت الخطابة إلى همود أبلغ وركود أشد .

وقد اعتاد مؤرخو الأدب أن يقسموا العصر العباسى إلى قسمين : العصر العباسى الأول . والعصر العباسى الثانى ، ذلك لأن طول العصر وتغير أحداثه جعل للأدب والفكر ألواناً خاصة تختلف فى أحدهما عن الآخر ، والأمر

كذلك فى الخطابة ، وإن لم يحدث لها تغير واسع كالذى حدث فى الشعر وجوانب الفكر الأخرى ، ولا يعنينا أن نفيض فى ذلك بعد الذى قدمنا .

النشاط الوقتى :

كان نضال الحزب المعارض لبنى أمية — بعد انتهاء الزبيريين — يعمل لإعادة الخلافة لبنى على ، أولئك الذين أخذت الخلافة منهم قسراً وكانوا هم أحق بها وأهلها فيما يرى المعارضون . كان بنو العباس يعملون مع بنى على يداً واحدة ضد بنى أمية ، وكانت البيعة السرية تؤخذ لإمام الرضا من آل البيت من غير أن يعين اسمه ونسبه . فلما انتهت الدولة الأموية وأفضى الحكم لبنى العباس دون بنى على ، أصبح أمام العباسيين خصوم جدد من بنى عمومتهم العلويين ، وغضب الدعاة لهذه النهاية ، فقاوموا أول الأمر ، ولكن لم يطيقوا الصمود أمام قوى العباسيين ، فقتل منهم من قتل وسجن من سجن وعذب من عذب ، وتحولت دعوتهم ثانياً إلى دعوة سرية ظلت تناضل نحو ثلاثة قرون حتى قامت لهم دولة تنتمى إلى على بوجه ما ، وهى الدولة الفاطمية التى نشأت بالمغرب ثم ظلت تزحف نحو الشرق حتى قضت نهائياً على بنى العباس .

قامت الثورة ضد بنى أمية فى خراسان أولا ، وكان الأعاجم هم الداعين لها والمتفانين فى قيامها ، نقمة على بنى أمية بسبب تعصبهم للعرب ضد الموالى من جهة . وحباً لعلى وأولاده آل البيت من جهة أخرى ، فلما صدموا باستئثار العباسيين بالحكم دون العلويين أعلنوا عداوتهم لها ، وأراد بعض القواد أمثال أبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى أن يستقلوا بما تحت أيديهم ، فكانت الدولة مضطرة إذ ذاك أن تثبت حقها الشرعى فى هذا الحكم ، وكانت الخطابة أولى الوسائل لهذا الإثبات ، وكان السيف والمال يعملان عملهما بجانبها ، وما لبث العباسيون أن قضوا سريعاً على هؤلاء المعارضين ، أعجاماً وأمويين ، فلم يكن ثمت ما يدعو إلى الخطابة ، فانقطعت بانقطاع أسبابها .

كانت هناك حروب أخرى لم تنقطع ، وهى حروب الروم ، وحروب أخرى أقل شأناً فى الشرق ، ولكن لم تكن هذه ولا تلك مما يدعو إلى قيام خطابة ، ذلك أن نظام الجند كان قد استقر وأصبح هناك محاربون موكول إليهم حماية الدولة ومد حدودها ، ولهم من بيت المال حظ مقسوم ، فلم يعد الأمر كما كان أمام حروب الأمويين وخصومهم ، كل يدعو الناس أن يقفوا بجانبه وينفرهم من عدوه ، بل كانت الخطب لتبشير الشعوب بالنصر أحياناً ، وتهدئة نفوسهم أحياناً أخرى ، وكلا الموقفين لا هو كثير التكرر ، ولا هو ذو إثارة خطابية ، وقد ناب الشعر عن الخطابة فى هذه المواقف ، وهو أليق بجال الدولة المترفة ، وكان المتشيعون من الشعراء والكتاب يخفون تشيعهم فلا يظهرونه إلا فى ظروف مناسبة .

وكان العصر عصر علم غرست بذوره من قبل وأورق وأثمر فى هذا العهد ، واستفاد الشعر من هذه الوثبة العلمية كثيراً ، واستفادت أيضاً الخطابة فى بعض جوانبها دون بعض ، وتنفس النهج الخطابى — وهو أسلوب الإقناع والاستمالة — فى جوانب أخرى أهمها المناظرات فاستفادت الخطابة أيضاً من حركة العلم التى ظهرت فى هذا العصر ، وكثرت المناظرات بين العلماء فى مختلف فروع العلم ، فكان هناك مناظرات بين رجال الأديان كالتى كان يعقدها المأمون ، وبين رجال النحو واللغة ، وبين أتباع المذاهب الكلامية والفقهية ، وهذه بوجه ما نوع من الخطابة ، وإن كان الفرق ملحوظاً بينهما .

أقسام الخطابة في هذا العهد

قدمنا من قبل أن الخطابة أنواع منها السياسية ومنها الدينية ومنها خطب المحافل . . ويلحق بالخطابة المناظرات والأجوبة ، ومنها وعظ النساك وكلام الزهاد والمتصوفة ، وما قدمناه عن الخطابة إنما هو حكم عام يصف الخطابة السياسية أكثر من غيرها . ويحسن أن نعرض هذه الأقسام عرضاً تفصيلياً يتناول فى إيجاز كل قسم على حدة .

الخطبة أول العهد

من ناحية النشاط والكثرة راجت الخطبة السياسية أول قيام الدولة على ما سبق أن ذكرنا ، وكان هذا النشاط محدود الزمن جداً ، حتى يمكن أن نقول إنه بعد أبى جعفر المنصور — ثانى خلفاء هذه الدولة — وقتله أبا مسلم الخراسانى لم يبق مجال واسع للخطبة السياسية ، وشغل كل من المهتدى والهادى بالقضاء على الزنادقة والخوارج ، وبدرت بعض الثورات من جانب الأمويين الباقين بعد كل الذى نالهم من القتل والإفناء ، ولكنها كانت حركة طفيفة قضى عليها بسرعة ، ولم يكن فى كل هذه المواقف ما يدعو إلى تنشيط الخطابة أو استمرار نشاطها ، وظلت هناك عوامل انشقاق داخلى فى البيت العباسى حول تولى الخلافة ، ولكنها لم تثر حركة خطابية أيضاً .

أغراض الخطبة وعناصرها

أما عناصر الخطبة السياسية فى هذه المدة القصيرة ، فكانت تدور حول حق العباسيين فى الخلافة دون سواهم ، وكانت تبالغ فى النيل من بنى أمية وتجسم مساويهم ، وتوضح أنهم كانوا عبئاً ثقيلا على عاتق الأمة ، وأنهم خرجوا عن حدود الدين ، وهدموا قواعده ، وأساءوا حكم الرعية ، ومن هنا يثبت لبنى العباس فضل استنقاذ الأمة من هذا البلاء وتخليصها من ظلم الأمويين. وأطال العباسيون الضرب على نغمة خاصة هى قرابتهم من رسول الله ﷺ وأحقيتهم بوراثته فى إقامة الدين ودعوة الناس إليه ، وأن بنى أمية ليس لهم فضل فى الذود عن الإسلام ، بل هم كانوا أعداءه

ومحاربى رسول الله ﷺ والمحرضين على قتله ، وقد ظلموا فى الجاهلية وظلموا فى الإسلام ، وكان توليهم الخلافة ظلماً لا حجة له ، وهى الآن عادت إلى ذويها ومن هى حق ثابت لهم .

وإزاء العلويين وأنصارهم نفى العباسيون عنهم هذا الحق لأنهم يمتون إلى النبي بصلة أقل من صلة العباسيين – لأن الفاطميين ينتمون إما إلى ابنته فاطمة ، وهى فى الميراث من ذوات الأرحام ، والعباس عمه من ذوى العصبة ، وإما إلى على بن أبى طالب وهو ابن عم يحجبه العم عن الميراث ، وهذه الحجة أطال فيها الشعراء الذين ينتمون إلى البيت الحاكم ، وكان الخلفاء يستريحون لهذا النهج ويعجبون .

ولم يغفل العلويون أن يردوا على ذلك بأن الدعوة قامت بجهاد على وأنه كان من أوائل المسلمين ، وأن من أبناء الحسن والحسين من ينتمى إلى رسول الله من قبل أبيه ومن قبل أمه معاً ، فقد ولده رسول الله ﷺ مرتين ، وهناك مكاتبات بين محمد بن عبد الله بن الحسن المسمى بالنفس الزكية ، وبين أبى جعفر المنصور تصور وجهة نظرهما وحجة كل منهما على صاحبه وفرع العباسيون من فكرتهم عنصراً آخر ، وهو أن الخلافة قد أصبحت لهم حقاً إلهياً ، وأن من نازعهم هذا الحق فقد خرج عن قانون الدين وحارب الله ورسوله ، وبذلك يستحق القتل ويهدر دمه ، وقد قدمنا خطبة أبى جعفر بعد أن قتل أبا مسلم وفيها تأكيد هذا الحق ، وفيها أن الله ينصرهم باطلاعهم على ما يدبر لهم لأنهم حماة دينه ورافعو كلمته .

عبارة الخطبة

أما عبارة الخطبة فإنها كانت على ما هى عليه من القوة والفصاحة ، وكانت تكثر الاقتباس والاستشهاد بآى القرآن الكريم حتى لتجد الخطبة أحياناً آيات قرآنية ليس بها من كلام الخطيب إلا ما يربط بين هذه الآيات .

تنوعها

وكان من الطبيعي أن تتنوع هذه الخطب وتختلف باختلاف القوم الذين

تلقى عليهم . فخطب أهل العراق دون خطب أهل الشام فى وعيدها وتهديدها ، لأن أهل العراق وإن كانوا قد قاموا بالدعوة أعلى ، كانوا ساخطين على بنى أمية كارهين حكمهم ، وهم قد حصلوا على جانب مما كانوا يريدون وإن لم يحصلوا على كل ما كانوا يريدونه .

أما أهل الشام — وخصوصاً أهل دمشق — فهم عيبة(١) بنى أمية وأنصارهم المخلصون ، فهؤلاء لا تجدى فيهم الاستمالة ، ومهما ذكر الخطيب من أخطاء الأمويين وعيوبهم فلن يلفت قلوب هؤلاء عنهم ، لذلك كان لابد من التهديد والإرهاب ، وللعباسيين خطب فيهم لا تكاد تختلف عن خطب الحجاج وزياد فى أهل العراق .

أول خطبة عباسية

وأول خطبة لخلفاء العباسيين خطبة أبى العباس السفاح بالكوفة عقب مبايعته بالخلافة ، صعد المنبر إلى أعلاه وصعد معه عمه داود بن على وجلس دونه ، فألقى السفاح خطبة طويلة جاء فيها :

مقدمة الخطبة

. . . الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة (٢) ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا (٣) ، وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها (٤) ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، أنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته (٥) .وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا ، حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك (٦) على أهل الإسلام كتاباً يتلى ، فقال عز من قائل

---

(١) العيبة الكنانة والجراب توضع به الأسهم .
(٢) كرم الله الإسلام بارتضائه ديناً باقياً للناس .
(٣) هذا وما بعده تعريض ببنى أمية .
(٤) تلويح أيضاً بأهليتهم للخلافة واستحقاقها دون غيرهم .
(٥) تعريض بالعلويين .
(٦) أنزل بوضعهم الموضع الرفيع هذه الآيات الآتية .

فيما أنزل من محكم القرآن : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »(١)، وقال « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى »(٢) وقال : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى » (٣) . وقال واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى » (٤) . فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا ، تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

دفع حق الآخرين

وزعمت السبئية (٥) الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ! بم ولم أيها الناس . ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ،وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم ،وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة (٦) وأتم بنا النقيصة ،وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم .

فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ﷺ) . فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم (٧) ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها وخرجوا

(١) سورة الأحزاب /٣٣ .

(٢) الشورى آية ٢٣ .

(٣) الحشر ٧ .

(٤) الأنفال ٤١ .

(٥) يريد أنصار العلويين ، ويروى أيضاً الشامية أى أنصار بنى أمية . ولعبد اللهبن سبأ دعوة معروفة –زعم فيها أن علياً لم يمت ، وأنه صاحب الحق بعد رسول الله . . . الخ، لهذا سمى أبو جعفر أتباع على السبئية .

(٦) الأعمال والخلال الساقطة – منعت بأيدينا .

(٧) استولوا على تراثهم .

خماصاً منها (١) ثم وثب بنو حرب ومروان ، فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه(٢)، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا .

وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا — أهل البيت — إلا بالله .

ياأهل الكوفة : أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ،حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير .

وكان موعوكاً فجلس .

تحليل هذه الخطبة :

أطال أبو العباس فى مقدمة خطبته ،ولكن المقدمة ليست بعيدة عن غرض الخطبة ، فقد حرص فيها على إدماج نفسه وأسرته فى رسول الله (ﷺ) وأكد أنهم آل بيته ، وأنهم حماة الإسلام والمدافعون عنه ، وهذا يعني أن حربهم بنى أمية إنما هو دفاع عن رسالة رسول الله والدين الإسلامى ، ثم جعل كل ثناء على رسول الله (ﷺ) إنما هو ثناء عليهم لأنهم « نبت من شجرته واشتقاق من نبعته » — وكل هذا يوحى بوجوب طاعتهم والوقوف فى صفهم ضد أعدائهم أيا كانوا .

وانتقل بعد المقدمة فناقش السبئية — أنصار عبد الله بن سبأ — الذى دعا

(١) يشير إلى الخلفاء الراشدين وعفتهم وعدلهم .

(٢) أغضبوه — أى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ، فطغوا حتى أغضبوه .

لنصر الإمام على وخلع عليه صفات الألوهية ، وجعل بنيه يحملون شيئاً من هذه الصفات ، والسبئية معروفة لم يذكر هو مذهبهم ولكنه ناقشهم وبين أن ما جاء به رسول الله من إصلاحات لهم وحدهم شرفه والفخر به ، وذكر أن الخلفاء الراشدين قاموا على شريعته من بعده حتى عهد معاوية ، — وفى ذكر قيام الصحابة بعد رسول الله (ﷺ) على شريعته إيحاء بأن بنى العباس ارتضوا حكومتهم لهذه الاستقامة وأنهم غضبوا على بنى أمية لخروجهم عن طريقته (ﷺ) .

وفى حديثه عن بنى أمية بين أنهم أغضبوا الله بعصيانهم فانتقم منهم ببنى العباس وجعلهم ناصرى الحق وعاملين على إعادة حقوق الأمة التى سلبت ، فقيامهم إذن لأجل الأمة ونصر لها .

وختم الخطبة بتأكيد المودة بينهم وبين أهل الكوفة — الذين تلقى فيهم الخطبة ومناهم بالسعادة على أيديهم ، وأعلن زيادته عطاءهم .

وهى خطبة متكاملة الأجزاء متلائمة مع الغرض الذى سيقت له .

أما كلمة السفاح المبيح التى جاءت فى ختام الخطبة ، فقيل هى من سفح الدماء وإباحة المحرمات أو المصونات ، وجاء فى بعض رواياتها — المنيح — بدل المبيح ، أى الذى يجعل الناس ينوحون ، وقيل هى من سفح الماء بمعنى كثرة الجودة والعطاء الذى يبيح ماله للطالبين وقيل تسميته السفاح لهذا من العطاء لا من سفك الدماء — أما الثائر المبير — أى المهلك — فهى تهديد خفيف وليس موجهاً إلى أهل الكوفة وإنما هو مشجع لهم .

وانظر هذه الخطبة فى الطبرى ٧/٤٢٥ ط بيروت .

خطبـــة داود بن على

كان السفاح يشكو وعكة فلم يستطع أن يطيل خطبته السابقة أكثر مما جاء فيها ، إذ اشتدت عليه وعكته فجلس ، وقام عمه داود فألقى هذه الخطبة :

الحمد لله ــ شكراً شكراً شكراً . الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد (ﷺ) .

أيها الناس :

الآن أقشعت (١) حنادس (٢) الدنيا وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها (٣) ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها (٤) ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا (٥) . ولا نحفر نهراً ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كربنا (٦) من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا (٧) ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم ، وصدقاتكم ومغانمكم عليكم .

لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله ــ (ﷺ) ــ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ــ (ﷺ) .

تباً تباً لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا

---

(١) ذهبت وتجلت . (٢) ظلمات .

(٣) يريد بذلك : استقرت الأمور وصار كل شىء فى وضعه .

(٤) برى القوس : إعدادها وإصلاحها ، ومن لا يحسن بريها يتلفها ــ والجملة مثل لوضع الشىء بيد الخبير به .

(٥) اللجين الفضة والعقيان الذهب .

(٦) أحزننا وأنزل الكرب علينا .

(٧) تحرقنا .

الأنام ، وانتهكوا المحارم . . . ومرحوا فى أعنة المعاصر ، وركضوا فى ميادين الغى . . . فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون : فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق . . .

أيها الناس :

إن أمير المؤمنين – نصره الله نصراً عزيزاً – إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن الكلام بعد أن اسحنفر فيه (١) شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان . . . الشاب المتكهل (٢) المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار .

« فعج الناس له بالدعاء » . . .

يا أهل الكوفة ! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج حجتنا ، . . . فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام . . ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة (٣) . فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ﷺ) إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبى العباس) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم (ﷺ) .

الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا (٤) .

هذه الخطبة كما ترى على نسق الخطبة الأولى من الإزراء على بنى أمية

---

(١) اتسع فيه .

(٢) الذى له رأى الكهول وأناتهم . (٣) المآل والعاقبة .

(٤) نحمده على البلاء الذى عانيناه فصبرنا ، وعلى ما منحنا من أمر الخلافة .

والتنديد بسوء سيرتهم ، وقد نفى أن يكونوا قاموا بهذه الحركة لمنفعة لهم ، وإنما طالبوا بحق مسلوب وغضبوا لظلم ساد فى الأمة . وقد استمال أهل الكوفة بذكره ما كان يساور بنى العباس من حزن إزاء ظلم الأمويين لهم ، وأكد أن ثورتهم ليست إلا لإنصافهم ورفع الظلم عنهم ، فهى ثورتهم ، ووعد بأن حكومتهم ستكون حكومة إسلامية ، ولهذا يجب عليهم طاعتها ، وأكد قوة الصلة بينهم ، وخلال الخطبة كلها شاع تأكيد أنهم من آل البيت وأنهم أبناء رسول الله (ﷺ) وعشيرته . وختم خطبته بتأكيد أن الأمر مستقر لهم إلى قيام الساعة .

خطبة للسفاح فى أهل الشام

حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم ذكر قتل مروان بن محمد ثم قال :

« . . . ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار (١) . نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم الظلم (٢) ، ويتهورون بكم مداحض الزلق (٣) ، يطأون بكم حرم الله وحرم رسوله (٤) ، ماذا يقول زعماؤكم غداً ؟ . . . يقولون : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » إذا يقول الله عز وجل : لكل ضعف ولكن لا تعلمون (٥) .

---

(١) آل حرب معاوية ويزيد لأنهما من أبى سفيان بن حرب ، وبعد معاوية الثانى تحولت الخلافة إلى مروان بن الحكم وبنيه وظلت فيهم إلى نهاية الدولة فهؤلاء آل مروان .

(٢) التسكع التمادى فى الباطل ، ويتسكعون بكم الظلم .– يتمادون فى قيادتكم إلى خوضه .

(٣) يرقعونكم فى الأماكن التى تزل فيها الأقدام .– من تهور بمعنى وقع وسقط . ودحض بمعنى زلق .

(٤) يخوضون بكم ما حرمه الله عليكم .

(٥) سورة الأعراف الآية ٣٨ فى وصف أهل النار – وأول الآية « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا . . . »

أما أمير المؤمنين (١) فقد ائتنف (٢) بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة(٣)، وعاد بفضله على نقصكم (٤) ، وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم (٥) ولتطمئن به داركم ، ولتعظكم مصارع أوائلكم (٦)، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا (٧) .

ألقى السفاح هذه الخطبة فى أهل الشام بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهذا الجزء على قصره يوضح سياسته . ذكر أولا ضلال هذه الدولة من أول حاكم فيها — فذكر آل حرب وآل مروان ، وبدأ حديثه باختيار آية تدل على أنهم ضلوا وأضلوا معهم قومهم ، ثم أتبعها بما يؤكد معناها ، ثم ذكر آية أخرى تفيد أن أتباع الضالين لا ينجون من العذاب ، لأنهم انقادوا لهم فى ارتكاب الضلال ، وبهذا أثبت أنهم يستحقون العقوبة ، وهو بهذا أخافهم وأشعرهم بأنهم قد ينزل بهم ما نزل بقادتهم من العذاب أو القتل ، ولكنه انتقل من هذا إلى أنه سامحهم ويريد أن يبدأ معهم عهداً جديداً يتناسى فيه كل ما كان منهم — وختم حديثه بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل ببنى أمية ، وطلب أن يكون لهم من ذهابهم عظة، فإنهم ما أصابهم الهلاك إلا بسبب ظلمهم . واقتبس آية دالة على ذلك .

---

(١) يعنى نفسه . (٢) استأنفها وجددها .

(٣) العفو والمسامحة .

(٤) تفضل عليكم بالعفو فيما كان منكم .

(٥) يقال أفرخ روعه : بمعنى ذهب خوفه وهدأت نفسه .

(٦) يريد مصارع بنى أمية . (٧) الآية ٥٢ سورة النمل .

خطب لأبى جعفـــر المنصور

١ ــ خطبة بعد قتل الأمويين :

أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظه ، نظر امرؤ فى يومه لغده ، فمشى القصد (١) ، وقال الفصل ، وجانب الهجر (٢) .

[ثم أخذ بقائم سيفه وقال] .

أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم (٣) لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فإنما بعد الوعيد الإيقاع (٤) ، وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله (٥) .

هذا جزء من خطبة . وخطب المنصور فى جملتها قصيرة ، وهذه الخطبة كلها تهديد وتحذير للناس أن يتناقلوا بينهم كلمات السوء ، إن الدولة فى أول قيامها تحتاج إلى دعاية حسنة ، ويضيرها أن يشيع عنها أى سوء ، وهى مع ذلك عرضة للتقول وتجسيم المساوىء الضئيلة من أعدائها ، وهو يوضح أن هذه الأراجيف قد تكون كذباً ، وأن من مشى بقالة السوء عنهم فسيقتل ، ولهذا أشار بسيفه مبالغة فى الإرهاب والإخافة .

---

(١) هذه كلها صيغ خبرية يفهم منها الأمر . أى ليحرز كل لسان رأس صاحبه ، فرب كلمة تسبب قتله . ولينتبه كل شخص لمصيره . والجد الحظ . وجملة فمشى القصد خبرية مترتبة على ما قبلها . أى من فعل ذلك فقد مشى القصد . والقصد الاستقامة .

(٢) الفحش .

(٣) كفيل وضامن .

(٤) إنزال العذاب .

(٥) الآية ١٠٥ من سورة النحل .

٣ – خطبة له بالشام :

شنشنة أعرفها من أخزم (١) .

من يلق أبطال الرجال يكلم (٢) .

مهلا مهلا روايا الأرجاف (٣) وكهوف النفاق . عن (٤) الخوض فيما كفيتم .والتخطى إلى ما حذرتم ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقل عدد ويدول عز ، وما أنتم وذاك ؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها حقاً (٥) ، والحمد الجحد ، ولكن خب كامن ، وحسد مكمد ، فبعداً للقوم الظالمين .

٣ – من خطبة له بمكة :

. . . . . أيها الناس :

إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده : وحارسه على ماله ! أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم . وقسم أرزاقكم ، وإذا شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » أن يوفقنى للرشاد

---

(١) مثل عربى ، جاء على لسان شيخ كان ابنه أخزم يعقه . ثم مات وترك أولاداً عقوا جدهم فقال لهم هذا المثل .

(٢) يجرح .

(٣) الإشاعات الكاذبة .

(٤) متعلق بكلمة مهلا ، أى أمهلوا وكفوا عن الخوض .

(٥) إن الله صدق وعده فأورث بنى العباس هذا الملك بعد استيلاء بنى أمية عليه،ومن خرج عليهم فسيذله الله كما أذل أعداء العباسيين الآخرين .

والصواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وهذه الخطبة - كما هو واضح - تختلف عن الخطبتين السابقتين ، فهى لا تهدد ولا تتوعد ، لأن أهل مكة لم يكونوا أمويين ، بل لعلهم فرحوا بذهابهم ، ولكنه مناهم بأن يعطيهم ، وسوغ هذا العطاء بأنه سلطان الله فى أرضه ،وأنه يعمل بهديه وتوفيقه ،فإذا أعطاهم فإنما هو عطاء من الله ، وسمى يوم انتصارهم يوماً شريفاً ، لأنه أزيل فيه باطل وقام حق وتمت نعمة من الله عليهم ، ومن أول الخطبة أثبت حقه الإلهى وأن سلطانه سلطان الله فى أرضه .

من خطبة لسليمان بن عـــلى

. . . « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » (١) قضاء مبرم (٢) ، وقول فصل ما هو بالهزل (٣) .

الحمد لله صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعدا (٤) للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً (٥) ، والفىء إرثاً ، والدين هزؤا ، وجعلوا القرآن عضين ، لقد حاق (٦) بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين (٧) ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٨)»

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ .
(٢) يريد أنما جاء فى الآية من توريث الأرض للصالحين أمر ثابت .
(٣) اقتباس من آخر سورة الطارق .
(٤) هلاكاً - وهو يريد بنى أمية .
(٥) يعرض برميهم الكعبة بالمجانيق حين حصارهم ابن الزبير .
(٦) أهلكهم وذهب بهم - وهو اقتباس قرآنى .
(٧) كثير ما نرى . وهو اقتباس من سورة الحج / ٤٥ .
(٨) من سورة آل عمران ١٨٢/ .

أمهلوا حتى نبذوا الكتاب ، واضطهدوا العترة (١) ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد (٢) ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (٣) .

مقـاومة العلويين

ظل العلويون يقاومون سراً وجهراً أحياناً أخرى ، وقد أذاقهم العباسيون ألوانا عنيفة من العذاب ، وقتلوا بعضاً منهم بطرق بشعة وقد وضحت ذلك كتب التاريخ ، ويكفي أن نشير إلى محمد بن عبد الله بن الحسن النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وقد قتلهما المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثم الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ، وقد قتل بفخ سنة ١٦٩ هـ ، ثم يحيي بن عبد الله وأخيه إدريس ، وكان يحيي قد تحصن بالديلم فما زال الرشيد يستميله وكتب له أمانا حتى أمن وقدم بغداد فاستقبله الرشيد بكثير من الحفاوة ثم نقض عهده وقتله ، وأما إدريس ففر إلى المغرب وكون حزباً أرهب الرشيد ، ولم يجد مجالا لحربه ولا لخديعته بعد خيانة أخيه ، فدس له رجلا سقاه السم ومات ١٧٧ هـ ، ولم يكن له عقب ، ولكن كانت له أمة بها حمل فأنجبت غلاماً سمى إدريس ، وتريث به أتباع أبيه حتى نما فاتخذوه إماماً ، وقامت حوله ثانياً دولة الأدارسة فى عهد الرشيد نفسه .

ولم يكن هذا كل ما بقى للعلويين ، فقد كان هناك فرع آخر من أولاد وأتباع جعفر الصادق وله تاريخه المعروف . وكان الناس على تتابع السنين يرون أن بنى على قد ظلموا من الحكومات ومن الأتباع على السواء ، وكان ذلك يزيدهم تعلقاً بهم والتفافاً حول من بقى منهم ، وقد دفعهم هذا التعلق إلى إضافة صفات لهم وكرامات ، وأيضاً وضع أحاديث ، ورغم ما كان

---

(١) عترة الرجل نسله وأهله الأدنون — يريد آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) من سورة إبراهيم / ١٥٠

(٣) من سورة مريم ٩٨ ، والركز الصوت الخفى .

بيد العباسيين من قوة ومال كان للشيعة شعراؤهم الذين يطالبون بحقهم ، ومن أشهر هؤلاء دعبل الخزاعى ، والسيد الحميرى ، وكان ابن الرومى الشاعر البائس الحر يتشيع ويكتم تشيعه حتى نم عن مذهبه ببعض قصائده .

هذا النهج يوضح أن الدولة كانت دولة شعر ولم تكن دولة خطابة وأن الشعراء فى هذا الموقف هم الذين قاموا بما كانت تقوم به الخطابة فى عهد على بن أبى طالب وعهد الأمويين .

فاذا رجعنا إلى عهد المنصور ، ومقاومته محمد وإبراهيم ابنى عبد الله نجد الخطابة ليست ذات مظهر بارز ، ونجد الكتابة شاركت الخطابة .

ندب المنصور عمه عيسى بن موسى ، — وكان أيضاً ولى عهده — إلى حرب محمد بن عبد الله النفس الزكية ، وكان قد تغلب على مكة والمدينة وأقام بالمدينة ، فلا نجد أياً منهما يعتمد على الخطابة ، أما عيسى فقد أرسل إلى أهل المدينة كتباً يمنيهم فيها الأمانى الطيبة فخدعهم وفرق الكثيرين منهم عن خصمه ، وأما محمد فألقى فى قومه خطبة لم يكن الغرض الأساسى منها تحميسهم ولا دفعهم للقتال وإنما كان يختبرهم بها ، وكان من أثرها أن تسلل أكثرهم وبقى أقلهم. وكانوا اختلفوا فيما بينهم. أيقيمون بالمدينة أم يخرجون لعدوهم خارجها ، وجاء فى هذه الخطبة :

يا أيها الناس :

إنا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب ، وهو ذو عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده ، وإنه قد بدا لى أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن . . . » .

والخطبة — كما ترى — ليست تشجيعاً على الحرب ، وإنما هي استشارة واستطلاع رأى ، وكان هذا التهافت فيها خليقاً أن يفرق الناس عنه ،

وقد حاول المنصور استمالة محمد هذا فبعث إليه برسالة لم تدع لها في نفسه أثراً ، وتبادلا الرسائل في غير طائل ، وهي توضح وجهة نظر كل منهما في استحقاق الخلافة .

(أ) من أبي جعفر إلى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم (١) » ولك على عهد الله وميثاقه، وذمته وذمة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – إن تبت ورجعت أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم ومال (٢) ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاء معك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك .

فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به . .

---

(١) سورة المائدة ٣٣ .

(٢) أسامحك وأدع لك ما أخذت .

(ب) من محمد النفس الزكية إلى أبي جعفر

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد .

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »(١) . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على .

إن هذا الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا (٢) . وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ، ولا الطلقاء (٣) . وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى نمت من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله (ﷺ) فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية (٤) .

وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد (ﷺ) ومن السلف أولهم إسلاماً على ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة

---

(١) سورة القصص ١—٦

(٢) يريد الخراسانيين .

(٣) يريد باللعين الطريد الحكم ، وبالطليق أبا سفيان.

(٤) أم على بن أبي طالب .

(٥) من قبل أبيه ومن قبل أمه .

نساء أهل الجنة . ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وإن هاشماً ولد علياً مرتين (١) ، وإن عبد المطلب ولد حسناً (٢) مرتين ، وإن رسول الله — (ﷺ) ولدنى مرتين من قبل الحسن والحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، ولم تعرق فى العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد ، (٣) فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى اختار لى فى النار . فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة . وأهونهم عذاباً فى النار (٤) . وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار .

ولك على عهد الله إن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن على ، أم أمان أبى مسلم ؟ (٥)

(ج) من أبى جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية

بسم الله الرحمن الرحيم :

. . . . . أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً وبدأ به فى كتابه

---

(١) من قبل أبيه ومن قبل أمه .

(٢) خص الحسن بالذكر لأنه جده الأعلى .

(٣) يشير إلى أن أبا جعفر من أولاد الإماء الأعاجم .

(٤) يشير إلى أبى طالب .

(٥) معروف أن هؤلاء جميعاً غدر بهم وقتلوا .

على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

أما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة لكان عبد الله ، أولاها بكل خير فى الدنيا والآخرة،ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

ولقد بعث الله تعالى محمداً وله عمومة أربعة ، فأنزل الله — عز وجل — « وأنذر عشيرتك الأقربين » فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً ، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً وابن خير الأشرار ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد لنعلم : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وأما ما فخرت من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبى ﷺ ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ..

فخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولا وآخرا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ . . وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد .

وما ولد فيكم بعد رسول الله ﷺ أفضل من على بن الحسين ،

وهو لأم ولده ، وهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، وهو خير من أبيك ، ولا مثل أبيه جعفر ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

وأما قولك أنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تجوز الميراث ، ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهارا ، ومرضها سراً ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاء فى السنة التى لا خلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة ، لا يرثونه .

وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ... ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ... فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى ﷺ غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم يرضوا إلا ولده . فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

أما ما ذكرت من أهل بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله . . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقيل جوعاً ، وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه (العباس) كان من المطعمين ،

فأذهب عنكم العار والسغبة ، وكفاكم النفقة والمؤنة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر .

قد أعناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم .

ويتضح من هذه الأحاديث رجوع القوم إلى عصبيات حرمها الإسلام ، وفخر بالآباء للاحتجاج به ، ، وإذا رجعت إلى المحاورات التى دارت بين على بن أبى طالب ومعاوية وجدت حديثاً لكل منهما عن أبيه وقبيلته وأدركت الفرق بين الحوارين .

الخطبة الدينية العباسية

لم ينل الخطبة الدينية ما نال الخطبة السياسية من تدهور وفتور ، ولكن طرأ عليها تغير واسع من حيث طولها ومن حيث الأفكار التى تحويها ، أما بقاؤها واستمرار العناية بها فلأنها كانت حجة الحكام وسبيل سيادتهم وتثبيت أقدامهم فى الحكم ، فخلفاء بنى العباس يعتمدون دائماً على أنهم ورثة رسول الله ﷺ ، ودعاة الإسلام ، ولهذا كان لابد أن يقوم الخليفة فى مقره والولاة فى الأقاليم بخطب الجمع والأعياد وغيرها من المناسبات الدينية ، وهو أمر كان جارياً من قبل ، فلا سبيل إلى تركه ، وقد كانت الخطبة تتعرض للأحداث الجارية ولأعمال الحكام ، فتسبغ عليها لباساً دينياً ، وتذكر لها مسوغات من القرآن والسنة ، كما تتعرض لأعمال الأعداء بالزراية ، وتذكر من الشواهد ما يبين فسادها وخروجها عن الإسلام ، ونظراً لقلة الأحداث وهدوء الأحوال السياسية أصبحت الخطبة دينية بحتة تعنى بالدعوة إلى استقامة السلوك والترغيب فى الجنة والترهيب من النار ، ومن ناحية الأسلوب طالت مقدماتها من صيغ التحميد لله تعالى والصلاة على نبيه ، كما طالت الخطبة أيضاً عما كانت عليه فى صدر الإسلام .

وكان هناك — عدا الخلفاء والولاة — خطباء متطوعون يدعون إلى الاستقامة على الدين ويحذرون من ارتكاب المحرمات ، واشتهر من هؤلاء عدد من النساك الذين عزفوا عن متع الحياة وملذاتها ، وكانوا بسيرتهم وترفعهم عن دنايا الأمور ، واحتقارهم للمال وعاظاً عمليين ، وكان هؤلاء ربما تطوعوا بالمواعظ يلقونها على الحكام ويجبهونهم بأخطائهم وما يؤخذ عليهم من تجاف عن روح الإسلام ، وقد رأينا مثلا من هذا فى العهد الأموى ، وكان معاوية واسع الصدر لتقبل هذه العظات وخصوصاً

ما يتصل بذكر الإمام على وعبادته وتقواه ، وكان الخلفاء ربما دعوا هؤلاء النساك ليعظوهم ، وربما أبكاهم وعظهم ، وربما كافأوهم ببعض المال ، ولكن هؤلاء لم يكونوا يرجون مالا ، وكان الواحد منهم يتصدق بما يأخذه ولا يستبقى لنفسه شيئاً أو يستبقى ما يسد به حاجته

وبهذا نرى الخطبة الدينية جرت فى تيارين مختلفين ، تيار يجرى على ألسنة الرسميين ، وهو تقليدى غالباً ، وتيار يجرى على ألسنة الوعاظ وأكثره يدور حول الزهد وتهوين الدنيا وتحقير شأنها ، ولكنه كان يختلف باختلاف الوعاظ أنفسهم ودرجات ثقافتهم ومقدرتهم على صوغ الكلام ، وما يختلج فى نفس كل واحد من معان وتجارب وانفعالات .

وكان لهؤلاء مجالس وعظ يحضرها الكثيرون ، وكان لكل واحد أتباع وعشاق ، ولكن حديث هؤلاء يدخل فى مجالس الوعظ والقصص .

ومنذ فجر الدولة العباسية ، وبعد الرشيد والمأمون لم يكن الخلفاء يخطبون الجمعة ويؤمون الناس كما كان يفعل الخلفاء من قبل ، أو حتى هؤلاء لم يكونوا يخطبون الجمع باستمرار ، ففت هذا فى نشاط الخطابة الدينية ، ولكن الوعاظ المتطوعين كانوا ذوى تأثير وبلاغة ، لأنهم كانوا مدفوعين بعامل الإخلاص ، وحب الدين والرغبة فى نيل المثوبة من الله .

وكان لتغلب الأتراك واستبدادهم أثر فى تنشيط النزعة الصوفية والدعوة إلى الزهد ، والتنفير من ماديات الحياة الدنيا ، وللصوفية آثار خطابية وعبارات زاهدة بليغة ، كما لهم أخبار وأقاصيص تكفلت بها كتب التصوف ، وإذا رجعت إلى الرسالة القشيرية وكتب التصوف الأخرى ، وجدت فيضاً من هذه وتلك .

ومنذ القرن الرابع نال الخطابة الدينية ركود وضعف ، ووجدت كتب أو دواوين خطب يستعملها خطباء المساجد ، واشتهر منها ديوان ابن نباتة الذى ظل يحاكى بإخراج دواوين على نسقه حتى العهد الحديث ، وهي

خطب تنظم على حسب الشهور ، لكل شهر أربع خطب أو خمس ، ففقدت الخطبة تأثيرها ، إذ أصبحت بعيدة عن حياة الناس .

وشعرت الخطبة الدينية بانتعاش ضئيل أيام الحروب الصليبية ، ولكن أسلوب الكتابة فى هذا الوقت كان مقيداً بالسجع ، ولم تكن ثم معارضة من الجانب الآخر ، فلم تظفر الخطابة الدينية بما يبعث فيها قوة كافية .

وظلت الخطبة معتمدة على الدواوين خصوصاً فى عهد المماليك والعهد التركى ، فلما جاء العصر الحديث انتعشت الخطابة السياسية والاجتماعية ، وظلت الدينية على جمودها ، ولكن ترقى أسلوبها ومنهجها بترقى الدراسة فى الأزهر ، ثم قام عدد من الجمعيات الإسلامية مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية والإخوان المسلمين ، فجعلوا للخطبة الدينية هدفاً خاصاً ومنهجاً ، ودارت كل جماعة منها فى محيطها ، فاستيقظت على أيديهم ونالها كثير من التجديد واتساع الأفق ، وإدخال جوانب اجتماعية كثيرة فيها ، ثم عادت ثانياً إلى الركود ، والخطبة فى الوقت الحاضر ليست على ما كان ينبغى أن تكون عليه من القوة .

وحسبنا هذا الاستعراض العابر ، ونرجع بالنماذج التى نريدها إلى العصر العباسى .

خطبة هارون الرشيد

الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ، ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ونصح الأمة ، وجاهد فى الله ، فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين . فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ونجاة من النار ، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار ، وتبلى فيه الأسرار ، يوم البعث ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد(١) ، يوم لا يستعتب(٢) من سيئة ، ولا يزداد من حسنة « يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »(٣) ، « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(٤) .

عبـــاد الله ...

إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع (٥) ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لمن لا زكاة له » . إنكم سفر(٦) مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالإنابة(٧) ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمؤمنين . قال الله عز وجل — وقوله الحق — « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة »(٨) . وقال : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »( ) .

---

(١) كل هذه أسماء ليوم القيامة جاءت فى القرآن الكريم .

(٢) يقال عاتبت فلاناً فأعتبنى أى قبل ما عاتبته عليه وأزال ما أشكو منه . واستعتبته طلبت أن يقبل اعتذارى له .

(٣) من سورة غافر / ١٨ — ١٩ .

(٤) من سورة البقرة / ٢٨١ .

(٥) التنزه عن الآثام .

(٦) مسافرون .

(٧) الخشوع والرجوع إلى الله .

(٨) من سورة الأعراف / ١٥٦ .

(٩) سورة طه / ٨٢ .

وإياكم والأماني ، فقد غرت وأردت وأوبقت كثيراً(١) ، حتى أكذبتهم مناياهم(٢) ، فتناوشوا(٣) التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلات(٤) فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله عز وجل : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »(٥) .

أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم . بسم الله الرحمن الرحيم « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . آمركم بما أمركم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه وأستغفر الله لى ولكم .

هذا نموذج للخطبة الدينية فى هذا العصر ، وستجد خطب الآخرين لا تخرج عن هذا النمط ، وكلها تدور حول التذكير بالموت والحساب فى الدار الآخرة ، والتحذير من الانغماس فى الدنيا . وليس ثمت فكرة خاصة تتركز فيها الخطبة ، أو إلحاح على مبدأ معين أو عمل خاص من زكاة أو صلاة ليل .

---

(١) أردت أوقعت فى الردى الهلاك . وأوبقت أوقعت فى الأعمال الموبقة المهلكة .
(٢) جاءهم الموت وأمانيهم لم تحقق .
(٣) تعلقوا بها وحاولوها — والتناوش التناول والتعاطى ، أى لم يجدوا مجالا للتوبة . وهو اقتباس من آخر سورة سبأ .
(٤) صاروا أمثالا يعتبر بها .
(٥) سورة الأعراف / ٢٠٤ .

وقد كان هناك المعلمون والوعاظ فى المساجد وغيرها ، يدعون لمثل هذا الزهد والورع ، كما كان هناك الفقهاء ومفسرو القرآن والمحدثون يتناولون الموضوعات الخاصة . وبذا أصبحت الخطبة الدينية من الخلفاء عملا تقليدياً قل فيه الخلاف بين خطيب وآخر .

ويلاحظ أن صيغة الحمد والشهادة فى أول الخطبة قد طالت وهى ظاهرة بدأت فجأة فى هذا الوقت ، ويوجد فى نهج البلاغة مثل هذا ولكنه مما لا يطمأن إليه ، ولا يقطع بنسبته للإمام على .

خطب للمأمون

١ – خطبة فى يوم جمعة :

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده(١) ، والخوف لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه . فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم(٢) ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار ، فاستبدلوا(٣) ، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة

---

(١) تنجز الوعد طلب قضاءه – يريد اعملوا صالحاً يقض الله لكم ما وعد به من رحمة الصالحين

(٢) جد به الأمر أو العمر بمعنى أسرع .

(٣) طلبوا دارا أخرى بدلا منها .

بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان – الليل والنهار – لجدير بسرعة الأوبة(١) ، وإن قادماً يحل(٢) بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه وقدم توبته ، وغلب شهوته(٣) ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها(٤) ، حتى تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة(٥) ، أو تؤديه منيته إلى شقوة .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة(٦) ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة ،ولا تحل به بعد الموت فزعة ، إنه سميع الدعاء، بيده الخير وهو كل كل شيء قدير .

٢ – خطبة له فى عيد الفطر :

ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله أول أيام شهور الحج ، وجعله معقباً لمفروض صيامكم ، ومتنقل قيامكم ، أحل الله لكم فيه الطعام ، وحرم عليكم فيه الصيام ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروا لتفريطكم فإنه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تمـــاد وإصرار .

اتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ، ولم يحضر الشك فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده

---

(١) الرجوع – يريد أن الناس غائبون عن دارهم الأصلية وهى الآخرة .
(٢) أى سينزل بمكان شقوة أو فوز – فيجب أن يهيء نفسه لمكان الفوز .
(٣) من فعل ذلك فقد وقى نفسه من عذاب الله ، وهو ماض بمعنى الأمر ، أى ليتق الله .
(٤) يرجئها ويؤجلها .
(٥) الأيام التى عاشها لم يعمل فيها صالحاً فأصبحت حجة عليه .
(٦) لا تحمله نعمة الله على البطر وعدم الشكر .

عثرة(١) ، ولا تحظر قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء بعده إلا فوقه ، ولا يعين على جزعه وعلزه(٢) وكربه ، وعلى القبر وظلمته ، وضيقه ووحشته ، وهول مطلعه ، ومسألة ملكيه(٣) ، إلا العمل الصالح الذى أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقالته ، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه ، وبذل من الفدية ما لا يقبل منـــه .

فالله الله عباد الله ، كونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها ، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله ، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم ، فلينظر عبد ما يضع فى ميزانه مما يثقل به ، وما يملى فى صحيفته الحافظة لما عليه وله .

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها يحذر منها ، وينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم كتاب الله لها ، والنهى عنها ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »(٤) وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »(٥) فانتفعوا بمعرفتكم بها .

واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائعها ، وآثروا طاعة الله فيها ، وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

---

(١) إقالة العثرة إصلاح خطأ سبق .
(٢) ما يصيب المحتضر من حشرجة الموت .
(٣) يريد حساب الملكين فى القبر .
(٤) سورة لقمان ٣٣ .
(٥) سورة الحديد ٢٠ .

٣ ــ خطبة له فى عيد الأضحى :

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه وعظم حرمته ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه بالذبح(١) العظيم نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومقدم الأيام المعدودات من النفر(٢) ، يوم حرام من أيام عظام ، فى شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله فيه إلى مشهده ، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه . قال الله عز وجل : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٣) . فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منـــكم(٤) » .

الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب ــ والحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله فى الجنة ، والشر كله فى النار .

* * *

هذه ثلاث خطب للمأمون ، والمأمون من ذوى الثقافة والمقدرة الخطابية ولكننا نجد الخطب الثلاثة تدور حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت لا يميز خطبة الجمعة عن خطبة العيد إلا ما أشار به من نوع العيد ، وأنه خاتم صوم أو يوم ضحية ثم يعود للتذكير بالآخرة والحساب .

---

(١) الذبح بمعنى المذبوح . وهو مقتبس من الآية : وفديناه بذبح عظيم .
(٢) خاتم الأيام العشر الأولى من ذى الحجة وأول أيام النفر من منى .
(٣) سورة الحج ٢٧/ .
(٤) الحج آية ٣٧ .

وفى خطبتى العيدين جاء افتتاح بالتكبير كما جاء تكبير أثناء الخطبة وهذه ميزة تقليدية .

وخطبة الرشيد وخطب المأمون قريبة الشبه فى الأسلوب والمعانى وهذا يحدد مستوى الخطبة الدينية ، وليس للذين جاءوا بعد ذلك خطب خير من هذا وقد كان المعتصم أقرب إلى الأمية لا ثقافة له ، ولم يكن الواثق أيضاً واسع الثقافة ولهذا ظلت الخطبة الدينية خطبة تقليدية .

ومن الخطب التى تبين منهج الخطبة الدينية وأسلوبها فى القرن السادس خطبة شهيرة خطبها القاضى محيى الدين بن زكى الدين (١) فى أول جمعة صليت فى بيت المقدس بعد أن فتحه صلاح الدين ، وحضرها السلطان وأعيان دولته ، وهى خطبة طويلة أكثر فيها الاقتباس من القرآن الكريم وعلى منهج عصره حرص فيها على السجع ما استطاع واستعمل كثيرا من المحسنات البديعية. وقد جاء فى وصف خطبته أنه بدأها بقراءة سورة الفاتحة كلها ، ثم اقتبس آيات قرآنية أولها « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » ثم قرأ : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ثم « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا » ، ثم أول سورة الكهف ثم الآية : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون » .

فاختار آيات تبدأ بالحمد وتنفى أن يكون لله ولد ، كأنه تعريض بالصليبية المسيحية التى تجعل عيسى ابن الله ، ثم بدأ خطبته ، فقال :

---

(١) اسمه محمد بن أبى الحسن ويكنى أبا المعالى وتلقب محيى الدين . وتلقب أبوه زكى الدين ، من فقهاء الشافعية المعروفين بدمشق فى عهد صلاح الدين . ومن أسرة علم وقضاء . آباؤه وأولاده من العلماء ، وكان له منزلة عند السلطان ، وكان له شعر جيد وخطب ورسائل . ولما ملك صلاح الدين حلب جعل له الحكم والقضاء بها ولما فتح بيت المقدس تطاول العلماء إلى خطبة يوم الجمعة ولكن السلطان صلاح الدين جعلها إليه . وكان يوم فتحه حلب قد مدحه بقصيدة جاء فيها .

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

ففتحت القدس فى رجب وكان الناس يتغنون بهذا البيت .

(انظر وفيات الأعيان جـ ٤ - ٣٢٩ وما بعدها وجـ ٢ — ٣٣٢)

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ،ومديم النعم بشكره،ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما شاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظهاره وإظفاره . وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رافع الشك وداحض الشرك وراحض الإفك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام . بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه وشيد بنيانه بالتمجيد ، فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم . ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء .

ومقصد الأولياء . ومدفن الرسل ومهبط الوحي ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين . وهو المسجد الأقصى الذى صلى فيه رسول الله (ﷺ) بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذى كرمه الله برسالته وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا . « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم .

وهو أولى القبلتين ، وثانى المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله ، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فيها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على يديه المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد (ﷺ) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء، فقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذهالنعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون .

فماذا لله عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذين تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان،فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله ، وأن تكون التهانى لأهل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء . أليس هو البيت الذى ذكره فى كتابه ، ونص عليه فى محكم خطابه ، فقال تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أليس هو البيت الذى عظمته الملل وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل . أليس هو البيت الذى أمسك اللهتعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ؟ وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب .

فاحذروا عباد الله – بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين – أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً،وكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعهالشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم .

جدوا فى حسم الداء وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله .

وتمضى الخطبة طويلة على هذا النسق – ترديد لهذه المعانى واقتباس من القرآن ثم ختم بهذه العبارات :

آمركم وإياى بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإياى عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه .

وفى الخطبة الثانية – كانت مختصرة على ما هو مألوف – دعا للإمام الناصر خليفة العصر ، ثم قال :

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر بيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين .

ثم استمر يدعو لصلاح الدين ويثني عليه ، ويقتبس دعوات من القرآن. ثم دعا كما قال ابن خلكان بما جرت به العادة .

هذه الخطبة تمثل الخطابة الناضجة فى هذا العصر . لأن صلاح الدين اختار من يراه أنبغ العلماء المتطلعين للخطابة .

كان أسلوب هذا العصر يعتمد على السجع حتى فى الكتب ، وكتاب «الفتح القسى» يمثل مدى الحرص على هذا الالتزام ، وهذه الطريقة كما ترى فى هذه الخطبة تفقد تأثيرها فى نفوس السامعين . ثم إن الخطيب فقير جداً فى معانيه، وقد أطال فى مقدمته طولا مملا ،وتدور الخطبة كلها على أن فتح بيت المقدس نعمة من الله وشرف لمن افتتحوه ، وزراية بالصليبية وعقيدة الصلب ، وكان يمكن أن يكون هذا الكلام فى حجم أقل من هذا ، وفى عبارات دارجة وأسلوب مرسل ، لكنك تشعر أن الخطيب مجهود فى بحثه عن عبارات ملائمة ، وبحثه عن نص يقتبسه أو يستشهد به — ثم نجد مبالغة فى مدح صلاح الدين، وإطالته كان يغنى عنها بعض من العبارات المتسقة ، فى إشارة أو إيجاز .

* * *

الوصايا والمفاخرات والأجوبة

الوصـــايا

تلحق الوصايا بالخطب لأنها إرشاد وتوجيه ، وقد تشتمل على إقناع واستمالة ، وأكثر ما تكون الوصايا من شيخ لأولاده عندما يدنو أجله ، أو من حكيم لقومه أو من والدين لابنه لهما زوجت وهمت بفراق بيت والدها إلى بيت زوجها. وأكثر الوصايا فى هذه الحالة من الأم لتجربتها ، ولأن النساء أخبر بحالات النساء . ونظراً لأن الوصية من شخص مؤتمن موثوق به لا يحتاج الموصى إلى مقدمة وتمهيد لما يقول ، كما أن الأدلة التى يسوقها لتأييد رأيه تكون غالبا موجزة ، إذ يكفى مع هذه الثقة أن توجه الذهن إلى سببها . ولا داعى للإلحاح على تعميق البراهين . وأكثر الوصايا تسرد فيه صيغ الأمر سرداً متوالياً ، مع ذكر سبب موجز لاختيارها .

هذه الوصايا قديمة جداً ، وقدمها أمر واضح ، لأن كل كبير ومجرب يعلم من دونه ممن يعنيه شأنه، وهى فى الواقع لون من التربية والتعليم، لهذا كان وجودها مع وجود كل جماعة ، وكل أسرة ، وأحياناً تأخذ صورة الخطبة إذا كان صاحبها يلقيها على جمع من الناس .

ونورد بعضاً من هذه الوصايا جاهلية وإسلامية لنرى منها عادات القوم وأخلاقهم ، والصفات التى كانوا يرونها ضرورية أو هامة لديهم، والأخرى التى يتحاشونها ويحذرون منها ، ثم نرى طريقتهم فى صوغها ووجهة نظرهم فى سوقها .

وصايا جاهلية

١ ــ وصية ذى الأصبع العــدوانى

وهو حرثان بن محرث سمى ذا الأصبع لأن حية نهشت إصبعه ، دعا عند احتضاره ابنه أسيداً فألقى عليه هذه الوصية :

يابنى : إن أباك قد فنى وهو حى (١) ، وعاش حتى سئم العيش (٢) ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته (٣) فاحفظ عنى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يودوك (٤) ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك (٥) ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ (٦) ، فإن لك أجلا لا يعدوك (٧) ، وصن وجهك من مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك (٨)

---

(١) كبر وأدركه وهن كالموت .

(٢) مل الحياة لطولها .

(٣) صرت فى مثل منزلتى .

(٤) يجعلوك سيداً .

(٥) الحريم ما حرم فلا يمس . ويريد به هنا النساء .

(٦) الصريخ والاستصراخ الاستغاثة . ويقال أصرخه أى أجاب صراخه فأغاثه يقول : كن سريعاً مهتما بمن استغاث بك .

(٧) يريد : لا تكن متهيباً خائفاً من القتل . فان لك مدة معينة يوافيك فيها الموت ولا يخطئك .

(٨) السؤدد . والسودد : المجد .

٢ – وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى

خطب عمرو بن حجر جد امرئ القيس الشاعر بنت عوف بن محلم ، وهو من أشراف بنى شيبان ، وكان يقال فيه : لا حر بوادى عوف ، كناية عن شرفه وتساميه على الناس جميعاً ، وابنته هذه هى التى كانت تسمى أم إياس ، فلما كان بناؤه بها ، وهمت أن ترحل معه أوصتها أمها هذه الوصية الجامعة :

أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت (١) . وعشك الذى فيه درجت (٢) ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً (٣) واحفظى له خصالا عشراً ، يكن لك (٤) ذخراً ، أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة (٥) ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح (٦) ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة (٧) ، وتنغيص النوم مغضبة (٨) ، وأما السابعة والثامنة ، فالاحتراس بماله (٩) والإرعاء (١٠) على حشمه وعياله ، وملاك (١١) الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن

---

(١) نشأت ونبت فيه .

(٢) نموت وترعرعت . تريد الذى لها به ألفة .

(٣) عامليه معاملة بها تواضع ولين يعاملك معاملة مثلها .

(٤) تكن هذه الخصال ذخيرة لك عنده . يذكرك بها وتحفظ مكانتك فى نفسه .

(٥) تريد بالخشوع الرضا والطاعة . أى أن تقنع بما يقدمه لها . ولا تطالبه بما تشمئز منه نفسه ويثقل عليه طلبه .

(٦) تأمرها بالتزين له والطيب .

(٧) تريد أنه يثير كاللهب الذى يؤلم الجسم بإحراقه .

(٨) باعث للغضب .

(٩) المحافظة على ماله وعدم التبذير فيه .

(١٠) الرعاية والمحافظة . والحشم أتباع الرجل .

(١١) ملاك الشيء روحه وصميم حياته وبقائه . وحسن التقدير وضع الشيء فى موضعه .

التدبير (١) : وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصين (٢) له أمراً ، ولا تفشين له سراً ، فإنك إن عصيت أمره أوغرت (٣) صدره ، وإنه أفشيت سره لم تأمني غدره (٤) ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً (٥) .

٣ ــ وصية عامر بن الظرب(٦) ابنته

زوج عامر بن الظرب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تحويلها قال لأمها :

« مري ابنتك ألا تنزل مفازة (٧) إلا ومعها ماء ، فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء (٨) ، ولا تكثرن مضاجعته ، فإنه إذا مل البدن مل القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فإن الحظوة فى الموافقة (٩) » .

ولم تلبث إلا شهراً حتى عادت إليه مشجوجة . . فرد على ابن أخيه صداقه ، وخلعها ، وهى أول خلع فى العرب .

---

(١) حسن التصرف والتعنيم .

(٢) جملة خبرية أى أنك لا تخالفينه فيما يأمر به .

(٣) أغضبته .

(٤) تذهب مكانتك من نفسه . فلا يبقى على مودتك . وهذا ما أرادت بالغدر .

(٥) إذا كان مهموماً . تريد أن تشاركه فى حالاته النفسية . فتأنس نفسه إليها . وتقر محبتها فى قلبه ــ والخطبة خلاصة تجربة امرأة عاقلة . وقد جمعت بين وصايا مادية وأخرى معنوية ولا يوصى علم النفس والتربية الحديثة بأكثر من هذا.ومن جمعت هذه الخصال العشر كانت خليقة أن تنال محبة زوجها ، وكانت له نعم القرين .

(٦) هو عامر بن الظرب العدوانى ــ من المعمرين يقال إنه عمر مائتى سنة ومن حكماء العرب المشهورين . وكان يحتكم إليه ، وفيه يقول ذو الإصبع :

ومنا حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى

ومن أقواله : «الرأى نائم والهوى يقظان فمن هناك يغلب الهوى الرأى .إن العصا قرعت لذى الحلم » انظر أمثال الميدانى فى هذا المثل .

(٧) صحراء .

(٨) جمال لما ظهر من الجسم ونظافة لما استتر منه .

(٩) انظر عيون الأخبار ١٠/٧٦ وقارن الأغانى ٨/٥٧ .

٤ – وصية أكثم بن صيفي لبنيه وقومه

. . . يابني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إن في حيزومي(١) وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ، ولا مقار إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية تحمدوا مغبته :

الهوى يقظان والعقل راقد (٢) ، والشهوات مطلقة والحزم معقول ، والنفس مهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم (٣) ولن يعدم المشاور مرشداً .

والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل (٤) ، ومن سمع سمع به (٥) . ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرم (٦) . وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد (٧) أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويؤرث (٨) غيظه ، ولا يجاوز مضرته نفسه .

---

(١) وسط الصدر وما يلف عليه الحزام .

(٢) دواعي الهوى . وبواعث الشر تأتي تلقائيا ، ولكن التدبر والحكمة إنما تكون بعد تفكير ومحاولة .

(٣) الحزم الحكمة ، وهي تذهب بطول التباطؤ وبالإسراع وعدم التفكر .

(٤) مداحض : جمع مدحض ، اسم مكان من دحض بمعنى زل وسقط أو انحرف عن الصواب . يريد أن من يتمسك برأيه ولا يصغي للشورى ، يكون على حافة الخطأ معرضاً للوقوع فيـــه .

(٥) من شهر بالناس وأذاع فضائحهم .

(٦) لو تدبرنا أين تكون المحنة ما وجدناها إلا فيما يمس الكرم ، وما عدا ذلك لا يستحق أن يسمى محنة .

(٧) الأرض المستوية .

(٨) يشعله كالنـــار .

يابنى تميم : الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة(١) ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، كلم (٢) اللسان أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة (٣) ما لم تنجم من الفم ، فإذا نجمت فهى أسد محرب (٤) ، أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز (٥) ، ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب .

---

(١) عندما يتحلم الشخص على سفيه أو معتد يجد ذلك شيئاً مراً ، ولكن تجرع هذه المرارة أهون من التسرع إلى الانتقام ثم الندم بعد ذلك .

(٢) جـرح .

(٣) محبوسـة .

(٤) متوثب مستعد للوثوب ، من التحريب وهو التحريش .

(٥) هو بالزاى ، أى لا يتجاوز الحد والعدل ، وبالراء لا يظلم .

وصايا إسلامية

قدمنا أمثلة لوصايا الجاهليين فى مواقف مختلفة ، وفى العصر الإسلامى نجد وصايا كثيرة أيضاً ، ونجد الفرق واضحاً بين النوعين ، لأن وصايا الجاهلين كانت تعتمد على التجربة والفكر الشخصى بينما وصايا الإسلاميين — وهى لا تخلو من التجربة والخبرة — تعتمد على وصايا الإسلام وتعاليم الدين ، ولهذا تقتبس أحياناً من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويكسو هيا كلها روح الزهد والدعوة إلى العمل للآخرة ، وبعض هذه الوصايا مما ألقى من والد لولده أو من سابق للاحق أياً كان ، وبعضها مكاتبات جرت بين صديقين أو غير صديقين ، وإليك نماذج منها .

١ — وصية أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) لعمر بن الخطاب

عندما عهد أبو بكر بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب ، وهو فى مرض موته أوصاه وصية يبدو فيها الروح الإسلامى كأبرز ما يكون فى الوصايا . وقد جاء فيها :

. . . أوصيك بتقوى الله .

إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة ، باتباعهم الحق مع ثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة بإتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ،

وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا سمعت بهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ؛ وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم ، وأمسك عن حسناتهم ، فإذا سمعت بهم قلت أنا خير من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق . فإذا حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولن تعجزه .

٢ — من على بن أبى طالب لابنه الحسن

جاء فى نهج البلاغة وصية مطولة من الإمام على لابنه الحسن ، وقد قسمها صاحب العقد الفريد ، فاقتطع منها جزءاً جعله موجهاً إلى محمد بن الحنفية ، وحيث إن كتاب نهج البلاغة كله بمدرجة الشك ، وليس من السهل أن يميز فيه ما دس عليه مستقلا أو مدسوساً بين كلام الإمام ، فإنا نورد الوصية على ما جاء فى العقد ، لأنها لو جعلت جزءاً واحداً لكانت طويلة جداً ، ولم يكن هذا العصر مما يقبل الطول فى الخطب أو الوصايا ، على أن طول المقدمة فى أول هذه الوصية مما لا يناسب عصر الإمام أيضاً ، ولكننا لسنا فى مقام تحقيق الآثار الأدبية ، وإنما يعنينا أن نقدم للخطيب مادة خطابية فى تفكيرها وتعبيرها ، وهى رسالة مكتوبة لا نصيحة ملقاة :

(أ) إلى الحسن :

من على أمير المؤمنين . . الوالد الفانى ، المقر للزمان ، المستسلم للحدثان ، المدبر العمر ، المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من هلك ، غرض الأسقام ، ورهينة الأيام ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وأسير المنايا ، وقرين الرزايا ، وصريع الشهوات ، ونصب الآفات ، وخليفة الأموات .

أما بعد يابنى :

فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عنى ، وإقبال الآخرة إلى ، وجموح الدهر على . . . ما يرغبنى من ذكر سواى . والاهتمام بما ورائى ، غير أنه

حين تفرد بى هم نفسى دون هم الناس ، فصدقنى رأيى ، وصرفنى عن هواى ، وصرح بى محض أمرى فأفضى بى إلى جد لا يزرى به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب ، ووجدتك يابنى بعضى ، بل وجدتك كلى ، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابنى ، وحتى كأن الموت لو أتاك أتانى ، فعند ذلك عنانى من أمرك ما عنانى من أمر نفسى .

كتبت إليك هذا يابنى مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت .

فإنى موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، فإن الله تعالى يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وأى سبب يابنى أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى إن أنت أخذت به ؟

أحى قلبك بالموعظة ، ونوره بالحكمة ، وأمنه بالزهد ، وذلله بالموت ، وقوه بالغنى عن الناس ، وحذره صولة الدهر ، وتقلب الأيام والليالى ، وأعرض عليه أخبار الصالحين ، وسر فى ديارهم وآثارهم ، فانظر ما فعلوا ، وأين حلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة ، ونزلو دار الغربة ، وكأنك عن قليل يابنى قد صرت كأحدهم ، فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك . ودع القول فيما لا تكلف ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك ، وانه عن المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله ، وخض الغمرات للحق ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، واحفظ وصيتى ولا تذهب عنك صفحاً ، فلا خير فى علم لا ينفع .

واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ، أو مشقة شديدة ، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد ، مع بلاغك من الزاد ، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به فى معادك فاغتنمه ، فإن أمامك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا أخف الناس حملا . . . وإنما المحروب من حرب دينه ، والمسلوب من سلب يقينه ، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ، ولا فقر يعدل النار .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(ب) إلى محمد بن الحنفية :

. . . تفقه فى الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وكل نفسك فى أمورك كلها إلى الله عز وجل ، فإنك تكلها إلى كاف ، وأخلص المسألة لربك فان بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة له ،واعلم أن من كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار به وإن كان لا يسير ، فإن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعمارة الآخرة ، فإن قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل .

إنك لن تبلغ أملك . ولن تعدو أجلك . وإنك فى سبيل من كان قبلك ، فأكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، وإياك أن توجف بك مطايا الطمع . . وأمسك عليك لسانك ، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك . واحفظ ما فى الوعاء بشد الوكاء ، فحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

أذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب ، واعلم أن كفر النعمة لؤم وصحبة الأحمق شؤم . ومن الكرم منع الحرم . ومن حلم ساد . ومن تفهم ازداد . . .

لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر من زهد ، من ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، رأس الدين اليقين ، وتمام الإخلاص اجتناب المعاصى ، وخير المقال ما صدقته الفعال . . .

اقبل عذر من اعتذر إليك ، وأخر الشر ما استطعت فإنك إذا شئت تعجلته ، لا يكن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلته ، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان ، لا تملكن المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها ، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، وإن ذلك أدوم لحالها وأرخى لبالها .

أسأل الله أن يلهمك الشكر والرشد ويقويك على العمل بكل خير ، ويصرف عنك كل محذور برحمته — والسلام عليك ورحمة الله .

(ج) آخر وصاياه :

لما ضرب – رضى الله عنه – ثم دخل منزله اعترته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين فقال :

« أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ».
ثم دعا محمد بن الحنفية فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ، قال : بلى ، قال فإنى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيراً ، فإنه شقيقكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه .

٣ – وصية الفرافصة لابنته نائلة

وهو الفرافصة بن الأحوص بن عمرو الكلبى ، كان سعيد بن العاص – وهو وال على الكوفة من قبل عثمان بن عفان – قد تزوج هند بنت الفرافصة هذا وكان نصرانياً لم يدخل الإسلام بينما أسلم أولاده ، ولهذا كان ابنه ضب هو الذى يتولى تزويج بناته . فلما علم عثمان بزواج سعيد كتب إليه : بلغنى أنك تزوجت امرأة من كلب ، فاكتب إلى بنسبها وجمالها ؛ فكتب إليه : أما بعد ، فإن نسبها أنها بنت الفرافصة بن الأحوص ، وأما جمالها فإنها بيضاء مديدة ، فخطب عثمان أختها نائلة ، وهى التى نشرت عليه شعرها ، واتقت عنه ضربة السيف بيدها يوم الدار . وحين أرادوا حملها إلى عثمان أوصاها أبوها فقال(١) :

« يابنية إنك تقدمين على نساء قريش ، وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تغلبى على خصلتين : الكحل والماء ، تطهرى حتى يكون ريحك ريح شن أصابه المطر(٢) » .
وكانت نائلة أحظى نساء عثمان عنده ، وأرضاهم له .

---

(١) انظر عيون الأخبار ، الجزء العاشر ، ص ٧٦ . وأخبار نائلة فى مختار الأغانى ٨ / ٥٧ .
(٢) الشن : القربة الخلق . يريد أن تكون مغتسلة دائماً ، كالقربة البالية التى تنضح بالماء ، فإذا أصابها مطر كانت أكثر بللا .

٤ ـ وصية العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله

كان عمر بن الخطاب يجل عبد الله بن عباس ، ويجلسه على صغر سنه مع كبار الصحابة ، حتى شكوا مرة من ذلك . فسألهم عمر عن سورة « إذا جاء نصر الله والفتح ... » فقالوا إنها تعنى فتح مكة ، فسأل عبد الله فقال : كانت نعيا لرسول الله ﷺ . فنظر عمر إليهم وقال : هذا ما تعنى السورة ، فأصبحوا يقدرونه أيضاً ، ولهذا أراد أبوه له أن يحتفظ بمكانته لدى الخليفة ، فأوصاه هذه الوصية ، وقد قدرها عبد الله ، وما نحسبها إلا تذكرة له ، وبغير هذه الوصية ما كان يفعل شيئاً غير ما أوصى به .

قال العباس لابنه :

« يا بنى ، إنى أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحفظ عنى ثلاثاً :

لا يجربن عليك كذباً ، ولا تغتب عنده مسلماً ، ولا تفشين له سراً .
قال عبد الله : قلت : يا أبة ، كل واحدة منها خير من ألف . فقال : كل واحدة منها خير من عشرة آلاف .

٥ ـ وصية عمير بن حبيب لبنيه

عمير بن حبيب صحابى جليل ممن بايعوا تحت الشجرة ، وكان صبياً قد بلغ الحلم ، وأشار ابن حجر إلى هذه الوصية وذكر أولها ، وهى :

« إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ، ومن يحبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتى به السفيه ، يقر بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل ، لا يجد مس الأذى » .

٦ — وصية قيس بن عاصم لبنيه

هو قيس بن عاصم بن سنان المنقرى . قيل يكنى أبا على ، وقيل يكنى أيضاً أبا طلحة وأبا قبيصة ، ومن حكماء العرب ، وممن حرم الخمر فى الجاهلية . وفد على رسول الله ﷺ فى وفد تميم فأسلم ، وقال عنه رسول الله ﷺ : هذا سيد أهل الوبر(١) . وكان الأحنف بن قيس يقول : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم ، وقد سكن البصرة ومات بها . وكان له ثلاثة وثلاثون ولداً . وذكر ابن حجر كلمات من وصيته هذه ، وقال إنها نافعة ، وهى :

« يابنى . . خذوا عنى فلا أحد أصلح لكم منى . . إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم ، فسودوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكريم وجنة لعرض اللئيم ، وإياكم والمسألة فإنها أخر(٢) كسب الرجل .

وخذوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكل عرق لئيم أن تلابسوه ، فإنه إن يسركم اليوم يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ، فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبنــاء

٧ — وصية أبى طالب لوجوه قريش

أبو طالب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، كان يحميه من أعدائه ، ولكنه لم يسلم . وتدل هذه الوصية على أنه كان يؤمن بدعوته، وبأنها ستلقى

(١) البــدو .

(٢) أخر : بهمزة غير ممدودة — كشرس ونهم — بمعنى أدنى وأرذل .

نجاحاً ، وهو عندما مات دعا كبار قريش وأوصاهم هذه الوصية . وهذه تشبه الخطبة ، وقد قدم لها بما يلين قلوب القوم ويقربها لما يريد .

قال أبو طالب :

« يامعشر قريش .. أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع(١) ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به(٢) إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب(٣) ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية(٤) ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة . صلوا أرحامكم ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل(٥) ، وزيادة فى العدد . اتركوا البغى والعقوق ، ففيها هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى(٦) ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام(٧) .

وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن(٨) . وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب

---

(١) الكريم المعطاء .

(٢) بهذا الذى ذكرت من إحراز الشرف والمآثر .

(٣) بفتح الهمزة : أى يؤلبون عليكم ويحرضون .

(٤) بوزن فعيلة كرمية : يعنى الكعبة المبنية .

(٥) سعة وامتدادا ، بسبب ما ينشأ من التعاون والبركة فى الأيام .

(٦) المستغيث المستنجد .

(٧) الخاص هو الذى صدقته وأديته الأمانة والعام البعيد يعم ذلك فيحترم الأمين الصادق ويقدره .

(٨) الشنآن : البغض والكراهة . يريد أنهم صدقوا بقلوبهم ، ولم يقروا بلسانهم خوف إثارة العداوة بين الذين عارضوه .

وأهل الأطراف المستضعفين(١) من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت(٢)،وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم(٣) إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته(٤) العرب ودادها ، وأصفت له بلادها(٥) ، وأعطته قيادها .

يا معشر قريش . . كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، وفى أجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز(٦) ، ولدافعت عنه الدواهى » .

٨ — وصية هند وأبى سفيان ولدهما معاوية

ولى عمر بن الخطاب معاوية مكة ، فلما قدم إليها دخل على أمه فقالت له :

« يا بنى إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك(٧) هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كرهته » .

ثم دخل على أبيه أبى سفيان فقال له :

« يابنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا فصرنا أتباعاً ، وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن رأيهم ، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه(٨) ، ولو قد بلغته لتنفست فيه(٩) ! » .

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ .

---

(١) الذين ليسوا بمكة ولا من قريش .

(٢) جمع غمرة ، معظم الماء ومعظم الأمر وشدته . خاضوا شدائد الحروب .

(٣) أعظمهم عليه : أشد العرب مناوأة له يصير ضعيفاً أمامه محتاجاً لرحمته .

(٤) أخلصت له الود .

(٥) أخلصتها لحكمه وتخلت عن رياستها له .

(٦) تحريك البلايا والحروب وإثارة الاضطرابات ضده .

(٧) ولاك عملا لــه .

(٨) يريد أن له مستقبلا لا ينبغى أن يقطعه بمخالفة الخليفة .

(٩) يريد : لو بلغت المنصب الذى ينتظرك لجاز لك أن تتبع رأيك .

المفاخرة والمنافرة

المفاخرة — مفاعلة من فاخر فلان فلاناً ، أى باراه فى الفخر بأمر ما ، وكل من المتفاخرين يذكر من مزاياه وصفاته ما يفوق به صاحبه . والمنافرة كذلك أيضاً ، ولكنها تقوم على رهان بين الشخصين ، كأن يدفع المغلوب للغالب مالا ، أو يخرج من الحى ، أو نحو ذلك . ثم يذهبان إلى حكم من الناس يرتضيانه ، فإذا حكم لأحدهما على الآخر سقط المحكوم عليه ، وقد تسقط القبيلة كلها إذا كانت المنافرة بين قبيلتين ، وقد ظلت المفاخرات جارية حتى جاء الإسلام فنهى عنها وسوى بين الناس ، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، وهو عمل خالص لله تعالى وحده ، وهو مطلع عليه ويعلمه ، فلا يجوز التباهى به ، والتباهى به يفسده ويذهب بثوابه ، ولكن للرجل المسلم أن يباهى الكفار بمفاخر الإسلام ومزاياه ، فهذا لا يرجع إلى شخصه ، وقد يكتسب الإسلام به عزة ونصراً ، وقد نادى وفد تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته ، ففاخروه بشاعر منهم وخطيب ، فرد عليهم ثابت بن قيس بخطبة(١) ، وحسان بن ثابت بقصيدة وكلا الرجلين اعتز بالإسلام ، فقال التميميون : إن هذا الرجل لمؤتى له(٢) ، خطيبه أخطب ، وشاعره أشعر ، ثم كان ذلك سبباً فى إسلامهم ، وقد

---

(١) هو ثابت بن قيس الأنصارى الخزرجى — خطيب الأنصار — خطب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مقدمه المدينة . وقال : نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا . وبشره رسول الله بالجنة . وقتل يوم اليمامة فأخذ رجل درعه . فرأى أحد المسلمين ثابتاً فى منامه يخبره بمكان درعه . وقال أخبروا أبا بكر أن على لفلان ديناً قدره كذا . وعبدى فلان عتيق . فلما وجدوا الدرع بالمكان الذى وصفه ، نفذوا وصيته . الإصابة : ٩٠٤ .

(٢) ميسر لــه .

ماتت نعرة العصبية والتفاخر بالأحساب والأنساب عصر النبوة والخلافة الراشدة . فلما جاء العصر الأموى انبعثت من جديد ، وحميت بين الشعراء وخصوصاً بين جرير من جانب والفرزدق والأخطل من الجانب الآخر ، وانضم لكل طرف مؤيدون حتى ليقول جرير إنه هاجى ثمانين شاعراً ، ولكن لم يتنافروا إلى حكم ، لأن جريراً كان يعلم خسة نسبه ووضاعة بيته .

والمنافرة تتصل بالخطابة من جانبين ، جانب الحوار الذى يقع من المتنافسين ، وهو لون من الخطابة ، وجانب الخطبة التى يلقيها الحكم ليرجح أحد الجانبين أو يسوى بينهما .

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى حدثت بين هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ الثانى ، وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهى إلى جانب شهرتها ذات أثر فى العلاقات بين هذين الجذمين ، وفى التاريخ الإسلامى .

وسبب هذه المنافرة ما كان من تنافس بينهما على السيادة والشهرة ، وكان هاشم قد ساد قومه بعد أبيه ، وأصبح ذا شأن بين العرب ، فحسده أمية وأراد أن يصنع صنيعه فى المكارم فعجز وعيرته قريش ، فدعاه للمنافرة ، فأبى هاشم لسنه ومكانته ، ولكن قريشاً لم تدعه ، فنافره على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، وجعلا الحاكم بينهما الكاهن الخزاعى ، وكان بعسفان فخرجا إليه مع كل قومه ، فلما نزلوا عليه ، وقبل أن يخبروه ، خبرهم خطبهم فقال :

« والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » .

فرجع أمية إلى مكة منكسراً ، ونحر هاشم الإبل بمكة ، وأطعم الناس ، واغترب أمية إلى الشام عشر سنين ، وقد كون له هناك صحبة ومعارف ،

والمؤرخون يربطون بين إقامته هذه وبين ما كان لبنى أمية من قدم فى الشام بعد ذلك .

وكانت هذه أول عداوة سافرة بين بنى هاشم وبنى أمية ، ثم توارثها بنوهما بعد ذلك(١) .

وتجددت هذه المنافرة فى صورة أخرى بين عبد المطلب بن هاشم وبين حرب بن أمية .

وسبب هذه المنافرة أنه كان لعبد المطلب جار يهودى يدعى أذينة ، وكان تاجراً ميسوراً ذا نشاط تجارى شأن اليهود فى كل زمان ومكان ، وقد حقد عليه حرب ، فأراد قتله خفية كيلا يغضب عبد المطلب ، وكان عبد المطلب وحرب نديمين ، فأغرى حرب فتياناً من قريش ليقتلوه ، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار ، وصخر بن عمرو التيمى جد أبى بكر الصديق ، غيلة ، ولم يعرف عبد المطلب من قتل جاره ، وظل يسأل مدة حتى عرف القاتلين ، وإذا هما قد استجارا بحرب وأخفاهما ، ولما طلبهما عبد المطلب لم يقبل حرب أن يظهرهما ، ولم يتحمل تقريع عبد المطلب ولومه ، فتغالظا فى القول ، واشتد بينهما النزاع حتى أدى إلى المنافرة فتنافرا إلى النجاشى ، فلم يشأ أن يحكم بينهما ، فتحاكما إلى نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، فنفر عبد المطلب على حرب ، وحكم أن يدفع مائة ناقة ، وأن يغترب عن مكة عشرة أعوام ، ويقال إنه حكم بأربعمائة من الإبل فعف عنها عبد المطلب ، ولكن من الثابت أنه أخذ منه مائة ناقة

---

(١) كان بنو عبد مناف، هاشم، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، من ذوى الشهرة البارزة بين العرب ، وكانوا يسمون أقداح النضار ، ويسمون المجبرين لكرمهم ، وكان هاشم أكثر منهم شهرة ، وكان الناس يتولون لا يعرف بنو أب تباينوا فى محال موتهم مثلهم ، فقد مات هاشم بغزة ، ومات عبد شمس بمكة وقبره باجياد . ومات نوفل بالعراق ، ومات المطلب باليمن .

دفعها دية للقتيل . ومن ذلك الحادث انقطعت المنادمة بينهما ، ونادم عبد المطلب بدلا من حرب عبد الله بن جدعان التيمى .

وجاء فى خطبة نفيل التى نفر بها عبد المطلب(١) :

« ... يا أبا عمرو . . أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل صفداً(٢) ، وأطول منك مذوداً(٣) ؟ . وإنى لأقول هذا ، وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت فى العرب(٤) ، جد المريرة(٥) ، جليل العشيرة(٦) ، ولكنك نافرت منفراً » .

وغضب حرب لهذا الحكم ، وقال لنفيل : إن من انتكاس الزمان أن جعلت حكماً .

وقد عف عبد المطلب عن أخذ الإبل عدا دية القتيل ، واغترب حرب فأقام بالشام ، وكان ذلك مما ربط بين الأمويين والشاميين .

* * *

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى كانت بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وقد هاجها سبب هين جداً ، ولكنها نمت حتى شملت القبيلتين ، ودخل فيها من الشعراء لبيد بن ربيعة ، وأعشى قيس .

روى صاحب الأغانى أن علقمة كان قاعداً ذات يوم يبول ، فبصر به عامر فقال : لم أر كاليوم عورة رجل أقبح . فقال علقمة : أما والله

---

(١) نفره على خصمه : قضى له بالغلبة . ومن هذه الصفات التى ذكرها نفيل نجد أن الصفات الجسدية مما كان ينفر به إلى جانب الصفات الخلقية .

(٢) عطـاء .

(٣) المذود : اللسان ، ومعتلف الدابة ، فالجملة إما بمعنى أطول منك لساناً ، أى أفصح وأبلغ ، أو أكثر منك إبلا ، أى أثرى منك .

(٤) مسموع الكلمـة .

(٥) المريرة : عزة النفس والعزيمة ، فهو وصف بالقوة والاعتزاز بالنفس .

(٦) الأهـل والمخالطون .

لا تثب على جاراتها ولا تنازل كناتها(١) . فتطاول الكلام بينهما حتى قال علقمة : إن شئت نافرتك . فقال : قد شئت . والله لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً .

فقال علقمة : لأنا خير منك ليلا ونهاراً .

فقال عامر : لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

فقال علقمة : على ماذا تنافرنى يا عامر ؟ .

فقال عامر : أنافرك على أنى أنحر منك للقاح(٢) ، وخير منك فى الصياح(٣) ، وأطعم منك فى السنة الشياح(٤) .

فقال علقمة : أنافرك أنى خير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأسرح(٥) منك ذكراً .

فقال عامر : أنافرك على أنى أنشر منك أمة ، وأطول منك قمة (٦) ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : والله إنى أعز منك ، إنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لوفى وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى يا عامر ؟ .

فقال عامر : عير وتيس ، وتيس وعنز فذهبت مثلا .

فتنافرا على مائة من الإبل إلى مائة يعطاها الحكم ، أيهما نفر على صاحبه يخرجها . ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل من بنى الوحيد ،

---

(١) الكنة زوجة الابن والأخ وهو يعرض بصاحبه .
(٢) جمع لقحة ، واللقاح الإبل .
(٣) عند الغارة على العدو .
(٤) القحط المجدبة .
(٥) أبعد : ويروى أشرف .
(٦) أعلى منك مقاماً .

وكانت العرب تتحاكم إلى قريش ، فذهبا إلى أبى سفيان بن حرب ، ثم إلى أبى جهل ، فلم يحكم واحد منهما بينهما ، فذهبا إلى عيينة بن حصن ورجال آخرين حتى انتهيا إلى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى ، فاستوثق أولا أن يقبلا حكمه ، وكانا يسوقان الإبل معهما، فأمرهما أن يتمهلا عاماً حتى يعمل رأيه ، فانصرفا ثم رجعا إليه فى الموعد المحدد ، فأقاموا أياماً لديه ، ثم استدعى عامراً سراً ، فقال له : قد كنت أرى لك رأياً وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك . فما الذى أنت به خير منه ، فأشفق عامر ، ورجاه أن يسوى بينهما ، ثم استدعى علقمة ففعل معه مثل ذلك ، ثم جمع الناس فخطبهم قائلا :

« يابنى جعفر ، قد تحاكمتما عندى ، وأنتما كركبتى البعير الأدرم(١) تقعان إلى الأرض معاً ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم » فرضيا بحكمه .

ومما يذكر أن هرماً أدرك الإسلام ، وأدرك خلافة عمر ، وأن عمر سأله مرة : أى الرجلين كنت مفضلا لو فضلت ؟ فأجاب : لو قلت ذلك لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجر . فقال عمر : نعم مستودع السر ومسند الأمر إليه أنت(٢) ! .

---

(١) الكثير اللحم حتى لا تتميز عظامه ، وقد قال لهم من قبل أبو سفيان ذلك أيضاً .

(٢) يحسن أن نعرف بهؤلاء الثلاثة : علقمة ، وعامر ، وهرم .

أما علقمة فإنه أدرك الإسلام ، وأسلم ثم ارتد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دخل الإسلام ثانياً بعد حروب الردة ، ومن مآثره فى الجاهلية أن رد على أبى سفيان حين عاب رسول الله أمام هرقل ، وكان الأعشى هجاه وفضل عليه عامراً بقصيدة طويلة فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها ، وهى التى فيها :

علقم ما أنت إلى عامر ... الناقض الأوتار والواتر

وأما عامر بن الطفيل فكان قد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخاً ، فقال أبايعك على أن لك الوبر ولى المدر ، وكان معه أربد بن ربيعة ، ووقف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتله ، وقصته معروفة ، ومات كافراً ، إذ أصابته غدة كغدة البعير ومات فى بيت امرأة سلولية .

وأما هرم فهو ابن قطبة بن سنان الفزارى — وهو غير هرم بن سنان صاحب زهير ، أسلم وكان حسن الإسلام سيداً فى قومه .

المواعظ

المواعظ باب لصيق بالخطب ، لأن الموعظة هى الهدف الأول للخطيب الدينى ، وهى المادة التى تقوم عليها خطبته ، أو هى على الأقل أهم ما فيها من المواد ، والخطيب السياسى أو القضائى أو الحربى يجد من الموعظة ، ومن ضرب الأمثال ما يستهوى به قلوب سامعيه ، ويرد جماح معارضيه ، ويجمع به الأهواء الشتيتة والآراء المتضاربة ، وهكذا نجد الموعظة ضرورية للخطيب أياً كان نوعه ، وكثيراً ما استعملها غير الخطباء فى مجالس الصلح والتوفيق بين الناس ، وكثيراً ما استعملها الزهاد والنساك ودعاة الإصلاح أمام الخلفاء ، فألانوا قلوبهم واكتسبوا بها العفو منهم ، وحولوا آراءهم واتجاهاتهم من جانب إلى جانب ، وكثيراً أيضاً — ما كانت الموعظة سبباً فى حياة أشخاص كانوا بصدد أن يلاقوا حتفهم وتذهب السيوف برقابهم ، وهكذا . . وهكذا .

ولكى يجيد الخطيب الموعظة ، عليه أن يتشبع بمحفوظات ودراسة لما قال الوعاظ والزهاد فى المقامات المختلفة ، وليست مهمته أن يعيد ما قال السابقون ، ولكن هذه المأثورات تهيىء له الاجترار منها ، وتمكنه من الاستعانة بها ، أو من محاكاتها وتوليد معان تناسب الموقف الذى هو فيه، فهى سبيل من سبل الدربة ، ووسيلة من وسائل تكوين الخطبة والنهوض بها .

وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم ، تجده جاء بعديد من المواعظ ، وقص كثيراً من أحوال الأمم التى ذهبت جزاء عصيانها ، والأخرى التى أطاعت واعتصمت بتعاليم دينه ، فكتب لها نصراً فى الأولين ، وجعل لها

لسان صدق فى الآخرين(١) ، والسنة النبوية تجرى مجرى القرآن الكريم فى هذا ، بل وتزيد عليه فى ذلك زيادات كثيرة ، ثم تروى لنا كتب التاريخ والأدب أمثلة من كلام الحكماء ومواقف الوعاظ والزهاد من أمم قديمة كثيرة ، ويوجد فى كتبنا العربية مذخور من حكم الهند والصين والفرس ، ومن كلام موسى عليه السلام ، وأنبياء بنى إسرائيل ، وكلام عيسى وحوارييه وألوان مختلفة من العظات وزواجر النفس عن الحرام ، وتوجيهها إلى الله تعالى ، ونجد هذه المواقف فى عصور الحكم الإسلامى المختلفة ، ونجدها متشابهة لا تختلف إلا باختلاف المقام الذى تقال فيه ، أمام العامة غيرها أمام الولاة والخلفاء ، إذ يختلف حينئذ موضوعها ، ففى أكثر مواقفها عند الحكام تدعو إلى العدل وتحذر من الظلم ، وتذكر بمواقف رسول الله ﷺ حاكماً وقائداً ،وقد تكون كما تكون أمام العامة لمجرد الزجر والتذكير بالحياة الآخرة ، والدفع إلى الإكثار من العبادة والأعمال الصالحة .

وهناك رجال اشتهروا بهذه العظات وتناقل الناس كلامهم ، كما اشتهروا بشدة الورع ، والتنزه عن الدنايا ، والعزوف عن متع الدنيا ، فكانوا قدوة حسنة بسلوكهم وسيرهم ، كما كانت مواعظهم بليغة ذات تأثير على النفوس ، وتناقل الناس سيرهم وأحاديثهم على مر العصور ، وإذا استثنينا مقام رسول الله ﷺ الذى لا يجاريه فيه أحد ، وجدنا للخلفاء الراشدين مواقف ومقامات احتذت تصرفات رسول الله ﷺ وحافظت جهدها على محاكاته واتباعه ، ولا يغيب عنا موقف أبى بكر يوم الردة أو موقف عمر يوم المجاعة ، وتجهيز عثمان غزوة تبوك ، وخطب على العديدة وسنياته .

وبعد عصر الخلفاء وجد من غير الحكام فى كل عصر رجال اشتهروا بالزهد والورع ، وظلت لهم أقوال وأعمال ترد الناس عن المعصية وتدفعهم

---

(١) جعل لهم ذكراً حسناً .

إلى صالح الأعمال ، ولا يزال الناس يجدون فى عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ، وابن سيرين ، والإمام أحمد بن حنبل والكثيرين من أمثالهم مثلا عليا ومبادىء سامية . وفى ذكر هؤلاء واستعادة مواقفهم النبيلة وانتصارهم للحق وتحملهم الأذى فى سبيله ، ما يستريح الناس لسماعه ، وما يساعدهم على كبح غرائزهم الجامحة ، ويطفئ نزعات الشر فى نفوسهم ، ولا يستغنى الواعظ عن معرفة هؤلاء ودرس حياتهم وأقوالهم ليكون له من ذلك مدد فى خطابه ، وحسن استشهاد على ما يوجهه للناس من تربية وتعليم .

عظات العبـــاد والنساك

كان للعباد والنساك مواعظ وزواجر كثيرة ، بعضها يلقى فى المساجد على نحو ما كان يفعل القصاص منذ العهد الأموى ، وعلى نحو ما كانت تأتى مواعظهم ممتزجة بدروس التفسير القرآنى وشرح الأحاديث فى حلقات المساجد من مثل الحسن البصرى ، أو نصائح تقدم للخلفاء كما فعل أبو حازم مع سليمان بن عبد الملك . فقد ظل هذا التيار بكل فروعه بل زاد ونما كثيراً . وكانت زيادته ونموه فى هذا العهد رد فعل لما فشا فى الدولة من مجون ، وتكشف وشاع بين الأثرياء وخصوصاً الخلفاء والقواد من ترف وانغماس فى الملذات . فقد كانت قصور هؤلاء تتمتع بنعيم طائل من فراش وجوار ومغنين ومغنيات . كما شاع الشراب ، وكثر الشعر الماجن الذى يتحدث عن كل هذه المظاهر ، وعن مظاهر الجوارى وزينتهن الفاتنة وما يستهوين به قلوب الرجال ، وهكذا نجد طائفة خاصة قد انغمست فى النعيم والترف وملذات الجسد ، بينما كانت هناك طوائف كثيرة تعانى الحرمان والذلة ، وترمق ما يتمتع به الآخرون بكثير من الحقد والغيظ ، و إذ لم يجدوا سبيلا إلى الانتقام أو الحصول على ما حرموا منه لجأوا إلى العبادة والزهد ، ووجدوا فى هذا الاتجاه متعة معنوية دفعت بهم إلى ازدراء هذا النعيم الزائل

ومتعته الموقوتة ، وكان الفرق واسعاً بين العامة السذج الذين ألجأهم الحرمان والظلم إلى الزهد والعبادة ، وبين المثقفين الذين عزفوا عن متع الحياة ، وربأوا بأنفسهم أن تنسيهم العاجلة عن الآخرة ، ويشغلهم نعيم الدنيا الزائل الموقوت عن نعيم باق لا يزول ، ورأوا أن كل هذه المظاهر لا تستحق ولا تستأهل قطرة من نعيم الآخرة فضلا عن أن نعيم الدنيا يثقل أصحابه بالأوزار ويقفهم يوم القيامة أمام حساب شديد ، لهذا آثروا السلامة وحثوا الناس عليها ، ووجدوا لهم مستمعين ومحبين ، ووجد مستمعوهم منهم ما يبرد غيظهم ، ويشفى نفوسهم من هؤلاء المترفين ، بل ربما وجدوا فيه حظاً من التعويض لهم والانتقام من خصومهم جميعاً ، وكان الحكام يجدون فى وعظ هؤلاء صمام أمن ينفس عن الرغبات المكبوتة فى نفوس الشعب ، وكان الخلفاء كثيراً ما يستدعون هؤلاء الوعاظ الزهاد ليعظوهم ، ولكنهم فى أحيان أخرى كانوا يكرهونهم لما فى وعظهم من تحريض الشعب عليهم ، ولأن منهم من كان يرى أن كل شىء يتصل بالحكومة حرام ، حتى وظائفها وقبول منحها . وقد رفض ذو النون المصرى الصوفى الشهير أن يأكل من طعام العباسيين ، فكان أخوه يعمل ويشترى له من كسبه طعاماً . وكان عبد الله بن المبارك عالم الحديث المعروف ينهى عن تولى وظيفة القضاء، ويجاريه فى هذا كثيرون .

ورفض الإمام أحمد بن حنبل أن يأكل خبزاً خبزته زوجه فى بيت ابنه لأنه قبل وظيفة القضاء .

وهكذا بدأ نوع من التشدد فى المعاملات والعبادات ، وكان لهؤلاء العباد مواقف خطابية أو قريبة من الخطابية استفاد منها معاصروهم والذين جاءوا بعدهم ، وأروع ما فيها جرأتهم على مجابهة الحكام بأخطائهم ، ثم ما يبدو فى كلامهم من حرارة الإخلاص وصدق النية ، وكانوا إلى جانب ذلك ذوى مقدرة على صوغ الكلام فى عبارة وجيزة مؤثرة . وقد سبق كثير من هذا مما وجه إلى معاوية بن أبى سفيان ، وكان يمتاز عن كل أولئك بأنه يتقبل عظات الواعظين وهجومهم عليه فى حلم وأناة ، وقد رأينا فيما

سبق ضجر سليمان بن عبد الملك من أعرابى عاب بعض تصرفاته ، أما العباسيون فلعل أبا جعفر المنصور كان أفسحهم صدراً لذلك ، بل كان يطلب العلماء والنساك ليعظوه ، وكان يبكى من عظاتهم . وأبو المنصور كان عالماً دارساً للسنة ، حتى إنه قال للإمام مالك أنه لم يبق فى الناس من هو أعرف بالسنة منى ومنك . وقد شغلتنى شئون الناس . فاجمع لهم الحديث وأوطئه لهم . فجمع مالك لذلك كتاب الموطأ ، وهو بسبب هذه الثقافة كان يستريح لكلام الوعاظ . أما الرشيد فقد كره أن يسمع غلظة من واعظ جاءه ، وقال : أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها . فقال الرشيد : كلا ، إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر منى . فقال لنبيه موسى إذ أرسله إلى فرعون : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » . وكان المأمون يستمع لعظات الزهاد أيضاً .

وليس كل كلام للزهاد تظهر فيه الجرأة ، بل تجد فيه أحياناً شيئاً من المداهنة والترضى مما يدل على تهيب الواعظ وتخوفه . وانظر مقالة شبيب ابن شيبة للمهدى إذ يقول له :

« إن الله إذ قسم الأقسام فى الدنيا جعل لك أسناها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك فى الآخرة إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم ترد » .

تجد الموعظة كلها وصية بتقوى الله ، وبقية الحديث ثناء عليه ، وشتان بين هذا الموقف ومواقف الوعاظ الآخرين أمام الحكام .

مجالس القصص والوعظ

هذا القسم فرع من الخطب الدينية ، والقاص واعظ يفسر آيات القرآن الكريم والحديث الشريف ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولكنه فى كل ذلك يذكر أخبار الأولين من الأمم والسابقين من الأنبياء ، وعدت هذه المجالس من الخطب الدينية لأنها كانت تلقى على جمع من الناس ، وكانت غالباً فى المسجد ، وربما ألقيت فى مجالس الخلفاء فى قصورهم ، وكان القاضى يلقيها غالباً وهو جالس لطولها .

ومجالس القصص وذكر السابقين موجودة منذ العصر الجاهلى ، وكانت موجودة بصورة ما فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، والذى جد فى عهد بنى أمية هو نشاطها واعتماد الحكومة عليها ، وكان معاوية نفسه يقص على الناس ويستمع للقصاص .

والقصاص من الخطباء ، وقد أفرد الجاحظ لمشهوريهم فصلا فى كتابه « البيان والتبيين » ذكر فيه أسماءهم وشيئاً من أعمالهم ، وقال إن جعفر بن الحسن أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة ، وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة(١) .وكان مسلم بن جندب يقص فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وسمى قاص مسجد النبى ، وهو هذلى قارىء كان إمام أهل المدينة وقاضيهم ، وكان الناس يحبون قراءته ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فيه : من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب ، وهو معلم عمر بن عبد العزيز ، وكان يقضى بالمدينة ولا يأخذ على قضائه أجرا (٢)

---

(١) هو جعفر بن الحسن البصرى ، وكان لأبيه حلقة قبله ولكنها لم تكن خاصة بالوعظ والقصص .

(٢) توفى سنة ١٠٦هـ . وتوفى الحسن سنة ١١٠هـ .

ومن ذوى الشهرة الواسعة فى هذه الطبقة موسى بن سيار الأسوارى ، سمى بذلك نسبة إلى نهر الأساورة بالبصرة . كان قاضياً يحسن القصص ، ومفسراً يمزج تفسيره بالقصص . وقارئاً تهز قراءته قلوب سامعيه . قالوا : لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى . فهم أربعة يكفى أن يكون يونس النحوى بينهم ، وكان موسى يجيد الفارسية إجادته العربية ، وله فيهما فصاحة وبلاغة تعبير ، وكان يجلس فى مجلسه، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا تدرى بأى لسان هو أبين . قال الجاحظ : واللغتان إذا ألقيتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا .

وجلس للقصص فى مسجد موسى ومجلسه بعد موته قاض آخر ذو شهرة هو أبو على الأسوارى ، وهو وموسى كانا من ذوى الميول القدرية ، وأبو على هو عمرو بن قائد أخذ عن عمرو بن عبيد الإمام المعتزلى المعروف ، وقد تكون النزعة القدرية سرت إليه منه ، وله معه مناظرات ، وقد ظل يقص فى مسجد موسى ستاً وثلاثين سنة ، ولم يتم القرآن تفسيراً حتى مات . وكان ربما فسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع ، وكان حافظاً للسير ووجوه التأويلات ، وكان يحفظ أحاديث كثيرة يلحقها بتفسيره وقصصه ، وكان فصيح العبارة ، جيد اللغة . وكان يونس بن حبيب النحوى يسمع منه كلام العرب ويحتج به .

ونذكر من مشهورى القصاص الذين أوردهم الجاحظ : أبا بشر صالحاً المرى ، وهو — كصاحبيه السابقين ، وكالحسن البصرى — من الموالى ، وهو من معروفى الزهاد ، ومشهورى العباد ، ورواة الحديث البلغاء . واشتغل أيضاً بالقضاء ، وكان صحيح الكلام ، حسن التلاوة للقرآن الكريم ،

وكانت قصصه ومواعظه تمس قلوب السامعين . سمعه سفيان بن حبيب فقال : هذا ليس قاصاً ، هذا نذير ، لأنه رأى بياناً لم يحتسبه ، ومذهباً لم يكن يظنه .

هؤلاء قصاص من ذوى الشهرة الذين ذكرهم الجاحظ ، وهناك غيرهم كثيرون . والقصاص لم يكونوا حجة ولا موضع ثقة تامة فى كل ما يذكرون ، فقد يتزيدون فى الأخبار ، وقد يذكرون أحاديث ضعيفة ، وقد يضعون أحاديث . وقصص الأنبياء التى يذكرونها مستقاة من مصادر يهودية أو نصرانية ، وقد كان وهب بن منبه(١) ، وكعب الأحبار(٢) ، من مصادر هذه الأخبار ، وظهر هذا النوع منذ عهد رسول الله ، ﷺ وقد قال لأصحابه : (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) . وكان ذوو العلم لا يميلون إلى سماع أكثرهم ، وقد كان سفيان بن حبيب الذى ذكرناه ، قد فر إلى البصرة فتوارى عند مرحوم بن عبد العزيز العطار ، فقال له : هل لك أن تأتى قاصاً عندنا ههنا فتتفرج(٣) بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه ؟ فأتاه على تكره ، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شـــأنه(٤) .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان القصص شائعاً ، وكان لوناً من ألوان الوعظ ، وأشهر القصاصين على الإطلاق هو عبيد بن شربة ، وهو شخصية تحيطها الأساطير حتى اسمه لم يتفق عليه ، وهو من عرب الجنوب استدعاه

---

(١) هو أبو عبد الله صاحب الأخبار والقصص . كان يقص أخبار الأوائل وقيام الدنيا وأخبار الأنبياء ، كان يقول : قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، اطلع صاحب الوفيات على تصنيف بعنوان الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم ، توفى سنة ١١٠ بصنعاء .هـ

(٢) يسمى كعباً الربانى من يهود اليمن أيضاً ، لم يسلم إلا بعد رسول الله . وعمل لدى معاوية حين كان والياً على الشام من قبل عمر ، وتوفى فى خلافة معاوية بحمص .

(٣) تبعد عنك السأم وتصرفه .

(٤) البيـــان والتبين ٣٦٩/١ .

معاوية إلى دمشق أو هو وفد على معاوية . وكان يروى له أخبار ملوك العرب الأولين ، وأمر معاوية أن يكتب عنه ما يقول وينسب إليه . وقد عاش حتى عهد عبد الملك بن مروان ، وله كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين ، وكان يحدث أخبار العجم والعرب اليمنيين القدامى خاصة وحدث عن قوم أغرقوا فى القدم مثل الكسير الجرهمى وعبدود الجرهمى ، وتنسب إليه أقوال حكيمة وآراء صائبة ، ولكن يبدو أنها مصنوعة أضيفت إليه . ونحن نميل إلى أنه شخصية حقيقية وأنه كان قاصاً وأن معاوية رأى فى حديثه وقصصه ما يشغل الناس فأكرم مثواه لديه ، ثم أضاف الناس إليه بعد ذلك أخباره التى بولغ فيها ، ولا نظن أنه ترك كتباً ، وإلا لدون الناس بعده أحداث التاريخ التى هى لديهم أهم مما ذكر .

وعبيد ليس قاصاً واعظاً من نوع القصاص الذين ذكرنا ، وإنما كانت تأتى العظات فى كلامه عرضاً ، وخلال ما يسأل عنه أو يسرده من أعمال السابقين أو يصوغه حكما . وعمله الأول كان قص التاريخ .

وهؤلاء الثلاثة ذوو آثار ضخمة فى أخبار العرب ، والقاصان اليهوديان أدخلا على التفسير الإسلامى ألواناً كثيرة من القصص الإسرائيلى ، وإليهما يرجع ما حشيت به كتب التفسير والحديث والمغازى ، وربما أضاف إليهما الرواة ما ليس من كلامهما .

والقصص والأقاصيص ذات صلة بالخطب ، من حيث أنها كلام يلقى على الجمهور فى عبارات مؤثرة ، وهى ليست خطباً لفقدها عنصر الإقناع ، والاستمالة التى تأتى فيها عرضاً وبطريق الإيحاء ، والخطيب كثيراً ما يذكر قصة أو حادثاً يلائم موضوع خطبته للتأثير على سامعيه .

وعاظ أمام الحكام

يتصل بهذا الباب مجابهة الوعاظ والزهاد حكام المسلمين خلفاء وولاة بأخطائهم ، وربما طلب بعضهم أحد الوعاظ الزهاد ليعظه ، وكان هؤلاء

الوعاظ فى كلتا الحالتين على غاية من الجرأة ، مما يدل على إخلاصهم لدعوتهم واستعدادهم للتضحية فى سبيلها ، ولكن فى أغلب المواقف كان هؤلاء الحكام يحلمون ويتقبلون ما يوجه إليهم من عظات ، وكان فى حلم الحاكم وتقبله هذه العظات والزواجر على قسوتها وعنفها تثبيت لهم فى نفوس الرعية ، وإعلان بأنهم يجلون رجال الدين ، ويرغبون فى سماع التوجيه والهداية . وقد دخل سفيان الثورى على الخليفة المهدى العباسى ، فسلم عليه تسليم العامة ، ثم أغلظ له القول ، فقال الربيع وزير المهدى : إيذن لى بأن أضرب عنقه . فقال المهدى : اسكت ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم ! .

ومن هذه المواقف :

١ — دخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك فقال : إنى مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحت إن قبلته .

قال : هات يا أعرابى .

قال : إنى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن من موعظتك ، تأدية لحق الله تعالى وحق إمامتك ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم سلم الدنيا حرب الآخرة ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لا يألونك خبالا والأمانة تضييعاً ، والأمة عسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صفقة وأعظمهم غبناً ، من باع آخرته بدنيا غيره .

قال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك .

قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولكن لك لا عليك .

٢ - قام صالح بن عبد الجليل ، وهو الواعظ الزاهد الجرىء بين يدى الخليفة المهدى العباسى فقال له :

إنه لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم(١) ، وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص(٢) ، وقد جاء فى الأثر :من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم فأدبر عنه ، فاقبل يا أمير المؤمنين من أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء ، فإنما هو تنبيه من غفلة ، وتذكير من سهو ، وقد وطن الله نبيه على قبولهما ، فقال تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم » .

٣ - حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة استدعى أبا حازم الأعرج ، ثم قال له : تكلم يا أبا حازم .

قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : فى المخرج من هذا الأمر .

قال : يسير إن فعلته .

قال : وما ذاك ؟ .

قال :

- لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا فى أهلها .

- ومن يقوى على ذلك ؟ .

---

(١) يريد أن غيره من الوعاظ صعب عليهم أن يقابلوه ، فحمل هو واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نيابة عنهم ، وهى رسالة فى أعناقهم بوصفهم مكلفين ببلاغ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) إحقاق الحق وإظهار الباطل ، والتمحيص التنقية والتصفية .

– من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك ؟
– عظني يا أبا حازم .
– اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك .
– مالك لا تأتينا يا أبا حازم ؟ .
– وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتنتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له(١) ، وليس عندي ما أخافك عليـــه(٢) .
– فارفع إلينـا حاجتك .
– قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعني منها رضيت .

٤ ـ الأوزاعي يعظ المنصور.

دخل الأوزاعي على المنصور فقال له : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر وإلا فهي حجةمن الله عليه ليزداد إثماً ويزداد الله عليه غضباً .

يا أمير المؤمنين : إنك تحملت أمانة هذه الأمة ، وقد عرضت على السموات والأرض [والجبال] فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس في تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فما ظنك بالقول والعمل ؟ . أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره ، فقد قال ﷺ : يا صفية

(١) ليس عندك شيء أريده فأحضر إليك راجياً أن أناله منك .
(٢) ليس لدي شيء أخاف أن تأخذه ، فأحضر إليك راجياً ألا تأخذه .

عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهبا أنفسكما من الله(١) ، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً . وسأل جدك العباس إمارة من النبى ﷺ فقال : أى عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها ، [وذلك] نظراً(٢) لعمه وشفقة عليه من أن يلى فيحيد عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعاً ولا عنه دفعاً . وقال رسول الله ﷺ : « ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » . وحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالحق فيهم قائماً ، فلا يتخوف(٣) محسنهم رهقاً ولا مسيئهم عدواناً ، وقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويردع عنه المشركين بها ، فأتاه جبريل ، فقال : يا محمد ، ما هذه الجريدة ؟ اتركها لا تملأ قلوب قومك رعباً ، فما ظنك بمن سفك دماءهم ، وقطع أستارهم ، ونهب أموالهم(٤) ؟ .

يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر(٥) ، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده . فقال له جبريل : إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك .

اعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحته ، فكيف بمن يتقمصه ، ولو أن ذنوباً من صديد أهل النار صب على ماء الدنيا لأحمه(٦) ، فكيف بمن يتجرعه ؟

---

(١) اسألا الله أن يهبكما أنفسكما ويغفر لكما .
(٢) رحمة به .
(٣) ينتقص ماله .
(٤) يعنى بذلك المنصور نفسه .
(٥) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٦) حـوله حميماً أو حمماً .

ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته ، فكيف بمن يسلك فيها(١) ؟ . ويرد فضلها(٢) على عاتقه ؟ .

مقامات الوعاظ أمام المنصور

١ – عابد لم يعرف :

كان المنصور يطوف بالبيت ليلا فسمع قائلا يقول : « اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ،وما يحول بين الحق وأهله من الطمع» فاستدعاه المنصور ، فقال له : لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى ، فطلب أماناً فأمنه . فقال :

« يا أمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت . . إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحراساً معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها . . ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهو ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير إليك ، ولا أحد إلاوله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك . . تجبى الأموال وتجمعها قالوا : هذا خان فمالنا لا نخونه ، فأتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس إلا ما أرادوا . . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم . . وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت البلاد بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل(٣) » .

---

(١) ينظم ويضم فيهـا .

(٢) ما بقى منهـا .

(٣) انظر هذه العظة كاملة فى عيون الأخبار والعقد الفريد ٣/١٥٩ ، ط لجنة التأليف .

وهى عظة طويلة تصور سوء النظام إذ ذاك ، وسوء سلوك المقربين من الخليفة وحجبهم إياه عن الناس كما أن بها توبيخاً للخليفة وتخويفاً له من سوء حسابه ، وقد تأثر بها المنصور وبكى وقال : ليتنى لم أخلق، ويحك فكيف أحتال لنفسى ، ولكن عندما قام الخليفة للصلاة اختفى الرجل ولم يجده أعوان الخليفة .

وربما كانت هذه العظة مصنوعة ، ولكن صنعتها على هذا الوجه تبدى ما كان يشكوه الناس من احتجاب الحكام عن العامة وإقامة الوسطاء بينهم وبين الناس ، فهم لذلك لا يشعرون بما يعانيه الناس من ظلم الأعوان والولاة .

٢ – عمرو بن عبيد والمنصور :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، وعنده ابنه المهدى. فقال له أبوجعفر هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ورجائى أن تدعو له . فقال : يا أمير المؤمنين : أراك قد رضيت له أموراً يصير إليها وأنت عنه مشغول . فاستعبر أبو جعفر وقال له : عظنى أبا عثمان ؟ ! قال :

يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ! هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك . قال : أبا عثمان أعنى بأصحابك ؟ قال : ارفع علم الحق يتبعك أهله.

ثم خرج فأتبعه أبو جعفر بصرة فلم يقبلها .. وجعل يقول :

كلكم يمشى رويد   كلكم خاتل صيد
غير عمرو بن عبيد

٣ – مع سفيان الثورى :

لقى أبو جعفر سفيان الثورى فى الطواف ، وسفيان لا يعرفه ، فضرب أبو جعفر بيده على عاتق سفيان وقال: أتعرفنى ؟ . قال : لا ، ولكنك

قبضت على قبضة جبار ، وعرفه . فقال له الخليفة : عظني أبا عبد الله . قال سفيان : وما عملت فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت . قال : فما يمنعك أن تأتينا ؟ . قال : الله نهى عنكم ، فقال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » . فسح أبو جعفر يده به ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارا .

* * *

الأجوبة والمحاورات

يراد بالأجوبة ما يأتى منها على البديهة وبدون روية مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ ، وهى تذكر مع الخطب وتلحق بها لأن الخطيب كما ذكرنا قد يقاطع من معارض له أو متحد ، وقد يكون الموقف مما يحتم أن تكون ثم إجابة ، والسكوت عنها يضيع على المتكلم فرصته أو يسقطه من اعتبار سامعيه أو يضيع عليه ما يتطلبه من إقناع من يخطبهم ، والإقناع شىء هام فى الخطبة ، وأكثر ما يتعرض لهذا خطباء المحاكم ، ودعاة الانتخابات ، وربما يتعرض له رجل الدين أيضاً ولكن ليس كثيراً .

وذكر الأجوبة على أى حال فيه تدريب للخطيب ، وفتق للذهن ، وتوجيه إلى ما ينبغى أن يقال وما يناسب المواقف المختلفة ، ثم فيما يذكره من أحداث تاريخية ومناسبات ورد فيها هذا الجواب أو ذاك نوع من الثقافة ولون من المتعة والتفكه . والجواب الحاضر القاطع يتوقف على الذكاء والجرأة جميعاً ، ومن فقد الذكاء أرتج عليه ولم يجد ما يقوله ، ومن فقد الجرأة تلجلج واضطرب ، وإلى جانب هاتين لابد من المقدرة الكلامية التى تمكن الشخص أن يصوغ كلامه تلقائياً وبدون معاناة فى عبارة جذابة طلية ، وبتعبيره الموجز الرصين يؤثر فى سامعيه ويكتسب ميلهم نحوه ، وقد وصف ابن عبد ربه هذه الأجوبة بأنها « أصعب الكلام كله مركباً ، وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكاً » .والأمر كما ذكر ، وقد وضحه بأن المجيب عليه أن ينقض فى لحظة وبكلمات موجزة ما أعده له خصمه ، وحبر عبارته ، وأطال تفكيره فيه ، وهذه الإجابة موقوفة على لحظتها ، فإذا لم توات صاحبها فى حينها علمت فائدتها ، والعرب يقولون : شر الرأى الدبرى(١) ، وهو الذى يأتى بعد فوات الفرصة .

---

(١) الدبرى بسكون الباء وفتحها .

وعلى المجيب على أى حال ألا يسرع كل الإسراع ولا يبطىء، ولكن أهم ما يجب له ألا يصدم وألا يرتبك أو يظهر كبير اهتمام ، فإذا عز عليه الجواب السريع أغضى عنه واستمر فى كلامه ريثما يجد ما يدفعه به ، ثم يعرض له بشىء من السخرية والاستخفاف ، وهو فى هذه الحالة لا يؤدى ما يؤديه الجواب السريع ، ولكنه تخلص بوجه ما . والأجوبة الناجحة ، ذات الأثر فى موقفها تعين المتدربين على الخطابة لأنها تفيدهم فى بعض مواقفهم أحياناً للتفكهة وأحياناً للتدرب على التخلص من المآزق ، وكثير منها طرف تتفرج بها النفس ، ويستريح لها الخاطر المكدود ، والقلب المهموم . وننقل هنا أطرافاً منها لهذه الأغراض ، وبعض هذه الأجوبة تكون إشارة لحادث سبق أو شعر قيل ، أو نكتة لاذعة ، أو غفلة مخزية ، وفى هذه الحالات لا يفهم سامع الإجابة أو المحاورة مغزاها إلا إذا عرف ما تشير إليه من هذه الأشياء .

قال ابن عبد ربه : « وأحسن الجواب ما كان حاضراً مع إصابة معنى وإيجاز لفظ » . وقيمة هذه الأجوبة أنها توضح ما يدحض به المجيب على بديهته ما دبره السائل على رويته ، وقد يبهت المتكلم الأول لهذه الإجابة ، وقد يتماسك ويظهر تبلداً حتى لا يخجل أو يضحك السامعين منه .

أما إطالة صاحب العقد فى محاورات وأجوبة بنى أمية وبنى هاشم فلأنها صور من التاريخ يجمل بالمتأدبين أن يعرفوها .

واشتهر فى العرب أشخاص مشهورون بالإجابة المفحمة والرد السريع على البديهة ، وكانت قريش من القبائل المشهورة بالإجابة ، ووصفهم القرآن بأنهم قوم خصمون ، واشتهر منهم بها أبو الطفيل عامر الكنانى ، وعثمان بن عفان . وكان يقال : اتقوا جواب عثمان ، واشتهر بالإجابة والفكاهة أبو العيناء ، وبالإجابة الفلسفية أبو الهذيل العلاف .وبالإجابات الجريئة والحكيمة الأحنف بن قيس ، وهاك طرفاً من الأجوبة والمحاورات .

— ١ —

كان أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى من المتشيعين إلى على بن أبى طالب وكان من شعراء الصحابة المجيدين ، وكان من المعمرين . ولد عام أحد ، ومات بمكة سنة مائة ، وهو آخر الصحابة . ومن شعره :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت على ولكن شيبتنى الوقائع

دخل على معاوية مرة فجرى بينهما هذا الحوار .

قال له معـاوية :

— كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ .

— كوجد أم موسى على موسى . وأشكو إلى الله التقصير .

— أكنت فيمن حاصر عثمان ؟ .

— لا ، ولكنى كنت فيمن حضره .

— فما منعك من نصره ؟ .

— وأنت ما منعك من نصره إذ تربصت به ريب المنون ؟ وكنت مع أهل الشام ، وكلهم تابع لك فيما تريد ؟ .

— أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟ .

— بلى ، ولكنك كما قال الشاعر :

لا أعرفنك بعد المـوت تندبنى وفى حيـاتى ما بلغتنى زادى

فسكت معاوية .

— ٢ —

قال معاوية لعمرو بن العاص : ما أعجب الأشياء ؟ .

قال عمرو : غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه .

قال معاوية : أعجب من ذلك أن يعطى من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبـة .

ووأضح أن عمراً يعرض بمعاوية أن غلب علياً وعلى صاحب حق ، ومعاوية يعرض بأخذ عمرو مصر طعمة ، وهى ليست حقاً له .

— ٣ —

ولى الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة على مصر ، ثم عزله عنها ، فقدم إلى دمشق ومعه إبل محملة وأمتعة كثيرة . فقال الوليد : أيتها العير إنكم لسارقون . فقال مسلمة : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

— ٤ —

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية ، فقال معاوية لأصحابه :

— هذا عقيل ، عمه أبو لهب .

فقال عقيل : وهذا معاوية ، عمته حمالة الحطب (وكانت جميلة زوج أبي لهب أخت أبي سفيان بن حرب) . ثم قال عقيل له : إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمى أبا لهب مفترشاً عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير : آلفاعل أم المفعول به .

— ٥ —

قال معاوية يوماً لعقيل :

أنا خير لك من أخيك على .

فأجاب عقيل : صدقت ، إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك .

— ٦ —

قال رجل من أنصار معاوية لعقيل هذا :

— إنك لخائن حيث تركت أخاك ورغبت إلى معاوية .

فأجاب عقيل :

ـ أخونُ منّي (والله) من سفك دمه بين أُخي وابن عمي أن يكونُ أحدهما أميراً .

— ٧ —

دخل عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر على رسول الله ﷺ. فقال لعمرو : أخبرني عن الزبرقان ؟ فقال : شديد العارضة ، مانع لحوزته ، مطاع في قومه .

قال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم مني أكثر من هذا ، ولكنه حسدني .

فقال عمرو : أما والله يا رسول الله إنه لزمن(١) المروءة ، ضيق العطن(٢) ، أحمق الوالد ، لئيم الخال . فرأى الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله. فقال :يا رسول الله،رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية .

فقال النبي ﷺ : إن من البيان لسحراً .

— ٨ —

قال ابن الزبير لابن عباس : قاتلت أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ . وأفتيت بتزويج المتعة . فقال ابن عباس : أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالك(٣) . وبنا سميت أم المؤمنين ، وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنها . وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان مؤمناً فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة ، فإن علياً رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ رخص

(١) الزمن الذى به مرض مزمن لا يصح . أي هو مريض المروءة لا ينفع الناس بشيء .
(٢) العطن : مبرك الإبل . وضيق العطن : كناية عن البخل .
(٣) يريد الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر .

فيها فأفتيت بها ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر(١) سطع في المتعة مجمر آل الزبير .

— ٩ —

ذكر الحسن بن علي عند معاوية ، وابن الزبير عنده . فقال معاوية : إن يطلب الحسن هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن هو فوقه ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا تعطفه قرابة ولا ترده مودة ، يسومكم خسفاً ويوردكم تلفاً(٢) .

قال ابن الزبير : إذا والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور(٣) كرجل الجراد حافاتها الأسل ، لها دوى كدوى الريح ، تتبع غطريفاً(٥) من قريش لم تكن أمه براعية ثلة(٦) .

قال معاوية : أنا ابن هند أطلقت عقال الحرب ، وشربت عنفوان المكرع(٧) ، وليس للآكل إلا الفلذة(٨) ، ولا للشارب إلا الرنق(٩) .

— ١٠ —

قال الحسن بن علي لحبيب بن مسلمة الفهري(١٠) : رب مسير لك

---

(١) المجمر الإناء : يوضع فيه النار للتدفئة والبخور ونحو ذلك . يريد أنكم أول من عمل بالمتعة .

(٢) تعريض من معاوية بابن الزبير .

(٣) تضطرب ، ورجل الجراد جماعاتها . (٤) الرماح .

(٥) سيدا ماجداً . (٦) واحدها أثلة : شجر ترعاه الماشية .

(٧) المكرع : اسم مكان من كرع يكرع إذا شرب بفيه من الماء ، ومعاوية يريد : شربت كثيراً وعلى سعة .

(٨) القطعــة .

(٩) المكدر المخلوط بالطين . يريد تمتعت بالنعم الواسعة حين كان غيري محروماً . وانظر هذه الحادثة في العقد الفريد ٥/١٠٤ . والبيان والتبيين ٢/٩٢ . فهناك اختلاف يسير بينهما .

(١٠) هو أبو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك ، كان شجاعاً له جهاد كثير ضد الروم حتى سمي حبيب الروم . مات في خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ . الإصابة ، ط ١٥٩٥ .

فى غير طاعة الله . قال حبيب : أما مسيرى إلى أبيك فلا . قال : بلى ، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة ، فلئن كان قام بك فى دنياك لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت شراً قلت خيراً كنت كما قال الله عز وجل : « خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » . ولكنك كما قال الله : « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

— ١١ —

قدم عبد الله بن جعفر (١) ، على عبد الملك بن مروان ، فقال له يحيي ابن الحكم : ما فعلت خبثة (٢) ؟ فقال : سبحان الله ! سماها رسول الله (ﷺ) طيبة ، وتسميها أنت خبثة ! لقد اختلفتما فى الدنيا وستختلفان فى الآخرة ، قال يحيي : لأن أموت بالشام أحب إلى من أن أموت بها ، قال عبد الله : اخترت جوار النصارى على جوار رسول الله (ﷺ) . قال يحيي : ما تقول فى على وعثمان ، قال : أقول ما قاله من هو خير منى (٣) فيمن هو شر منهما : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »

— ١٢ —

قال معاوية لابن الزبير : تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى ، قال : لم لا أكون أحق به منك وقد اتبع أبى رسول الله (ﷺ) على الإيمان ، واتبع الناس أباك على الكفر .

قال معاوية غلطت يابن الزبير ، بعث الله ابن عمى نبياً فدعا أباك فأجابه فما أنت إلا تابع لى ضالا كنت أو مهدياً (٤) .

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .
(٢) يريد طيبة ، وهو اسم المدينة المنورة .
(٣) يريد نبى الله عيسى عليه السلام .
(٤) كان هذا هو الأسلوب الذى يحارب معاوية ابن الزبير به ، إذ يقول له : إنهم ليسوا من صميم قريش . واكتسبوا المجد باتصالهم ببنى هاشم ، السيدة خديجة صارت أم المؤمنين بزواجها من رسول الله ، والزبير شرف بأنه ابن عمته . وهكذا له معه محاورات كثيرة كلها تدور على هذا المحور .

جلس جماعة من الأمويين عند هشام ، وكان فيهم العباس بن الوليد ، فذكروا الوليد بن يزيد (١) ووصفوه بالحمق ، وكان هشام يكرهه ، فلما دخل الوليد قال له : كيف حبك للروميات ؟ قال إن أباك كان بهن شغوفاً ، قال : إنى لا أحبهن. قال: كيف لا يحببن وهن يلدن مثلك (٢) ؟ قال العباس : اسكت فلست بالفحل يأتى عسبه (٣) مثلى ! .

قال له هشام : ما شرابك ياوليد ، قال : شرابك يا أمير المؤمنين ، ثم خرج فقال هشام لجلسائه : هذا الذى تزعمون أنه أحمق ! .

— ١٤ —

قال ثابت بن عبد الله بن الزبير :إنى لأبغض أهل الشام ، فقال له سعيد ابن عمر بن عثمان : تبغضهم لأنهم قتلوا أباك ، قال صدقت : ،لكن المهاجرين والأنصار قتلوا أباك .

— ١٥ —

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه : ما ترون فيها ؟ قالوا : اقتلها ، فقالت له : كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك ؟ قال الحجاج : ومن صاحبي؟ قالت فرعون : استشار وزراءه فى موسى فقالوا :أرجه وأخاه .

— ١٦ —

أتى زياد برجل من الخوارج فقال له : ما تقول فى ونى أمير المؤمنين ؟

---

(١) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، تولى الخلافة بعد هشام سنة ١٢٥ . وأمه من ثقيف بنت محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف ، وكانت تدعى أم الحجاج ، وكان هو يكره آل المهلب ، وكان ماجناً محباً للهو والطرب والشراب وسماع القيان .

(٢) كانت أم العباس رومية .

(٣) العسب : ماء الفحل .

قال : أما الذى تسميه أمير المؤمنين فهو أمير المشركين ، وأما أنت فما أقول فى رجل أوله لزنية وآخره لدعوة (١)

— ١٧ —

لقى عثمان بن عفان على بن أبى طالب ، فأخذ يعاتبه فى شىء بلغه عنه ، فسكت على ولم يقل شيئاً . فقال له عثمان : مالك لا تجيب ؟ قال على : ليس لك عندى إلا ما تحب ، وليس جوابك إلا ما تكره .

— ١٨ —

قال معاوية مرة : أيها الناس . إن الله فضل قريشاً بثلاث، قال لنبيه (ﷺ) : وأنذر عشيرتك الأقربين ، فنحن عشيرته ، وقال : وإنه لذكر لك ولقومك ، فنحن قومه ، وقال : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ونحن قريش ! فأجابه رجل من الأنصار: «قائلا على رسلك، إن الله يقول : وكذب به قومك وهو الحق . وأنتم قومه . ويقول : ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وأنتم قومه ، وقال الرسول (ﷺ) : يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وأنتم قومه : ثلاث بثلاث ، ولو زدتم زدنا » .

— ١٩ —

كان بلال ابن أبى بردة كثير الفخر بجده موسى الأشعرى وكان الفرزدق الشاعر يغيظ بذلك ، فتحدث بلال مرة عن جده فقال الفرزدق :

— يكفيه فخراً أنه حجم رسول الله .

— لكنه لم يحجم أحداً قبله ولا بعده .

— لا ، لقد كان أبو موسى أعقل من أن يجرب يده فى رسول الله .

فانقطع بلال ولم يفخر أمام الفرزدق .

(١) أوله اتصال أبى سفيان بسمية حراماً ، وآخره ادعاء معاوية أنه أخوه .

الخاتمة

أخى الداعية الإسلامى :

جمعت لك هذه المعلومات على عجل ، وألفت بينها ورتبتها ترتيباً آمل أن تجد فيه عوناً وسهولة لدرس ماكتبت لك .

وضعت لك أول الكتاب أطرافاً من قواعد الخطابة وأسس تكوينها ، وبصرتك بطريقة تأليف الخطبة وطريق إلقائها ، ووضعت لك فى هذا من الأمثلة وعرضت من المواقف ما أرجو أن تجد فيه عوناً كبيراً على النجاح فى خطبتك ثم النجاح فى مهمتك ، وهى الدعوة الإسلامية . إن مهمتك مهمة شاقة ولا ريب ، ومشقتها تحتم عليك أن تستعد لها عدة كافية ، وألا تغشى ميدانها إلا وأنت مسلح بكل الأسلحة التى تخوض بها مثل هذه المعركة، وأهم أسلحتك طلاقة لسانك ، وحسن تعبيرك ، وإصابتك قلب الموضوع الذى تتعرض له، وما قدمته لك من هذا خليق أن يدربك ويخرجك حتى تكون خطيباً ناجحاً ، إن شاء الله تعالى .

سئم الناس من زمن بعيد هذه العبارات المكرورة ، والموضوعات المعادة وأصبحوا يطلبون من الخطيب الدينى شيئاً جديداً ، يمس حياتهم ولا ينقطع عن ماضيهم ، يردهم إلى قواعد الدين فى رفق ، ويعرفهم مزايا هذا الرد فى الآخرة والأولى جميعاً ، وأنت تعلم أن حياة الناس رغم تجدد مظاهرها ومستحدثات آلاتها ، هى صورة واحدة من تصارع الغرائز واضطراب النفوس وغليان الأحقاد ، وأنت تواجه هذا الأتون المضطرم ، لكى تطفىء ناره المتقدة وتعيدها برداً وسلاماً ، وسواء فى هذا كسر العصا أو

تحطيم المدفع أو خلع أنياب الأسد وقص أظافره ، كل ذلك يرجع إلى شيء واحد أساسي ، هو إطفاء ثورة الغريزة ، وتخفيف حدة الأحقاد ، وإشاعة روح المودة والإخلاص .

أنت — ياخطيب المسجد — أشد فاعلية فى نفوس الجماهير من رجل البوليس الحاكم ، ورجل المباحث المستطلع ، والوزير الآمر . . دع عنك رجل المحاماة ووكيل النيابة ومن إليهما .

رجل البوليس فى كثير من الأحيان لا يزيد على شن حرب داخلية بينه وبين المجرمين ، والناس فى أكثر مواقفهم يهابونه ولا يحبونه . أما أنت فإنك تقتلع جذور الشر من نفس المجرم ، وتبعث فى نفسه خشية الله وحب الحق والعدل ومعاونة الناس والتخلى عن شيء من حقوقه مرضاة للآخرين ، فأنت توفر على رجل البوليس والقائم على أمن الدولة جهداً كبيراً ، وأعمالا شاقة وإن كانوا لا يشعرون ، إن الناس لا يخافونك ولكنهم يجلونك ويحبونك ، إن ميدان عملك هو إصلاح الضمائر وإيقاظ العواطف النبيلة فى نفوس الناس ، فعملك هو نفخ الروح فى الأجساد ، وبث الحياة فى الرمم ، وكيف يكون الإنسان إنساناً متميزاً عن عجم الحيوانات إلا بروحه وضميره ، وسمو نفسه واستقامة سلوكه ؟

وجهادك فى هذا الميدان يكسوك من البهاء والشرف ما يرفعك فوق الحكام وغير الحكام ، أنت تحاول بناء الضمائر الحية والنفوس العالية : فتبنى بذلك أمتك وترفع مستوى مواطنيك ، فاجعل عملك فى هذا لله وحده وارج منه وحده مثوبتك وجزاءك ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ما أردت بهذا إطراءك وإنما أردت أن أنبهك إلى مشقة عملك وثقل رسالتك ، وما تتطلبه منك من تكوين وحسن استعداد ، إن رسالتك هى رسالة الأنبياء والقديسين ، وما قام أحد بشيء من هذا إلا أوذى وعودى ،

ولكن حسبك أن تكون مقبولا عند القلة ومرضياً عنك من الله رب العالمين ؛ وبقدر ما تحصل من علم . وتتدبر ما تقرؤه من قواعد وأحداث تسمو نفسك أولا ، وتنجح رسالتك ثانيا . فاحرص بقدر ما تستطيع على سمو النفس ونجاح الرسالة جميعاً ، وسبيلك إلى هذا هو نيل العلم من شتى معادنه وبكل وسائله ، وأذكرك بالحكمة الغربية « الجهل لعنة الله أما العلم فهو الأجنحة التى تسمو بها إليه » .

جمعت لك فى هذا الكتاب – بعد درس الخطابة – فنوناً مما يتصل بها ويعين عليها – وصايا ومناظرات وأجوبة ومجالس وعظ . . . وليس شىء منها بعيداً عن الخطابة ولا ضئيل الأثر فى العون عليها ، واقتطفت لك لمعاً من أحداث التاريخ الإسلامى تجد فيها لك مدداً وتبصرة وعبرا .

قلت لك إن حياة الناس صورة معادة ، فإن أحداث اليوم هى أحداث الأمس ، وإنسان الغابة هو إنسان المدينة ، غير أن أحدهما يحارب بحجر والثانى يرمى قنبلة ، والأول يقتل شخصاً أو اثنين والثانى يقتل مئات من الناس ، والشخص القوى فى الغابة يستولى على مرعى أو بئر ماء أما الشخص القوى الممدن فإنه يستولى على قطر بأكمله ، ويأكل طعام شعب أو عدد من الشعوب ، ولو نجح الدعاة المصلحون فى تهذيب الغرائز والتسامى بها كما نجح الماديون فى التسامى بالمبانى واختراع المهلكات لتحولت حياة الناس إلى شىء آخر غير ما هم عليه الآن .

وأنت إذا رجعت إلى تاريخنا الإسلامى ، وتموجات أحداثه ، وتقدم المسلمين مرة وتراجعهم مرة أخرى وجدت هناك عنصراً واحداً يكاد يكون عاملا مشتركاً فى كل هذه الأحداث وبين كل شعوبنا فى مختلف العصور ، ذلك العامل هو صلاح الضمائر تارة وفسادها تارة أخرى ، ودستورنا القرآنى إنما يعنى بإصلاح الضمائر والقلوب ، وأنت حين تقولها كلمة عابرة « إنما فسد

المسلمون حين تخلوا عن القرآن » ، يعتبرها سامعوك كلمة معادة ، أو عبارة مبتذلة ، لكنك إذا أيدتها بأحداث التاريخ وواقع الشعوب وجدت ووجد سامعوك دليلا مقنعاً وحجة لا تحتمل الجدال .

هذا الكتاب صديقك وسميرك ، ليس من الحتم أن يقرأ كله فى عام دراسى ، ولكن أرى من الحتم أن تقرأه أنت كله ، وستجدك بعد قراءته فى حاجة إلى قراءة المراجع التى اعتمدت أنا عليها واقتبست منها . وحسبى أن أوقظ فى نفسك رغبة القراءة والمزيد من الاطلاع ، وليست قراءة النماذج التى قدمت لك هينة الأثر فى رفع أسلوبك الأدبى وتفكيرك العقلى ، وإمدادك بالرأى والتعبير ، ولكنك بقدر ما تقرأ وتدرس منها تجدك بحاجة إلى المزيد من الدرس والقراءة ، أو بعبارة أخرى تجدك قد تساميت فى نفسك وأسلوبك وتفكيرك . فإذا انبعث أفراد من قرائى إلى هذا الحد فحسبى أن أكون قدمت شيئاً ما أتقرب به إلى الله تعالى .

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، فإن كان به ما يشوبه من حب الدنيا فتجاوز عنى بفضلك وكرمك ، وكل مثوبة منك – يارب – وإن قلت هى فيض وبر ورحمة وسعة عطاء .

اللهم عاملنا بفضلك ورحمتك ، واعف عنا فيما نرتكبه من خطايا وأخطاء ربنا عليك توكلت وإليك أنبت وأنت حسبى ، منك العون وإليك المصير .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى خير من دعا إلى الله وخير من هدى إلى صراط الله المستقيم .

والحمد لله رب العالمين

العبد الضعيف

عبد الجليل شلبى

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

مطبعة التقدم
ت : ٨٤١٤٢١

رقم الإيداع ٣٦٥٦/٨٢

